«ما نحل والد ولده من نحل (١) أفضل من أدب حسن»
(حديث شريف) (١) النحل العطية والهبة

«لاعب ولدك سبعا وأدبه سبعا وصاحبه سبعا ثم اجعل الحبل على غاربه»
(حكمة عربية)

كتاب

التربية الاستقلالية

أو

إميل القرن التاسع عشر

﴿ لمؤلفه ﴾

ألفونس إسكيروس

« وترجمه بالعربية عن الفرنسية »

عبد العزيز محمد
المستشار بمحكمة الاستئناف الأهلية

طبع بمطبعة السعادة بجوار محافظة مصر
سنة ١٣٤٣ — ١٩٢٥

مقدمة المترجم للطبعة الاولى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى علم بالقلم ، علم الانسان مالم يعلم ، والصلاة والسلام على ينبوع الحكمة ، ونبي الرحمة ، الذى أدبه ربه فأحسن تأديبه ، وأتم له من مكارم الاخلاق وجلائل الشيم نصيبه ، فصارت سيرته المحمودة أكمل مثال للمربين ، وأفضل هدى للمرشدين ، وعلى آله وأصحابه الهادين المهتدين

أما بعد فقد مضت سنة الله سبحانه فى الانسان أن يخلق عاجزاً جاهلا محتاجا الى الكافل الذى يحوطه برعايته . ويقيمه على الصراط السوىّ فى معيشته . ثم يتدرج فى القدرة والعلم حتى يبلغ ما أعد له من الكمال الحسىّ والمعنوىّ بحسب استعداده . وعلى مقدار عناية قيمة بتربيته

من أجل هذا تفاوتت درجات الناس تفاوتا عظيما فى القدرة والعجز والعلم والجهل ، وتنوعت آثار هذه الصفات فيهم تنوعا لايحده وصف ولا يشمله حصر ، وتبع ذلك اختلاف الامم بالترقى والتدلى والعزة والذلة

فمن أمة عنيت بتربية أبنائها وتهذيب أخلاقهم و تثقيف عقولهم وانشائهم أحراراً عشاقا للعلم يخدمونها ويخدمونه مختارين كما يخدمون أنفسهم،فأشرقت فى ربوعها شمس العلم ، وكشفت لها الحجاب عما سخر لها من قوى الكون ، فاستخدمتها فى حاجاتها وحاجات نظرائها ، واستعانت بها فى تحسين أحوالها وتر فيه معايشها

لان لها الحديد على صلابته وشدة بأسه فاتخذت منه سجناً حصيناًلعدوين متعاندين هما الماء والنار ، فكان من كفاحهما فيه أن تصاعدت زفرات الماء وغلت مراجل غيظه ، فالتمس الخلاص فلم يسعه الا أن طار بسجنه ، فكان

ذلك سبباً لاستعمال هذه القوة الفائقة فى طى المسافات السحيقة ، وتقريب الامم المتنائية ، وكسر نخوة البحار والتخفيض من غلوائها ، بامتطاء ظهورها وشق احشائها ، والاخذ بشكائمها . نعم وفى تحريك دواليب الصناعات المختلفة تحريكا خفف من أوصاب الصناع ومتاعب العمال ، وغمر أسواق التجارة بضروب المصنوعات البديعة فأصبح الفقير شريكا للغنى فى الاستمتاع بها ، بعد أن كان محروماً منها ، واتخذت لها من الحديد أيضا قذافات للموت ، جلابات للدمار والخراب ، لا تردها شجاعة الشجعان . ولا تغنى منها مصاولة الفرسان . فملكتها نواصى الاعزاء . وبسطت لها السلطان فى جميع الارجاء

لفتها قصيف الرعد ووميض البرق وغيرهما من آثار القوى الكونية التى طالما مر عليها من غبروا من أجيال البشر وهم عنها معرضون فحدست أن فيها قوة عظيمة لم تخلق سدى . وأنها لو ملكت تصريف زمامها لاستفادت منها ما استفادته من البخار . فانبرى طلاب الحقائق من أبنائها الذين اثمرت فيهم التربية الصحيحة للبحث عنها فى مكامنها . وما زالوا يصلون الليل بالنهار فى تتبعها . حتى اهتدوا الى ينابيعها وجمعوا شتاتها بعد ان كانت شعاعا هملا . وحصروها فى سبل ضيقة لاقبل لها بتعديها . ثم ألقوا مقاليدها الى الامة فكان من تصريفها فى مرافق الانسان ومنافعه ما ترى من الآيات الكبرى على كمال قدرة الخالق وسعة امكان عقل المخلوق : رعدة تحيل الماء هواء . وتقلب الليل نهارا . ونبض أقرب من لمح البصر . يصير تارة مناجاة كتابية بين مطوحين فى مطارح الغربة . تستنجز بها الامور وتقضى بها المآرب . وطوراً يكون مخاطبة شفوية تميز فيها أصوات المتخاطبين على ما يكون بينهما من بعد الشقة . وكرة تدفع جاريات تطير طيرانا على سطح الارض مقلة ماشاءت أن تقل من الناس والمتاع .

ولو رحت أعدد لك آثار التربية المثلى والعلم النافع فى الامم الراقية لاحتجت فى تفصيل ذلك الى مجلدات فأجتزىء عنه بما لمحت اليه تلميحاً

وامة اخرى لم تبلغها دعوة العلم ولا رأت آثار التربية فى غيرها . فلازمت حالتها الفطرية . ومعيشتها الوحشية . فكان ذلك مدعاة الى وقوف نمو العقل فى ابنائها وانمحاء ما فيهم من ضروب الاستعداد . وكان مصيرها خسران وجودها الذاتى وفناؤها فى غيرها من الامم الحية

وامة ثالثة خلقت مستعدة للرقى وسارت فى سبيله شوطاً بعيداً بما نشأت عليه من الحرية . وتحققت به من أصول التربية الدينية الصحيحة . فنالت فى الزمن اليسير من العزة والمجد وبسطة السلطان ما لم ينله غيرها من الامم فى الزمن الطويل

وباها مرشدها الاكبر بسيرته السنية على حب العدل . والايفاء بالعهود وانفاق الاموال فى وجوه الخير . والتآخى فى نصرة الحق . والترفع عن سفساف الامور . واوجب طلب العلم من المهد الى اللحد على افرادها نساء ورجالا غير مخصص علماً بعينه . فنبغ فيها رجال لم تسمح الايام بنظرائهم ولن تلد الوالدات امثالهم ـ منهم من ساسوا الرعية أفضل سياسة لم يشهدها التاريخ فى غيرهم من السواس . حرموا انفسهم فيها من ملاذ العيش . وصبروها على مصلحة الناس . وحاسبوها على القيام بها اشد محاسبة ـ ومنهم من قادوا الجيوش وفتحوا البلاد ودوخوا اكبر دول الارض لمهدهم مع تمام العدل فى معاملة المغلوبين وبذل الامان للمستأمنين ـ ومنهم العلماء والحكماء الذين صدقت عزائمهم فى طلب الحقائق فلم يدعوا باباً من ابواب العلم الا دخلوه على ما كانوا يلاقونه فى ذلك من صعوبة التحصيل . لندرة الكتب وتباعد معاهد التعليم . يشهد لهم بذلك ماخلفوه من آثارهم التى تزدان بها دور الكتب فى معظم البلدان ـ ومنهم مهرة الصناع الذين أقاموا من معالم الحضارة مايحكم لهم بالتبريز على مناسبيهم ويوجب لاخوانهم حق المفاخرة بهم •

وا أسفى على هذه الامة . أسف يمضع النفس أسى • ويذيب القلب حسرة ما لبثت ان بطرت معيشتها وكفرت بأنعم ربها • فوجد عليها الزمان . واتنابتها

نوائب الحدثان . طال عليها أمد هداية الدين . وبعد عنها عهد المرشدين . فقست القلوب وفسدت الاخلاق . واستحكمت علة الترف من النفوس . فملكها الطمع . وتولاها الحسد . ومنيت بالحكام المستبدين . والامراء الغاشمين . فرقوا وحدتها . وملكوا عليها أمرها . وصرفوها فيما تهوى انفسهم فاستحالت حريتها رقا . وانقلب عزها ذلا . وعدلها ظلما . وأنسها بالعلم وحشة .

لم يغب سوء حالها عمن يجاورونها من الامم القوية . بل كانوا يراقبونها مراقبة الصائد الذى يتحين الفرص لصيده . وما عتموا أن ناصبوها العداوة وكادوا لها المكايد . فوقع معظم بلادها فى قبضتهم . وتغلغلوا فى أحشائها وأصبحوا لها حكاماً يديرون شؤنها على حسب ماتقتضيه مصالح بلادهم . وفتحوا عليها أبوابا من الترف وفساد الاخلاق ألهتها عن الشعور بألم العبودية . وصرفتها عن النظر فى مصالحها القومية

لم يصبها كل ذلك الا من عدم محافظتها على حريتها باغفالها التربية الصحيحة وهجرها العلم النافع .

واذا كان هذا شأن التربية فى رفع الامم وخفضها ، كان حقا على العقلاء من كل أمة أن يعنوا بها ويفكروا فى الوصول اليها من أقوم طرقها ، ويبينوا اصولها ، ويدونوا فيها الكتب النافعة ويحثوا قومهم على الاخذ بما فيها . وقد خرج من عهدة هذا الحق علماء الامم الحية فى أوربة وأمريكة فوضعوا من قواعدها ماظهرت آثارها فى أقوامهم ، وأكسبتهم حسن الذكر فى بلادهم ، وغفل عن ذلك غيرهم من خواص الامم التى تتنازعها الحياة والموت لغلبة القنوط عليهم ، فلم يوجد لديها من الكتب الحديثة فى موضوع التربية الا بعض رسائل لاغناء بها فيه .

كان الاستاذ الشيخ محمد عبده طيب الله ثراه برا بقومه غيورا على حياتهم ، حريصا على ايقاظهم من سبات الجهل ، وانهاضهم من حضيض الذل ، فكان دائم التصفح لما كتبه الاوربيون والامريكيون فى التربية والحكمة . وكان من كثرة اهتمامه بالتربية ان ترجم فيها كتابا مفيدا للحكيم الانكليزى

هربرت سبنسر . غير انه لم يتسع وقته لتصحيحه وتهذيب ترجمته ونشره فبقي كما هو . وقد وقع له كتاب آخر فيها عظيم النفع لمؤلف فرنسي اسمه (الفونس أسكيروس) فأعجب بما فيه من الافكار الصحيحة والمعاني الشائقة. فعهد الىّ بترجمته ونشره تدريجا في مجلة المنار الجليلة . فوفقت للايفاء بعهده مساعدة له على ماكان بسبيله من خدمة المصلحة العامة . وقياما ببعض المفروض علىّ منها . فالكتاب اذن أثر من آثار سعيه في ترقية بلاده . ويد من أياديه الكثيرة عند قومه التي شكرها له منهم الشاكرون . وعرف له بها فضله العارفون . أجزل الله له المثوبة على حسن مقاصده وغمره برحمته واحسانه على مجاهدته في اعلاء شأن أمته .

هذا الكتاب الذي أتقدم بترجمته لقراء العربية يرمى مؤلفه الى غاية واحدة هي إنشاء الطفل حرا مستقلا تصدر أعماله وآراؤه عن اختيار وعلم لاعن اضطرار وتقليد . ومن أصوله في التربية أن لاتحشر اليه قواعد العلم حشرا ويرغم على حفظها بل يجعل له الدرس من وسائل التسلية بأن يخلى بينه وبين ماحوله من الاشياء والحوادث ويلفت ذهنه اليها لينتزع منها بنفسه ما تؤديه مراقبتها اليه من العلوم .

تمكن هذا الاصل من نفس المؤلف تمكنا حمله على أن يبعد في تأليفه عن أساليب الكتب التعليمية المعهودة : وضعه على أسلوب يقرب من أسلوب القصص ليكون أشهى للنفوس . وأنفى للملل عن القلوب . تخيل زوجين سمى أحدهما الدكتور إراسم والثاني هيلانة . منيا بالفراق . لأول عهدهما بالاقتران . لاتهام الزوج بجريمة سياسية سجن من أجلها . ولم يلبثا بعد افتراقهما ان أحست الزوجة بالحمل فجرت بينهما رسائل في مواضيع شتى أدمجت فيها أصول التربيـة الصحيحه ادماجا . وسنحت للزوج اثناء سجنه سوانح أفكار . ومرت بذهنه شوارد خواطر . كان يقيدها في جريدته اليومية . فاجتمع للمؤلف من الرسائل والصحف والشذرات المقتطفة من جريدة الزوج هذا السفر الذي وسمه (باميل القرن التاسع عشر) وقسمه

أربعه اقسام سمى كلا منها كتاباً . اولها فى الام وثانيها فى الطفل وثالثها فى اليافع ورابعها فى الشاب .

فأما كتاب الأم فسائله هى :— مايجب عليها مراعاته فى طور الحمل من العناية بصحتها وتوفير عافيتها . وملازمة السكينة والاستقرار والبعد عن كل مايثير انفعالاتها . وترويح نفسها بالمناظر البديعة والمشاهد الرائعة . وبيان ان التربية الأولى من شؤون الامم خاصة ــ وما يجب عليها من العلم بتدبير صحة المولود بعد الوضع وارضاعه بنفسها وتعويده من نعومة اظفاره الاستقلال فى حركاته وسكناته . ووصف ماللنساء الانكليزيات من الفضل على الفرنسيات فى ذلك . وانتقاد طريقة التربية الأولى فى فرنسة . وانتقاد اخلاق الانكليز وخضوعهم لتقاليد اسلافهم .

واما كتاب الولد فسائله هى :— تعريف التربية وبيان الصعوبة فى تحديد زمنى بدايتها ونهايتها . وبيان عمل الام فى الشهور الاولى من حياة الطفل . وانتقاد مايفعله الامهات بأطفالهن فى هذه السن . وبيان أن اول علوم الطفل تأتيه من طرق الحواس وطريقة تربية الحواس . وتأثير المدنيـة فى قوى الحواس . وعمل الأم فى تمرينها . ووجوب تعرف طباع الطفل . وبيان اهمال المربين لهذا الواجب وما يلزم اتبـاعه فى سياسة الطفل . ووجوب لفته الى المحسوسات . وتدريبه على وقاية نفسه بنفسه . وبيان خطأ الوالدين فى حرصهما على انشاء أولادهما على مثالهما فى الطباع والاذواق . وكون هذا هو السبب فى ندرة الرجال المستقلين استقلالا حقيقياً . وبيان ماهيـة الطبع . وهل الارادة خلقية أو كسبية .

وبيان ان مايبديه الطفل فى حال غضبه أو تألمه من الاصوات والحركات لازمة لشفاء ما به . وان الواجب فى حمله على الـكف عنهـا أخذه بالتسلية والتلهية لا بالتسلط والقهر . ووجوب مقاومة التربية لاهواء الطفل الفاسدة وذلك بطريقتين احداهما إلهاؤه عنها والثانية جعله بمعزل عن البواعث المثيرة لها . وضرورة استعمال السلطة فى سياسة الاطفال ووجوب التعجيل بالـكف

عن استعمالها متى تيسر ذلك .

وبيان ضرر قهر الطفل على الامتثال . ووجوب اجتناب تخويفه بالعقوبات الالهية . والخوض معه فى المسائل الدينيه . ووجوب تركها له لينظر فيها متى كبر بفكر خال من المؤثرات . وبيان عدم الفائدة فى أصول علم الاخلاق للاطفال وقلة جدوى القدوة ومطالعة قصص الحيوانات لهم وضرورة استقلال طبع الطفل وتعلمه سير الحيوانات بنفسه .

وبيان الطريق الى تربية المشاعر الباطنة . وبيان ان فى التبكير بالقاء النصائح والمواعظ على الاطفال حطاً من كرامتها . وكيفية تفاهم الام مع ابنها بالاصوات وربما كانت الاصوات أصل اللغات . ووجوب استمداد الام للتربية بالتعلم وتفكر الاطفال • وأصل اللغات وتعليمها لهم . وسوء طريقة المربين فى ذلك وان التفكر مما يتعلمه الطفل . وخطأ المربين فى عنايتهم بالالفاظ دون المعانى وتعويد الاطفال النظر والملاحظة ليتمرنوا على التفكر • وبيان ان الاعمال الصبيانية ليست باطلة برمتها بل منها ما يكون مفيداً • وأنس الطفل بالحيوانات وأنسها به • وتعليل انقطاع تأنس الحيوانات المتوحشة بزوال سذاجه الانسان الفطرية التى كانت تدعوها الى الثقه به . وتأثير الجمال فى الاطفال واحتياجهم الى كثرة التعلم • وتعليمهم الصدق والمواساة والرحمة بالحيوان والعدل فى المعاملة واحترام الزمن بالعمل والممارسة دون الحفظ والتلقى • ووجوب اعتراف المربي للطفل بجهل ما يجهله وانتقاد المربين فى دعواهم العلم بكل شيء امام الاطفال . وانتقاد التعليم الدينى والسياسىّ . وان من شروط التربية أن ينسى المربى ما تعلمه ليستأنف تعلمه مع الطفل . ووجوب التدرج فى تعليم العلوم للاطفال بلفت أذهانهم الى ما حولهم . وانتقاد الكتب التعليمية . وفوائد التصوير والمعارض فى التربية . والتربية والتعليم بالفانوس السحرىّ والتمثيل والمعارض . وتعليم الاطفال الضرب فى الارض ومعرفة جهاتها بالعمل . وتعليمهم الصناعة بما يشترى لهم من اللعب . وتربية خيال الصغير بالقصص والاساطير . وتعليم القراءة والخط والرسم والتدرج الفطرىّ

فى تعليمها . وان الصحة فى تغيير الهواء . وتربية الخيال والذاكرة بمحاسن الغبراء . وتعليم التاريخ الطبيعى بتمثيل الفانوس السحرى . وسرعة تفاهم الاطفال باليسير من الكلم . وتعليم السباحة وتربية العضلات .

وأما كتاب اليافع فسائله هى : — حب الزوجة والولد والوطن . وتعليم المسميات قبل الاسماء • وتربية الذكور مع الاناث وتعليمهما معاً • والتعليم بضرب الامثال • والكلام على الخط الديوانى • وتمرين المتعلمين على الاعمال المادية الشاقة • وما يجب أن تكون عليه التربية • وآثارها اذا كانت كما يجب • وتجلى العلم فى العمل • وانتقاد تعليم اليافعين اليونانيـة واللاتينية واقرانهم كتبهما • والكلام على التقليد والذاكرة • والمؤلفات المفيـدة للناشئين واختيارها • وكون السفر من أركان التربية ، والتربية بركوب البحر وما يتعلم فى السفينة . وشجاعة النساء المحمودة . والتربية بالمعاينة . وفوائد الشدائد • وكون بذل النفس للمحبوب أول الحب . ووجوب الموازنة بين القوى والاعمال ، والتربية بالتأثيرات الطبيعية .

***

وأما كتاب الشاب فسائله هى : — انتقاد حال الطلبة فى المانية ، وبيان حال العلم فيها ، ووجوب نقد الطالب ما يقرأه من أفكار غيره ؛ ووجوب القصد فى الاشتغال بعلوم المعقولات ، وان نفع الامة يحصل بالقيام بالواجب على قدر الطاقه ، ووجوب اختيار الطالب للعمل الذى يشتغل به فى حياته ، وان لا حرية لامة يتكالب شبانها على تولى أعمال الحكومة ، وان الرأى العام لا قيمة له الا اذا كانت الحكومة شورى ، ووجوب أن تكون خدمة المرء لامته لا للجزاء ، والكلام فى الحب وابتدائه وغرور الشبان بالمشوقات ووجوب عدم تداخل الوالدين مع أولادهما فى شؤون الحب ، وترك الفصل فى تمحيص صحيحه من فاسده للتجربة ، والكلام على المدرسة الجامعة فى المانية ، والاستقلال فى العلم ، وفلسفة الخلق والتكوين والاجتماع والمدنية ، ووجوب الاعتماد على البراهين العقلية دون الخطابة ، وحب الوطن ، ووجوب

أن يكون للشاب المتعلم رأى فى سياسة بلاده ، وان تربية الرجال الاحرار تجتث بها جراثيم الشرور المحزنة للامة .

هذه هى أقسام الكتاب ومقاصده وأمهات مسائله أجلتها للقارىء اجمالا حتى اذا قرأها حركه الشوق الى استشفافها فى مواضعها منه فحصل الفائدة المقصودة لمؤلفه ومترجمه ان شاء الله .

لم يعن المؤلف بتلقيب مباحث كتابه فاضطررت الى أن أضع لها ألقابا استنبطتها من سياق كل مبحث وشاركنى فى وضعها الاستاذ الفاضل السيد محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار الاسلامية عند نشر الكتاب فى مجلته كما انه حفظه الله كان يصحح ما كان يعثر عليه من الاغلاط وأنا شاكر له هذا الصنيع .

حرصت غاية الحرص على عدم التصرف فى الترجمة وقوفاً بها عند حد المعانى التى قصد المؤلف أن يعرضها على قومه ، وتحاشياً ان يتسرب اليها بالتوسع ما ليس مقصوداً له ، وهذا هو سبب ما يجده القارىء فى بعض المواضع من عجمة الاسلوب ، ولم أشذ عن هذا الا فى تعبير لفظ الطبيعة بلفظ الجلالة أو الفطرة مراعاة لعرف التخاطب بين المتكلمين بالعربية .

للمؤلف رأى فى التعليم الدينى مبنى على أحوال خاصة بالمكان الذى عاش فيه ، والقوم الذين نشأ بينهم لا محل لذكرها هنا ، فلا اعيبه عليه ولا اوافقه فيه ولاسيما ان فى مطاوى هذا الموضوع وفى موضوعات اخرى مغامز تبين عن سوء عقيدته وذلك الرأى هو : أن لا يتكلم مع الصبى فى شىء من الدين فى صغره ، وأن يتربص به حتى يكبر ويدرس المذاهب الدينية بنفسه ، فيعتقد منها مايشاء . ويكفينى هنا ان أقول ان كثيراً من أبناء من يشايعونه فى رأيه لا يبلغون سن الشباب حتى تحتوشهم اهواؤهم عن النظر فى الدين ، وتصرفهم شهواتهم عن اتباع هدى النبيين ، فينبذوا الدين وراء ظهورهم ويفشو فيهم الالحاد ، وما ينجم عنه من الاباحة والفساد ، كما هو مشاهد معروف

وعندى انه لا شىء امثل فى هذه المسألة من اتباع هدى الدين نفسه

ومن الخطل فى الرأى ان يؤخذ فيها بقول غير المتدين .

بدات بترجمة الكتاب فى اليوم الرابع من جمادى الآخرة سنة ١٣١٧ هـ الموافق لليوم التاسع من اكتوبر سنة ١٨٩٩ م وفرغت منها فى اول جمادى الآخرة سنة ١٣٢٤ هـ الموافق للثالث والعشرين من يوليه سنة ١٩٠٦ م . ومعذرتى فى ذلك الابطاء المفرط انى انما اختلست الساعات التى قضيتها فى ترجمته اختلاسا من أوقات فراغى من عملى القضائى ، وقد كانت هذه الاوقات كثيرة تسع أضعاف هذه الترجمة لولا انى كنت كثير الضن بها على صرفها فيما ينفع كثيرى من الناس فى مصر .

كنت أحسب ان نشر الكتاب فى المنار يكفى فى تحقيق الانتفاع به ، ولكنى رأيت كثيرا من الاخوان الذين كانوا يوالون مطالعة ما كان ينشر منه فيها شديدى الميل الى رؤيته مطبوعا على حدة ، واتفق لى أن زرت صاحب الدولة الوزير الجليل رياض باشا فى شهر رمضان الماضى مع الاستاذ السيد محمد رشيد فألفيته معجبا بالترجمة أشد الاعجاب حاثا على نشرها مجموعة ، فكان كل هذا باعثا لى على نشره الآن جملة واحدة تعميما لفائدته ، وموافاة لرغائب الكثيرين ممن طالعوه منجما .

وجل ما أبتغيه ممن أقدمه اليهم من أخوانى قراء العربية أن لا يكون حظى عندهم من عنائى فى ترجمته اطراحه وإغفاله ، بل أرجو منهم أن يأخذوه بقوة ويقبلوا على مطالعته بتأمل ، ليقارنوا بيننا وبين غيرنا فى العناية بتربية الناشئين ويعلموا أين نحن من قوم هذه أفكارهم فيها ، حتى اذا آلمهم النقص الفاضح ، وأخجلهم التقصير الفاحش ، هبوا الى مجاراة غيرهم من الامم الراقية وفكروا طويلا فى تربيه ابنائهم ، وتخيروا عن بصيرة وعلم لا عن تقليد محض اكمل الطرق لانشائهم احراراً جامعين بين ملكات العلم وفضائل الدين ، ولن يتم لهم ذلك الا بالاخلاص والصبر ودوام الاشتغال والله المستعان وبه الحول والقوة

المترجم

تحريراً فى ٢٥ المحرم سنة ١٣٢٦ ــ و٢٧ فبراير سنة ١٩٠٨ عبد العزيز محمد

﴿ مقدمة المترجم للطبعة الثانية ﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله أن أطلق لساني بحمده على غامر احسانه ، وهدى جناني لشكره على عوارف فضله ، وجعل حمده مدعاة لفيض رحمته ، وشكره سببا لزيادة نعمه ، والصلاة والسلام على الرحمة المهداة ، سيدنا محمد بن عبد الله ، خير من حرر العقول من ربقه الجهالات وطهر النفوس من لوث الاوهام . ورقى الاخلاق بقويم هديه الالهيّ . وهذب الطباع باقامتها على الصراط السويّ وعلى آله وصحبه أئمة المربين . وقادة المرشدين

اما بعد فلا شيء يعدل اللذة التي يجدها العامل اذا وجد عمله نافعا مقبولا عند قومه . تحقق صدق هذه القضية عند نشر (كتاب التربية الاستقلالية) عقيب طبعه لاول مرة . فاني وجدت من اقبال العلماء والادباء عليه وتقريظهم له وتوفرهم على مطالعته وحث الناس على اقتنائه . ما ملأ قلبي سروراً وغبطة . وأنساني ما لاقيته من العناء في ابرازه الى العربية . وزادني سروراً ان قدرته قدره نظارة المعارف الجليلة في عهد صاحب السعادة العالم الجليل سعد باشا زغلول فقررت اقراءه في بعض مدارسها العليا . وتفضل صاحب السعادة احمد حشمت باشا ناظرها الحالي الشغف بحب العلم فأقر هذا القرار . وكان من توارد طلب الناس لنسخ الكتاب ان نفدت جميعها . وهذا ما دعاني مع ناشره بالطبعة الاولى الى اعادة طبعه الآن وها نحن ذان نقدم لقراء العربية طبعته الثانية والله اسأل ان يديم النفع به وهو حسبنا ونعم الوكيل

عبد العزيز محمد

(تنبيه) من طبع هذا الكتاب غيرنا يحاكم ويجازى . ومن وجدت بيده نسخة منه (من غير طبعته الاولى) غير مختومة بختم المترجم يسأل عنها قانونا .

﴿ مقدمة المترجم للطبعة الثالثة ﴾

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله احسن الخالقين « وتبارك الله رب العالمين « الذى اتقن كل شئ خلقه وبدا خلق الانسان من طين . ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين . ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والابصار والافئدة قليلا ما تشكرون » فدل سبحانه بذلك على ماله من اكمل قدرة واعظم رحمة وابلغ حكمة واية قدرة اكمل من ان يجعل من الطين خلقاً سويا مسبحا بحمده او جاحدا لفضله واية رحمة اعظم من ان يتولى هـذا الخلق العاجز الضعيف من بدايته فى ظلمات الرحم الى نهايته فى غيابة العدم بصنوف عطفه واحسانه وضروب عوارفه وبره على قلة شكره وتماديه فى جحوده وخصامه وكفره واية حكمة ابلغ من ان يتدرج به فى خلقه هذا التدرج العجيب فيستنبطه من الطين اللازب ويحيله ماء دافقا « يخرج من بين الصلب والترائب » فيقذفه فى قرارة الرحم المكين ليمتزج فيه بمثله فيصيره علقة ثم يقلب العلقة مضغة ثم يقلب المضغة عظاما ثم يكسو العظام لحما ثم ينفخ فيه من روحه لينمو وتشتد أركانه ثم يخلق له السمع والبصر والفؤاد ليسمع ويبصر ويعقل ما يتلقاه من خطابه وما يحيط به من آيات عظمته ويهتدى بهذه الآلات فى الطريق الذى قدر له أن يسلكه لبلوغ غايته ثم أرسل اليه من خلقه المصطفين الاخيار ليكملوا بهديهم نقصها ويقوموا ما اعوج من زيغها فسبحانه من إله توهت العقول فى جلال عظمته وتحيرت الالباب فى اكتناه أسرار حكمته والصلاة والسلام على سيدنا محمد نبىّ الرحمة الذى أرسل « شاهداً ومبشراً ونذيرا وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا » سيد الهداة المرشدين وامام المربين المصلحين الذى أخرج الناس بواضح هديه وعظيم « خُلُقه » من غمرات الجهالات ومتاهات الضلالات الى نور العرفان ومناهج الهدى وعلى جميع الانبياء والمرسلين ومن اتبع هديهم الى يوم الدين .

أما بعد فقد علمت مما تلوته عليك من آيات الذكر الحكيم وغيرها من مما ورد فى كثير من سوره الكريمة ومن معاينتك واختبارك ان الانسان مع كونه اشرف مخلوق فى الارض واكبر مادب على ظهرها وآثرهم بالسؤدد والسلطان فيها واحقهم بعمارتها وتسخير جميع حيواناتها ونباتاتها ومعادنها فى مرافقه وتصريفها فى مصالحه قد خلق ضعيفاً فى جسمه وعقله . ناقصا فى ادراكه وفطنته لايؤتى الكمال دفعة ولايبلغه طفرة وانما يصل اليه رويداً بالتربية والتأديب والتمرين والتهذيب وهذا الكمال فيه نسبيّ تتفاوت درجاته بتفاوت درجات استمداده فالكمال المطلق لله وحده وهو من نشأته الى بلوغ غايته قدفرض عليه بخطاب ربه وبمقتضي فطرته أن يسعى ويكدح لتقوية ملكاته وتحقيق معنى الكمال فى نفسه لانه خلق مستعدا له وجميع مافى الكون يدعوه الى الاعتبار والانتفاع به فمن قصر فى أداء هذا الفرض وقنع من حياته بالمعيشة الحيوانية فقد سفه نفسه وانزلها فى دركات الهون ورضى لها بالدون .

من اجل ذلك كان حقا واجبا وحتما لازبا على كل ذى عقل سليم ان يتعاهد نفسه بتربيتها وتقويم اخلاقها وتنمية ملكاتها وان يفعل ذلك بمن يعنيه امرهم من اهله وابناء وطنه ما استطاع اليه سبيلا ولا يتأتى له ذلك الا باستعمال ما أوتى من وسائل الادراك وهى حواسه الظاهرة والباطنة فيما خلقت له والاهتداء بما يرشده اليه عقله من نتائج التفكر فى مدلولاتها والرجوع الى هدى النبيين ووحي المرسلين فيما يعجز العقل عن ادراك كنهه لخروجه عن متناوله ضنا بنفسه ان يستعبدها الهوى فتردى وبعقله ان يعتسف فيشقى

وقد عنى عقلاء كل جيل والعلماء من كل قبيل فى جميع العصور بالبحث فى أنجع الطرق وأحسنها لتهذيب النفوس وتثقيف العقول وألفوا فى ذلك الكتب الجمة والمصنفات النافعة فكان لها من الفوائد الغزيرة والعوائد الرائعة ماهو كالشمس ظهورا .

ومن أفضل الوسائل الموصلة الى هذا الغرض الشريف : —

أولا : مدارسة القرآن الكريم وتفهمه ومتابعة سيرة النبيّ العظيم ومن قبله من الانبياء عليه وعليهم أفضل الصلاة والتسليم ومطالعة سير الخلفاء الراشدين ومن بعدهم من الائمة المهتدين فان فى ذلك كله أفضل المُثُل للتربية الروحية المطهرة للنفوس من دنس الشهوات المبعدة لها عن مد احضى الشبهات

ثانيا : النظر فيما وضعه علماء كل جيل من الكتب القيمة فى مختلف العلوم خصوصا علم التربية والاخذ بأحسن ما كتبوا وأقربه الى الدين وبثه فى الناس ليروضوا نفوسهم به ويقوموا أخلاقهم بأدبه فتحمد فيهم آثاره ويعمهم نفعه

وقد قيض الله لى ذلك الكتاب القيم المسمى بأميل القرن التاسع عشر فى التربية وهو من انفع الكتب التى الفت فى هذا الموضوع واجلها اثرا واعظمها نفعا بشهادة جميع من طالعوه فعربته بتسهيل الله سبحانه وحسن توفيقه تعريبا حمده جهابذة اللغة العربية وطبعته مرتين نفدت جميع نسخهما من زمن بعيد وحالت بعض الحوائل دون اعادة طبعه رغما من الحاح كثير من العلماء وطلاب العلم ومحبى الكتب النافعة علىّ فى ذلك

ولما زالت بحمد الله هذه الحوائل طبعته للمرة الثالثة وقد بينت فى مقدمة طبعته الاولى فوائد التربية وآثارها ومقاصد الكتاب ومواضيعه بأسهاب فلا حاجة الى تكرارها وها انا ذا ابرزه لقراء العربية المتشوفين اليه فى حلة جديدة بالغت فى اتقانها وتجريدها من النقص والعيب جهد استطاعتى مع زيادة فى التحلية والتوشية ببعض الهوامش النافعة والشروح المفيدة راجيا من الله سبحانه ان ينفع به ويوفق للاخذ بأحسنه وهو حسبى وبه ثقتى

المترجم
عبد العزيز محمد

الكتاب الاول

(فى الأم)

الرسالة الاولى

(من الدكتور إراسم الى زوجته فى ٣ يناير سنة ـــ ١٨٥ [١])

فى وصف حاله فى السجن

قد مضى علي يا عزيزتى هيلانة ثمانية أيام طوال عجزت فيها عن الكتابة اليك وأعوزتني العبارة التي أرضاها لوصف ما أعانيه من مضض الألم . ليس ما يقاسيه الاسير من عذاب الأسر هو الحرمان من الغدو والرواح ، والعجز عن المشى مطلق السراح ، بل عذابه الاكبر هو ضيق الصدر وابتئاس النفس . تلك القباب والاعمدة والدهاليز الدائمة التي لا تنفك عن مواجهة المسجون هى التى تبلبل منه الافكار ، وتوقعه فى الدوار حتى يقذفه هذا العناء ، فى مهواة الفناء . وهذه الاحجار أحجار البناء تمسخه فتحيله حجرا مثلها . وفى أول عهدى بالسجن كنت صنما لا أرجع للناس قولا ، ولا أملك لهم ولا لنفسى ضرا ولا نفعا ، وكدت أعدم الحركة والفكر بل كان يخيل لى أنى قد فقدت وجودى

---

(١) عن يمين رقم ٥ فى الاصل الفرنسى نقطة (صفر) لابهام السنة والاكتفاء ببيان أن ذلك كان فى النصف الثانى للقرن وقد جعلنا بدل النقطة خطاً عرضياً

وفنيت عن نفسي،وانتقلت حياتى الى السجن نفسه،لحصره اياى فى دائرة من الوجود مشئومة صناعية لاجو لان للفكر فيها . وانى أؤكد لك أن من هذه حاله يلزمه عمل كبير للرجوع الى وجوده . وهذا العمل قد قمت انا به . والآن قد ثابت الي نفسى ، وأصبحت مالكا لحسى. لاترجن مني أن أصف لك . . . فان المسجون قلما يعرف ما يسكنه من المحال وانى قد نقلت من . . . فى غروب الشمس ولما وصلنا الى السجن كان الليل قد أرخي سدوله ولم يبق لى من الضياء الا بقية لا اكاد أميز بها فى ظلمات الجو غير الاشباح السوداء لبروج السجن الصغيرة ، واسهمه واسنته الحجرية ، وكان يخيل لى ان البناء قصر متين شيد بالظلمات . نزلنا من الجارية (العجلة) وصعدنا مشاة الى طريق مدرج منحوت فى الصخر يفضى الى سجن الحكومة وكنت أمشى فى هذا الطريق كأنى فى حلم . على انى قد راعنى منظر شيئين فى هذا المكان أولهما جمال ذلك البناء الباهر ووقوعه من قمة الجبل المظلم موقع التاج من الرأس — ثانيهما اصطخاب البحر وتلاطم أمواجه .

وليست تلك القمة فى الحقيقة الا قطعة من الصوان برزت من صحراء رملية — ورمل هذه الصحراء يمتد الى البحر تعلوه الكآبة والحزن وكنت اميز المحيط من بعد فى ضوء الصفائح المائية المضطربة وليس الحال كذلك فى جميع الاوقات، لان المحيط فى إبان المد يغمر الساحل ويعلو ويصطخب ويحدق بالجبل من كل جانب فتغمره زخرة أمواجه المتزاحمة .

يصل النور الى مخدعى من السجن — وهو مقابل للمحيط — من كوة صغيرة ككوى الاسلحة النارية فى المعاقل أو كالذى يسميه المهندسون

«بر بحا» على أنها مع ضيقها مسرح للنظر لا نهاية له . وهى من الارتفاع بحيث لا أشاهد منها سطح البحر الا قائما على أطراف أصابع الرجلين فاذا جلست لا يبقي لي ما أمتع به نظرى الا السماء ولا بأس فى ذلك عليّ فان لى فى السماء ناحية من الكون أشاهد فيها ساعات كاملة طائفة من ظواهر هذا العالم لم تكن تسترعى نظرى الى هذا العهد، وهي ألوان الضوء المتغيرة والصواعق والبرد والضباب ؛ وبالجملة ما للاحداث الجوية من الجمال الخيالي اذا برزت من حجب الظلام . غيرى من الناس يحب ان يشاهد السماء فى البحر حيث يتراءى السحاب فى مرآته وأما أنا فأخالفهم فى ذلك لان البحر بالنسبة الي هو الذى ينعكس على السماء فأراه فى مرآتها.

قد رأيت مما ذكرت ان لى مرقبا للعالم وحظا منه فما الذى يمنعنى أن أتخيل فى السحب سلاسل جبال وفى سهول الاثير اريافا ومزارع جميلة. تلك المناظر الخلوية المعلقة فى الهواء ليست كما اعلم الا خيالات سابحة لافكاري وما أتذكره من معلوماتى . قد تبعث الانسان وحدته على البحث فى مخيلته عن صور ما عرفه من الاماكن ومن احبهم من الناس فأنا الآن بسبب استحضارى لمرائي ماضي الجميلة فى حيز من النور – قد انفتح فوق رأسي – أرى مثالاك فيه

ان كان قدر علي أن أصير خياليا كان ذلك آخر عقاب لعقل لم يشتغل منذ عشرين سنة بغير العلوم الحقيقية .

على انى لست أشكو من شيء فطوبى لمن يصح له عند سقوطه ان يعتمد على فكرة انه دافع عن حوزة القانون وذب عن الحق وانى اذا كنت اتألم فليس ذلك الا لانى كنت سببا فى تألمك . اهـ

الرسالة الثانية

(من إراسم الى هيلانة فى ٦ يناير سنة — ١٨٥)

اتحافه اياها على بعده من العالم بخبر سار

حدث بالامس بين الساعة العاشرة والحادية عشرة صباحاً ضباب كثيف غمر الشاطىء كله ، والعادة فى مثل هذه الحالة ان تدق الاجراس ايذانا بالخطر ، فلذلك طفقت أجراس القرية القريبة من السجن تطنطن وتيسر لى ان أفهم المقصود من هذه الاشارة . ذلك الساحل المحدق بنا ممتلىء بالاخطار لان الرمال المتحركة ومستنقعات الماء الراكد والمد والجزر كلها حبائل ترقب اصطياد السائح الضال كامنة له تحت استار الضباب ، لذلك تناديه أصوات الاجراس وتحذره من الوقوع فى الخطر وترشده بمصدرها الى الطريق الذى يلزمه سلوكه ليصل الى سفح الجبل أسرع ما يكون . وقد سألت فى مساء هذا اليوم سجانا لنا يسكن أهله القرية عما حدث فأخبرنى بأن طفلين مسكينين قد فاجأتهما أمواج البحر فى إبان المد فأحاطت بهما وكادا يغرقان لولا ما بذله من الجهد والهمة صيادو الشاطىء من ذوى النجدة والبسالة فى انقاذهما من مخالب الموت غير مبالين بالخطر الذى كاد يذهب بقواربهم . من هنا ترين انى على بعدى من العالم وحرمانى من معرفة ما يحصل فيه قد قدرت ان اتحفك بهذا الخبر السار . اهـ

الرسالة الثالثة

(من إراسم الي هيلانة فى ٨ يناير — ١٨٥)

تعرفه أماكن السجن تسلية لنفسه

أنا فى السجن تتعاقب علي الساعات وكلها متشابهة لا اختلاف بينها فليست الحياة هنا الا يوما واحدا بسبب ما يحرج الصدر ويضيق على النفس من توحد الاشياء وتشابه الاطوار وعدم تغير شيء منها . آه لو عادت الي نعمة العلم بما يقع فى الخارج ، وليتنى أعرف شيئا من أخبارك. قد أذن لي فى الخروج من مخدعى للتنزه كل يوم ساعة أو ساعتين على رصيف مرتفع للسجن فأنا أصرف هذا الزمن فى اجالة نظرى والسياحة به فيما حولى من الاشياء لاتعرفها فانى للآن ما كنت أعرف شيئا فى هذا المكان بل كنت أجنبيا منه بالمرة اذ كنت كميت التى فى مكان لا يدرى أين هو وقد ابتدأت منذ اسبوع أن أعرف أين مستقرى فتجدينني الآن اهتم بتعرف شكل الاماكن المحيطة بى تعرفا صحيحاً يبعثنى على ذلك وجدان لا شك فى انه عام فى جميع المسجونين . ولا ينفك ناظراى عن اكتشاف ما لم أكن رأيته حال دخولي فى السجن واخالني قادرا على ان أرسم فى الورق صورة ما أحدثه البحر فى الشواطىء من التقطع فنشأت عنه الخلجان والرءوس التى تمتد كالالسنة امتدادا عرضيا وصورة الصخور التى تتراوح بين البروز فى ضوء الشمس والاختفاء الى نصفها في ظلام الضباب البعيد . وقد عرفت أيضاً رسم البناء الذى يحوينى

وأوضاعه الهندسية الجميلة، وتنظيماته الحربية، ومعاقله الطبيعية، ومنحدراته ومناطق أسواره. ولم يكن اهتمامي بمعرفة ذلك مبنيا على تدبير حيلة للهرب كلا ! انه قد حاول ذلك غيري من المسجونين وردوا بالخيبة لاننا ان أمكننا ان ننجو ممن يقومون على حراستنا من العساكر والسجانين الذين يتعسر علينا ان نخدع يقظتهم والتفاتهم، فاننا لا ننجو من المحيط والرمال الخاتلة بوعوثتها (١) وغيرهما من العقبات الكثيرة . وانما أنا أبحث في ذلك عن طريقة أسلي بها نفسي وأشغل بها فكري، فلا شيء مني يريد الهرب والتخلص من السجن سوى عقلي . اهـ

الرسالة الرابعة

(من اراسم الى هيلانة في ١٠ يناير سنة — ١٨٥)

السجن قيد للاشباح دون الارواح

أتعلمين ما للسجن علي من الفضل ؟ انه ليعلمني الحريةَ ويدلني على عجز الانسان عن الاستيلاء على مثله . ذلك ما أُحس به كلما تعاقبت علي الايام فيه وانس من نفسي نوعا من الفرح تشوبه المرارة عندما اجِدها أكبرَ وأقوى من أن يبهظها ثِقَلُ وطأة الظلم ، فليست أسوار السجن الصَّوَّانية وأغلاقه الحديدية ، وحفظته الايقاظ ، الاهياءً في طريق العقل لا حوائل تحبسه وتمنعه من الجولان . بل أشعة نوره تتخطى كل هذه العوائق ولا تقف عند شيء منها . وان عزيمةَ المسجونِ لتقاومُ عزيمةَ ساجنه ومُصفِّدِهِ . وانه مهما جُدِلَ وصُرِعَ فلا يَسْتَسْلِم ، فاذا هو كان على شيء من العدل

---

(١) وعوثة الرمال لينها وانخسافها بمن يمشي عليها

والحق كان أشرف من غالبه وأسمى منه مكانة ومن العبث ما يحاوله هذا الغالب ، فالفكر كالهواء لا يدخل فى قبضة أحد . نعم إن من مقدوره أن يشد وثاق مسجونه ولكن ليصل بعد الى أعماق قلبه، وليأسر ماهنالك من عزة نفسه ومنعة وجدانه ، ان كان ذلك فى قدرته ؟ هيهات هيهات تلك المنعة التى أجدها فى نفسى تدعونى الى الثقة العظيمة بالمستقبل . لا أقسم بغيابات السجن (حجراته المظلمة الضيقة المعدة للمحكوم عليهم به طول حياتهم) ولا بأشباح أولئك الذين ماتوا هنا فى زوايا النسيان أوفى اقفاص الحديد ـ إن الحق والحرية سيكون لهما النصر والظفر فى هذه الدنيا . ا ه

الرسالة الخامسة

﴿ من إراسم الى هيلانة فى ١٢ يناير سنة — ١٨٥ ﴾

مواساة الاصدقاء الخاملين فى حال الشدة

قد اهتديت بعد العناء الى طريقة إيصال هذا المكتوب اليك فسيصلك على يد [illegible] .الذى تفضل علي بأن يكون رسولا بيننا على ما فى ذلك من المخاطرة بنفسه هذا يدلك على أن الانسان الذى يحتف به فى حال رخائه الجلساء المتملقون لا يعدم فى حال شدته ان يرى حوله احياناً اصدقاء خاملين يخلصون له الود . وأختم قولى بأنى لك طول حياتى . اه

الرسالة السادسة

﴿ من هيلانة الى إراسم فى ٢٠ يناير سنة – ١٨٥ ﴾

إخبارها إياه برأى الطبيب فى حملها و بعزمها على السفر لزيارته

قد تلقيت مكتوبك أيها الحبيب من يد البريد السري فكان له فى نفسى أحسن اثر وانفعه . فانى كنت فى حاجة عظمى الى شىء يسليني ويُسرِّى عنى بعض الالم فلشد ماقاسيته منه مدة شهر وقد ضعفت صحتى وانحطت قوتى والطبيب الذى يداوينى فى غيبتك يسألنى أسئلة كثيرة وله فكرة فى سبب هذا المرض أراها تشف عن جنونه فانه يزعم أنى .... كلا إننى لموقنة بخطائه فى ذلك . ومهمايكن من الامر فنفسى تائقة لرؤيتك فان هذا الفراق العاجل بعد الزواج الذى لم يمض عليه أكثر من سنة خطب هائل لا يطاق ، ولاسبيل إلى المعيشة معه ، وانى مسافرة مساء الليلة من باريس ومعى إجازة موقع عليهامن وزير الحقانية أذن لى فيها بزيارتك فلابد أن يُسمح لى بدخول السجن ولا يمكن أن يحلّ استبداد المستبدين ما عقدته رابطة الحب

لاتخش شيئا من هذه الزيارة فانى لم اقصد بها الرغبة اليك فى ان تستميح الحكومة عفواً عنك لانى وان كنت كثيرة التألم لغيبتك أحترم وجدانك وهواجس نفسك وان لم أفهمها حق الفهم . اعلم أن فىَّ ما فى بقية النساء من مواضع الضعف ومظان العجز ، الا انى منزهة من دناءة الخدين وخيانتها لصاحبها فان شرفك داخل فيما أُحبه منك . وإنك على احتباسك

عني وبعدك عن ناظري بما فيك من عزة النفس والشهامة وإباء الضيم لأجل في نفسي منك وأنت بين يدي لو فسدت مبادئك ومعتقداتك التي جريت على سنتها طول حياتك . إني لما تزوجتك تزوجت شيئاً آخر معك ألا وهو ضميرك ووجدانك فان بقيت على ولائه متبعاً ما يرشدك اليه أقسمت لك أني أكون في الاخلاص لك كما تكون في الاخلاص له طول حياتي . والآن أودعك لأراك قريباً ان شاء الله وأكاشفك محبة قلبي إياك وامتلاءه بالحزن عليك اه

الرسالة السابعة

﴿ من هيلانة الى إراسم فى ١٥ يناير سنة — ١٨٥ ﴾

« انفعال نفسها بزيارة السجن وما لاقته من المشقة فى الرجوع منه »

(واخبارها زوجها بالجنين وتخوفها من ثقل فروض التربية)

لم يتيسر لي أن أحدثك بشيء مما أردت محادثتك به عند اللقاء مع أن حديثي ذو شجون . من أجل ذلك أردت أن أعتاض عما فاتني منه بالمكاتبة فسطرت لك هذه الكلمات :

كان مجيئي الى السجن بالأمس واستفتاحي بابه في الساعة الثانية بعد الظهر وبعد أن تحادثت مع مديره برهة أقبل نحوى أحد خزنته يهدج في مشيته وأنا أسمع خفق نعليه شديداً على البلاط وأخذني الى الغرفة التي كنت أنتظرك فيها . كان قلبي قد وعدني قبل دخولي السجن ورؤيتي ما فيه أن يستجمع كل ما لديه من الجراءة والثبات ليدفع بذلك عني بوادر

الجزع وخواطر الهلع . فلم يلبث بعد دخولي هذه الغرفة أن نقض ميثاقه ، وحلّ وثاقه ، فأعوزتني رباطة الجأش وثبات الجنان لما رأيتني وحيدة لا أنيس لي ، وجمد الدم في عروقي لما استولى عليّ من الدهشة والوحشة مع انقطاع الصوت فى قباب السجن الا ما يكون من صرير الابواب وصلصلة اغلاقها من بعيد أثناء فتحها واقفالها فلما بدا محيّاك لناظرى فقدت بقية رشادي وغبت عن وجودي فان فرحي برؤيتك بعد احتجابك عني وحزني لوجودك في هذا المكان قد أثارا عليّ جميع ضروب الانفعال ففدحتني وصرعتني ، ولم تبق لى من القوة سوى ما أسكب به العبرات ، وأردّد الزفرات ، فألقيت نفسي عليك ، وكنت كما تعلم بين يديك ، رأيتك وقت التلاقى شاحب اللون ممتقعه . فهل كنت مريضاً ؟ وليس من العجيب أنى نسيت أن أسألك عن ذلك فانى إذ ذاك كنت فانية فيك فما كنت أفكر ولا أرى ولا أحس ولا أقول شيئاً .

أتعلم ماذا كان يقلقني من الافكار فوق ذلك ؟ انه كان يخيل لي أن لتلك الجدران جدران السجن المخيفة أبصاراً وأسماعا وإدراكا وأنها تحس بى لو صافحتك وترانى لو أشرت اليك اشارة ما ، وتسمعني لو أفضيت اليك بسر فتذيعه . لما عاد الينا خازن السجن ونبهنا الى أن وقت التلاقى الممنوح لنا قد انقضى من بضع دقائق قف شعرى واقشعر جسمي وطار لبى ، ولو أقسمت له عن سلامة صدر أنه لم يمض على دخولي السجن شيء من الزمن وأن في الساعة خللا أدّى الى هذا الخطأ لما كنت في اعتقادي حانثة ووددت لو بعت حياتي وجميع ما أملكه من حطام الدنيا وإن قلّ بساعة اخرى أقضيها معك .

لم تكن لي مندوحة عن فراقك على غصتي بمرارته ففارقتك مملوءة الفؤاد من الحزن ، فارغة العينين من الدمع ، معتقلة اللسان من الوجوم، على شرف من فقد الادراك والشعور ، واجتزت مكان الاساحة يتقدمني دليل يحمل مصباحاً فان الليل كان قد جنّ على ما ظهر لي ولم يكن ابتعادي عن حضرتك حائلا بيني وبينك ولا شاغلا قلبي عن الاستغراق في شهودك كلا انني كنت أخالني في كل خطوة أخطوها أسمعك تناديني مسترجعاً إياي ، ولقد التفت مرة لأتبين هذا النداء الوهمي فلم يقع نظري الا على وجه من الحجر ، ذلك هو أحد البابين العظيمين الحافظين لمدخل القرية . سار بي ذلك الدليل الخرّيت الواسع الخبرة بشاطئ المحيط ومواقعه على حافة الساحل متجهاً نحو قرية . . حيث يجب أن أقضي ليلتي في ناموس الصيادين(١) هذا الطريق وعث أمضني فيه الحزن والنصب حتى لقد كدت أن أجلس فيه مرتين على الرمال طلباً للراحة وأستميحك العفو أن أقول انى كدت أود لو تم لى ذلك فانى كنت أعلل النفس بقولي انني بجلوسي ههنا أنام بالقرب من سجنه على الاقل وان اغتالتنى الامواج فحسبي أنني قضيت نحبي واسمه على شفتيَّ

كنت في سبيل توطين نفسي على الصبر وتشجيعها على احتمال المكروه أردد النظر الى جهة . . . . . . وكان الليل ساكناً الا أنه كان حالك الظلام مخيفه فلا كوكب فيه ولا قمر ، وكان يزيد في كثافة حجب الظلام ذلك السحاب المركوم ومايجود به من الرذاذ البارد . وأما البحر فكنت أسمع له من بعيد زمجرة وهديراً وأرى فوقه أبخرة سنجابية

(١) الناموس لفظ مشترك بين جملة معان منها منزل الصيادين

اللون . وقد تنورت على ما وصفت لك من شدة الظلمة ضوءاً ضعيفاً كان يظهر بصيصه من نافذة في جهة الجبل وتعذر علي أن احكم إن كان هذا الضوء المتذبذب منبعثاً من السجن أو من أحد مساكن القرية وكنت مع هذا الشك الذى كان يخامرنى فى مصدره أنظر اليه نظر المحب الى أبر حبيبه وكنت أتوهم أنه ان انطفأ ينطفي معه نبراس حياتى ثم وصلنا بفضل همة الدليل وخبرته بعد الجد فى السير الى نقطة تقابل . . . . فلم يبق بيننا و بينها سوى جدول يجتاز على المركب . جلست فى المركب على مقعد من الخشب أرشدنى اليه الجذافون لما أضنتني الافكار ونهكت قواى الخواطر. فكانت هذه الراحة والسكون المستتب حولي سبباً في توجيه ذهني الى فكرة جديدة فبينا أنا أفكر فيما كنت أفضيت به اليك من حالة صحتي وما استنتجه العلم منها إذ شعرت على الفور بحركة شيء حي تحت منطقتي . الله أكبر! قد كان الطبيب مصيباً وعما قليل أكون أماً.

لا أحسبك نسيت أن أعظم أمنية كانت لنا في أيام الهناء الماضية أن يرزقني الله ولداً منك واني لترتعد فرائصي عند التفكر في ذلك .

على أنه لا ينبغي أن أخفي عنك نتيجة شعورى بالحمل وهي أني بعد أن تكدرت برهة أحسست بأن شعاعا من الفرح والعزة يضيء في جوانب ظلمات حزني وأني في رجوعي من عندك لم أكن فريدة محرومة من الرفيق وخلت أني قد وجدتك بعد فقدك نعم أدركت مع الزهو والاعجاب ان ذلك الذى يجنه حشاى وتنضم عليه جوانحى هو أنت أيها الحبيب وهل هو الا مثالك الحي وبضعة من لحمك ودمك ؛ ثم خيل لي بعد ذلك بلحظة ان الامواج المضطربة تحييني بلسانك تحية الزوجة

والالام وقلت في نفسي قد صار في وسعي الآن أن اقتحم ظلمات الليل والرمال الوعثة ولا أبالي بالسجن ولا بأوامره الشديدة وحراسه وسجانيه وصحت بأن هؤلاء ليس في قدرتهم ان يأخذوه مني وانه هو في الجملة أبوه أو على الاقل بضعة منه يمكنني ان أخفيها في مستقري فأجعلها حرة بعيدة عن عدوان المعتدين كما تخفي اللبوة الجريحة شبلها في عرينها . ×

أقول هذا ولكنني أرى أمراً يروعني ويبلبل فكري وهو طريقة تربية هذا الولد فاني طالما سمعتك تتكلم فيما يجب على الوالدين لاولادهم بعبارات هي من سمو البلاغة وقوة التأثير بحيث ان قلبي كان يخفق لسماعها املا فى انه سيكون المقصود بها واليوم قد اقترب تحقق هذا الامل وأنا من تحققه في اشفاق ورعب . من ذا الذى يقوم بتلك الفروض التي أنت تعلمها أكمل العلم . فقد كنت تقول لي : لو رزقني الله ولداً لوقفت حياتي على تعليمه وتربيته (١) وكنت تجاهر كل المجاهرة بانكار الطرق السائدة في تربية الناشئين واستهجانها شديد الاستهجان . كل ذلك لا يزال منقوشا في ذاكرتي لكني بقدر ما كنت أعجب بأفكارك ومقاصدك تعتريني الآن رعدة خوف أمام هذا التكاليف الذى سيقع ثقله عليّ وحدى فقد فرق بيننا القانون البشرى بهوة حفرها لتكون حاجزاً يحول بيني وبين الوصول اليك في وقت أكون فيه أشد حاجة الى الاسترشاد بنصائحك والاستضاءة بنور معارفك والاعتماد على معونتك الادبية . ليت شعرى ما سيكون

(١) ما أحسن هذه العاطفة وما أجدرها بأن تعمر كل قلب يدرك ما يجب عليه للاولاد من التربية والتهذيب وليت الناس يدركون مبلغ التبعة التي تلحقهم من جراء التقصير فى هذا الواجب

من امر هذا الولد اذا كبُر وهو محروم من رعاية والده وعنايته وما عسى أنْ أفعلَ له وأنا كالقصبة الضئيلة قد رزحت بضعفي وضعضعني سقمي

قد وجدتُ قوبيدون الزنجي البار الذى أحضرته معك من أمريكا في انتظارى هو وزوجته على الشاطىء الآخر للجدول فلما رأيانى أرادا تقبيلَ يديَّ رغما مني قائلين إنَّ هاتين اليـدين صافحتا يديك وإنَّ لك الفضلَ عليهما في الحصولِ على حريتهما. وما بلغت الشاطىء الا وأنا في قفقفة من البرد قد وصـل أثرها الى اعماق نفسى وكانت ثيابى مبللة فوجدتهما والحمد لله قد أعدا لي فراشا في أحد نواميس الصيادين التي على ضفة الجدول وأذكيا لى به نارا من قضبانِ أشجارٍ يابسة فأخذ البرد يزول عني تدريجا بتوقد اللهب في المستوقد وارتحتُ لما كان يبديه لي كل من هذين الشخصين من إخلاصه في الحب والولاء. ما أشد عدوى بر الانسان وأعظمَ أثرَ احسانِه؟ فاني نمت هذه الليلة احسن من نومي في سوابقها بعد ذلك النهار الذى قضيتُه متعبةَ الجسم والنفس وكدت فيـه ألعنُ الحياة وأسأمها وانا اكتب اليك الآن فى ناموس الصيادين بعد استيقاظي من النوم صباحا.

تجد مكتوبى كما اتفقنا بالامس مخبأ فيما أرسِله لك من الملابس التي توليت طيها واصلاحها بنفسى. وورق هذا المكتوب ـ وان كان رقيقا ـ متينٌ وقد طويته طية جعلتُه فيها على شكل زر. فليت شعرى هل يتيسر لك قراءة خطي الذى هو كارجل الذباب،

سأعود بعد غدٍ الى السجن فقد وعدت بأن يؤذَن لى فى الدخول الساعة الاولى مساء وعسي أن اتجلدَ فى هذه المرة فاستجمع شتات فكرى

والآن أقبلك قبلة الوداع بكل ما في نفسي من قوة الشوق والملتقى قريب ان شاء الله ·

الرسالة الثامنة

(من إراسم الى هيلانة في ١٦ يناير — ١٨٥)

(نقله من سجنه الى سجن آخر)

أكتب اليك هذا وقد استيقظت في الساعة السادسة صباحا وعلمت أن عشرين مسجونا أنا منهم قد فصلوا لارسالهم الى سجن ... وبلغني ان أمر نقلنا وصل الى هنا ليلا من باريس فلم يكن لي من وسيلة لانبائك بهذا الخبر قبل الآن ولم يبق لي أمل في لقائك فان السفر سيكون في الساعة السابعة صباحا وسيصل اليك هذا المكتوب وانا في طريقي الى الجزيرة التي جعلت مقرا لي فأودعك وداع محب ثابت على عهده لا يثنيه عن حبك اعتراض الحوائل ولا يلويه عن ذكراك تطويح المطاوح ،

(غرام على يأس الهوى ورجائه وشوق على بعد المزار وقربه)

الرسالة التاسعة

﴿ من هيلانة الى إراسم في ١٧ يناير سنة - ١٨٥ ﴾

(خيبتها في زيارة السجن وعزمها على اتباع زوجها في منفاه)

جئت اليوم الى السجن لزيارتك فمثل لنفسك ما عراني من هزة الطرب ونشوة الفرح لما علمت بأنك أخرجت منه . ما كان أبعدني عن

العقل واقربني من الجنون في تلك الساعة اذ ظننت انك فزت برجوع نعمة الحرية اليك !. لكن لم يلبث كاتب السجن أن أبان لي خطائي إذ أخبرني بأنك قد وجهت (هكذا عبارته) الى جزيرة .د. واني سأتبعك قاطعة أجواز البحار، مقتحمة في سبيل القرب منك جميع الاخطار، فأينما تكن وإن في آخر الدنيا فلابد لي من اللحاق بك لا يعوقني عنك هجير الشمس المحرقة ولا أخطار مجاهل الصحارى والقفار ولا اعتراض سلاسل الجبال الشامخة دونك لان غايتي التي أسعى اليها هي أن نعيش مجتمعين فاكتب الي حتى أوافيك لأمتع النفس بلقائك .

الرسالة العاشرة

(من إراسم الى هيلانه فى ٢ فبراير سنة — ١٨٥)

نهيها عن السفر اليه رعاية للجنين وما يلزم له من السكون

أنا واثق أيتها العزيزة بحبك اياى وأقسم عليك بأطهر مايوجد في هذا العالم وأجدره بالتقديس أن لا تقاربيني وأن تهرولي هرباً مني. نعم انني قبل الآن بشهر أو شهرين كنت أقبل منك هذا الاخلاص الشريف طيبة به نفسي منشرحاً له صدرى اذ لم أكن عالماً بحملك وكنت أجدفيك وحدك حيناً بعد حين تفريجاً لكربتي في وحدتي وايناساً من وحشتي وكنت لاعتزازى بوجودك معي واغتباطي بقربك مني ولو ساعة من نهار أنسى كل ما أقاسيه في لحظة من ألحاظك . أما اليوم فقد تغيرت الاحوال وتبدلت الشؤون تبدلا عظيما فأصبحنا أنا وأنت لا نملك من أمرنا شيئاً حتى حرية التحاب والتواد . أصبح ماهو في العادة سبب اتصال واقتراب

بين الرجل والمرأة سبباً لانفصالنا وحائلا دون اجتماعنا ، وذلك للحال السيء الذي نحن فيه . الا يجب ان نهيء هذه المجاملات وتلك الآداب لذلك الذي لم يوجد بعد الوجود الكامل بحيث يطلق عليه ما يعبر به عن الموجود ؟ الا انه قد وجبت له علينا حقوق نحن مطالبون بادائها . اياك ان تنسي انك مسئولة أمام الله عما وهب لك من حلية الشرف بأن أهلك لأن تكوني أما

اني أخاطبك من حيث أنا طبيب وزوج وأخشى أن أتعجل فأقول أب - بأن الذي ينبغي لك الآن هو شيء من السكينة والاستقرار ، وأنصح لك بأن تغادري بلادنا الآن وتهاجري من هذه الارض التي تميد بزلازل الفتن فعي نصيحتي واتبعيها ، واعلمي أن لي صديقاً في انكلترة من رصفائي الاطباء يناجيني حسن اعتقادي فيه انه سينفعك ويرشدك الى كل ما يجب عليك عامه مما يتيسر لك به توطن تلك البلاد على حالة موافقة ، وان لنا والحمد لله فيما جمعته بكدي من يسير المال سدادا من عوز بل كفافا من العيش ، فاستجمعي به أولا لنفسك كل وسائل الراحة ومعدات المعيشة الطيبة ثم احفظي ما بقي لتربية ولدنا . . . . آه لو أدري عاجلا انك قد فارقت فرنسة وابتعدت عن مشاغب الشقاق الداخلي . فعجلي بالرحيل أيتها الحبيبة

أقول - والله على ما أقول شهيد - إنك لم تكوني في زمن من الازمان أعز على نفسي وأغلى قيمة عندي منك هذه الساعة التي أرغب فيها اليك في عدم اللحاق بي في سفري المحزن . لا تكثري همك بما قدّر عليّ واعلمي ان جل ما يعانيه المسجون من الشقاء هو احساسه بأن لا نفع

في وجوده وقد ذقت أنا هذا الالم النفسي وبلوت مرارته لكني اليوم قد كلفت واجبا جديدا يتحتم عليَّ أداؤه واني لارجو أن أقوم به مهما حالت دونه الحوائل

وفي الختام أودعك وداع حبيب يرى في قلبه من إجلالك ما يمنعه من الشك في حبك اياه ويعلم به أنك لا تشكين في حبه اياك

(حاشية) اني مرسل طي هذا مكتوبا للدكتور وارنجتون في لندرة اهـ

الرسالة الحادية عشرة

﴿ من هيلانة الى إراسم في ١٥ فبراير سنة — ١٨٥ ﴾

تفضيل الامومة على الزوجية واماني الام في الولد

أطعت أمرك وسمعت نصحك وسأسافر غدا الى انجلترة ، واني قد استرجعت جزءًا من ثبات جناني ، وفتح مكتوبك لي أبوابا أرى منها مشاهد جديدة . لتفن صفة الزوجية في صفة الامومة فتلك سنة الله في خلقه لا محيص لي من اتباعها . على أن هذا الولد الذي وعدت به سيكون الرابطة بيننا ويقرب شقة البين التي تفصلنا بعض التقريب واني أرغب في الحياة من أجله ومن أجلك ، فانه سيكون يوم يمن الله علينا بانتظام الشمل موضوع سلوة لاحزاننا وقرة لاعيننا وعزة لانفسنا

حقق الله ما نرجوه من الامل ووقانا بفضله عوادي السوء اهـ

الرسالة الثانية عشرة

(من هيلانة الى إراسم فى ٢٥ مارس سنة — ١٨٥).

وصفها لوندرة ومقابلتها الدكتور وارنجتون وسفرها بارشاده الى بنزانس

واقامتها مع زوجه ووصفها ما لاقت

كتابي اليك وقد استقر بي النوى الآن في انكلترة أكاشفك فيه بما وجدته في هذه البلاد فأقول. استأجرت مساء يوم الاثنين الماضي عجلة اجتزت بها ما بين القنطرة المسماة بقنطرة لوندرة «لندن بريدج» والميدان المعروف بميدان أوستون. وكأني بك سائلي عما شاهدته من عاصمة الجزائر البريطانية: لم أر منها شيئاً أو إنما رأيته لا يكاد يكون شيئاً يذكر. كنت أحس أحياناً بأني أدور في الظلام مع العجلة أثناء جريها في الميادين الفسيحة المحتفة بالبساتين والبيوت التي كنت اخالها هاجعة. وكنت أرى عقب ذلك من كوتي العجلة شوارع طويلة تمتد ذات اليمين وذات الشمال تحدها المخازن التجارية من الجانبين، ويمتد في جانبي كل منها على مدى البصر صفان من المصابيح الغازية، فكنت تارة أجدني في ظلمات متكاثفة الحجب وأخرى أراني بين طوائف غير منتظمة من تلك المصابيح. وقد كان منظر ضوئها المنعكس على رُصُف الشوارع المبلالة وعلى وقائع [1] الطريق، وجملة أهل المدينة الذين كانوا يغدون

(١) الوقائع جمع وقيعة وهى النقرة فى الجبل أو فى السهل يستنقع فيها الماء

ويروحون وسمات الهم والاشتغال بادية على وجوههم . وجلبة الغوغاء[1] التي كان يتعاورها السكوت فجأة ـ كان كل هذا غريباً عندي غير معهود لدي ، وكانت السماء تمطر وكأن لا مطر ـ ذلك انها كانت ترهم[2] إرهاماً خفيفاً جداً يقول رائيه انه لا بد أن يستمر هكذا ألف سنة . وقد حصل في ذهني من سفري هذا في سدف الظلام مجتازة مستنقعات الماء جائلة فيما أجهله من الاماكن صورة مدينة لا أول لها ولا آخر . فيها كثير من ضروب العظمة والبذخ . وكثير من أنواع الحقارة والمسكنة ، فهل هذه هي لندرة ؟

تبوأت النزل الذي كانت وصفته لي السيدة ... فألفيت كل مافيه في غاية النظافة والهدوء والنظام . قدم لي العشاء في غرفة خاصة منه فيها كفايتها من الفرش وهي ملاصقة للغرفة التي أعدت لنومي . وقد راعني من خادمة المائدة جمالها البارع . فبعثني ذلك على مراجعة ذاكرتي لادكار القليل من الانكليزية الذي كنت تعلمته في المدرسة لمخاطبتها بلغتها ، فكانت أجوبتها لي في غاية الاختصار ولم ألبث ان فهمت من احتراسها في كلامها وظهور سيما الحيرة على وجهها ان الخادمات الانكليزيات لا يحفلن بخطاب المخدوم اياهن خلافاً للفرنسيات : والذي أدهشني كثيرا في هذا النزل ان أهله لم يسألوني عن اسمي ولا عن حقيقة أمري ! : عجبا لهذه البلاد التي لا يظهر ان أهلها يعتقدون اني ما أتيت بلادهم الا لقلب حكومتهم (تريد التعريض ببلادها الفرنسية)

(١) الغوغاء عامة الناس وجلبتهم لغطهم غير المفهوم (٢) ارهمت السماء اتت بالرهمة وهي بكسر الراء المطر الضعيف الدائم

اتباعاً لنصائحك قد اهتديت الى محل الدكتور وارنجثون وذهبت اليه في ثاني يوم من وصولي وقدمت اليه مكتوبك فما كاد يأتي على آخره حتى تذكر اسمك وأقبل عليّ تلوح عليه علائم الوقار الفطري

أنشأ هذا الدكتور يخاطبني بالفرنسية وهو يحسن الكلام بها بعض الاحسان فقال: « لقد أصاب زوجك في إرسالك الى بلاد أجنبية فسترتاح نفسك الى المقام في انكلترة بما ستجدينه فيها من اعتدال الصحة الا أني أنصح لك بأن تقيمي في الارياف فانها أجود مناخاً وأصفى هواء فان السكنى في الحواضر العظيمة لا تلائم النساء في الطور الذي أنت فيه الآن ولا تلائم الأطفال أيضاً، وقد أنشأ الكبراء من تجارنا في لندرة يفهمون مزايا الاقامة في القرى ويقدّرونها حق قدرها فتريهم لا يعبأون بالسفر مرتين كل يوم في السكة الحديدية ولا بما يضيعه عليهم هذا السفر من الفوائد الكثيرة التي منها الحضور في ناديهم مثلا وذلك ليمتعوا أسرهم بقليل من نضارة الخضرة ومنافع الشمس فهم يصرفون بذلك نساءهم عن التردد على معاهد التمثيل ومواطن اللهو الليليّ. ولكل امرئ منهم في الحقيقة نصيب من فائدة هذه الاقامة غير أن الاطفال هم أصحاب الحظ الأوفر منها فهم ينشأون في كمال الصحة من هذه المعيشه المطلقة في هواء الفضاء، ولا يكاد يرغب عن ذلك الا الغنجات[1] المتورّنات[2] اللاهيات بالتافه والمحقرات: ولكن ما الحيلة في إرضائهنّ وللامومة واجبات لا بدّ من أدائها؟ تأمّلي في الأطفال الذين يتربّون في المدن الكبيرة، ألا ترين معظمهم شاحبي الألوان سقيمي الاجسام كالنباتات

(١) الغنجات ذوات الدلال (٢) المتورنات المبالغات في التطهيب والتنعم

الموشمة (النابتة في الظلّ المحرومة من ضوء الشمس وحرارتها) أتظنين أنهم على هذا الضعف يزدادون في عقولهم بقدر مايخسرون من صحتهم ؟ كلا انني لا أرى هذا صواباً لان جو المدن الذي أفسده ما فيها من ضروب اللذائذ وصنوف الاعمال لا يلائم بحال من الاحوال نمو العقل الخلقي . وان الاطفال ليبلغون سن الرجولية قبل إبّانه بتأثير تلك الحرارة الصناعية التي في المدن الا أنهم في الغالب يكونون رجالا ناقصين لا يبلغون في الكمال الدرجة المطلوبة »

فاه الدكتور بهذه الكلمات الاخيرة وابتسم ابتساماً انتهى بظهور خطوط عرضية على وجهه السكسوني المستدير الذي يشرف منه على خديه شعر الصدغين القصير الذي قد وخطه الشيب ، ثم استأنف الخطاب فقال :

« دعيني أتولى أمر سكناك في الخلاء فان لي صديقاً يملك في قرية مرازيون بيتاً للنزهة فيه شيء من الجمال والنظام وموقعه تجاه خليج بنزانس وهو يبحث عن مستأجر يؤجره له بجميع أثاثه ورياشه لانه على وشك الرحيل الى ايطالية للمقام بها لاسباب صحية فأنا أرغب اليك في الذهاب الى هذا البيت ورؤيته وأحثك على ذلك وأرى أن في هذا السفر تسلية لك وترويحاً ، ولو أني طبيبك لكان من أول ما أصفه لك تبديل الهواء وكوني على ثقة بأن آلام النفس تزول بتغيير المؤثرات فقلما يوجد من هذه الآلام ما يتعاصى على هذا التغيير كما ثبت لي بالتجارب فان الانسان اذا رأى مشاهد خلوية جديدة يحيا حياة جديدة . وليس لي ان أمدح لك أميرية (كونتية)[1] كورنواي فانها مسقط رأسي . على

(١) الكونتية هي ارض الكونت وهو الشريف من أشراف فرنسة الغابرين

إن الناس قد اجمعوا على القول بانها اكثر جهات بريطانيا العظمى اعتدالا في الاقليم وانها هي التي يعيش في أرضها الريحان والعطر والعود معرضة لهوائها المطلق في جميع الفصول . ان كنت ممن يروقهن منظر الصخور فانك ستشاهدين هناك منها جميع الاشكال في أبهج الاوضاع وأجدرها بالتصوير ، ولست أعرف حق المعرفة مقدار الاجرة التي يطلبها صديقي في سكنى بيته لكني لا أشك في انه لا يخرج عن الاعتدال فيما يطلبه وستجدين في بنزانس زوجتي السيدة وارنجتون فانها هناك هي وأسرتها حتى الآن وستغتبط باستقبالك وأما أنا فسأذهب لزيارتها واستنشاق هواء مولدي كلما تيسر لي الخلاص من اشغالي في لندرة فاننا معشر الانكليز لا نقدر على اطالة الثواء في مكان واحد فالحركة والفضاء من حاجاتنا . وما كان أجدرنا باختراع الآلة البخارية وقد اخترعناها ولا عجب واصبحنا بسبب هذا الاختراع اقل الامم تغيرا فاننا مع سفرنا الدائم في اقامة مستمرة لاننا في أوطاننا أينما كنا »

افترقت أنا والدكتور على أحسن حال من الوفاق والمودة وقد خاطبني في شأنك بما شف لي عن كنه اجلاله لك واعظامه لقدرك ، ولمح لي مرة واحدة في مطاوي كلامه تلميحا خفيفا الى ما أنا فيه من الفرقة الحاضرة . فأبان لي به عن عطف عليّ وميل اليّ ولم يسترسل استرسال الناس في عبارات التعزية والتسلية التي كثيراً ما أذلتني وهضمتني حق إدلالي بصفة الزوجية . تم الاتفاق بيننا على إن اسافر في الغد الى كورنواي وانما عجلت بالسفر لاستقر في مكان ما ، وقد رضيت هذه البلدة لي مقرا لان جميع الامكنة التي لا أراك فيها سواء عندي ...

لما وصلت الى بنزانس اثناء الليل تلقتني السيدة وارنجتون عند نزولي من عجلة المسافرين وكانت في انتظارى لان زوجها كان كتب اليها بذلك واذا أردت ان تتصور تلك السيدة فمثل لنفسك امرأة في نحو الخامسة والثلاثين من عمرها ليست حسنة الوجه ولا دميمته (١) ولكنها محبوبته سوداء العينين والشعر خنساء (٢) الانف عظيمة الفم باسمته سمينة قصيرة على انها خفيفة نشيطة قد أوتيت حظاً وافراً من الحنان والرأفة

لقد كثر مالاحظت انه يوجد في بعض الاحوال بين شخصين مختلفين في الذكورة والانوثة والموطن تشابه كالذى يوجد بين أفراد اسرة واحدة مع ان كلا منهما يكون أجنبياً من الآخر من كل الوجوه . أتدرى من هو الذى حضرت صورته في ذهني عند وقوع بصرى على السيدة وارنجتون ذاك هو صديقك يعقوب تقولا ، خلتني أراه بذاته في زى امرأة

حمل أمتعتي خادم كان يصحب هذه السيدة فوضعها في عجلة ركبناها فاوصلتنا الى منزل الدكتور الريفي . ولهذا المنزل منظر بهيج اذا شوهد ليلاً في ضوء السماء فانه لكونه مبنياً بالصوان كمعظم بيوت التنزه الخلوية والاكواخ التي في تلك الجهة كان حجارته صفائح من اليرمع (٣) والمهو (٤) تلمع كأنها شهب تساقط من القمر ، وفي النهار أيضاً له نوع آخر من جمال المنظر ، فانه قائم في وسط حديقة من الاشجار المجلوبة من البلاد الاجنبية ذات الالوان اللطيفة المختلفة ، وينبسط على طول مقدمه ايوان مسقوف

(١) دميمته قبيحته (٢) خنساء الانف أى أن أنفها متأخر عن وجهها وفي أرنبته ارتفاع (٣) اليرمع حجارة بيض تلمع في الشمس (٤) المهو حجر ابيض يقال له بصاق القمر

تتسلقه شجيرات الفوشياء[١] التي ترتفع ارتفاعاً غير معهود فهو مزدان من داخله وخارجه بزينة بديعة من الازهار لم تر عيني مثلها قط ، ولبيوت النبات الزجاجية المحل الاول في انتظام هذه الدار على ما أرى. لا جرم ان مثل هذه البساتين المسقوفه بالزجاج تزيد المعيشة الاهلية نضارة وحسناً. والغرفة التي تفضل أهل هذا البيت الكريم باعدادها لي واحلتنيها السيدة وارنجتون نفسها بما أوتيته من كامل اللطف وفائق الظرف يخالها الانسان جنة ـ لو أن للأرواح الوحيدة الجريحة أفئدتها من الحزن جنة في هذه الدنيا . . ! — ومن محاسن هذه الغرفة اني عندما أهب من نومي فيها أسمع تغريد القبرة[٢] فيروقني لحنها

السيدة وارنجتون هي والدة كاملة عاقلة فانها تقسم وقتها قسمين ، أحدهما لتربية أولادها ، والثاني للعناية بأمر أزهارها ، ولها من كل قسم منهما شيء من الفراغ يكفيها للمطالعة[٣] ؛ وهي على بعدها عن الدعوى بالاحاطة بالعلوم في المنطوق والمفهوم لها من طرق الاستدلال على مسائل شتى أحكام صائبة وآراء سديدة . وأسرة هذه السيدة يعجب بها من يراها ، فبنتاها الكبيرتان اللتان احداهما ربما كان عمرها سبعة عشر ربيعاً ـ كما كان يقال في تقدير السن سابقاً ـ لكل منهما وجنتان يذوب

---

(١) الفوشياء شجيرة امريكية معروفة بجمال شكلها وطول بقاء زهرها وتنوع ازهارها والوانها وسهولة غرسها وهي من اشجار الزينة

(٢) القبرة بضم القاف وتشديد الباء نوع من العصافير

(٣) من لنا بسيدات مثل هذه السيدة يفهمن قيمة الوقت ويستعملنه استعمالاً فلا يضعنه فيما يعود عليهن وعلى اولادهن وأزواجهن بالخسار والبوار كالتزين والتبرج والاختلاف الى مواطن اللهو وغشيان الاسواق لغير ضرورة

الورد منهما غيرة وحسدا ، وبعد هاتين البنتين صف من بنات أخريات وبنين يتألف فيه من اختلاف رءوسهم بالصغر والكبر وتباينهم بالطول والقصر نظام يحوي أجمل الفروق وابهاها . كثيرا ما كنت أسمع ان النساء الانجليزيات نثر (كثيرات الاولاد) ولكن : الله أكبر ؟ ما هذا الزخرف زخرف الشعور الشقراء والاكتاف المكشوفة والالوان الزاهية الغضة التي ما كنت أسمع بها ! اهـ

الرسالة الثالثة عشرة

﴿ من هيلانة الى إراسم فى ٢٨ مارس سنة — ١٨٥ ﴾

زيارتها جبل القديس ميكائيل ووصفها المنزل الذى استأجرته للسكنى

خرجت بالامس للنزهة أنا والسيدة وارنجتون راكبتين عجلة مكشوفة سلكت بنا المهيع[1] الذي يبتديء من بنزانس وينعطف حول الخليج المسمي بخليج الجبل على شكل نصف دائرة عظيمة كحذاء الفرس فما أبهج ما رأيته وأجمله ! على انه ليس أول شيء أمال ذهني ونبه فكري هو البحر الزاخر أو شواطئه المرصعة بالصخور أو حركة أمواجه المتلاطمة المتعاقبة في تلاشيها على رمل الطريق، بل الذي استوقف نظري هو قطعة من الصوان يعلوها بناء كالدير أو القلعة الحصينة يسميها الانكليز بالجبل : وهي بارزة على يسار بطن الخليج ولذلك نسب اليها فقيل له خليج الجبل. إخالني رأيت هذه الصخرة بما فوقها من الابراج الصغيرة في منام أو في وقعة من وقعات الكابوس علي .

(١) المهيع الطريق الواسع البين

سألتُ السيدة وارنجتون بصوت متقطع من الرعشة عن هذا الشبح الحجري فأجابتني مترددةً لما رأته من حالتي بقولها : هذا هو جبل القديس ميكائيل عندنا فلما سمعت منها هذه الكلمة أحسست بأن كل ما في جسمي من الدم قد جزر عائدا الى قلبي فلمحت ما صرت اليه من الاضطراب وعرضت عليّ الرجوعَ الى المنزل فصحت : لا ، بل لا بد لي من الذهاب اليه فاضطررنا من أجل ذلك الى الطواف حول الخليج والذهاب الى مرازيون .

لما انصرنا حذاء الجبل كان البحر في إبان جزره وكانت هذه الصخرة الصوانية على شكل شبه جزيرة لانحسار الماء عن بعض جهاتها بعد أن كانت جزيرة كاملة بعض ساعات من النهار . سلكنا للوصول اليها شعبار مليا مو-لا يكتنفه من الجانبين قطع من الصخور مغطاة بالطحاب والعلقى (١) المبللة وتيسر لنا به ان نجتاز البحر يبساً وبما كان يعرض لنا من القطع الصخرية كنا كاننا نمشي بين أطلال ، وكنت كلما جد بنا السير أزداد دهشة وارتياعاً للتشابه ذينك الجبلين المتحدي الاسم فان هذه الصخرة بما فوقها من البناء وما حولها من البحر تكاد تكون عين التي في بلادنا الا أن تلك أسعد حظا من هذه فانها لم تدنس باتخاذها سجنا في زمن من الازمان .

افضى بنا المسير بعد حين الى سفح ذلك الجبل فاذا حوله لفيف من مساكن حقيرة يتألف من مجموعها قرية للصيادين والملاحين فوقفنا نشرف علينا الصخرة الصوانية من سموها المريع ، ثم اقتحمناها فاضطررنا في ذلك الى الصعود على شعب بل سلم نحتت درجاته في الصخرة وقد انتهى

(١) العلقى نبت يكون واحدا وجمعا قضبانه دقاق عسر رضها تتخذ منه المكانس

الامر بالسيدة وارنجتون الى ان ضاقت أنفاسها وطفقت تلهث من شدة التعب فدعوتها الى الاستراحة على كتلة من كتل صخرية كانت تعترضنا في طريقنا ويظهر انها خرجت من باطن الجبل بسبب انفجار ناري فما كان اسرع ما أجابت ؛ وجلسنا طائفة من الزمن لا ننبس بكلمة لما أدهشنا من مشهد العظم والخراب فكان البحر محدقاً بنا وذلك البناء القائم الذي هو من آثار القرون الوسطى فوقنا ، وعن ايماننا وعن شمائلنا اطلال من الصخر يغطي جزءاً من عريها بعض الاعشاب البرية . وقد رأيت على ما في هذا المكان من المحول زهرة زرقاء نابتة في صدوع الصخر على طبقة رقيقة من بقايا الاعشاب المتعفنة فقطفتها على ذكراك لعلها تكون بشرى السعادة . كنت الى هذه الساعة التي رأيت فيها جبل القديس ميكائيل مترددة في اختيار البقعة التي أتخذها متبوءاً وسكناً ، وأما الآن فقد استقر لمجرد مشاهدته رأيي وزال ترددي . فكأنما يوجد شيء من السحر في أسماء الامكنة وأشكالها تغلب على فكري فحملني على ترجيح الاقامة بهذا المحل على انه لا بدع ولا سحر ، فهاتان الصخرتان – اللتان تتراءيان وتتناغيان مع فصل المحيط بينهما - وهما جبلا القديس ميكائيل اختان في انكلترة وفرنسة متشابهتان في جميع الصفات والاوضاع فأول هذين الحصنين وهو حصن الانكليز كان حظه من كر السنين عليه الترك والاغفال ، واما ثانيهما وهو حصننا فان له صراخا يصل الى كبد السماء دالا على استبشاع حالته وأمله في الخلاص منها .

ذهبنا في نفس ذلك اليوم لزيارة المنزل الذي أوصاني الدكتور وارنجتوز باستئجاره وقد علمت ان مؤسسي قرية مرازيون التي هو

فيها من اليهود الذين كانوا يتجرون فيها بالقصدير قبل ميلاد المسيح بزمن مديد . وإني لفي شك من وجود كثير من ذريتهم الان في هذه القرية فانه لم يبق من دلائل وجودهم في هذه الجهات الا اسم واحد وهو (اميرسيون) قد ارتاحت نفسي له لانه يذكرني بفرنسة. تتألف تلك القرية من جملة مساكن جديدة على بعضها مسحة من طلاوة المدنية الانكليزية ، وهي قائمة من الخليج على شاطئه المقابل لجبل القديس ميكائيل الذي يتراءى معها على بعد فلها في ذلك منظر ذو بهاء وجلال من محاسنه . ان هذا الخليج ـ وهو تلك القطعة الجميلة من الماء التي تكتنفها الرمال وتتخللها الصخور وخصوصاً ما هو منها جهة الشاطىء المقابل للمنازل ـ تكثر فيه حركات الامواج المعتدلة التي تسكّن آلام النفس وتخفض من برحائها .

بقي عليّ الآن أن أحدثك عن المنزل فأقول : انه لا ينقصه شيء من المتانة والرصانة لانه كله مبنيّ بالصوان الذي يكثر في هذه الجهة دون غيره ولما كانت مادته شديدة الصلابة تتعاصى على النحت اعتاد البناءون على الاكتفاء في إعداده للبناء بترقيق قطعه ، ومن أجل ذلك كانت ظهور جدران المساكن في الجملة خشنة وغير مستوية ، وطريقة البناء في الداخل تخالف كذلك طريقتنا فيه مخالفة عظيمة لانهم لا يقتصرون هنا على فصل البيوت بعضها عن بعض بحيث لا تتلاصق بل هم يفصلون بين الغرف أيضاً بحيث تكون المعيشة عزلة تامة

ذلك البيت قائم على ربوة رملية قحلة فلذلك أخشى أن يكون معرضاً لهبوب الرياح الشديدة الاتية من البحر ، لكن الناس يؤكدون لي أن هذه الرياح التي تهب من هذه الجهة تكون فاترة صحية في جميع فصول

السنة . وأما الاثاث فهو في غاية البساطة والملاءمة الحالتي ، وأكثر ما دهشت له في هذا البيت هو أني وجدت في الطبقة العليا منه غرفتين منفصلة إحداهما عن الاخرى تمام الانفصال ليس لهما في ذاتهما شيء تمتازان به امتيازاً ظاهراً لكنهما على هذه البساطة قد أحسن البناء وضعهما فكان لهما أجمل منظر وأحسن موقع تشرق عليه الشمس ، فالضوء يسبح فيهما بلا حجاب يعترضه لان نوافذهما من أجل أن تتلقاه بالتكريم تكاد تكون مجردة من الستائر وهذا منها نوع من الادب والترحيب بلسان الحال فكأنها تقول له : تفضل فهذا محلك لا يمنعك منه مانع . نعم ان عليها من الخارج بعض قضبان من الحديد انقبض قلبي لرؤيتها أول مرة الا أن هذا الانفعال السيء قد زال عند ما علمت أن هذا المحل هو مسكن الاولاد وأن هذه القضبان لم توضع الا لمنع ماعسى أن يقع من الحوادث التي تكثر عادة من الاطفال بما يلازم سنهم من التهور والجهل بالخطر فهي اذن وسيلة من وسائل التحفظ لاعلامة على الاسر . في إحدى هاتين الغرفتين ينام الاطفال وفي الاخرى يلعبون بالنهار اذا كان الجو بارداً أو السماء ممطرة وقد أكد لي الناس هنا أن هاتين الحجرتين يوجد لهما نظيرتان في كل بيت من بيوت الانكليز التامة المنافع والمرافق .

ولا أنكر عليك أن هذا الامر قد أثر في نفسي فان معظم الدور عندنا في باريس تامة البيوت والغرف والمرافق اللازمة ، وهي حجرة الاكل وقاعة الاستقبال وغرفة النوم والمكتب ومخدع الخلوة وغيرها مما يطابق عادات الرجل الدنيوي وأهواء المرأة المتربية فلم ينس فيها إلا ما يلزم لشخص واحد ، ألا وهو الطفل .

الطفل عندنا بسبب اضطراره الى ملازمة الكبار في معيشتهم وتقضيته الايام والليالي في غرفة واحدة مع والدته العصبية الرقيقة المزاج ووالده المثقل بالاعمال لا بد أن يكون ضيفاً مقلقاً لغيره وأسيراً كاسف البال في نفسه فانه لا مندوحة عن ان تمتد يده الى الاثاث فتفسده وتتناول الكتب فتمزقها والانية الصينية فتكسرها ويجرّ عليه هذا النزق وما ينشأ عنه من الاتلاف الخفيف توبيخاً مستمرا ، فيقرعه والداه ويعاقبانه على نشاطه وسروره ولغطه ، اعني على كونه طفلا .

وليس هذا كلّ ما يلاقيه عندنا فانه أحيانا قد يطرد من مسكن أبويه لضيق المحل فلا يجد له مأوى سوى فناء المنزل وأنت تدري ماهي افنية البيوت في معظم المدن الكبيرة فليست هي الا جحور ضباب .

قد فهم الانكليز مقتضيات المعيشة المنزلية من حيث سكنى الاولاد أحسن مما فهمناها بكثير فهم يعتبرون المولود عندهم شخصاً مستقلا فيفردونه بحجرة قائمة بذاتها .

لم أصف لك حتى الآن شيئاً من بستان البيت على انه هو الذي أخذت بهجته ونضارته بلبي : ليس لهذا البستان سور من البناء وانما هو محاط بسياج من النبات تمطره في شهر يونيه على ما يقال شجيرات الرتم[1] الشوكية ذهباً من أزهارها العسجدية . واذا أردت أن تتصور جمال هذا البستان فتمثل لنفسك نحو اكرين[2] أرضاً تغطيهما جميعا شجيرات الورد

---

(١) الرتم شجرة ذات أزهار صفراء أصلها من اسبانية (٢) الاكر كا فى الاصل مقياس سطحي قدره ٤٨٤٠ ياردة مربعة واحسبه محرفا عن الاكارة القريبة فى المعنى منه لانها فى عرف الفقهاء الاسلاميين ما يعطى من ارض للاكرة أى المزارعين لزراعته

وعنب الثعلب وغيرها من الاشجار الصغيرة . وانما كان مافي هذا البستان شجيرات لان أرضه رملية ومجاورة للبحر فهي لا تصلح للاشجار الكبيرة ولكن قد أنشأت تتفتح بين أعشابه العطرية عيون بعض أزهاره البنفسجية فكيف يكون جماله بعد خمسة أو ستة أسابيع اذا كساه الربيع بلا حساب ما لديه من حلل البهاء والنضارة ؟

قد استأجرت المنزل وسأسكنه في الاسبوع المقبل واما الآن فأنا ساكنة عند السيدة وارنجتون التي تحوطني بانسها الدائم وكرمها الغامر وكل ما أنا فيه من وسائل النعيم يؤلمني وأوبخ نفسي عليه عند ما أذكر سجنك وما أنت فيه من الضيق والالم .

أنا متطلعة لاخبارك أيها الحبيب فأرجوا أن توافيني بشيء منها ، فهل خفت عليك معيشة السجن بسبب تغيير المحل أو زادت ثقلا ؟ اسألك بالله أن تصدقني الحديث ولا تخفي عني منه شيأ

وفي الختام اقبلك من وراء تلك البحار التي وان حالت بيننا لم تفرق بين قلبينا . اهـ

الرسالة الرابعة عشرة

(من إراسم الى هيلانة في ٨ ابريل سنة — ١٨٥)

وجوب محافظة الحامل على سلامتها من الامراض

تلقيت مكتوبك ايتها العزيزة هيلانة فذهب بهروعي وثابت الي سكينتي واطمأن به قلبي عليك كثيرا لشفيقه لي عما فيك من الاقدام والسلطان

على نفسك فانت حقا اشرف صاحبة عرفتها فى حياتي . قدر علي السجن وعليك النفي فاحتملت نصيبك من المقدور شريفة النفس عالية الهمة

ان نصيحة صديقنا الدكتور وارنجتون لك بسكنى القرى صادرة عن حكمة وسداد فان الاقامة بالارياف أولى بك الآن من السكنى في المدن لكثرة ما فى هذه من الصخب والشغب لان الاعتكاف والرجوع الى المعيشة الفطرية هما اللذان يتيسر لك بهما ولا شك استجماع قواك بعد ما لاقيته من الصدمات النفسية التي اخشى ان تكون زعزعت صحتك فأوهنتها .

اعلمي ان من المفروض عليك ان تكوني صحيحة الجسم سليمة من الادواء ، لانك مسئولة من الآن عن الوديعة التي استودعك الله اياها ، ولا تستغربي مني مخاطبتي إياك باصطلاح العلماء بمنافع الاعضاء فاني ما تعلمت الطب عبثا بل تعلمته للانتفاع به . كل كائن دخل في بداية الحياة عرضة للمرض والهلاك . ولذلك كان للجنين أمراض حقيقية . ومن هذه الامراض والعلل الخفية مالا شك في عجز العلم عن إدراك كنهه ، ولكن يحق لنا كل الحق ان نعتقد ان للمرأة دخلا في بعض ما يولد به الطفل من التشوه في كثير من الاحوال ، ولا اخالك نسيت تلك السيدة د ... التي فتنت القلوب ببديع حسنها فانها لما أصابها هوس المرقص وبعثها على ان تقضي فصل الشتاء كله رقصا في قاعات باريس - بل أداها الى الاستمرار على ذلك حتى في ساعة الوضع - قد وضعت بنتا فيها شيء من الجمال على انها حدباء

اذا عرفنا ان لاعمال المرأة تأثيرا في الجنين كما وصفنا تأتى لنا أيضا

ان نقف على العلاقة التي بين انفعالاتها النفسية و بين اخلاق ذلك الجنين الذي يحيا بحياتها ، ويشمله شخصها وتضمه احشاؤها ، فقد كان الحكيم هوب [1] يعلل ما فيه من خلق الجبن بما لاقته أمه من الاهوال أثناء حملها به حينما كانت العمارة الاسبانية المسماة ارمادا الشهيرة تهدد انكلترة وتطوف حول سواحلها ، وكان ما يتخيله أهلها من صورة إغارة الاعداء عليهم يلقي الرعب في قلوبهم

قد طالعت وقائع نيجل [2] فما أشد ما تجدينه فيها من مسكنة الملك يعقوب الثاني [3] فلشد ما كانت ترتعد فرائصه ويصفر لونه عند رؤيته السيف مجرداً من قرابه . فجبن ذلك الملك على كونه مما يضحك الثكلى - ربما كان جديراً بأن يحرك في الانسان عاطفة أخرى اذا صح ان ضعفه هذا ناتج من مشاهد المصائب والرزايا التي كانت تحيط بأمه مريم استوارت [4] في أثناء الحمل به

(١) هوب هو توماس هوب الحكيم الانكليزى الشهير المولود سنة ١٦٧٩ المتوفى سنة ١٨٥٨ ميلادية وهو من أنصار مذهب الاستبداد فى السياسة (٢) نيجل كاتب قصصى شهير (٣) يعقوب الثانى هو أحد ملوك انكلترة السابقين وهو ابن كارلوس الاول تولى الملك بعد أخيه كارلوس الثانى سنة ١٦٨٥ م وحاول رد المذهب الكاثوليكى الى انكلترة وارجاع حكم الاستبداد فخلعه صهره غليوم اورنجا فالتجأ الى لويس الرابع عشر ومات فى فرنسة سنة ١٧٩١ (٤) مريم استوارت هى بنت يعقوب الخامس ملك ايقوسية وأم مريم لورين ولدت سنة ١٥٤٢ وماتت سنة ١٥٨٧ م تزوجت ولى عهد الحكومة الفرنسية الذى صار بعد الزواج فرنسيس الثانى ولما توفى زوجها عادت الى ايقوسية وتزوجت بهنرى دارنلى ثم تزوجت ببوثويل ثم ثار عليها رعيتها فالتجأت الى اليصابات ملكة

يصعب الحكم اليقيني على درجة تأثر الجنين بتزعزع الشجرة العصبية التي تظله في بطن أمه في حالة العلم الحاضرة ، ويكفى وجود الشك في تأثره موجباً على أمه اتقاء أسباب الانفعالات الشديدة والنظر الى الاماكن المشئومة والابتعاد عن المتاعب وعما يجره الاخلاص في الولاء من الشدائد والمحن .

المرأة هي قالب للنوع الانسانى يفرغ فيه فيتشكل بشكله الى حد محدود ، فيجب عليها لهذه الصفة رعاية صحتها والمحافظة عليها . فيلزمها في الحمل أن تكون مستريحة الجسم والفكر مستجمة القوى ولكن يندر ان يوجد بين ربات الجمال من النساء من تصبر فيما جرى العرف بتسميته الدنيا الكبرى على ترك اللذائذ ومجامع الافراح وملاعب التمثيل لتنال شرف الاتيان بأولاد حسان ، بل من خسارة الصفقة لديهن ان يجدن أنفسهن عاجزات عن استئجار غيرهن لتأدية وظائف الحبل كما يستأجرنهن للرضاعة، فانهن لو وجدن لذلك سبيلا لاستأجرت الثريات منهن من عهد بعيد بطون نساء الطبقة السفلى لحمل اجنتهن [1] .

وأما هؤلاء فانهن لكدهن في وسائل المعيشة لا يجدن لهن من الزمن ما يهتممن فيه كثيرا بأمر ذريتهن ، فقد رأيت بعضهن وقد أثقلن حتى كذن يشارفن الوضع تلجئهن ضرورات المعيشة الى غسل الملابس

انكلترة وبقيت فى الاسر تسعة عشر عاما حتى ماتت

(١) كفى بذلك تهكما وسخرية وتقريعا للمترفات من النساء المنغمسات فى شهواتهن اللاهيات بزينتهن عما فرضه الله عليهن من واجبات الامومة التاركات أولادهن بين أيدى من لا يعنيه أمرهم من المراضع والخادمات

في نهر السين زمن الشتاء فكن يغمسن اذرعتهن في مائه المثلوج أو تضطرهن الى دفع عجلات محملة لتمشيتها أو الى حمل أثقال باهظة يرتاع لها الاشداء من حمالي الاسواق . وبهذا تعلمين ماجر علينا مافي اخلاقنا من الاثرة وحب الاختصاص من رداءة النسل ، كل ما يضعف المرأة التي هي قرينة الرجل وصاحبته يضعف الذرية ويحط من شرف الجنس ، فاذا أراد المجتمع الانساني ان يضمن لنفسه الحصول على أولاد حسان الخلق يكونون في المستقبل رجالا أشداء فلا يتسنى له ذلك الا بتحرى العدل في تقسيم ثمرات العمل بأن يعرف للمرأة ما تستحقه من الاحترام والاجلال . اه

الرسالة الخامسة عشرة

(من إراسم الى هيلانة في ١٠ ابريل سنة — ١٨٥)

(التربية الاولى من خصائص الام)

« غرضه من تربية ولده أن يكون حرا لا أن يكون من كبار الرجال »

ليست مكتوباتي اليك كغيرها مما يكتب الناس بعضهم الى بعض وانما هي أحاديث مسجون يناجي بها في عزلته أعظم شقيقة لنفسه وأحسن قسيمة لروحه

ولا بد أن يكون قد سبق الى ذهنك ما أقصده منها ففطنت اليه . اني أريد ان أعمل ما أستطيع وأنا في مطارح النوى لتحصيل السعادة لذلك الذي بشرنا الله به ، فانه ليعرض لفكري ان هذا الطفل

ربما لا يعرفني ولا يراني أبدا ، وقد يتهمني يوماً ما بأني اهملت مافرضه الله علي من الواجبات التي تحفظ حقوقه بالقيام بها ، فيحرج لذلك صدري ، وتنقبض نفسي ، ولكنني لا اخالني مستحقا لهذا اللوم اذا كنت على ما أنا فيه من العجز عن حياطته بضروب الرعاية وصنوف الملاطفة ادفع له دين الابوة من نقد آخر .

اني بما أكتبه من الرسائل سأؤدي على بعدي من ولدي مافرض له علي من حقوق التربية ، لاعوازغيرها من الطرق المثلى لاداء هذا الفرض ، فقد درست شيئاً من أحوال الانسان في تطوافي حول الارض مشتغلا بصناعة الطب في السفن ، ورأيته في أقاليمها المختلفة . وفي أعمار مجتمعاته المتباينة ، ولذلك أرى في قدرتي ان استنتج من افكاري ومما تحفظه ذاكرتي من الحوادث طريقة للتربية مؤسسة على نواميس الكون وتاريخ وقائعه ، فعلينا الآن ان نتبادل الافكار في ذلك ، فسأكتب اليك بما يبدو لي وتكتبين الي بما يعن لك ، حتى تتحد روحي وروحك في السهر على مهد هذا الولد العزيز رعاية له وعناية بشأنه

سأراه في منامي يشب وينمو ، وأنت ستحدثيني عنه في مكتوباتك وستخبرينه بوجودي ، ولاموجب لاهتمامك بمستقبله ، فان تربية الطفل الاولى هي من خصائص والدته وانت أهل للقيام بها وحدك بما فيك من يقظة القلب وتوقد الذكاء ، وسننظر بعدُ فيما يلزم من أمور تربيته المستقبلة

على اننا يجب علينا ان نعين الغاية التي يلزمنا ان نرمي اليها في مساعينا . اني لا أعلم مطلقا بوجود قالب يفرغ فيه الناس فيخرجون من النابغين ، ولئن كان فليس هو للتربية قطعا بل يكون بين يدي

الخالق (سبحانه) ليهيئ به من يشاء لما يشاء، فاذا كان ولدنا ذكراً كان غرضي من تربيته ان يكون رجلا حرًا، ولا أقصد بحال من الاحوال ان يكون من كبار الرجال وعظمائهم اهـ

الرسالة السادسة عشرة

(من إراسم إلى هيلانة في ١١ ابريل سنة — ١٨٥)

تشابه السجون في جميع البلدان وتسرية همه بالمطالعة

أراك متطلعة الى أخباري راغبة الي في أن أوافيك بشيء منها، فها أنا ذا أخبرك بأن السجن واحد في جميع البلاد، فليس بين المكان الذي تركته وبين هذا الذي أسكنه الآن على رغمي كبير فرق، وإني من عهد وصولي اليه قد لجأت الى المطالعة فاني وجدت الكتاب في غيبتك عني أحسن قرين لي يؤنسني ويسري عني الهم. ماذا أقول بعد ذلك؟ غاية ما أقول لك اني عائش راج الفرج ثابت على حبك والسلام. اهـ

الرسالة السابعة عشرة

(من هيلانة الى إراسم في ١٥ ابريل سنة — ١٨٥)

قرارها في المسكن الجديد — مجيء قويبدون وزوجته جرجية من فرنسة — مقارنتها بين الفرنسيات والانكليزيات في تربية الاولاد

قد تم لي القرار في المنزل الذي استأجرته، وفي صباح هذا اليوم قدم على إحدى السفن التجارية خادمانا الزنجيان قويبدون وزوجته جورجية آتيين

من فرنسة حيث كانا تخلفا عني لحزم امتعتنا. فاسكنتهما رواقا ملاصقا للمنزل من ناحية البستان وانا الان اساعدهما في نفض كتبك وترتيب مجموعاتك

لم يكد يستقر هذا الزنجي البار حتى وجه عزيمته الى أعمال شتى فصرح لي ان في نيته قلب أرض البستان و بذر الحبوب وتطعيم الاشجار وغرس انواع من النبات فيها الى غير ذلك من الاعمال ، وقال لي انه ان لم ينتج بستاننا عما قليل أطيب فواكه البلد وأجود بقوله فلا يكون هو الملوم في ذلك ، وهو يذكر سابق اشتغاله بزراعة الارض أيام رقه، وهو فرح فخور بانه ينبعث الآن الى العمل بسائق الشكر والاقرار بالنعمة بعد ان كان لا يلجئه اليه الا خوفه من أليم الضرب بالسوط، ويقول: ما أشد اتقان ما سيصير اليه شغلي، فقد أصبحت مالكا نفسي منفكا من ربقة الاستعباد

لا اخفي عنك أن المقارنة بين اسمه والمسمى كانت مدعاة للضحك ومثاراً للاستغراب، وان سكان مرازيون يضحكون منه لأنهم يستصعبون التوفيق بين معنى العشق . وبين مشفري ذلك الزنجي الغليظين وأنفه الافطس وجلده الاسود [1] واني لأخشى أن يكون هذا الاسم لم يطلق عليه من مواليه السالفين الا تهكما وسخرية ، ولكني على رأيي هذا لم اجسر ان اكلمه في تغييره فاني لو فعلت لكان هذا اعترافا مني له بأنه دميم ، أو تصريحا بأن البيض لا ينصفون مثله من سكان افريقية

أنا في هذا البلد أعيش بمعزل تام عن الناس فلا أتردد الا الى دار السيدة وارنجتون حيث اصادف احيانا بعض سيدات من بنزانس أو

---

(١) « قوبيدون » هو في خرافات اليونان ابن الزهرة الهة الجمال وهو عندهم اله العشق والغرام

من ضواحي مدينة لندرة ، والذي يهمني كثيراً في اختلاطي بهؤلاء السيدات هو الطريقة التي يجري عليها الانكليزيات في تربية أولادهن وأنا مجتهدة بملاحظتي اياهن في تعلم مهنة الامومة

سكان كورنواي — وان صح انهم ليسوا من نسل الانكليز السكسونيين لما يقال من انتسابهم الى فصيلة من الصقالبة ولما أراه بينهم وبين البريتونيين [1] من المشابهة التامة في لون الشعر وملامح الوجه - يعيش بينهم عدة من الاسر « العائلات » الانكليزية ومن كانوا من الباقين غير انكليزيي الاصل فقد تخلقوا بأخلاق تلك الامة التي الحقهم بها الفتح وسرت فيهم عاداتها على تفاوت في ذلك قلة وكثرة .

انظر كيف يستقبح النساء في انجلترة طريقة تقميط الاطفال ويستهجنها ، وتقول الوالدات منهن استهزاءً بنا . اننا ندخل اطفالنا في اكياس رثاء الناس ، حتى اذا سنحت لنا الفرصة علقناهم على مسامير في الجدران ، واكتفينا بذلك مؤونة ما تستلزمه حالتهم من العناية والرعاية اذا كانوا غير مقمطين . وانما ساغ لهن ان يقلن ذلك لان اطفالهن يتمتعون بتمام الحرية في حركاتهم ، لانهن يلبسنهم ثوباً طويلاً من الصوف اللين (فانيلا) فيكونون فيه مالكي أنفسهم على قدر ما لهم من القوى الصغيرة في تلك السن ، واني والحق أقول معجبة بهذه العادة لاني كثيرا ما ساءني رؤية الاطفال يربطون وتحصر اجسامهم في لفائف تضم اطرافها بالدبابيس فيكونون كجثث محنطة لفت بشرائط من الكولان [2]

(١) البريتونيون هم سكان بريطانية وهي أحد أقاليم فرنسة

(٢) الكولان نبت البردي

أطباء الانكليز كافة يمقتون ما يجعل في أثواب الاطفال من الحبال التي يعتمدون عليها في دبيبهم وما يتخذ لهم من الدراجات الخيزورية [1] والآلات المتدحرجة لاجل مساعدتهم على الدرجان ، ويؤكدون ان استعمالها مما يؤدي الى تشوه صدر الطفل واعوجاج ساقيه بما يستلزمه ذلك الاستعمال من وقوع ثقل الجسم كله على العقبين

بل الدكتور وارنجتون قد بالغ في الامر حتى قال بوجوب تعويد الطفل من نعومة اظفاره ان تكون أعماله كلها عن قصد وعزيمة ولهذا يجب ترك اقامته وتمشيته بالآلات الصناعية حال عجزه عن ذلك بنفسه لان فيه اضلالا له في فهم مقدار قواه فانه حينئذ يتوهم انه يدرج بنفسه والدارج في الحقيقة هي تلك الآلات التي يعتمد عليها وهو وهم يصحبه طول حياته ويظهر أثره في عامة شؤونه .

يتعلم الاطفال هنا الحركة والانتقال بأنفسهم فانهم يتركون وشأنهم في التحرك فيتدحرجون ويحبون على بساط يفرش لهم ، وينالون من القوة تدريجاً ما يمكنهم من الوقوف ثم يخاطرون بأنفسهم فيخطون خطوات مستعينين فيها بالاعتماد على ما يكون قريباً منهم من أثاث المكان فاذا اضطربوا لضعفهم تلقتهم أذرعة مهاتهم فتمنعهم من الوقوع.

هذه الطريقة التي هي سنة الله في خلقه ـ وليست سوى التخلية بين الطفل وعمله — هي أكثر انتشاراً في أمريكا منها هنا ، فقد سمعت بمناسبة الكلام فيها ان سائحا انكليزيا صادف يوماً وهو في الولايات

(١) الخيزورية المصنوعة من الخيزور وهو الخيزران

المتحدة بأمريكا صبياً في الثانية أو الثالثة من عمرة يزحف بيديه ورجليه على حرف قنطرة مدعثرة يتدفق من تحتها سيل صخب ، فارتاع لقحوم هذا الحدث المتهور في الخطر فأسرع في التماس والدته فاصابها جالسة مطمئنة على حافة مجرى هذا السيل نفسه تغسل ثيابا فثل لهاماراه من حالة ولدها وهو فزع متخوف عليه الهلاك ، فما كان جوابها الا أن قالت غير مدهوشة ولا منزعجة « ان الصبي معتاد العناية بنفسه ووقايتها واني اذا عدوت اليه لابعاده عن مظنة التهلكة مظهرة له الجزع والهلع كان ذلك ولا شك مذهباً لرشاده مضيعا لسداده » فلما سمع السائح الاجنبيّ منها هذا القول اقتصر على مراقبة الطفل لينظر ماذا يكون من أمره فرآه قد مكنه ما بذله من قواه من تنكب طريق الهلاك .[1]

أنا ان سيقت لي الدنيا بحذافيرها على ان أرى صبيا لي في هذه الحالة ما رضيت . ولكن تلك المرأة لم تخطىء خطأ بينا في تعريضها ولدها للخطر على ما رأيت كما قد يسبق الى الذهن بل هي قد فهمت فروض الامومة الحقيقية أحسن مما فهمناها ، فان هذه الطريقة في سياسة الاحداث من بداية نشأتهم هي سبب ما نراه في سكان أمريكا الشمالية من ميلهم الى المخاطرة وشغفهم بالاستقلال .

الوالدات الانكليزيات كافة يتمنعن من تغطية رؤوس أطفالهن ولا يقيان

---

(١) يوجد لهذه الحالة نظير فى أولاد الطبقة الدنيا من الامة عندنا وفى كل أمة وسببها ضرورة اشتغال الامهات بتدبير حاجات المعيشة وعجزهن عن استئجار غيرهن للقيام به وحبذا لو جرى نساء باقى الطبقات على هذه الطريقة التى تؤهل المرء للاستقلال من بداية حياته .

ان يضعن عليها القبعات المحشوة بالوبر التي هو تيجان الضعف . نعم انه قد يعترض عليهن بما في ذلك من تعريض الاطفال للخطر لما يتوقع من سقوطهم ولكنهن يدفعن هذا الاعتراض أولا بأن رعايتهن لهم واهتمامهن بأمرهم ، يقومان مقام الوسائل التي تتخذ عادة لوقايتهم ، وثانيا بأن الطفل كلما شعر بقلة أسباب الوقاية من جانب الغير زاد احتراسه وتوقيه فيلزم أن يربى فيه من صغره خلق الاستقلال بحماية نفسه والدفاع عنها لا ان يعول في حفظه علي بعض طرق احتياطية لا تغني عنه شيئا وهي دائما مبنية على الوهم والخطأ قل ذلك أو كثر . اذا شاهدت الطفل الانكليزي وهو مكشوف الرأس والذراعين والساقين خالته هرقلا[1] صغيراً وان كان لا يخنق الافاعي لانقطاع دابرها من جزيرته ؛ ولكن قد بدت عليه مخايل الجسارة وسمات الجراءة والاقدام من أجل هذا كان لا يوجد دم اغزر مادة من دم الانكليز ولا نسل أقوى من نسلهم ، وأجسامهم مبرأة من العاهات فهي عندهم في غاية الندرة ، ولا إخالك تصدقني اذا قلت إني الى الآن لم يقع بصري على أحدب منهم ، وفي رأيي ان جمال النسل حجة قائمة تنطق بأفصح لسان مؤيدة مذهب الحرية الذي جرى عليه جيراننا في طريقة تربية أولادهم

المهد المذبذب الذي هو من لوازم الاطفال عندنا قليل الاستعمال جدا فيما وراء (بوغاز) المانش (أي في بلاد الانكليز) وانما يوجد للاطفال سرر كثيرة ليست من الاراجيح التي تهتز باليد كالتي عندنا ،

(١) هرقل هو ابن المشترى على ما في أساطير اليونان وهو من أشهر الشجعان طار صيته باعماله التى منها خنق الافاعى

فالانكليز عامة يسترذلون عادة هزّ الاطفال ويقولون انها ذريعة الى تعويدهم ان لا يناموا الا بوسائل صناعية . تعلمهم هـذه العادة ان يلتمسوا راحة أبدانهم عند غيرهم على حين انه يلزمهم ان لا يطلبوها الا من أنفسهم ومن الفطرة التي فطرهم الله عليهـا . نحن لا نهتم بما ينشأ عن اتخاذ تلك الوسائل الباطلة الموافقة لرغائب أطفالنا من الآثار السيئة في طباعهم ، ولا نطيل النظر في ذلك . الطفل قبل تمييزه وتمايز أنواع الوجدان فيه يكون في فطرته من الاحتيال ما يمكنه من الانتفاع بضعفه وتسامح من يكتنفونه، فكم من أناس انقضى دور طفولتهم وهم لا يزالون في حاجة الى الاهتزاز طول حياتهم . فلا تعرف لهم نوما ولا يقظة ، بل تراهم في غفلة عن أنفسهم تحركهم عوامل العالم الخارجي فيرون في أحلامهم وخيالاتهم انهم يهتزون ، وكان الاولى ان تصيح بهم الشهامة ليهبوا من رقادهم ويشمروا عن ساعد الجد للعمل والمغالبة في ميدان الحياة

أخشى أن يكون كل كلامي هذا قريب الشبه بالوعظ الديني ، على اني لم آت به من تلقاء نفسي بل سمعته بما يقرب من عبارتي من قابلة وقور صديقة للسيدة وارنجتون مشهورة هنا بأن قولها حجـة في فن التربية فان التربية في انكلترة هي أول علم يتلقاه النساء .

إخال الولدان في انكلترة أقل بكاء منهم عندنا ، ولست واهمة في ذلك فان بكاء الطفل انما يكون لتألمه من عارض يلم به ، وان ما منحـه هنا من الحرية وما حيط به من ضروب العناية الصحية وما سن له من قانون الغذاء يساعد على صحته ونموها . ولا بدع في ذلك فانه اذا كان للانكليز عناية كبرى بترقية نسل العجماوات حتى لا تجد أجمل من

خيلهم ولا أحسن من كلابهم فكيف مع هذا يظن انهم يغفلون تربية الادمي الجسمانية.

الوالدات الانكليزيات في الجملة يرضعن أولادهن بأنفسهن متأسيات في ذلك بملكتهن ، ومن هنا كان لفظ المرضع عندهن لا يؤدي المعنى الذي وضع له عندنا ، فلا يراد به الا المرأة التي تقوم على الولد في تربيته فالمراضع عند جيراننا ينقسمن الى قسمين متمايزين كل التمايز (أولهما) الحاضنات ويسمين عندهم بالمراضع الجافات (ثانيهما) المراضع الحقيقيات ويوصفن بذوات البلال[1] الا أن هؤلاء أقل عددا ممن عندنا ، ولا يرجع اليهن الا عند الضرورة الملجئة حيث تكون الام في غاية العجز عن ارضاع ولدها ، بل كثير من الانكليزيات يفضلن إلقام ولدانهن زجاجات اللبن على إلقامهن اثداء الأظآر (المراضع المستأجرات) وانهن ليوسعننا لوما على تفريطنا فى هذا الامر . ولا أخالهن الا محقات فى ذلك فكم من الفرنسيات المترفات من يكلن ارضاع ولدانهن الذين كان يجب أن يكونوا أعز شيء عليهن فى هذا العالم الى نساء من أهل القرى جافيات الطباع قذرات الابدان لا يرضينهن مساعدات لهن فى التزين والتحلي .[2]

النظافة عند الانكليز هي في حق الاطفال أساس تدبير الصحة وهي عامة في كل الطبقات حتى الفقراء فانهم يغسلون أولادهم في كل صباح

(١) البلال بكسر الباء ما يبل به الحلق من الماء أو اللبن

(٢) قد شاعت هنا أيضا عادة ترك الاطفال للمراضع بين نساء الخواص وما سببها الا التزام مقتضيات التمدين الغربي الفاسد فهن جديرات أيضا بهذا اللوم الذي توجهه هذه الام الحكيمة الى الفرنسيات

يشدد الاطباء هنا النكير كما يفعل رصفاؤهم في البلاد الاخرى على لبس النساء الغلائل المحزوقة (الضيقة الضاغطة) فلا يصغي لهم أحد فالصينيات يتلفن أقدامهن بالنعال الضيقة ونحن نتلف قدودنا بهذه الغلائل المحزوقة جاريات فيه على ما حكمت به العادة فراراً من السمن وبروز البطن عند الحبل على انه يجب الاعتراف بأن الانكليزيات أقل منا عناية باخفاء حبلهن : بل هن يفتخرن به ، فقد شبهت احداهن المرأة الحبلى بالشجرة المثمرة فقالت « مثل المرأة في سبيل انشاء الاسرة كمثل الشجرة تحمل ثمرتها » .

ألا تذكر أننا في أيام الهناء الخالية لما كنا نتمشى في متنزه التويليريا (١) أو في حديقة لوكسمبورج (٢) كثيراً ما تألمنا لرؤية أولئك الاحداث شهداء البدعة الذين يخرجهم اصولهم متبرجين بالزينة فتلبسهم حاضناتهم ثيابهم وزينتهم من القدمين الى الرأس قبل خروجهم ، ويكون من وراء ذلك أن الطفل الحسن البزة لا يعتبر طفلا ولا يكون المقصود من اخراجه تسليته وترويح نفسه ، بل تحصيل اللذة لغيره ، فاذا أولع بالبحث في الارض بيديه أو جرى في مهب الريح فعبثت بتناسق ذوائب شعره الجعد الجميل وبخ وعنف على انه وسخ نفسه ، ولم يمتثل ما أمر به من

---

(١) سراى التويليريا قصر كان مقرا للملوك فرنسة في باريس وكان بناؤه من أجل الملكة كاتيرينة مديسيس والذى ابتدأ بناءه هو المهندس فيلبير دولورم وأتمه من بعده المهندسان جان لولان ولوفو وأحرق فى مايو سنة ١٨٧١ فى عهد حكومة الشعب ثم جدد (٢) لوكسمبورج قصر فى باريس بنى لمريم دومدسيس فى مدة خمس سنين من سنة ١٦١٥ الى سنة ١٦٢٠ والذى بناه المهندس يعقوب دوبروس

السكون ، فكأن ذويه لا يرومون تنزيهه وانما يريدون عرضه على الانظار فليس الذي يقصد أولا وبالذات من تلك النزه هو إمتاع الطفل بحرارة الشمس وهواء الفضاء اللذين يقويان صحته وينميان اعضاءه بما يكون معهما من الرياضة والحركة ، بل المقصود منها هو اتخاذه ألعوبة أنيقة يطأ من بهاؤها وورونقها من نخوة الامهات الاخريات ويكسر من زهوهن ، فاذا رأت الام ننيتها ترفل في ثوب من الخز . مزين بالطراز المثقب ، (التانتلا) قالت في نفسها مغتبطة لو رأتها السيدة فلانة أو السيدة فلانة لانشقت مرارتها غيرة وكمدا . الى هنا أمسك عنان القلم عن الاسترسال في هذا الموضوع فاني صرت عيابة على مايظهر لي .

النساء الانكليزيات يحملن أولادهن أيضاً بفاخر الثياب ويخرجن بهم الى المتنزهات بل هن يبالغن فى ذلك أحياناً فيصلن الى حد الافراط غير أن هذا لا يكون الا فى أيام الآحاد وأما الاطفال الذين ينشئون في القرى فيندر أن يأنسوا من أنفسهم الحاجة الى الخروج طول الاسبوع لان القائمين عليهم يخلون بينهم وبين اللعب في حديقة البيت والمرح فى حر الشمس ، وعلى البنات منهم دروع قصيرة وعلى البنين قمصان خفيفة من الصوف ولا يبيحون لأنفسهم التعرض لهم في ألاعيبهم ، وأما نحن فيحملنا هوسنا بتدبير كل شيء وادارته الى التدخل في تنزه الاطفال واستراحتهم بسياستهم في ذلك وضبطهم بقواعد لا يتعدونها .

لم يغب عن ذاكرتك اننا كنا يوماً في قاعة السيدة .... جالسين معها فدخل علينا ولدها الكبير وهو صبي كان وقتئذ في الرابعة أو الخامسة من عمره تلوح عليه سمات السماجة والتفت الى والدته فسألها قائلا : أماه

ماذا ينبغي أن أفعل لا تسلى وأروّح نفسي ؛ لا أزال أتذكر اندهاشك لهذا السؤال وما جرى من المزاح والضحك بيننا بسببه . على أن هذا الصبيّ المسكين كان له حاضنة تنقد أجرة كبيرة جداً . ولذلك أحيل عليها لتسليه ، وكان يظهر من حالها انها في غاية الضجر من عملها .

في بعض الاسر الانكليزية أيضاً حاضنات الا أن الذي عرفته بالمشاهدة من أمرهن أنهن يسسن رعيتهن الصغرى كما تسوس ملكة انكلترا رعاياها ، أعني بذلك أنه لا يكاد يكون لهن سلطان عليها خصوصاً فيما يتعلّق بأنواع اللعب وضروب التسلي . يستدل جيراننا على وجوب إطلاق الحرية للاطفال في ألاعيبهم بأدلة سديدة على ما أعتقد ، فيقولون ان الكبار في اشتراكهم مع جماعة الاحداث الفرحين المرحين في تلك الالاعيب يرجعون دائماً الى أذواق أنفسهم أكثر من رجوعهم الى أذواق أولئك الاحداث ، فيغفلون بذلك اعتبار رأيهم في مسألة لا مرية في أن موضوعها القيام لهم بحقوقهم ، وليست هذه الحقوق من الكثرة بحيث يسلم المطالب بها من وخز وجدانه اذا هو هضم منها شيئاً . ولهم حجة أقوى من هذه وهي أن حرمان الاطفال من الاختيار يميت فيهم روح الافتطار (الابتداع والانشاء) والانبعاث النفسي الى العمل ، فاننا به نمحو آثار نوع ميلهم الفطري ونقيم ميلنا مقامه : فهل هذا هو الوسيلة الى تربية طباعهم ؟ الطفل اذا كان نشيطاً صحيح الجسم سهل عليه أن يستقل بنفسه في التنزه والتروح فاذا جرى على ذلك اعتاد أن لا يكون تابعاً لغيره في لعبه ومرحه . ألم تكن عادة عدم الاستقلال عند الاطفال فيما ذكر هي سبب ما كان يعتور أولئك الملوك الغابرين من الكدر

والضجر فيضطرهم الى أن يجعلوا في حاشيتهم من المجانين[1] من يضحكهم .

يبدو لمن يدخل بيتاً انكليزياً لاول وهلة خصوصاً اذا كان مثلي لا يزال متأثراً بالافكار الفرنسية ان ما بين أهله من العلائق والمعاملات عليه سمة الفتور والاحتشام ، فيرى الوالدين فيه أقل تملقاً لاولادهما وأرغب عن ملاطفتهم منهما عندنا ، وكذلك يرى الاولاد اقل انساً بالاجانب ومباسطة لهم ، وكلامي هذا انما هو علي جماتهم فلا ينافي ان يكون فيهم من هو على غير هذه الصفة . وان أردت أن تعرف ان كان هذا الظاهر من فتور العلائق وتراخيها منشأه طبع الامة الغريزي أو انه مقصود جريا على مقتضى مذهب أو قاعدة في التربية فاليك رجع صدى محاوراتي في هذا الموضوع مع القابلة الجليلة صاحبة الفضل علي خصوصاً في الارشاد والتعليم قالت : ان الانكليز يجتنبون اظهار كثير من الملاطفة والمراعاة لاولادهم حتى لا يكون عليهم للمزاعم السخيفة سبيل . وأما نحن فان الطفل عندنا يعامل مع الارتياح معاملة المرأة فكلاهما يُعَوَّد أن يُحب أكثر مما يجب هذا النوع من المعاملة ينتج الفنجات[2] من النساء والعارمين[3] والعوارم من الاطفال . المحبة تدعو الى المحبة واما أنواع التملق والمخادعة فانها تنمي جراثيم الأثرة والزهو ، فالطفل الذي يتزلف اليه والداه كما يتزلف الناس الى العظماء لنيل الحظوة لديهم — وهذا هو شأنهما معه في الغالب — لا يلبث

(١) المجانون بتشديد الجيم جمع مجان وهو كثير المجون أى الهزل (٢) الفنجات ذوات الدلال (٣) العارمون جمع عارم وهو الفاسد الشرس والعوارم جمع عارمة

ان ينتهي به الامر الى اعتقاد ان الناس مدينون له بكل شيء وانه ليس مدينا لاحد منهم بشيء »(١)

هذا ما بدا لي من الملاحظات نصصته لك على علاته موقنة بأنه سينال حظا من اطلاعك وبحثك ، وماذا أزيدك عليه ؟ لم يبق عندي ما اتحفك به سوى ان مثالك العزيز لا يفارق خيالي وحبك الراسخ لا يزايل قلبي . رتبت بيتي فجعلته لسكنى اثنين كما لو كنت ستحل به غدا ، ونظمت مكتبك أيضاً فجعلت ما فيه من الكتب والاوراق كلا في موضعه ، وهو الآن مشوق اليك فعسى أن لا يطول عهد خلوه منك . هذا أمل أرجو ان لا أحرم منه فانه لولاه لقضى علي الفراق . وقد علقت رسمك في مطعمنا الصغير ففي ساعات الاكل اجلس للمائدة مواجهة له فأري لصورتك فيه نوعاً من الحياة ، ويخيل لي حينئذ اني اتغذى معك وجها لوجه كما كنا أيام القرب والصفاء . ما أولعني بالنظر الى هذه الصورة فلا بد ان ولدنا سيأتي مشابها لك ، والسلام في الختام

حاشية — أسألك على ذكر هذا الولد ماذا تريد ان تسميه ؟ اه

---

(١) ليتأمل الوالدون المولعون بحب أولادهم العاجزون عن كتمانه عنهم المسرفون في ملاطفتهم المسارعون في مرضاتهم فيما أودعته هذه الكلمات الطيبة من الحكم القيمة والعبر النافعة وليجعلوا في ذلك رحمة بأفلاذ أكبادهم أن تفسد طباعهم وتسوء أخلاقهم وليضعوا كل شيء في موضعه وليقتدوا بمن قال فيه القائل

فقسى ليزدجروا ومن يك راحما فليقس أحيانا على من يرحم

الرسالة الثامنة عشرة

﴿ من إراسم الى هيلانة في ٢١ ابريل سنة — ١٨٥ ﴾

موافقته لها في انتقادها التربية عند الفرنسيس

قد أصبت أيتها العزيزة هيلانة في انتقادك طريقتنا في سياسة الاطفال فانها جديرة بالاستهزاء والسخرية ، ولكن يالها من طريقة تلائم أخلاقنا وأوضاعنا السياسية ملاءمة عجيبة. فلا افراط في التضييق على الطفل وحصره في لفائفه اذا كان حظه في مستقبله ان يقمط ويشد بجميع أنواع القوانين والاوامر ، واما حبال الملابس التي تمسك بها عند المشي فلا تعوزنا وعندنا منها ما يناسب جميع الاعمار لانه قد يجوز ان لا نحسن المشية فتلزمنا تلك الحبال ان نمشي على صراط مستقيم ، وان نمضي الى حيث يريد من يقودنا . ان القائمين علينا في تربيتنا ليسلبوننا من أول نشأتنا كل ما أودع فينا من حسن الظن بأنفسنا وثقتنا بها ، فما اعقلهم وابعدهم نظرا في العواقب ! ! هذا يعلمنا ان نكون في جميع امورنا تابعين لغيرنا ، معتمدين عليه في حفظنا ووقايتنا فاننا بتعويد الناشئين ان يقادوا في درجاتهم . ويهزوا في مهودهم ، ويساسوا ويراقبوا في جميع حركاتهم وسكناتهم ، نؤهلهم لان يعيشوا في مستقبل حياتهم بأعين الشرطة وتحت سيطرتها فما أجملها طريقة تتسلسل اجزاؤها ! ! التسلسل هو أحسن لفظ وجدته للتعبير عن اتصال غاياتها بمبادئها .

ان ما ذكرته لي من الطريقة التي يجري عليها الانكليز في تربية أولادهم قد أسفر لي عن وجه الحكمة في حسن أحوال انكلترة وابان لي انه لا سبب لوجود مالها من الاوضاع والقوانين الحرة الا ما تتخذه من الطرق في تربية أبنائها على مبادىء الحرية والاختيار. نحن في فرنسة نفرط في تعليق آمالنا بالحوادث، ونفرّط في الاعتماد على ما اوتيناه من القوى، فاذا أقول في وصفنا غير اننا لسنا فرنسيسا بل نحن يهود لاننا دائما على رجاء من نزول المسيح في صورة حاكم يرفع قواعد العدل ويخلص الناس من عوادي الجور.

ولست أقصد بهذا الكلام ان أنكر قيمة ما تناوب حكومتنا من التغير في صورها وما نتج من ذلك من المزايا فان هذا بعيد عن فكري لاني لو كنت ممن لا يعبأون بالشؤون السياسية لما وجدت حيث أنا الان. على اني قد وصلت بعد طول النظر ومخض الرأي في ذلك التغير الى اعتقاد ان ملك الحرية لا قرار له الا في نفوسنا، وأننا اذا أردنا تمكين دعائمه في الامة وجب علينا أولا ان نؤسس أصوله في قلوبنا. اهـ

الرسالة التاسعة عشرة

﴿ من إرابسم الى هيلانة في أول مايو سنة — ١٨٥ ﴾

تسمية المولود وانتقاد طريقة التربية فى فرنسة
وتوصية زوجه بعدم اتباعها فى حق ولده

تسأليني في خاتمة مكتوبك عما نسمي به ولدنا. نسميه «أميل»

اذا جاء ذكراً إحياء لذكر هذا الكتاب [1] الذي كنت اقرأه لك في مطالعتنا الليلية فكان في نفسك مبعث الطرب والاعجاب حتى اني كنت أكف عن القراءة حينا بعد حين لأشاهد وجهك في ضوء المصباح فأتبين فيه ذلك . ويا له من عهد تحفظه ذاكراتي لتلك الايام السعيدة .

من البدع التي جرت بها ألسنة الاكياس [2] من الناس منذحين سبهم جان جاك روسو واحتقارهم اياه ، فويل لهم مما يرمون به قبرذلك الكاتب العظيم من نبال اللمن والقدح ؛ وانهم لجديرون بالرثاء لعقولهم. لم يكن ذنب ذلك الرجل الكبير سوى انه خالف سنة أهل النظر في عصره وهي اعتمادهم في اصلاح المجتمع الانساني على الرجال ومخاطبتهم إياهم فيه بأن وجه خطابه الى الوالدات والاطفال ، وهو أمر هداه اليه ما فطر عليه من جودة الطبع وذكاء القريحة . على اننا لو جردنا كتاب « اميل » مما فيه من العبارات الفصيحة التي امتلأت بها صحفه والشتائم الشديدة المنبعثة عن وجدان كبر عليه احتمال الضيم والهوان، ومن الحماسة في نصرة الفضيلة ، ومن الانفعالات الشريفة التي كانت تعرو مؤلفه (المؤمن بالله دون وحيه الى انبيائه) عند نظره في بدائع الصنع ومحاسن الكون — لو جردنا الكتاب من كل ذلك لوجدنا بقية ما قاله المؤلف في الطريقة التي أراد وضعها للتربية ترجع الى هذه

(١) يعني بالكتاب كتاب جان جاك روسو في التربية المعنون « بأميل القرن الثامن عشر »

(٢) الاكياس جمع كيس بتشديد الياء وهو الظريف حسن العقل

القاعدة وهي السير على مقتضى الفطرة ومعاملة الاطفال معاملة العقلاء ولو انا سلمنا له ما يقول لرأينا أن اتباع الفطرة في كل ما تدعو اليه يفضي بالطفل الى حالة التوحش والهمجية . نعم ان ذلك كان منتهى الكمال في التربية على رأي هذا الحكيم ، وانه على عدم ايمانه بالوحي كان يعتقد بوجود الكمال في أصل الفطرة من غير طريق الوحي . وأما كلامه في معاملة الاطفال معاملة العقلاء ومخاطبة عقولهم فلا شك انه جدير بان تصاغ له من أجله أجمل عبارات المدح تنويها بفضله،ولا بدع في ان عرف له القرن الثامن عشر قدره بعد انكاره،فاقام له من الآثار ما خلد ذكره وأحيا اسمه . غير ان العقل من دون جميع قوى الانسان هو الذي يكون في طور الطفولية أقلها نموا فكيف إذن يعتمد على هذه القوة الكامنة في إيصال معنى الخير الى نفس الطفل

لروسو فوق ذلك أغاليط أخرى كان يعتقد صحتها ،وكان من شأنها ان تعوقنا عن الارتقاء في أخلاقنا وأوضاعنا . منها اعتقاده بوجوب الامتثال لما للجمهور الإغلب من السلطة المطلقة فانا نجده في كتابه المسمى بالعقد الاجتماعي قد انتصر للحكومة فيما تدعيه لنفسها من حق تربية الامة بما أقامه عليه من البراهين .

وان أردت أن أبين لك كيف خدم روسو الاطفال خاصة بما نشره في كتبه من الانتصار لهم والدفاع عن حقوقهم ، قلت ان ذلك انما كان بما ألقته تلك الكتب في نفوس الفرنسيس من بذور الثورة وهيأتها بهلها .

لم يقدر الناس ما نشأ عن هذه الحادثة الكبرى في نظام البيت

من ضروب التغير حق قدره ، فانها قد خففت من ثقل الولاية الابوية تخفيفاً عجيباً على غير علم من الناس جميعا ، لان المؤرخين قلما يلتفتون الى ما يحصل في البيوت من تهذيب الاخلاق وصلاح العادات ، فلم يكد رجال الثورتين اللتين حدثتا في سنتي ١٧٨٩ و ١٧٩٢ يدركون ما يعتور تلك الاخلاق والعادات البيتية من الاستحالة على قربها منهم وسهولة ملاحظتها عليهم . ذلك لانه ليس في وسع أحد أن يلاحظ أعمال جميع الناس فاذا أريد الوقوف على أثر أنواع هذه الاستحالة وصنوف ذلك التغير وجب الرجوع الى ما كتب من السير في أواخر القرن السابع عشر أو في أوائل القرن الثامن عشر . هنالك يرى ما كان بين الزوج وزوجه والوالدة وأولادها من التكلف في العشرة ، والمقاسحة [١] والمجافاة في المعاملة ، نعم ان قولي هذا خاص بأهل البيوتات لاننا لا نعلم شيئا من أحوال الطبقات الاخرى ، لكن هؤلاء لا بد انهم كانوا يحتذون مثال سراة الامة وزعماء الدولة .

كان البيت في ذلك العهد مؤسسا على احدى الوصايا العشر التي وصى الله (سبحانه) بها موسى (عليه السلام) وهي « اكرم اباك وأمك » فلم يوص موسى قط بحبهما .

وكانت الزوجة في الغالب تدعو زوجها سيدا وهو يدعوها سيدة فكان تخاطبهما باسميهما مع كونه هو لذة العشرة والاختلاط لا يكاد يقع منهما في حضرة الاجانب ؛ فالثورة هي التي ادخلت في البيوت عادة التخاطب بضمير الفردوسوت بين الولد البكر ومن يتلوه من

(١) المقاسحة المباينة أي المعاملة بالشدة

اخوته في الحقوق فاجتثت[1] بذلك أصول التباين والاختلاف وأعلت من شأن المرأة ورفعت من قدرها ، كما وثقت ما يربطها بالرجل من عقد النكاح ، وأصبح البيت بحكم الشؤون ومجرى الحوادث مرجعا لأصداء المحاورات والمناقشات في المصالح العامة ، وصار صوت الرجل وزوجته في محادثتهما اخلص وأشد مما كان قبل . وكان للكنيسة في الطفل من الحقوق الى وقت قيام الثورة في سنة ١٧٨٩ أكثر مما كان لاهله فيه ، فان البيت كان قد استعار من الديرما فيه من صلابة المعاملة الباردة بسبب ان الوالدة في الغالب كانت تربى فيه . لا أعني بذلك ان الام ما كانت تحب أولادها قبل الثورة وأعوذ بالله أن يخطر هذا بفكري ولكني مع اعتقادي حبها اياهم اعتقد اعتقاداً ثابتاً ان الثورة ساعدت على تخليص محبات القلوب من قيود التكلف ، فكما أن منشأ جميع الحركات العظمى للارض هو مافي باطنها من النار كذلك منشأ حوادث الانسان الكبرى هو مافي قلبه من الحب .

ذلك شأن الانسان في جميع الازمان ، فمن حياته في الهند حيث كان الطفل لا يعتبر الابرعوما[2] من نبات قبيلته ، وفي رومية التي كان الوالد فيها يملك على ولده حق حياته وموته - الى أن صار الى هذه المجتمعات الحديثة التي كاد يكون للطفل فيها وجود مستقل . قدر في البيت في أطوار وجوده الأصلية جميع معارج الحرية ، فلا بد في تغيير شكل الحكومة واصلاحها من تغيير معنى الابوة أيضا ورده الى حده

أطول جميع الثورات بقاء وأخلدها أثراً هي التي كان لها من الزمن

(١) أجتثت أى اقتلعت (٢) البرعوم هو الزهر قبل تفتحه

ما استحوذت فيه على عقول الناشئين – فالاصلاح الديني مثلا وهو مذهب البروتستانت لا يزال حيا في ألمانية وسويسرة وهولاندة وانكلترة لان رجاله في هذه البلدان وفي غيرها أسعدهم الحظ بتأسيس مدارس فيها لتربية الاحداث على أصولهم وعقائدهم . وأما الثورة الفرنسية فان رجالها على العكس من ذلك لم يجدوا فترة من الزمن لتنفيذ مقاصدهم لانهم كانوا قد خطوا على عجل – وان شئت فقل وهم في مهب رياح الفتنة – خطة مثلى للتعليم العام ، غير أن أعاصير الحوادث دافعتهم عنها فحيل بينهم وبين ما كانوا يقصدون .

ولما وضعت الطريقة التي تجري عليها الا ن في التربية كانت نيران الفتنة قد خمدت ، ومراجل العصيان قد سكنت ؛ فعهد الى رجال الحكومة النيابية – الذين حكموا على الثائرين من رصفائهم بالقتل حكم شيشيرون[1] على كاتيلينا[2] واشياعه – بتجديد ما اندثر من التعاليم القديمة ، فما لبثت هذه التعاليم أن فاضت منها على الناس أصول الحكومة الفردية أي حكومة الاستبداد وأصبحت القوة الحاكمة هي مدير المدرسة والاستاذ الا كبر لتعليم الدين ورئيس الجند الا كبر ، والشارع الا كبر ، بل الكل الا كبر الذي انحصرت فيه جميع الولايات . ورجا الناس من هذا الاله الذي هو من صنعهم أن يضيء عقول الامة ؛ وأن يصنع لهم علماء

(١) شيشيرون هو مرقوس طوليوس شيشيرون أشهر خطباء الرومان ولد سنة ١٠٧ وتوفى سنة ٤٣ قبل المسيح وعين حاكما فى سنة ٦٣ وأخمد ثورة كاتيلينا والحرب التى قامت بين پومبي وقيصر (٢) كاتيلينا شريف من أشراف رومية كان جمع حزبا وثار به على مجلس الشيوخ وعلى رومية فقهره شيشيرون

وأنصاف علماء، فصار التعليم الابتدائي والثانوي – بل صارت جميع درجات التعليم محوطة بسياج حصين من القوانين. معاذ الله أن أكون آسفاً على ما أراه من انتشار العلوم وعموم المعارف، ولكني ضعيف اليقين بتأثير عمل الحكومة اذا كان الغرض من التعليم هو تربية رجال أحرار، لانها ما وضعت لذلك فان لاعضاء المجتمع الانساني كما لاعضاء الاجسام أعمالا لا يمكن تغييرها بمجرد توجيه العزيمة الى ذلك. سمعت غير مرة أن الجهل كان العقبة الكبرى في طريق كمال الحرية، وأنا موقن بصحة هذه القضية. وسمعت أيضا ممن قالوها ان الحكومة قد قررت أن يكون التعليم مجانا والزامياً وستكون الاحوال حينئذ على مايرام، وأنا لا أصدق هذا وأضرب الصين مثلا لاولئك الذين يرون دواليب التعليم التي تديرها يد الحكومة وسيلة لتحرير العقول – يكاد كل رجل من تلك المملكة يعرف القراءة والكتابة، ففيها من المدارس الابتدائية والثانوية وطرق الامتحان مايفوق الحصر، والصينيون هم الذين اخترعوا فن الطباعة وهو أكثر الفنون اليدوية أثرا في قلب شؤون العالم، وذلك قبل أن يعرف في اوربة بخمسمائة عام، وانت تعلمين نتيجة ذلك مثلي: لم يكن من التعليم الذي كانت الاساتذة تفيضه على الناس الا أنه اتقن تحجير الاوضاع الاجتماعية وجعلها أصلب مما كانت.

كذلك يكون الشأن عند جميع الامم التي يكون الغرض من التربية فيها ايجاد رعايا للحكومة في القالب الذي تريده. ولو شئت لذكرت أمة اوربية ليس بينها وبين الصين من هذه الجهة كبير فرق، فان التعليم الابتدائي يثبت كل يوم في نفوس الاطفال خلق الانقياد الاعمى بسبب

تداخل السلطتين الدينية والسياسية فيه . فالمعلم في هذه الحالة هو بطانة الحاكم الغاشم ، فعلى هـذا لا غرابة مطلقا في أن دينيس [1] لما خلع من الملك تولى ادارة مدرسة

من الخطأ أن يعتقد معتقد ان الحكومة المطلقة تكره تقدم سير التعليم العام وتعاديه عن قصد ، فما الذى تخشاه منه وليس هو الا جملة أنواع من العرفان هي تحررها وتصورها كيفما شاءت ؟ أليس بيدها مقاليد هذه الجملة ؟ اليست طرق التعليم التي تقرها وهى المتبعة دون غيرها هي أحسن ما وجدته لتمكين أصل الانقياد للقوة الحاكمة في نفوس المتعلمين ؟ ان أخوف ما أخافه على الامة من المخازى المهينة التي تشين شرفها هي العبودية في الاختيار ، فان الاصفاد التي تقيد الرقيق قد تسقط بمقاومة قليلة (والتاريخ يروى لنا في ذلك أكثر من مثل) وأما ما يتزيى به حواشي الامراء وخدمهم من الملابس الرسمية فما أطول بقاءه على أبدانهم : ، اذا تعلمت الامة بالتربية الفاسدة الطاعة والانقياد وكان الباعث لها عليهما المنفعة أو الاثرة أو الوجدان كان ذلك كل ما يطلبه منها مربيها

ان مذهب القائلين بوجوب توسط الحكومة في التعليم مؤسس كله على أمور الاعتقاد التقليدى وعلى أن السلف كانوا يأتمرون بأوامر مدير المدرسة أو رئيس القرية كما نقل الينا ذلك في آثارهم ، فلا يطالب أصحاب هذا المذهب من يعلمونهم من الاطفال بالاستقلال في الفكر والعمل ، وانما يحملونهم على العمل بما يقال لهم فتكون قلوب الاطفال

(١) دينيس هو حاكم جائر غاشم كان في سيراكوز فطرده منها ديون ثم تيلون ومات وهو مدير مدرسة قورنتة سنة ٣٤٣ ق . م

بأيدي معلميهم مادة لينة يتخذون منها للحكومة رعية نافعة مطيعة . واذا كانت هذه هي غايتهم التي يرمون اليها فهم لا يبالون بما عداها بل أحب شيء اليهم ان تصير المدرسة بهذه الطريقة مربى يتخرج فيه أوساط الناس فان الامة تصير بذلك اسلس للوازع قيادا وأخفض جناحا

لايشك أحد في أن معاهد التعليم عندنا يرأسها كثير من الرجال العارفين الاحرار ، وللجامعة فوق ذلك مزية نادرة الوجود في رأي أهل النظر وهي أنه لما كانت الثورة الفرنسية هي الاصل في وجود القسم الاكبر منها كان من المتعسر أن تتحول عن مبادئها وأصولها مهما تغيرت عليها الاحوال وتبدلت الشؤون فهي المعقل الرفيع الذي يحمي الافكار والآراء الحديثة من اغارات مذاهب الكهنوت عليها ؛ وكل يوم تتخرج في مدارسنا الاختيارية وكلياتنا عقول سامية بل عقول حرة أيضا . نعم أن للحكومات أن تسن ماشاءت من قوانين التعليم ولكن ليس في وسعها أن تبطل تأثير علم الحكمة والافكار التي ولدتها ثورة سنة ١٧٨٩ وغيرها من المؤثرات التي تعمل في نفوس الاحداث على الرغم من كل قانون ونظام ، ومن أجل هذا أنا لا أعيب المدارس لذاتها وانما أعيب فيها مجموع طرق التعليم من حيث هو مؤسس على أوهامنا وأخلاقنا وعوائدنا .

التربية الخاصة عندنا هي أيضا أقل قيمة من التربية العامة فان الوليد عند مايسلك سبيل الحياة لايتوجه قصدنا الا الى الزامه الجرى على مألوف العادة . وما يلقى في ذهنه من المعارف كله تجريبي ولم يفكر أحد منا حتى الا ن في جعله مساوقا لفطرة الانسان ومناسباً لها . اننا منذ

نصف قرن تقريباً قد جددنا طرق تناول العلوم الرياضية والطبيعية وفنون الاقتصاد السياسي والتاريخ والحكمة والادب والانتقاد وكل شيء الا مايختص بتربية الاطفال ، على انها هي التي كان يجب البداءة بها في التغيير

أول شيء أريد أن يحترم هو وجود الانسان حتى فى ذات الطفل.

انى اذا اتفق لى سماع خطب علماء الاخلاق ورجال الحكومة فى مذهب الاشتراكيين لم يعد يخامرنى شك فى أن هذا المذهب فاسد ممقوت مغاير للدين لما يقيمونه على ذلك من الحجج القوية والبراهين الصحيحة فانحاز اليهم لانهم حزب الاستقامة والصلاح . هذا ما يقال ولكنى اذا دخلت مدارسنا الابتدائية أو الثانوية لايسعنى الا أن أعترف على الفور بأن ماشيد لها من الابنية ووضع لتلاميذها من ضروب النظام وما فيها من توحد طرق التعليم واختلاط الدروس ، لم يوضع الا لحبس الجسم والعقل والتضييق عليهما فكما أن المصريين - على مايروى عنهم - قد اخترعوا أفراناً لتوليد فراخ الدجاج قد اكتشفنا نحن أفراناً لانضاج التلاميذ على أن القوتين اللتين يعنى بانضاجهما فيهم أشد العناية على هذه الحرارة الصناعيه - وهما قوتا التقليد والذاكرة - لاريب فى أنهما أقل جميع القوى الانسانيه كشفاً عن حقيقه العقل واظهارا للملكات الصحيحه فكأن المعهود اليهم بالتربية والتعليم قصدوا أولا وبالذات أن يجعل كل رجل من أول نشأته شبيهاً بجميع الناس . ولست أعدم قائلا يقول : ان ذلك هو من النتائج الضرورية لتطلعنا الى نظام الحكومة الجمهورية وتحققنا بأصوله . فأجيبه : ان هذا القول من الخبط والخلط الغريب ،

فكيف يشبه توحد المعارف والملكات بالمساواة في الحقوق؛ الا يرى ان سكان الولايات المتحدة على كونهم أشد منا ايغالا في الاخذ بسنة النظام الجمهوريّ على العكس منا يزداد فيهم شعور الاستقلال بالوجود الذاتيّ - الذى هو أصل الحرية - حياة وقوة فتظهر آثاره في أعمالهم ظهورا جلياً.

ان فى وسع كل شاب - لو صحت عزيمته - ان يتعلم بنفسه من جديد ما لم يكن اجاد تعلمه فى المدرسة وهذا ما وقع لكل منا بعد خروجه منها. ولكن: من ذا الذي يفكه من اغلال العوائد التي تخانق بها فى صغره؟ وكيف يتسنى لهذا المنفلت من المدرسة ان يهتدي فى مستقبله بمجرد ما اكتسبه من المعارف مع انه الى وقت مبارحته لها كان لا يستقل بعمل من أعماله بل كان يعملها جميعا بأعين معلميه؟ وما الحيله فى احياء قوة نفسه بعد ان أنهكها التأديب المؤدي الى درجه البهيميه وما معنى الكلام على الزاجر النفسيّ اذا كان وجدان اليافع يسلب منه ويوضع بأيدى من يديرون شؤونه؟ ذلك هو أخص ما أخشاه من أنواع الخطر. ومن العبث ان يتمثل هنا ببعض مشاهير الرجال الذين كانوا في زمن طفوليتهم في أشد المراقبة والحصر ولم يؤثر هذا في مستقبلهم شيئاً، فيقال: ان فولتير [1] مثلا تربي في حجر اليسوعيين وتخرج جبابرة الثورة التي حصلت سنة ١٧٨٩ على رجال الكهنوت، لاني لا أتكلم هنا عن أفراد الرجال وشذاذهم وانما أقصد بكلامي جملة

(١) فولتير هو ارويت دوفولتير الشاعر الحكيم الفرنسي المولود سنة ١٦٩١ المتوفى سنة ١٧٧١ بعد الميلاد

الامة وعامتها ، واسائل نفسي عما يحدثه مثل هذا النظام من الاثر في طباع أوساطها . كوني على يقين انه ليس من الميسور لكل واحد ان يجد ما يكفي من القوة لاسترجاع ما فقده من سلطانه على نفسه بعد ان ألقي لغيره زمام عزيمته .

قد لاقيت في الناس من جرى الاصطلاح بتسميتهم الشبان العارفين فهل رأيت منهم كثيراً يمتازون بجراءة الجنان الحقيقية ؟ ألم تريهم يقاومون غالباً من وسائل الترقي وطرق الاصلاح ما عساه ان يذهب ببعض آمالهم ، ويسخرون به ميلا مع الاثرة وحبا للاختصاص الا تجدينهم أشد عداوة من جهلة العامة لبعض العلوم : انهم ليؤمنون على السواء بكل ما قدسه مرور الزمن عليه وآراء الناس فيه ، غير مهتمين بالتمييز بين صحيحه وفاسده وحقه وباطله . وما لهم ولهذا التمييز اذا كانت مبارتهم توصلهم الى مقاصدهم ؟ وهل هم في هذا العالم حتى يشتغلوا بمصالح غيرهم ؟ كلا ، بل هم قانعون بنقصهم الذي يظهرونه للناس في مظهر الكمال ويهزأون بما كان من جد الخائبين ، واخلاص المخلصين وصدق نفوس الصادقين ، وهم لما فيهم من خفة الاحلام وكثرة المجون والغرور والترف يلتمسون في كل أمر وسيلة للانتفاع بحاضرهم ومع قلة ما لهم من المعارف الصحيحة يظهرون في مظهر العارفين بكل شيء ، ولكون المجتمع الانساني حلبة سباق كبرى ترينهم يعملون فيها لمزاحمة غيرهم في الحصول على سُبَقها أو على الالقاب التي تعطي عادة

(١) السبق بضم السين وفتح الباء جمع سبقة وهى المكافأة التى تعطى للسابق فى ميدان المسابقة

لمن يقاربون في هذا السبق ؛ وفي هذه الحلبة الجديدة أيضا لا يعتد كثيرا بجدارة الجديرين ، ولا بأهلية المستحقين ، لان الجوازى تمنح بالمحاباة والاثرة ، والذين ينالونها هم أهل الدسائس والخداع ، فلا بدع اذن أن كدح المتعلمون من الشبان بعد تفصيهم من ربقة النظام المدرسيّ لاجل الدخول تحت ولاية الحكومة

اذا صدقت قولى كان علينا أن لا نربى ولدنا على الطرق المتبعة وقد يكون عملنا فى ذلك أحسن من عمل غيرنا أو مثله فى القبح ؛ الا أننا على كل حال نكون قد أقمنا حقا مقدسا ، فان تربية الطفل منوطة بالبيت والاهل والعشيرة قبل أن تناط بالمجتمع الانسانيّ ، ما هذه الكلمات التى قد جمع بها قلمي : قلت ان التربية منوطة بالبيت ، ولكن وآسفى على بيتنا فقد هدم . نعم ان عشنا الذى كنا لا بد أن نتناجى فيه بأحسن أمانينا ونسكنه أعز آمالنا قد ثارت عليه عواصف المحن فدمرته تدميرا . ولكن لا بأس علينا من ذلك فسنعيد بناءه بروابط الحب فوق جو الفتن فأكون معك فى هذا العمل بقلبي ، وأنت تسهرين وتنوبين عني في السهر على حراسة ذخرنا فاني قد استودعتك اياه والسلام . اهـ



الرسالة العشرون

﴿ من هيلانة إلى إراسم في ٨ مايو سنة — ١٨٥ ﴾

وصية الدكتور وارنجتون لها بالرياضة البدنية والتنزه والبعد عما يثير الانفعالات وباجتلاء المناظر الرائعة

أتدرى أيها العزيز إراسم أني فكرت كثيراً فيما ختمت به مكتوبك الاخير وورد على ذهني منه خاطر يجب عليّ قبل الافضاء اليك به ان أبين لك كيف ورد .

جاء الدكتور وارنجتون وأسرته الى هنا وأمضوا يومين فسنّ لي شبه قانون أجري عليه في معيشتي — بل هو الذي يتبعه معظم الانكليزيات الحوامل اللاتي يوصفن عادة بأنهن فى حالة شاغلة . نصح لي بادامة الرياضة البدنية والتنزه ثم قال مانصه « اياك والاقتراب مما تضر مطالعته من القصص التى تتولد من قراءتها الانفعالات الشديدة الباطلة . كان اليونان أعقل منا لانهم كانوا يحيطون نساءهم مدة الحمل بالتماثيل والصور الجميلة المنسوبة لمشاهير الاساتذة في فن التصوير ، واني وان كنت لا أجزم بان هذا كان هو السبب فى اتيان أولادهم حسان الخلقة أقول على كل حال اذا كان مثل هذه التماثيل والصور وغيرها من الاشياء البديعة الصنع يحدث في نفوس ذوي الفطر السايمة من الناس شعور الارتياح والانبساط ويكون فيهامدعاةالاعتدال الامزجة

وتوافق الطبائع فلم لا يكون من موجبات حفظ الصحة . كثير من السيدات عندنا يغلب عليهنَّ في طور الحمل الخمود وفتور القوى بسبب البطالة التي هي منشأ الامراض العصبية فانهنّ لاشغل لهنَّ فيه سوى مساورة الأوهام ومطاردة الخيالات وأما أنت فلما أعهده فيك من الشغف بالمناظر الخلوية أوصيك بالسعي وراءَ اجتلاء ما في الخليقه من رائع الجمال ورائق الحسن وبأن تتخذي لنفسك أعمالا مرتبة تشتغل بها يدك وعقلك »

رأيت ان هذه النصائح كلها حكمة وعلم فأخذت نفسي بها وخرجت لتنزه اليوم التالي لتلقيها بعد تدبير بعض الشئون البيتية فلما رأتني نساءَ القرية مبكرة على الطريق بعثهنّ كرم أخلاقهنّ على أن يبتدرنني بالتحية قائلات صباح بهيّ وبكرة سنية ، ولم يكن الصباح كما قلنَ ولكنها عادة الناس هنا اذا تبادلوا التحية بالوقت فهم دائماً يميلون الى امتداحه قليلا فشكرت لهنّ حسن قصدهنَّ .

لم أسر في تنزُّهي على الخليج بل اعتسفت الطريق في ريف يتسع فيه الفضاءُ للماشي كلما جدّ به السير . ومما لاحظته أن نساءَ كورنواي يضعن على رؤوسهن كمات (١) من القش وقد اخترت ان أحذو مثالهن في ذلك فوضعت واحدة منها اتقاء لحر الشمس وحباً لما فيها من البساطة الكلية وإخالني أروق في نظرك لو رأيتني بها . كنت أتقدم في هـذا الريف على جهل من قراه ولكنني كنت آمنة من الضلال لاني ما كنت قاصدة جهة معينة وكان ذلك اليوم من الايام التي كثيراً ما ترى في

(١) الكمة بالضم القلنسوة المدورة

غرب انكلترة فكانت سماؤه محتجبة بالجهام [1] وكانت تأتي من البحر ريح بايل [2] مسفسفة [3] فتجري بين أشجار العليق فتولد فيها رعدة طويلة وكانت الطيور تغرد حول عشاشها

قد أتى علي حين من الدهر كنت فيه أوجد على الخليقة اذا بدت عليها سمات الاغتباط والسرور وأنا حزينة الفؤاد متبلبلة الافكار فما زلت بي حتى أثبت لي ان هذا الوجد والانفعال باطلان بعيدان من الانصاف وناشئان من الاثرة وحب الاختصاص ، فأصبحت الآن بفضل نصحك لي أسر بما أجده في سائر المخلوقات من آثار الفرح والابتهاج ، وقد تبين لي في ذلك اليوم بما انبعث في قلبي من وجدان الحنان والرحمة ، وبما عاينته في المخلوقات من شواهد الفضل والنعمة ، ان الله (سبحانه) لم يلعن الارض ولم يغضب عليها . [4]

كانت بُكرتي هذه من البُكَر التي تعرفها : يدور في هوائها على سكونه مادة غزيرة مختلفة العناصر للتوليد والخصب ، فكان ينبعث من أشجار العوسج وحقول القمح والمخارف [5] الموطأة نسمات فاترة مقوية كانت تسرى بسببها الحرارة في جسمي فتصل الى وجهي ، فكأن الارض كانت مصابة بحمى الربيع ، ولقد تذكرتك في تسياري بين هذه المزارع وفكرت فيما سأناله عما قليل من شرف الامومة ان لم

---

(١) الجهام سحاب لا ماء فيه (٢) الريح البليل هى الباردة النادية (٣) المسفسفة هى التى تجرى فويق الارض (٤) تشير الى ماقى اصحاح ١٧ : ٣ من سفر التكوين من الانجيل ونصه « ملعونة الارض بسببك »
(٥) المخارف جمع مخرف وهو الطريق بين الاشجار والزروع

يحدث من الطوارىء ما يقطع موصول آمالنا ، وفي هذا الوقت أحس قلبي بما انطوى عليه مكتوبك فتسابقت الى ذهني منه هذه الكلمات وهي « فاني قد استودعتك إياه »

عند ذلك صحت قائلة : لماذا لا أكون أنا في الحقيقة معلمة ولدي؟ أليس من المعروف عن نساء الولايات المتحدة ان معظم تعليم الاطفال ذكوراً كانوا أو اناثا موكول اليهن ؟ بل مما يؤكده العارفون أنهن يفضلن الرجال في القيام بهذا العمل الصعب وإني سأجرب نفسي في الاقتداء بهن . على ان هذا هو ما يراه زوجي ، فمن حيث انه قد عول على ترك المزايا التي لمدارسنا وغيرهامن معاهدالتعليم لاعتبارات أقدرها حق قدرها فلا بد أن احل محله ولو حيناً من الزمن في القيام على تلميذنا الآتي وتربيته وسيكون هذا آكد فرض علي وأخص ما افتخر به وأزهى . أشهد الله على ما أقول وأشهد عليه أيضاً أمومة الفطرة الكبرى التي تدعوني بما فيها من القدوة الى العمل وانماء جميع قواي .

ربما أضحكتك مني هذه المزاعم واني لعلى علم بكل ما يعوزني لاداء هذا الواجب الصعب المعضل فانه ينقصني كثير من المعارف وان كان والداي لم يغفلا تربيتي الاولى . ولكن لا شيء يمنعني من الاستمرار على التعليم بنفسي اذا كنت لا أزال في السن الملائمة له فسأعلم ولدنا في الزمن الذي يشب فيه وينمو وأتعلم أنا أيضا بتعليمه ، ولن أعتقد أني أمه حقا الا اذا نفثت في روعه أفكارك وزرعت في نفسه أصولك .

سنتعاون بقلبينا على هذا الامر الخطير فعليك الارشاد وعليّ

العمل ، وقد وعدتك بأن أكون قوية وهذا هو قصدي وسأبلغه ملتمسة من الرياضة البدنية والمطالعة ما يلزمني من الصحة والعافية في جسمي وعقلي لاداء هـذا الفرض العظيم . ومعاذ الله أن يكون من قصدي أن أصير الى أحسن مما أنا عليه الآن نعم اني لست من الواليات ولا من الناسكات فقد أتى عليّ زمن كانت تجذبني فيه جواذب اللذات الدنيوية وليس هـذا الزمن عني ببعيد فاني لم أتجاوز الثالثة والعشرين من عمري ، ولم يكن تركي معاهد التمثيل ومـلاهي الغناء وأندية الظرفاء التي كنت أفتخر فيها بمصاحبتك مبنيا على رغبتي عنها وميلي الى غيرها ، وانما كان ذلك لما أصابنا من صروف الدهر ونوائبه التي سيظل ما جرّته لي من الكآبة والحزن مخيما عليّ طول حياتي على انني لست آسى على شيء مما فات فأرجو أن لا تظن بي ذلك . واعتقد أني لو كنت مطلقة من قيود هذه المصائب لما انفككت عن اختيارك لي خلا وقرينا ، واعلم ان الفراق لم يزدني فيك الا حبا وانما أنا أشكو من ألم في نفسي ، ولكن كما توجد طرق مادية لحفظ صحة البدن ، توجد أيضاً طريقة معنوية لحفظ النفس وسلامتها من الامراض وهي رفعها الى معالي الامور ، وسأجربها ، فان ذلك على ما يقال يسكن من آلامها ، واذا صح هـذا فأي غاية تسمو اليها أفكاري وتعلو بها نفسي أشرف من رعاية ولد أربيه على أصولك وأخلاقك ؟ ان هذا لهو أكمل قصد وقفت نفسي على ادراكه .

أنا مع انتظاري لهذا العمل الجليل أشتغل الآن بشؤون بيتية محضـة ، وأما قويدون فانه صمم على أن يعمل عمل المزارعين فجلب

الى مسرح الدواجن في بيتنا دجاجاً وبطاً وماعزاً وغيرها وكان في البيت برج عتيق مرجور فعمره بالحمام، وأنا مهتمة غاية الاهتمام بكل هذا العالم الصغير، وكنت قبلا أعتقد في نفسي أني على شيء من علم الحيوانات لما قرأته من الكتب المختلفة في التاريخ الطبيعي وأما الآن فقد تبين لي مقدار خطائي في هذا الاعتقاد، فاني كل يوم أشاهد من عجائب الحيوانات ما لم يقل عنه العلماء شيئاً . وأنا وجورجية نوزع الحبوب على جميع هذه الدواجن التي يظهر من حالها أنها تدرك محبتنا إياها لأنها تأنس بنا وتفرح لرؤيتنا اه

الرسالة الحادية والعشرون

﴿ من هيلانة الى إراسم في ٣١ يونيه سنة — ١٨٥ ﴾

وصف تعويد الانكليز اطفالهم الاستقلال والحرية من صغرهم

أكتب إليك أيها العزيز إراسم قياماً بما أخذته على نفسي من إنبائك بكل ما أفعل وما أرى وما أسمع فأقول :

اتفق لي منذ بضعة أسابيع أن كنت في بيت صديقك الدكتور فرأيت عنده رجلا من إيقوسية هو شيخ طويل نحيف علمت أنه من أصدقاء ذلك البيت وأنه غادر بلاده لأسباب مجهولة عندي ولكونه لا يستطيع المعيشة بعيداً عن منظر البحار والصخور والرمال قد نزل بكورنواي الى حين . يبدى هذا الرجل من التنطع والتشدد في آدابه وهيآت افعاله مالو ابصرته الفرنسيات لضحكَ عليه كثير منهن على

ما أرى ، فانه اذ سعل يسعل بانتظام واذا دخلت عليه سيدة في قاعة الاستقبال وثب قائما كانه حرك بلولب . واقبل بوجه فيه من تكلف الوقار والرزانة ما يحاكي تكلفه في شد رباط عنقة واتقانه ، ومهما كانت حاله فهو هنا محترم مبجل . ولا غرو فانه ساح في كثير من من البلدان ويحسن التكلم بالفرنسية ولديه بحسب ما ارى ذخر عظيم من المعارف . يسمى الرجل السر جون سانت اندروز واخص ما اشتغل به في سياحته البحث في التربية وزيارة مدارس انكلترة وأيفوسية وقارة أوربة . وجملة قولي فيه ان حديثه يهمني ويفيدني ، ولما كنت أعلم ان موضوع انظاره وابحاثه داخل في نوع ما نبحث فيه ونشتغل به اصغيت اليه لاجلي وأجلك فما قاله لي : ان الناس في بريطانيه العظمى يهتمون قبل كل شيء بانماء القوى الجسدية في الناشئين — فبالرياضات البدنية تنشأ اعضاؤهم من صغرهم قوية تناسب الرجولية وتهيأ أجسامهم لخدمة عقولهم وعزائمهم ، وهذا هو سبب عنايتهم بالرياضيات والالعاب التي تخالف ما عندنا مخالفة جوهرية

نعم انه يوجد في المدارس الانكليزية ما نسميه في مدارسنا الفرنسية فن التمرين البدني (الجنباز) الا ان التلاميذ الانكليز لا يرغبون فيه كثيراً . ويفضلون ما يكون في العابهم من التمرن والارتياض على ما في هذا الفن من أنواع التدريب المنتظمة التي تحصل عن أمر المعلم وتحت رعايته ، فهم يختارون بكمال حريتهم ما ترتاح اليه نفوسهم من ألعاب المصارعة والمغالبه . فلهم في ألعاب الكرة التي منها ضربها بالصولجان ومنها دحرجتها على الارض ، وفي العدو والملاكمة وغيرها من طرق التسلي

وسائل متنوعه تنمي فيهم قوة الاعضاء وتجعلهم يزدادون بالتعب شدة وصلابة.

بهذا صار الانكليز أكمل الناس استعداداً للمصارعة والكفاح وأولهم اقتحاماً لقمم أعلى الجبال المعروفة، وهم الذين يقاومون صعوبة الاقليم والعوارض الكونية والامم الوحشية في الهند واستراليا وزيلاندة الجديدة وفي جميع بقاع الارض التي فيها أخطار تقتحم، فلا تأثير للعقبات الطبيعية في تلك العزائم الثابتة التي تقوم لها بمطالبها عضلات هي الحديد بأسا وشدة.

لم يوضع القانون في معاهد التعليم والتربية الانكليزية الا لما تدعو اليه الضرورة المطلقة من حفظ النظام فيها، يدلك على ذلك أن مدير مدرسة من المدارس الكبرى كان قد أمر مرة على خلاف عادته ان يراقب التلاميذ في ملعبهم، لكنه لم يلبث ان تبين خطأه في هذا الامر وندم عليه واعترف من ذلك الحين بأن هذا التضييق كان يميل بأنفس الناشئين الى الانحطاط ميلا ظاهراً

التلاميذ الانكليز في ساعات الاستراحة من الدرس أحرار فلهم ان يخرجوا ويتنزهوا في المدينة التي يكونون فيها أو في المزارع غير محتاجين في ذلك الى أحد يرشدهم أو يراقبهم فيمضي كل منهم الى حيث يشاء ولا يطالبهم معلموهم الا بأمر واحد وهو ان يكونوا في سيرتهم كما يكون سراة الناس أدباً ولطف معاملة ؛ والكلمة المقابلة في اللغة الانكليزية للفظ سراة هي « جنتلمين » ومن الصعب ترجمتها بالفرنسيه ويعنى بها من بلغوا غايه الكمال في التربيه والتهذيب، فان

وصف الشرف والسعادة يستفاد من التربية أكثر من استفادته من النسب [١]، فقد ينسلخ عمن ناله من جهة النسب ولو في نظر غيره اذا هو تلبس بسافل العادات وسفساف الاخلاق . من أجل هذا كان الخوف من انحطاط القدر وسقوط المنزلة في أعين أهل الفضل والادب له من السلطان حتى على نفوس الناشئين مالا تبلغه جميع أنواع المراقبة التي يتصورها العقل . يقول الانكليز « اذا أردت أن يصبح ابنك رجلا في طفوليته فعامله معاملة الرجال » وهذا هو الاصل الذي يجرون عليه في التربية .

إخالك تندهش اذا لاقيت عدداً عظيما من الغلمان الانكليز في السفن التجارية والمركبات العامة ومركبات السكك الحديدية يسيحون وحدهم باذن اهليهم زمن عطلة المدارس وهم في حداثة السن ولكنهم على ما في هذا من الخطر يعرفون كيف يتوقرن المعاطب وكيف يعودون الى مواطنهم ويقول الانكليز تعليلا لذلك فوق ما تقدم انه هو الوسيلة الى استقلال هؤلاء الغلمان يوما ما بسلوك طريق الحياة في هذه الدنيا.

يثق الانكليز بالاطفال ثقة تامة فاذا اخل بها هؤلاء احيانا فلا بدع في ذلك لان من يرجو منهم ان يكونوا من الحكمة والدراية في درجة أعلى مما تقتضيه سنهم فهو واهم في معرفة الطبيعة البشرية . على انه قد شوهد ان ما يقع منهم من الخطأ يسهل ان تسد ثامته ، واما

(١) هذا مصداق لقول الشاعر العربي :

كن ابن من شئت واكتسب أدبا يغنيك محموده عن النسب
ان الفتى من يقول ها أنا ذا ليس الفتى من يقول كان أبي

تثقيف ما اعوج من الطباع بسبب سوء الظن والقهر فهو في غاية الصعوبة

لابد أن يكون لهذا النوع من التربية قوة معنوية تتأثر بها نفوس الناشئين فاني أراهم هنا أهلا لان يديروا بعض اعمال تقتضي كثيراً من وفرة العقل وتمامه ، وقد ضرب لي الرجل في هذا الموضوع مثلا تاجرا من كبار التجار في لوندرة كان مذ بلغ الرابع عشرة من عمره يجوب شوارع المدينة متأبطاً محفظة مملوءة بأوراق المصارف (بنك نوت) ويعامل وهو في هذه السن عدة من المحال التجارية باسم أبيه . وليس ما يلقيه الانكليز في أذهان أولادهم وهم صغار من الثقة بأنفسهم والاعتماد عليها قاصراً على ما يكلونه اليهم من الاعمال التجارية والصناعية ، بل هو يشمل أيضاً الفنون العقلية كالشعر والانشاء وغيرهما من الصناعات الفكرية نعم ان الانكليز ليسوا بلا ريب أحسن ولا أعلم من غيرهم ولكنهم لتعودهم من نعومة اظفارهم الاستقلال في سيرهم بمعارفهم الذاتية وتحملهم تبعة اعمالهم يظهرون في كل شيء أكثر منا قياما بانفسهم ، واذا لم ابال بالتصريح بكل ما أريده قلت انهم أقل منا شبها بخراف بارنورج [١]

الساعات المقررة للدروس في المدارس الانكليزية هي في الجملة اقصر منها في المدارس الفرنسية . ويؤكد الناس هنا ان هذا الامر لا ينقص من نجاح التلاميذ ولا يضر بترقيتهم كما قد نتوهمه لان الطفل

(١) بارنورج هو أحد الممثلين في قصة هزلية للكاتب الشهير ربلي وله خراف علمها تقليد خروف لممثل آخر في هذه القصة اسمه دندينولت انتقاما منه فصارت يضرب بها المثل في التقليد

لا يقتصر في تعلمه على ما فى الكتب بل هو يتعلم كذلك مما يراه اثناء تنزهه فى المشاهد الجميلة والمناظر الانيقة ويستفيد استفادة حقيقية مما يكون بينه وبين رفاقة فى المحاورات والمحادثات وما يتلقاه من أهله من الدروس النافعة في المعيشة اليومية، وليس من الضرورة المؤكدة ان يشغل عقل الطفل من الصباح الى المساء حتى يكون من مشاهير الرجال ، لا يعتقد جيراننا ذلك قطعاً بل يرون ان فى راحة التلاميذ أي ترويح نفوسهم بالألعاب الرياضية المتنوعة شحذاً لاذهانهم وتقوية لعقولهم .

وهم فى تأييد هذا الرأي يضربون مثلا مدارس قللت أيضاً في هذه الايام الاخيرة ساعات الدروس في فرقها وشغلت التلاميذ فيما وفرته منها بأعمال يدوية نافعة فضاعفت بذلك فيهم قوتي التنبه والحكم. اذا كان هذا كذلك كان ما صرف من الزمن فى تلك الاعمال غير ضائع بل عائداً بالربح على التلاميذ فى استفادتهم من الدروس لان نجاحهم لا يقدر بطولها وانما يقدر بسهولة إدراكهم ما فيها من العلوم وتحققهم بها

أخص غاية يرمى اليها الانكليز فى التربية – هي سلامة العقل وهم يقولون ساخرين ما أجمل ما يعود على الطفل من الفوائد والمزايا اذا كان القائمون على تربيته يضعفون فيه الاعصاب المعدّة للادراك والفهم بالافراط فى إجهادها ، ويغيضون ما فى عيون قريحته من مادة الذكاء الغزيرة بحثه على العمل لإحراز ما لا ثمرة فيه من قصب السبق فى امتحاناته . فكم من سابق فى هذه الامتحانات يأكل بهذه الطريقة ما يزرع قبل إبان صلاحه : (يعنى انهم ينفقون كل ما لديهم من المواهب العقلية قبل أن يصلوا الى ثمرتها)

ليست العبرة عند الانكليز بتعليم المعلمين بل العبرة بما يعمله التلميذ ويتعلمه بنفسه . ومما يحكى تأييداً لصدق هذه القضية أنه كان يوجد فى إحدى دوائر الخوارنة[1] بأيقوسية مدرسة فيها قسمان من التلاميذ داخلي وخارجي وكان جلّ عناية صاحبها موجهاً للقسم الاول ضرورة أنه هو الذي كان يعتمد عليه قبل كل شيء في إنماء كسبه ومن أجل هذا كان يقضى مع تلاميذه كل سهرته فى إعدادهم لتلقي درس الغد ، على أن الذي كان يحصل فى المدرسة هو غير ما كان يرجوه ، لان تلاميذ القسم الثاني ـ وهم من أبناء فقراء المزارعين الذين يسكنون الكفور والخصاص المجاورة للمدرسة على ماهم فيه من حرمانهم من معيد يكرر لهم الدروس واشتغالهم بأعمالهم المدرسية فى زوايا تلك الخصاص على ضوء نارها فى غفلة من أهاليهم عنهم ـ كانوا يَظهرون عادة على تلاميذ القسم الاول ويفوقونهم كثيراً مع إجهاد مدير المدرسة نفسه فى تقويمهم وتمرينهم ، فعظمت بذلك دهشة ذلك الرجل ولكونه كان ذا لب وفكر أخذ يبحث عن سبب هذا الامر الذي ملاه سآمة وضجرا ، فلم يلبث أن عرفه وهو ان التلاميذ الداخليين كانوا يفرطون فى الاعتماد على تعليمه إياهم التعليم الآليّ الذى لا عمل لفكرهم فيه ويشتغلون ولكن لا بأنفسهم بل كآلات يديرها محركها وأما التلاميذ الفقراء سكان الاكواخ فلما كانوا مضطرين الى حلّ رموز مايتعسر عليهم فهمه من المسائل بأنفسهم كانت أذهانهم فى تيقظ ولذلك كانوا يشحذون قرائحهم ويقوّون مداركهم بالمناقشة والمنافسة ، وكان فى انقطاع المعلم عن رعايتهم أثناء مدارستهم

(١) الخوارنة جمع خوريّ أى كاهن

الليلية مزية لهم ، فلاجرم أنهم سبقوا الى المقاعد الاولى فى فرقهم نهاراً. استفاد المعلم من هذه الحكمة التي أهدتها له التجربة فترك من ذلك الحين التلاميذ الداخليين وشأنهم مقتصراً على أن يعطيهم كغيرهم مواد العمل وأدواته مثل كتاب فى النحو ومعجم فى اللغة وكان من وراء ذلك أنهم لم يلبثوا أن ساووا أقرانهم فى درجتهم.

تعلم من ذلك أن شأن جيراننا فى التربية كشأنهم فى جميع الامور الدنيوية وهو أنهم يرجون من عمل المرء بنفسه من الخير مالا يرجونه من وسائل المعونة والمساعدة كائنة ما كانت ، فشعارهم فيها هو « استعن بنفسك يعنك معلمك . »

ربما كان أهل أيقوسية أيضاً أكل من الانكليز عناية بأمر التربية فقد اشتغلوا به كثيرا فى هذه الايام الاخيرة

يوجد فى ايدنبورج [1] على ما سمعت مدارس ابتدائية لا يكتفي فيها المعلمون بتعليم التلاميذ مواد العلوم بل يبذلون قصارى جهدهم في تأديب طباعهم وتهذيب أخلاقهم ، فهم يعملون لتطهير نفوسهم من خبيث الرذائل كالأثرة والغش والظلم والكذب والقسوة على الحيوانات وليست طريقتهم في ذلك مجرد إلقاء القواعد والتعاليم المبهمة المجملة بل هم يرجعون الى وجدانهم الفطري ويذكرونهم بشرف الانسان وسمو منزلته على سائر أنواع الحيوان ، فالاطفال في هذه المدارس هم الذين يحكم بعضهم على بعض في كثير من الاحوال ويقدرون بأنفسهم درجة أفعالهم في الحسن أو القبح

(١) أيدنبورج عاصمة أيقوسية من بلاد الانكليز

ولو شئت لسردت لك كثيراً من الحكايات في هذا الموضوع ولكني أكتفي بأن أقص عليك واحدة منها ليكون في ذهنك صورة لتلك الطريقة فأقول :

تأخر تلميذان ذات يوم عن الوقت المقرر لدخول المدرسة بربع ساعة وهما اخوان في الرابعة أو الخامسة من عمرهما فقرر المدير ان يسئلا عن سبب التأخر ويقبلا في فرقتهما بلا عقاب ان أبديا عذراً صحيحاً ، وجعل الحكم على صحة العذر وفساده للمدرسة بتمامها كما هي العادة عنده في جعلها محكمة شرف تقضي على التلاميذ ولهم فيما يفعلون ، فلما مثل المتهمان الصغيران أمام هذه المحكمة اعتذرا متعاقبين عن تأخرهما بأنهما صادفا في طريقهما دودة غليظة لم يكونا رأيا لها نظيراً في حياتهما فراعهما منظرها ومالئا منها عجباً ، لان هذه الحشرة كانت تتمثل في أشكال وأوضاع غير معهودة لهما ، فكانت تارة تقف على ذنبها وطوراً تمتد على الارض وآونة تكون ذات أثناء ملتوية ؛ وأنهما بينما كانا يصرفان زمنهما في مشاهدتها ، كانت تنساب حتى بلغت عوسجا فغاب عنهما أثرها فيه — فلم يعارهما المدير ريثما يتمان قولهما بل سألهما : لماذا لم تقتلا هذه الدودة ؟ فحدق اليه الغلامان ولم يحيرا جوابا ، فاستأنف السؤال قائلا : أما كان لديكما من الوسائل ما يعينكما على قتلها حتى كنتما بذلك تقطعان سبب ابطائكما في الطريق ؟ فقال له أكبرهما « بلى كنا قادرين على قتلها من غير شك ولكننا لو كنا أتيناه لكان ذلك منا شراً وقسوة » فقوبلت هذه الكلمات من جميع الحاضرين بالاستحسان والتحبيذ[1]

(١) التحبيذ المدح بقول حبذا

وحكم ببراءتهما من التقصير

من ذا الذي لا يرى في محاكمة الطفل الى لداته[1] وأقرانه جرثومة وضع المحلفين[2] الذي يعتبره جميع العارفين به معقلا يذاد فيه عن حمى الحرية بجميع أنواعها في انكلترة وايقوسية ؛ فلا شك أن تلك المحاكمة أخذت بالناشئين في طريق الوصول اليه وإشراف بهم عليه من بعيد ، ولا بدع فان جيراننا يزعمون ان التبكير في تربية وجدان التكليف في نفس الطفل لا افراط فيه يذم مهما توسع في التعجيل به ، ففي رأيهم انهم متى أريد أن تكون الحكومة على صورة ما يجب أن تهيأ لقبولها نفوس الناشئين ، وأن ما يحفظ القانون ويضمن بقاءه من أنواع الكفالات لا يستقر الا بارتياض الناس به من بداية عمرهم ودوام اعتيادهم اياه . ومما قاله لي الشيخ الايقوسي الذي حدثتك عنه « أنا لا أشير على أي بلد باختيار طريقتنا في التربية ما لم يقارنه زرع ما لدينا من ضروب الحرية في نفوس أهله . فنحن في بلادنا نحتاج الى رجال مطبوعين على حب الاستقلال موافقة لما تقتضيه قوانيننا وأوضاعنا ، اكفاء لاطالة مدة بقائها بما يكون منهم في سبيل ذلك من المجاهدة الشديدة . وان طريقتنا في تربية الاطفال اذا اتبعت في غير بلادنا نشأت عنها رعية يتعذر حكمها وسياستها » اهـ

(١) لدات الطفل المساوون له في السن (٢) المحلفون هيأة تتألف من عدد من الاهلين لا يقل عن اثنى عشر ينتخبون ويحلفون طبقاً للقانون على أن يقرروا الحق فيما يعرض عليهم من الدعاوى



الرسالة الثانية والعشرون

﴿ من هيلانة الى اراسم فى ٢ يوليه سنة — ١٨٥ ﴾

انتقادها اخلاق الانكليز وخضوعهم لتقاليد اسلافهم والتماسها علة لذلك

أرى من البواعث الكافية ما قد يسوقني الى اعتقاد أن الكمال لا يخلو من نقص ، والحسن لا يعرى من قبح . فما عاينته من أحوال الانكليز وأخلاقهم ينطبق انطباقاً تاماً فى بعض المواضع على ما سمعته عنهم من السرجون سنت اندروز . ولكن تصفحي هذه الاخلاق وترديد فكرى فيها قد اضطرني الى الاخذ بالحزم في امتداحها وترك المجازفة في اطرائها . لا كثر الامهات اللاتي ألاقيهن في بيت السيدة وارنجتون أولاد عديدون فما أعجب ما يرى في جميعهم من مقدار تحققهم بما لخالطيهم من الاوهام وسُرْعة انطباع معتقداتهم الباطلة في نفوسهم فتراهم على قلة علمهم بالامور يفرقون بين مطلق رجل والسّرِيّ المهذب من الرجال ومطلق امرأة والسيدة الكريمة من النساء ، فرقاً تاماً ويميزون من ولدوا لخدمتهم ممن يجب لهم عليهم الاجلال والتعظيم لاول نظرة اليهم غير مترددين في ذلك ولا مرتابين ، ويحافظون على شرف الاقتداء بعظماء الناس في سيرهم ، لا لأن ذلك مطلوب لذاته بل لعدم الاخلال بما تواضع عليه أولئك العظماء من الآداب واني على يقين من انك لو اطلعت على هذا العالم الناشيء لوجدت فيه شيئاً من التصلف ،

فلشد ما يرى فيهم من العجرفة وما يبدونه امام الاجانب من ظواهر الابهة الصبيانية .

وحقيقة الامر ان هؤلاء الانكليز أنفسهم على ما لهم من الحرية الواسعة وما فيهم من كمال استحقاقها هم في غاية الخشية والخضوع لرأي الجمهور وشأنهم في هذا شأن باسكال [1] الذي يسمى ذلك الرأي ملك الدنيا .

على انني لا أدري أي تأثير له فيها يستحق به هذه التسمية ، ولكني إخال ان له في انكلترة من السلطان والسيطرة ما ليس مثله لفكتوريا [2] فان جيراننا ينشأون من صغرهم عبيداً مختارين لبعض مواضعات قومية فيجبرون على أنفسهم تعظيم ماعظمه جمهور المهذبين من قومهم بدون بحث فيه ولا نظر ، فكل منهم في سيرته وآرائه تبع لغيره معتمد على ما لهذا الغير من الاعتبار وعلو الكلمة ، وتراهم في منتدياتهم قليلي الكلام بل لا تخرج محادثاتهم عن حدود الامور التي قدسها استقرار العادة فلهم جمل من المعاني والافكار كأنها تحجرت في أخلاقهم وعوائدهم فأجمعوا على عدم المناظرة والجدال فيها .

إني الى الآن لم أعرف الانكليز معرفة تكفي لادراك سر هذه المباينات ، وإنما الذي أراه في كبارهم انهم قد جمعوا بين غاية الاستقلال في أفعالهم وغاية التقليد في آرائهم ، واما صغارهم فانهم كذلك أحرار

(١) باسكال ويسمى بليز باسكال هو كاتب ومهندس فرنسي شهير ولد في كلير مونت فرّاند سنة ١٦٢٣ ومات سنة ١٦٦٢ ميلادية وله مؤلفات شهيرة منها أفكار باسكال (٢) فيكتوريا ملكة الانكليز السابقة

في حركاتهم وفي معظم ما تتوجه اليه عزائمهم من أعمالهم — لكنهم يحجرون على أنفسهم أن تتعلق هذه العزائم من الاعمال بما يخالف تقاليد أهليهم وآثار سلفهم وعوائد الصالحين من مخالطيهم ، وربما كانت الحكمة في كل ذلك ان القوم قد رأوا طباعهم تجري بهم في بحر لجي من الحرية جري السفن مدت شرعها فاضطرهم ذلك الى طلب مرساة يوقفون بها جريها فالتمسوها في ضبط الاخلاق البيتية وفي العوائد القومية والاصول الملية .»[1] اهـ

الرسالة الثالثة والعشرون

﴿ من هيلانة إلى إراسم في ٦ يوليه سنة — ١٨٥ ﴾

أخباره باقتراب ساعة الوضع ورؤيا رأتها

كأني أيها الحبيب بساعة الوضع قد اقتربت واني وان كنت لا أزال في كفاية من جودة الصحة فما أخوفني من هول تلك الساعة وما

---

(١) قد أحسن الانكليز صنعا فى تقييد حريتهم بتلك القيود التى هى السر فى عظمتهم وامتداد سلطانهم وهى التى صيرتهم أعظم الامم شأنا وأعلاهم فى ذرى المجد مكانا كما فعلت بالعرب من قبلهم فالحرية المطلقة من كل قيد مدعاة الى الشر والهمجية فليتأمل فى ذلك طلاب الحرية وليمعنوا الفكر فيه وليحملوا الناس على الاحتفاظ بآدابهم الدينية وأخلاقهم القومية ولا يكونوا كالترك فى عهدهم الجديد فان الاخبار المنقولة عنهم تدل على تفصيهم من كل قيد ونبذهم كل عادة وذلك نذير سوء لا يعلم عاقبته الا الله

تأتي به من الشدائد والمحن التي كان شهودك فيها وحده كافلا تخفيف آلامها عني . رباه ! كيف لا تكون بقربي أيها العزيز إبانه وأخص وقت تكون فيه المرأة كالعشقة (شجرة اللبلاب) لزاما لمن تحبه وتعلقا به انما هو أمس ذلك اليوم المعروف بالعناء والخطر .

في الليلة الماضية رأيت رؤيا تحيرت في تأويلها . رأيتني أزور قبر والدتي لابسة الحداد فعظمت دهشتي لما رأيته هناك من شجر الورد والآس وغيرهما من الازهار لاني لم أكن أوصيت بغرسها ، ولما رأيت أن يداً مجهولة قد عنيت بآخر منزل لمن كنت أحبها فزينته بهذه الازهار هاجت أشجاني وانهطلت عبراتي وأحسست بالبكاء في نومي وقلت في نفسي : ليت شعري من هذا الذي عرف كيف يتحبب اليّ ويسترضيني عنه ، ثم تبينت من جملة وقائع متتابعة مبهمة أنك أنت الذي غرستها فغرقت فى شبه لجة من الفناء في حبك . وما عسى أن أصف لك مما خطر فى ذهني حينئذ فقد تمثلت لي جميع الاحوال التي تلاقينا فيها لاول مرة وما انعقد بيننا من روابط الحب الاولى تمثلا ليس كالذى يحصل عند ذكر المرء حوادث ماضيه ، بل كما يحصل فى الحلم حيث تتشكل فيه الاشياء الحية وغير الحية بأشكالها الحقيقية . فما قولك في هذه الرؤيا ؟ وأما أنا فلو كنت من الموسوسات لاعتقدت ان فيها انذارا ببعض المصائب

أبشرك أيها الحبيب بأن أول مكتوب يأتيك مني بعد هذا سأكتبه اليك وأنا أم . وكلما فكرت في ذلك تعروني هزة الفرح ونشوة الطرب فالآن أودعك وأقبلك بكل ما في نفسي من قوى الحب والشوق . اهـ

صحف مقتطفة من يومية الدكتور راسم

(صحيفة يوم ٦ يوليه سنة — ١٨٥)

أقل شيء من العقبات المعنوية يعوق العقل عن الانبعاث فى سبيل الحرية

دخلت فراشة مخدعي من السجن من حيث لا أعلم ، ومكثت ربع ساعة تحاول الخروج من الشباك يدعوها الى ذلك ما وراءه من الضياء والفضاء والحياة بما تسمعه من الاصوات فى جو السماء ولكنه على ضيقه كان محكم الاقفال ، فانقضت عليه بنت الهواء أولا على جهل منها بحقيقة زجاجه اللطيف حاسبة أنه لا وجود له أمامها . ثم أخذت تصادمه وتلتصق به وتقاومه وكلما ردتها صلابته خائبة أعادت عليه الكرة

هكذا يكون شأن الانسان مع العقبات المعنوية التى تعترضه فى طريق حياته لا يحسب لها حسابا لانها لا تكاد تكون شيئا يذكر فهي كسمك لوح من الزجاج مثلا ـ لكن هذا الشيء الذي لا يذكر ـ كوهم أو عقيدة أو معنى غير صحيح أو مغالطة كاف فى تعويق عقله عن التحليق بجناحيه فى سماء الحرية ، فلا يجدي معه اشتداد العقل فى اقتحام عقباته كما لم يجد تلك الحشرة اصطدامها بالزجاج وإيهاء جناحيها فى مغالبته .

فلما رأيتها قد عجزت عن الخروج فتحت لها الشباك وقلت لها : إمضى أيتها المسكينة فى سبيلك وطيري بجناحيك كما كنت فى خالص الهواء وحرارة الشمس ، فهذا يكفيك من مسجون فى حجرته . اهـ

﴿ صحيفة يوم ٨ يوليه سنة — ١٨٥ ﴾

لابد يوما أن يدال من المستبدين وأن ترد الحقوق المغصوبة الى أهلها

كثيراً ماشاهدت ساحل البحر بين حركتي المد والجزر وأبصرت على سطح رماله المبللة الرطبة آثار كثير من الاقدام والعجلات ونعال الخيل ورسوماً غريبة فى بابها نقشتها على صفحاتها أيدي الاطفال، وأسماء كتبت بأطراف العصيّ وغير ذلك من الآثار الكثيرة المتنوعة، فلما مد البحر محاها جميعها فلم يبق منها شيء يدل على سبق وجودها . كذلك شأن العدل والدهر فان لهما كالبحر مدًّا وجزراً . فاعملوا ما شئتم من تأليف الكتب وتحرير الصحف واقامة الابنية ووضع القوانين، وارسموا مقاصدكم على الرمال، كل ذلك يغمره مدّ العدل فى يوم بل فى ساعة واحدة فالبحر يقول فى مده : انى أعود الى ما تركت من مكاني، والشعب يقول فى مده : اني أسترد ما اغتصب من حقوقي . اه

﴿ صحيفة يوم ٩ يوليه سنة — ١٨٥ ﴾

من أعجب الظلم ان يداس العدل والحرية وتهضم حقوق الامم

فى سبيل تحصيل لذة الملك لرجل هالك

كان فيما سلف من القرون رجل من الفاتحين دمر الممالك ودوخ الاقيال، ثم مات بعد أن تم له النصر فى كثير من وقائعه وغزواته، فوضعه

رجال دولته على سرير رفيع محفوف بأكل مظاهر الابهة والجلال مع أنه بالموت قد خلع من ملكه وأنزل من عرش سلطانه، فاتفق أن تهافتت على أنفه ذبابة فلم تستطع يداه ذودها عنه على ما كان فيهما من ادارة شؤون الممالك وقمع نخوة الجبابرة . ياعجباً ! أللوصول الى الغاية التي وصل اليها ذلك الرجل يوطأ العدل والحرية بالمناسم وتهضم حقوق الامم ؟ . اه

﴿ صحيفة يوم ١٠ يوليه سنة ١٨٥ – ﴾

تمثيل الحكومة المستبدة فى الامم الراقية بالدجاجة مع أفراخها التى استغنت عن ولايتها

أرادت دجاجة أن تغطي بجناحيها أفراخاً تفقص عنها البيض وكبرت فقلن لها لسنا فى حاجة الى عنايتك فانك ترهقين أنفسنا بثقلك، فكان جوابها على ذلك أن قالت لهن « مه فانكن لاتدرين في ذلك شيئاً، أما عدم احتياجكن الي فهذا ممكن وأما أنا فلا أستغنى عنكن، أولا لانه يلذ لي أن ألقي ثقلي على شيء فان هذا يرفع من شأني ، وثانياً لأني آكل ما أعد لكن من الحب . »

هذه الحكاية تمثل الحكومة مع الشعوب التي بلغت من درجات الترقي ما يكفيها في الاستقلال بحكم نفسها . اه

﴿ صحيفة يوم ١٢ يوليو سنة — ١٨٥ ﴾

بيان تمثل زوجته له في اليقظة

كانت ليلتي هذه هائلة فظيعة فاني كنت في بعض ساعاتها أرى من خواطري ما كان يمثل أمامي كما تمثل الاشباح فكأني صائر الى الجنون : لقد رأيتها .... هي بنفسها لافي حلم بل في يقظة كانها أخفى من النوم ألف مرة .

رأيت هيلانة قائمة على سريرها وكنت ألاحظ نفسها المختنق وأجس نبضها الذى دلني على انها محمومـة . واعجباً ! أخالني سمعت صوتا .

ويلاه ! انها تئن وتتألم وأنا بعيـد عنها . انما يدرك ثقل وطأة السجن ويحس بضيقه في مثل هذه الساعات التي تغلب على الانسان فيها حيرته وتزهق نفسه ، ولقد كنت أريد أن أكون قدوة لزوجتي في الثبات والصبر ، فهذه أول مرة غلبني فيها السجن على عزمي فانثنى رأسى وانجرح فؤادى مما ألاقيه من نقم القانون البشرى .

لو كان حقا ما يقال من أن في قـدرة الاموات ان يزوروا من كانوا يحبونهم في الحياة الدنيا لوددت أن أموت في هذه الساعة حتى أراها . اهـ

الرسالة الرابعة والعشرون

﴿ من الدكتور وارنجتون الى الدكتور إراسم في ١٢ يوليه سنة — ١٨٥ ﴾

البشارة بوضع أميل

أبشرك أيها السيد العزيز بغلام جميل ولد لك في الساعة الثالثة من صباح هذا اليوم بعد ماقاسته والدته من طويل العناء وشديد الالم. ولقد كنت عشية أمس مشفقاً من أن يحل بها مكروه لبعض علامات بدت عليها ولكن قد أعانتها قوة طبيعتها وسلامة خلقها على النجاة من الخطر وأصبحت صحتها من الجودة على ما كنا نرجوه لها ، وأما الغلام فجل ما يبتغيه أن يعيش ليخلد به ذكرك ويعلو بنباهته قدرك ويعظم فخرك

وهذه فرصة قد انتهزتها لمكاشفتك بما في قلبي لك من المنزلة الرفيعة وما في نفسي من جواذب الميل اليك ورجائك في أن لا تضن بي على أي خدمة يلزم لك أداؤها ، وأن لا تكتم عني حاجة يعوزك قضاؤها ان قبلت هذا الرجاء استوجبت خالص شكري لانك بذلك تكون قد برهنت لي على أنك لم تنس صديقك القديم . نحن معشر الانكليز متهمون عندكم بأن فينا شيئاً من الانقباض عن الناس والاحتراس في معاملتهم ، ولكن ربما كنا خيراً مما اشتهر عنا وانا على كل حال لنا قلوب تعطف على البائسين وتكرم المنكوبين اهـ

صديقك المخلص

الرسالة الخامسة والعشرون

﴿ من هيلانة الى اراسم في ٢ اغسطس سنة ١٨٥ ﴾

وصف القابلات في انكلترة ووصية الدكتور وارنجتون لها بالعناية بمولودها

لا بد لي أن أقص عليك تاريخي فيما يسميه الانكليز اعتكاف النفساء ملتزمة في ذلك طريق الايجاز فأقول :

استأجرت ممرضة كما هي العادة هنا وهي امرأة واسعة الخبرة في أمور التمريض والولادة أراك تقضى منها العجب لو سمعتها تتكلم في الطب والجراحة والقيام على الاطفال وغير ذلك مما يدل على كثرة درايتها فيما يلزم لمهنتها . والظاهر انه يوجد من هؤلاء القوابل في انكلترة قبيلة بتمامها . وعملهنّ في حق الوالدات هو أن يرشدن من يكن منهن حديثات عهد بالولادة الى ما يعود عليهن وعلى أولادهن بالنفع ، وينفذن ما يصفه الطبيب من طرق التداوى ، وعندهن بحسب ما يسمع منهن عدة من المركبات الدوائية لمداواة بعض طوارىء العلل لا يتخلف عنها الشفاء وأما قصصهن في هذا الموضوع فانها لا انفاد لها ، ولو اني اعتقدت صدق كلامهن في جميع الاطفال الذين يدعين انهم نجوا على أيديهن من الموت لبطل عجبي من كون انكلترة قد وجدت من أبنائها العدد الكافي لعمارة استرالية وزيلاندة الجديدة وسائر مستعمراتها .

والتي تقوم عليّ منهن هي ـ فوق ماتقدم من الصفات ـ أمرأة

بارعة ذات فضل يظهر أن صفة الامومة العامة قد صارت غريزة من غرائزها، وهي قصيرة هيفاء تلوح عليها سمات الاستقامة وكرم النفس شهدت في ماضيها – كما يقال – أياماً مثلى فانها كانت زوجة لرجل كان ملاحظاً للاعمال في أحد مناجم كورنواي وقتل بسبب اندكاك هذا المنجم فترملت من بعده . وقد رزقت هي أيضاً عدة أولاد فارقوها من عهد بعيد وتشتتوا في البر والبحر ابتغاء الرزق – اثنان منهم ملاحان صالحان يصلانها حيناً بعد حين بصندوق من الشاي وقطعة نقد من الذهب ، وقد عرض عليها ان تكون ممرضة في مستشفي كبير فلم تقبل على ما في إبائها من المباينة لمصلحتها وقالت : إني أفضل أن أتلقي الوافدين الى الدنيا وأرجو لهم حياة طويلة فيها على توديع من يفارقونها فراقاً أبدياً .

كان الدكتور وارنجتون قد أوصى قبل سفره بأن يؤذن بدنو ساعة الولادة فلما حان الوقت أرسل اليه مكتوب فلم يلبث أن جاء من لوندرة على اثره قبل أن يضربني الطلق وتنزل بي شدائد المخاض واهواله ، ومما يحمد في خصال الانجليز انهم اذا اسدوا الى غيرهم معروفاً لا يمنون عليه بل لا يظهرون له ان قصدهم بذلك خدمته او اسداء المعروف اليه ، وذلك اما ان يكون منهم رقة طبع وكمال ادب او كبراً وترفعا عن خدمة سواهم يدلك على ما اقول اني لما شكرت لهذا الدكتور مجيئه وتركه مرضاه في لوندرة ، كان جوابه لي ان قال : رويدك فاني ما جئت من اجلك وانما جئت لزيارة زوجتي واولادي ، فهذا الجواب يعتبر في رأينا معشر الفرنسيات دليلا على قلة الظرف ويعده كثير من الباريسيات اهانة وتحقيرا

وأما أنا فلم أنظر الا الى قصد قائله وهو جليل فانه على يقيني بأن الغرض من مجيئه هو غير مايقول قد اراد ان يقنعني بان وجوده عندي انما كان اتفاقا لا تعملا فلا يد ولا امنة له علي أو أنه ان كان شيء من ذلك فلا ينبغي ان يتمدح به أو ان يذكر .

ثم انه لم يقف في تفضله علي عند حد مساعدتي بعلمه وحذقه في فن التوليد على النجاة من الهلاك الذي كنت مشفقة من الوقوع فيه، بل قد تكرم أيضا بان محضني النصح شأن الصديق مع صديقته فيما يجب للمولود من ضروب العناية فقال « اني اخاطب الآن غرة لا خبرة عندها فلا تدهش لما سألقيه عليها من افكاري فان اقل مزية لها ان اساسها التجربة والاختبار . قد نبه كثير من رصفائي افكار الناس في جميع البلدان الى كثرة عدد الوفيات المريعة في الاطفال الحديثي العهد بالولادة ويمكن ارجاع هذه البلوى الى عدة اسباب كفاقة الوالدين وفساد اخلاقهما وعدم كفاية اقواتهما ، ولكني اعتقد ان اخص سبب يجب ان ينسب اليه ذلك هو جهل الامهات بما يجب عليهن رعايته في شأن اولادهن ، فان الاساءة في بعض طرق العناية بالمواليد كاتخاذها في غير وقتها او الخطأ في تدبيرها لا تقل عن اهمال شأنهم شؤما وسوء مغبة واني لست أقصد بهذا انه يجب على الأمهات أن يجرين على ماتقتضيه الفطرة جرى عماية وغفلة فلهن ان يفعلن ذلك يعصين الله (سبحانه) بتخليهن عن العقل الذي لم يهبه لهن الا لمراقبة سير الفطرة في مناهجها واقامتها عليها اذا حادت عنها ، وانما أعني بذلك أن الاوهام والعادات والمعارف الفاسدة هي أعدى أعداء المواليد فتجب محاربتها

ومحو آثارها ، وينبغي أن تعتقدي أننا لسنا أسوأ من غيرنا حالا في تربية مواليدنا لان شعبنا يزداد زيادة ظاهرة حتى انه قد ضاقت عن سكناه أرجاء بلادنا، وها نحن أولاء نرسله أفواجاً الى الاقطار السحيقة ليتوطنها ويستعمرها ومن هذا تعلمين أن ازدياد الاجناس لا يكون على نسبة عدد الاطفال المولودين بل على نسبة عدد من يتخطاهم الموت منهم ، وعندي أن هذه النتيجة الحسنة الداعية الى الاغتباط في بلادنا ترجع الى ثلاثة أمور وهي استعداد الدم الانكليزي السكسوني للحياة، وانطباع نسائنا على حب بيوتهن والعناية بها . وما لذوى العقول المستضيئة بنور العرفان من علمائنا من التأثير في نفوس العامة فان كثيراً من نُطُس الاطباء الطائري الصيت عندنا لم يأنفوا أن يقوموا ببث الافكار الصحيحة والآراء السديدة في فن القيام على المواليد بين أفراد الشعب» ولم يكد الدكتور يفرغ من كلامه حتى باشر العمل بنفسه ورتب ما رآه غير مرتب في غرفة نومي ، من ذلك أنه وجد مهد (إميل) قد وضع خطأ تجاه (الشباك) فغير وضعه وقال لي «اني رأيت أطفالا أصبحوا عمياً أو حولا بسبب تمريضهم بعد ولادتهم بأيام لضوء شديد» هذا وسأتحفك بنصائح أخرى وعيتها عن هذا الرجل الفاضل لما رأيته فيها من كمال الحكمة والسداد ولم أخل بشيء منها ، واني لا أرتاب في أنه قد تكلف من المشقة والتعب ما لم يتكلفه لغيري من النساء اللاتي يدعى لتوليدهن ، وعاملني كما يعامل الرجل زوجة صديقه . على أن الناس قد أكدوا لي أن الاطباء المولدين هنا لا يرون ان عملهم قد تم بمجرد انتهاء الولادة، بل يرشدون الوالدة بعد ذلك الى جميع ما يلزمها في تربية وليدها . اهـ

الرسالة السادسة والعشرون

﴿ من هيلانة الى اراسم فى ٣ اغسطس سنة — ١٨٥ ﴾

مشابهة « اميل » لابيه وحكاية فى التماثل بين صور الاحياء والاموات

كلما رددت النظر الى «اميل» رأيت مثالك محققاً فيه ، ولا بدلي أيها العزيز اراسم أن أحكي لك بهذه المناسبة حكاية طبق ذكرها الآفاق فى البلد الذى أسكنه . ذلك ان قسيساً بروتستنتياً قاطنا فى جنوب انكلترة وجد اتفاقاً فى كور نواى يوما من الايام فطلب أن يزور قصراً عتيقا جداً فى ضيعة هناك كانت لأسلافه فى غابر الازمان ولذلك كان كثير الاهتمام برؤية أماكنها ، فلما حل بها ملأه العجب وأخذ منه الاندهاش كل مأخذ اذ رأى فى الرواق المعلقة فيه صور أهل هذا البيت السالفين صورة كأنها تمثله بذاته مرسوما على نسيج قديم لابسا عدة الحرب كما كانت سنة الناس فى القرون الوسطى ، لا بملابسه السوداء التي يلبسها اليوم ؛ وبينما هو يتأمل فى هذه الصورة وفيما يليها من الصور اذ وقع بصره على صورة اخرى زادته ارتياعا ودهشة فتقهقر خطوتين الى الوراء وهى صورة تمثل ابنه البكر وهو فتى فى الثالثة عشرة من عمره وكان معه فى هذا الرواق . فماذا تظن فى هذه الصور الوراثية ؟ وأما انا فاني أكاد افزع عند ما اتصور ان رجلا من الاحياء يعرف نفسه وابنه في شخصين مجهولين من اهله ماتا من عدة قرون .

فليت شعرى هل نحن راجعون الى الدنيا بعد الفناء كما روى لنا التاريخ ذلك عمن يؤمنون بالرجعة والتناسخ ؟ اهـ

الرسالة السابعة والعشرون

(من هيلانة الى اراسم فى ٤ اغسطس سنة ١٨٥)

ظنها ان « إميل » انشأ يعرفها وبيان فضله عليها فى تحسين خلقها

لا ازال اشعر فى نفسى بكثرة الضعف حتى انى في تحرير هذا المكتوب اليك لم استطع ان اكتبه مرة واحدة بل كنت اراوح فيه بين الكتابة والاستراحة عدة مرات : فقد كنت لزمت الفراش اثني عشر يوما موافقة للعادة المتبعة فى معظم جهات انكلترة، والآن اصبحت قادرة على القيام والمشى فى البيت قليلا وصرت مثلك اجيل ناظرى وفكرى واسيح بهما فيما حولي ، واني اجد لذة فى حبسي لاني انوى به مشاركتك فى حبسك .

اراني لا اكون واهمة ان حسبت ان اميل مالبث ان عرفني. فاني لا اجيز لنفسى مطلقا ان تعتقد اني لست في نظره « الاثديا مملوءة لبنا » على قول أحد العلماء . على أني أعترف اعترافا تام الصراحة بأن هذا المولود الضعيف الذي يكاد يكون جماداً محتاج الى أن يأخذ كثيرا من غيره ولا يكاد يعطي شيئا . نعم ان لنا فيه قرة عين وانشراح صدر ولكنه ليس له فى هذا اختيار فهو كالزهرة ترتاح لها النفس ويبتهج برؤيتها الناظر على غير ارادة منها ولا قصد ، ومهما كانت حاله فأنا أشد منه أثرة لاني أنا المغتبطة بحبي إياه، ثم اني كيف يسعني أن أرتاب فيما له من الاحسان الي فانه قد أعاد لي سكينتي وكف عني ما كنت

اجده من غربي [1] ذلك ان خلقي — ولا أخفي عليك — قد خالطه من بضعة أشهر شيء من الحدة بسبب العزلة والاغتراب، ومن هذا تعلم العلة في غضبي على جورجية قبل الآن بأيام على أنها أحسن النساء وأكثرهن التفاتا لواجبها . وحقيقة الامر أنها تستثقل القابلة ولا تطيق النظر اليها ويوجدها عليها ان تراها قد استحقت نصيبا من شكري لانه من الفروض علينا أن نشكر لمن يخدمنا . فهذه الغيرة المنبعثة من قلب مخلص لم يستضيء بنور العلم هاجت غضبي عليها فلم أستطع كظم غيظي ولا كف بوادر لساني في تلك الساعة . فما كان أشد ني اندهاشاً وارتياعاً اذ ذاك ، فاني لم أكد أفرغ من تقريعها حتى أبصرت وجه إميل قد صار أحمر كالارجوان وطفق يصرخ صراخا شديدا . فمن ذلك اليوم ملت الى الاعتقاد بأن انفعالات الام تؤثر في نفس الطفل فيكون بكاؤه وتغيره رجعا لصداها .

وسواء أكان هذا الاعتقاد صحيحا أم فاسداً فقد عاهدت نفسي على أن أعتبر بهذه الواقعة، وأصبحت الآن كلما عرض لي مايكاد يذهب بحلمي أنظر الى إميل فيسكن غضبي على الفور إجلالاً لولدي ، وإذا كنت قد صرت أحسن خلقا وأوسع صدراً وأملك لنفسي مما كنت قبل فليس ذلك إلا بسببه وبيمن وجوده اهـ

(١) الغرب الحدة

الرسالة الثامنة والعشرون

﴿ من هيلانة الى إراسم في ٥ أغسطس سنة — ١٨٥ ﴾

سؤالها اياه عن حقيقة التربية وزمنى بدايتها ونهايتها

تلقى الدكتور وارنجتون مكتوبك [١] وأطلعني عليه فرأيتك قد تجنيت على نفسك اذ قلت: إنك ملوم على ما جلبه لي تعيس حظك من الخمول والذل، وانك لست جديراً بأن تكون والدا . رويداً، هون عليك الخطب فاني من عهد ان جمعتنا عقدة النكاح كنت راضية بكل ما وقع لنا فهل كان ذلك مني كما تقول ناشئا من شرف نفسي أو من رعاية واجبي ؛ لا ! بل كان سببه مافي قلبي لك من صادق الحب وخالص الود . فمن الجبن والعار أن تأسى اليوم على ما قد كان ، واعلم أني لست أشكو أبداً ما ابتلينا به من الشدائد والمحن ، بل أزهى بها وافتخر باحتمالها ، وأما ولدنا فقد آن لنا — على ما أرى — أن نشرع في تربيته ، فما هي التربية ومتى تبتدىء ومتى تنتهي ؟ أنا في انتظار جوابك عن ذلك

حاشية — اميل مستغرق في نومه وقد قبلته قبلتين في وجنتيه على حبك . ا ﻫ

---

(١) هذا المكتوب لم يعثر عليه

الكتاب الثاني

(في الولد)

الرسالة الاولى

(من اراسم الى هيلانة فى ١٠ أغسطس سنة ـ ١٨٥)

بيان الصعوبة فى تحديد زمنى بداية التربية ونهايتها وتعريف التربية

تسألينني فى خاتمة رسالتك الاخيرة عن التربية متى يكون ابتداؤها فأقول :

يصح أن يبتدأ فيها قبل الولادة بزمن طويل لانه من المحقق الذى لا مساغ للريب فيه أن في أجيال البشر أنواعاً من الاستعداد الوراثي تنتقل من الآباء الى الأبناء ، فابن المتوحش يولد متوحشاً وولد البربرىّ يخلق بربرياً ومن كان من أبوين متمدنين فانه يولد مُهيأ للتمدن .

كل من عرف ذلك يرى فيه أن هناك قوًى سابقة لخلق الحياة فى الانسان تحدد لكل فرد من أفراده درجة ملكاته ومقدارها نوعاًما من التحديد . وما نسميه بالتصورات الغريزية والقوى الحدسية والمواهب الخلقية والفيض الخفي وغيرها ربما لايكون شيئاً آخر سوى ماتتوارثه

من حالة العمران ، أعني نتيجة عمل العقل فيمن سبقنا من القرون ، فنحن الراجعون الى الدنيا بعد الفناء كما تقولين [1] .

ان ظهور أثر أعمال السالفين وأفكارهم في إحدى مثاني مخنا على غير علم منا وتنقل المادة الحية من قرن الى قرن مرتقية على الدوام فى صورها بعمل العقل ، وخروج المولود من غيابة الرحم الى عالم الشهادة بأعضاء كملها التقدم وسواها الترقي ـ جميع هذه الأمور يغلب على ظني أنها من أسباب النمو التي يصح ملاحظتها في التربية ، ولكن لما كانت عزائمنا ليس لها على مثل هذه الاسباب أدنى سلطان لعمومها وخروجها عن حد الضبط كان من العبث البحث فيها .

لكن هناك أحوالاً طبيعية يتأتى للعلم فيما أعتقد أن يتناولها ويغيرها خلافاً للأسباب المذكورة . فلا شيء يمنع المشتغلين بعلم منافع الاعضاء ـ مثلا ـ أن يصلوا يوماً ما الى تحديد ما لسن الرجل والمرأة وحالتهما الصحية وطريقتهما الغذائية من التأثير فى التناسل . وقد وجه فريق من نابغي هذا العلم الذائعي الصيت أنظارهم الى هذه الغاية وأعملوا

(١) هذا وهم باطل فلا يصح اتخاذ التشابه الواقع بين صورة ميت مضى عليه جيل أو أجيال وبين صورة حي من الاحياء دليلا على الرجعة الى الدنيا بعد الفناء فان فلتة واحدة من فلتات التشابه لا تكون قاعدة يبنى عليها حكم كهذا مخالف للعقل والنقل على أن مجرد التشابه الحسي على فرض حصوله من جميع الوجوه لا يكفي وحده للاستدلال به على صحة هذا الحكم بل لابد من التشابه المعنوى أيضا فى كل شيء من الاخلاق والافكار والعواطف مع استفاضة هذا التشابه بل الاتحاد فى كثير من الافراد وشيوعه وهذا مالم يقل به أحد يعتد برأيه

أفكارهم في سبيل الوصول اليها ، فاذا أدركوها وتقرر أنها أصبحت من ثمراته صار علم منافع الاعضاء فرعاً من فروع علم التربية النفسية .

اذا علمت مما تقدم أنه من الصعب جداً تحديد الزمن الذى تبتدئ فيه التربية اتضح لك أن تعيين الوقت الذى تنتهي فيه أصعب وأكثر مجازفة لانها تستغرق العمر كله .[1]

وأما حقيقة التربية ـ وهي أول شيء تسألين عنه ـ فمن الميسور لي أن أجيبك عنها جوابا سديداً وهو : انها ـ على ما يؤخذ من معنى لفظ التربية اللغوى ـ عبارة عن تكميل عقل الناشىء وتهذيب نفسه باظهار جميع ما استكن فيه من ضروب الاستعداد وأنواع القوى وانمائها ، لان ذلك اللفظ مأخوذ من ربا أي زاد ونما ، لكنني خشية أن تخالي في هذا التعريف ابهاما أعجل بكشف معناه وتقريبه الى ذهنك فأقول :

أراد جمهور علماء الاخلاق بالتربية الوصول الى ما تصوروه في الانسان من معنى الكمال ، فغرضهم منها ايجاد الانسان الكامل وهو غرض يظهر لاول نظرة انه موافق للعقل تمام الموافقة لكنه مثار لاعتراضات كثيرة . فلقائل أن يقول : ان الانسان الكامل ليس له الا صورة خيالية لا تحقق لها في الوجود الخارجي قطعا ، فنحن اذن نحلم به كل على حسب تصوره . فايانا والتشبث بهذه الصورة الوهمية

---

(١) هذه حقيقة ثابتة يشهد لها العقل ويصدقها الوجدان وتقتضيها طبيعة الانسان فانه فطر عاجزا ناقص الادراك محتاجا الى تنمية ملكاته وتكميل قواه بالنظر فى ملكوت السموات والارض والاعتبار بأحوال المخلوقات وعمره أقصر من أن يبلغ به الكمال فى شيء من ذلك

التي يريد بها الخيال أن يتغلب على الواقع المحقق ، فانه لاشيء أيسر علينا من تخيل ذات عاقلة ونعتها بالآلاف من نعوت الكمال الخيالية حتى تكون نموذجا لجميع الفضائل ، ولكن من لنا بانزال هذه الذات من السماء وابرازها لنا الى عالم الظهور .

مثل هذا الاعتراض على مسألة التربية يكون وجيهاً لو أن الانسان كان ذاتاً واجبة الوجود ، لكننا في الحقيقة نراه على خلاف ذلك متغيرا لا يستقر على حالة واحدة ، فانه وهو في الرحم تتناوبه أطوار جنينية مختلفة ولا أريد أن أبين لك ما يتقدم ولادته من الحوادث ، وانما أقول : ان حياته من أولها الى آخرها ليست الا سلسلة استحالات متفاوتة في الحصول سرعة وبطأ . أنظري الى شعره (الذى لا يوجد عادة حين الولادة) كيف يتغير لونه عدة مرات والى لون جسمه وسمات وجهه وبنيته كيف انها تتجدد كلما كبر . تأملي فى الغلام الصغير عندما تبتدىء ثناياه اللبنية بالزوال تجديه قد صار شيخاً بالنسبة الى ابن الرابعة والخامسة الذى لاتزال لثته محلاة بجميع لآلئها ، فقد خلق الله (سبحانه) لجميع الكائنات الحية فى دور نموها أعضاء وقتية تتلاشى بعد انقضاء مدتها ، وأعد لها أعضاء أخرى تنموا فى هذه المدة لتخلف الاولى . كذلك القوى الجسدية والملكات النفسية تتعاقب ويخلف بعضها بعضاً على نظام محدود ، فان المولود يذوق قبل أن يبصر ويبصر قبل أن يسمع ، والذاكرة فيه تسبق القوة الحاكمة ، ووجد أنه يكون قبل فكره بزمن طويل . فالحياة من الولادة الى الشبيبة ومن الشبيبة الى الشيخوخة مظهر قوى تتعاقب

ويغذى بعضها بعضا ، والانسان من مهده الى لحده يسلك طريقا تفرقت فيه رفاته وبددت في جوانبه بقاياه .

أنى يكون لنا بعد ذلك موقف في هـذه الحركة الدائمة ، وكيف السبيل الى غاية ننتهي اليها ؟ فالذى أراه هو أن لكل يوم ما فيه ، وأن أهم ما تجب به العناية في علم التربيـة هو اختيار ما يناسب كل سن من أنفع طرق النمو وأمثلها فانا الا ن أقتصر على الكلام عن التربية في زمن الطفولية . اه

الرسالة الثانية

(من اراسم الى هيلانة في ١١ أغسطس سنة ـ ١٨٥)

عمل الام فى الشهور الاولى من حياة الطفل وانتقاد ما يفعله الامهات بأطفالهن فى هذه السن

اعلمي أن تربية الطفل فى الاسبوعين الاولين من حياته بل يصح أن أقول في الشهرين الاولين منها تكاد تنحصر في مجرد وقايته مما عسى أن يؤذيه من المؤثرات الخارجية فهي ترجع الى نوع من انتظار الفطرة ومراقبتها فى عملها واعانتها عليه عند الحاجة .

المولود يدخل عند ولادته فيما اصطلح علماء منافع الاعضاء على تسميته بالحياة المستقلة ولكن ما أضعف استقلاله وأقل حريته فانه بما أودع فيه من غريزة التغذى لا يكاد يرى الا ملتقما ثدى أمه ، فتكون معه كالغصن الطعم بآخر ، فهو إذن تابع لغيره فقير اليه فى غذائه وسدّ حاجات معيشته

الِادية. وما أخفى معنى الاستقلال وأشد إبهامه فيه وهو فى هذا الطور من الحياة ! فانه لما كان مغموراً فى شبه سحابة من الجهالة لم يكن فيه أول أمره على ما يرى من حاله أدنى ادراك ظاهر لما يضطرب حوله من الاشياء مسكين ذلك المولود الاعمى ، فانه لا يجد ثدى أمه الا بتلمسه، نعم ان له عينين لكن لا يبصر بهما وأذنين لكن لا يسمع بهما ويدين لكن لا يعرف أن يبطش بهما. هذا المولود الذين هو وثن لامه تعبده وتخصه بفرط محبتها قريب الشبه بالآلهة ⁽١⁾ الزمني الذين سخرت منهم التوراة، لكنه على مافيه من الضعف والعجز قد عهد اليه عمل ذو شأن يؤديه فى العالم ألا وهو النمو

يكاد عمل الأم ينتهي الى عدم إعاقة هذا العمل الفطرىّ الخفي والتحرز من تشويشه، واني طالما أعجبت بما تهديه اليها أنثى الطير من الاسوة الحسنة، فانها لشدّ ماتعتني بحجب ذخرها الحي عن دنس الانظار ،وتبالغ فى إخفائه بعشها المستتر تحت أغصان الاشجار ، والمرأة أقل منها دراية بما يجب للاولاد لانا كثيراً مانراها تتخذ مولودها أعوبة لشفقتها وحنانها وماذا تقول فى أمهات ماينفككن يرين الاجانب أولادهن فيدرنهم من يد الى يد ، ويهجن انفعالاتهم بما يتصنعنه لهم من الحركات والاشارات، ويعذبنهم بالملاطفات المنبعثة عن جنون الشغف بهم . أقول قولا لاأود

(١) لعل هؤلاء الآلهة هم الذين سخر منهم سيدنا الياس عليه السلام لما أرد أن يتحدى أمته بقبول الله قربانه اذ طلب إليهم أن يقربوا ثوراً لآلهتهم ويقرب هو آخر ليظهر أيّ الالهة يقبل قربان عباده فقربوا ثورهم ودعوا بعلا إلههم من الصباح إلى الظهر لينزل ناراً تأكله فلم يجبهم فسخر منهم نبي الله وقال : ثابروا على الدعاء فلعله نائم .

منك اذاعته وهو : أني أخشى أنهن فى ذلك ينظرن الى تسليهن أو الى زهوهن أكثر من نظرهن الى مصلحة الطفل .

والحذر الحذر أيضاً من بعض الاوهام الشعرية فان شعراء هذا العصر وكتابه قد بالغوا فى اطراء الطفل ، فانهم قد حبب اليهم الخيال أن يروا فيه ملكا نزل من الجنة تاركا فيها جناحيه ، نعم انى فى الحقيقة لا أعرف من أين أتى ، ولكن رأيي فيه هو أنه اذا كان قد رأى عجائب فى عالم آخر فقلما يذكر منها شيئاً ، وأنه انما يحصل علومه جميعها بيننا وسأبين لك فى الرسالة التالية كيف يحصل هذه العلوم اهـ

الرسالة الثالثة

﴿ من إراسم الى هيلانة في ١٢ أغسطس سنة — ١٨٥ ﴾

أول علوم الطفل تأتيه من طريق الحواس ـ تربية الحواس ـ تأثير الحضارة فى قواها تفضيل تربية « اميل » فى الريف وسببه ـ عمل الام فى تمرين حواس الطفل

ان أول زمن فى حياتنا تكون فيه أكثر تعلما وأشد تحصيلا هو ذلك الزمن الذى لا يعلمنا القائمون علينا فيه شيئاً تعليما نظامياً ، فجميع الأمهات يعرفن أن الطفل يترقى فى تحصيل العلوم من الشهرين الاولين من حياته الى أن يبلغ ستة أشهر ترقياً غير معهود فى هذه السن ، وقد حسب له بعض علماء منافع الاعضاء مايكتسبه من العلوم وهو فى سن شهرين الى أن يبلغ سنتين أو ثلاثاً من عمره ، فوجد أنه يكتسب منها ثلث ما يكتفي بتحصيله أوساط الناس . هذه التربية الاولى لايتكر أن

لأمه دخلافيها ، ولكن أخص مؤثر في تحصيله تلك العلوم هو ملامسته لما يحيط به من الاشياء وتناول مشاعره إياها، فهذا الينبوع الاصلي من ينابيع العلم الانساني ـ وأعني به الاحتكاك بالاشياء وتناولها بالحواس ـ هو الذي أريد توجيه فكرك اليه .

ولننظر ابتداء الى ما يجري في الواقع ، فالمولود في مدة الاسابيع الاولى من ولادته يكون مخه لا يزال في غاية الرخاوة وأعضاؤه المعدّة لمعيشة الاختلاط بما حوله في نهاية العجز عن إجابة داعي ما يحتف به من الاشياء اجابة يكون من ورائها عمل ، فانه يرى جميع هذه الاشياء كأنها شفق فلا يميز منها شيئاً : ويسهل لك الاقتناع بذلك ما ترينه فيه من الغفلة عن وجودها وعدم المبالاة بها ، ثم تتدرج انفعالاته بعد ذلك في التيقظ لها ، فيكون مثله في هذا التيقظ بعد خموده كمثل صنم ممنون[1] يكون ساكتا فاذا انصبت عليه أشعة الشمس جعل يصوت كما تعلمينه . هذا هو شأن الطفل فانه ينتعش بما حوله انتعاش ذلك الصنم بالشمس إن صح أن يسمى هذا انتعاشا .

هل يتعلم المولود الابصار والسماع أم يأتيانه عفواً ؟ تلك مسألة يصعب كثيراً على المشتغلين بعلم منافع الاعضاء الاتفاق على الاجابة عنها فلهم فيها أقوال مختلفة ، ولكن الذي أجمعوا عليه أن المولود يتعلم بالتمرين

(١) ممنون في اساطير اليونان هو ابن الفجر وابن تيتون ملك الحبشة وهو أيضاً اسم لتمثال (معبود مصرى) كانوا يعبدونه في طيبة وكان صنمه على طريقة علمية بحيث ان الشمس لما كانت تطلع عليه كان يسمع له صوت ناشىء من حركة الهواء بسبب حرارة الشمس

إجادة هذين الفعلين فليكفنا ذلك من جواب هذه المسألة والحكمة فى هذا ان من السنن الإلهية ان كل عضو يحسن عمل ما واظب عليه ، وفوق ذلك أن قوة الانفعالات عند الطفل تزداد يوما فيوما بنفس ما يجده من اللذة في استخدام ما أوتيه من وسائل العلم الصغرى، فقد قال بوسويه (١) ان لذة الاحساس قوية جداً .

الاحساس في الغالب يحصل في المولودين عفواً من غير معاناة تعليم فلا يحتاج معظمهم الى تعلم اللمس والذوق والابصار والسماع ، بل هم يجدون فيما وهبهم الله من الغرائز مايلزم من القوة لاجراء هذه الافعال التي هي من مقتضيات الحياة ، ولكن من الميسور أن تعاون الفطرة على أدائها، بل أقول : ان في قوة اقتداء الطفل بغيره ومباراته اياه وفي تحلية الاشياء المحيطة به تحلية تزداد بها رونقا يجذب نظره اليها ـ مايساعد على تنبيه مشاعره ودفعها الى القيام بما خلقت لاجله . نحن نرى في البهائم أن أنثاها لا تكف عن ارشاد صغارها الى استخدام حاستي السمع والبصر وحملها على الانتفاع بهما ، وهذا الارشاد هو السبب ـ على ما أرى ـ فيما يوجد من القوى المدهشة لبعض الفصائل الحيوانية .

كذلك المتوحش ـ كما تعلمين ـ يكاد يكون نصيبه من التربية قاصرا على المشاعر : ولشد ما برّز علينا بهذا السبب في بعض القوى . فالعادة والرياضة البدنية وطريقة المعيشة تنمي في الاجيال البدوية عدة أنواع من الادراك

(١) بوسويه هو يعقوب بنيني بوسويه المولود فى ديجون ١٦٢٧ والمتوفى فى سنة ١٧٠٤ ميلادية كان اسقفاً لـكندوم ثم « لمو » ثم صار مربيا لولى عهد لويس الرابع عشر وهو من اكبر كتاب فرنسة وأعظم واعظ نبغ فيها

خارقة للعادة في دقتها وسعتها ، واذا سأل سائل عن سبب فقد الانسان بعض هذه المواهب الاصلية بتمدنه اكتفينا فى الجواب عن ذلك بتوجيه نظره الى ما حصل في بعض أنواع الحيوان من ضروب التغيير عند انتقالها من حالة التوحش الى حالة الاستئناس ، فمن ذا الذي كان يظن أن الارانب اذا تربت في خابية نسيت بعد ثلاثة بطون طريقة احتفار الاحجار للسكنى فيها ؟ وهذا الخروف الذي نعتبره مثالا للذل وسلاسة القياد والغباوة لم يكن كما نراه اليوم في جميع الازمان ، فان أصله الذي تولد منه وهو الكبش الوحشي على عكسه في الطباع لانه حيوان جريء يزهي بالمخاطرة بنفسه في جبال قورصة(١) ويقاوم من يبتغي صيده من الصيادين فجعله الانسان خروفاً أهلياً بزربه (أي بناء زوبية له) وتكليف راع القيام عليه وكلاب حراسته

كذلك الانسان كلما تهذبت أخلاقه بالمدنية وتحضر تدرج في التخلي عن بعض خواص معيشته الوحشية ، فلا تبقى له حاجة في أن يكون دائم التيقظ للمحافظة على نفسه اذا كان غيره يسهر لحفظه وكلاءته ، فمراقبة الحيوان المؤذي من بعيد وإلصاق الاذن بالارض تعرفاً لخطا العدو من بعد ألفي أو ثلاثة آلاف ميل لاضرورة لهما الا في حق سكان أمريكة وأسترالية الاصليين ، وأما نحن ففي حالتنا العمرانية ما يغنينا عن ذلك ، فان لنا الشرطي والجندي اللذين نستأجرهما ليدفعا عنا ما نخشاه من أذى المعتدين وكيد الخائنين . فاذا زال الخطر الملازم للمعيشة البدوية بالتحضر وجب حتما أن يزول معه ما كان لحاستي السمع والبصر من الدقة العجيبة

(١) قورصة جزيرة بالبحر الابيض المتوسط وهى احدى مقاطعات فرنسة على بعد ١٧٠ كيلو متراً من شواطئها

التي هي عون وجدان المحافظة على النفس .

كأني بك تقولين : ان هذه المزايا الجسدية لم تكن شيئاً مذكورا في جانب القوى التي خلقها الانسان في نفسه بارتقاء الحضارة . ان صح أن ينسب له الخلق — وأنا بلاشك موافق لك في هذا . فاننا والحق يقال قد ربحنا من الحضارة أكثر مما خسرنا ، ولكن هيهات أن يقنعني هذا الفكر لاني أرى أنه كان يجب على الانسان في العصر الحاضر أن يستجمع في شخصه جميع المواهب التي كانت لمن عمروا الارض من قبله ، وكوني على يقين من أنا لو بلغنا هذه الغاية ماعد ذلك منا إفراطا في الغنى ولا وصلنا في الحياة مطلقا الى درجة تكفي لان نمثل فيها كل مامن شأنه أن يحيي ، وان قوى الادراك الحسية تكاد تكون في لزومها لفهم معنى وجودنا مساوية للقوى الفكرية .

أما كون الحضارة مما يزيد الثقة في المعاملات بين الناس ويقوي روابطهم الاجتماعية ويغالب الفطرة دائما مغالبة يقلل بها جدا عدد البلايا التي تجعل البدوي على خطر من حياته فهذا كله في غاية الحسن ، وأما كون الشرطة تحفظ الارواح والاموال فهو أمر لا أجد مساغاً للطعن فيه وانما كل ما أستنكره من ذلك هو أن طريقة الحفظ هذه تصير مدعاة كسل وخمود لمشاعرنا ، وقد أدركت ذلك الامم المتمدنة أنفسها تمام الادراك ، فانها قد أبقت من عاداتها القديمة بعض الرياضات البدنية التي لم يبق لوجودها أدنى موجب — ان لم تكن قد اعتبرتها من وسائل احياء قوى الفطرة الاصلية ، — وذلك كالصيد وألعاب المبارزة والمصارعة مثلا ولو أن رجالا تلاكموا في الطريق لقبض عليهم الشرطيون وساقوهم الى المحاكمة ، مع انهم لم يفعلوا الا مايفعله الملاكمون من شباننا في ملاعبهم

الرياضية (محال الجنباز) واني أرى — مالم أكن واهما — انه كلما ترقى مجموع الآلات التي نستخدمها لسد حاجاتنا ، صار من الضروري تكلف استعمال القوى العضلية بمجتمعاتنا . والا أصبح الانسان عما قليل بسبب احلاله الآلات محله في مشيه وعمله وكفاحه شبيهاً (بباشا) غشيه خدر الترفه وغرق في فتور البطالة [1] فلا بد لمنع تطرق الفساد الى النسل من انهماك الناشئين في كل أنواع اللعب التي هي في الظاهر غير مفيدة لكنها في الحقيقة معدة لحفظ قوة الجسم . ولولا هذه الالعاب المقاومة للضعف والانحلال لكانت اختراعاتنا نفسها سببا في انحطاط الدولاب [2] الانساني من عرش سيادته .

العلم أيضا يفرغ جهده وينفد مهارته وحذقه في تكميل نقص أعضائنا بما يوجده لها من طرق المساعدة في أداء أعمالها واني لكثير الاعجاب كجميع الناس باكتشاف المرقب (التلسكوب) لانه جم الفوائد، ولكن المتوحش الامريكي ذا الجلد الاحمر لايحتاج في اكتشاف نقطة فوق الأفق الى شيء يطيل به بصره سوى ما استقر فيه من اعتياده ارسال أشعة بصره المجرد لتنفذ في المسافات السحيقة وتأتي اليه بصور مافيها من الاشياء . ان في اعانة المشاعر بالآلات على القيام بأعمالها رفع جزء من ثقة الانسان بفطرته التي قضت بأن يفوق الوحشيّ المدني ولو من بعض الوجوه . واست أريد بهذا — كما لايخفى عليك — وجوب

(١) ليتأمل القارئ اعتقاد علماء الافرنج فى أعاظم رجال الشرق (الباشاوات) وليحكم فيه بانصاف (٢) المراد بالدولاب الانسانى جسم الانسان بما فيه من الاعضاء والقوى فانه شبيه بالدولاب

الاستغناء مطلقاً عن مكتشفات العلم والصناعة ، وانما أريد به أن لا تتخذ مزايا المدنية ذريعة الى انشاء الطفل المدني مترفاً جباناً قصير النظر فانه لو اعتاد الاعتماد في كل شؤونه على ترقي وسائلنا الصناعية ولم يجعل لنفسه وقوة أعضائه نصيباً من الاعتماد عليهما لصار الى ذلك .

قد يسأل سائل : هل من وسيلة لاسترجاع بعض الخواص الاصلية التي أضاعها منا الانغماس في ترف المدنية؟ فأجيبه : ربما وجد لذلك سبيل فاني كثيرا ما فكرت فيما للاصناف الانسانية -- التي نعتبرها أحط من صنفنا لوقوفها عند أخلاق الطفولية — من الشأن الاجتماعي ، وسألت نفسي غير مرة عما اذا لم تكن هذه الاصناف معدة لسد خلل فينا وهو الفضاء الذي يحول بيننا وبين حالتنا الفطرية

الصنف الاسود في كثير من ولايات أمريكا الجنوبية هو الذي يعهد اليه خاصة بتربية مولودي الصنف الابيض ، فنساؤه مراضع بارعات لهؤلاء المولودين ، والرجال يمرنونهم على اجادة النظر والسمع ولذلك كانت تربية الاحداث الامريكيين أوفق لمقتضي العقل بكثير من التربية عندنا فان المربين هناك يجتهدون في أن يعطوا الاطفال مشاعر قبل أن يعطوهم عقولا ، على أن التعبير بالاعطاء هنا خطأ لان التربية لا تعطي شيئاً للطفل وانما تنمي ماهو موجود فيه ، فكم من قوة جسدية لا يشك في وجودها فيه تبقى كامنة لمجرد اغفال استعمالها :

نعم ان مجتمعاتنا المؤلفة من أشخاص كبار في السن متأنقين لا تخلو من منبهات للمشاعر ، ولكن أنديتنا وزخرفنا لا تلائم حالة الطفل الملاءمة المطلوبة ، فانه يولد محباً للاستطلاع مقلدا لما يراه ، ففي ايجاده في مثل هذه

الاندية جذب له الى أذواق لم تخلق فيه ولا تناسب سنه وقلما يكتسب من يتربى من الاطفال في هذه البيئة الصناعية الذوق الفطري فيما بعد، فانا أفضل كثيرا أن يتربى « اميل » في الريف حيث يوجد كل شيء على حقيقته ويصل الى مخ الطفل قبل أن تغير مواضعاتنا شيئاً من صورته .

جميع المشتغلين بعلم منافع الاعضاء معترفون بما لتربية المشاعر من الاهمية بل قد أوصى بعضهم باتخاذ بعض الرياضات لتربية البصر والسمع واللمس وغيرها في الصغر، ولكني لا أخفي عليك أن مثل هذه الرياضات قليلة الفائدة فلا تثق بها كثيرا فان كل مايذكر الطفل بالرياضة والعمل يتعبه ويسئمه ، فالواجب ـ على ماأرى ـ أن يعتمد في تنبيه مشاعر هذا المخلوق الصغير على مايروق نفسه ويجذبها من غير أن يظهر فيه قصد التعليم والتربية والام هي التي من اعمالها اختيار الانفعالات التي تنشأ من الاصوات والاشكال والالوان والروائح والطعوم ، وتنويع هذه الانفعالات وتدريجها ؛ فعليها أن تجري في ذلك حسب مقتضيات الاحوال. والعالم الخارجي لايقتضي سوى الولوج الى نفس الطفل من طريق مشاعره فيكفي في ذلك أن يبقى هذا الطريق مفتوحاً مع تنبيه الطفل عند مسيس الحاجة الى مايستحق التنبيه .

ان بين القوى الجسدية والقوى النفسية ـ وان كانت متمايزة منفصلا بعضها عن بعض ـ رابطة تربطها ، فان صحة أنواع التصورات ليست بمعزل عن صحة التصديقات ، وان الذهن بما يتمثل فيه على التعاقب من صور المدركات يهيء موادالفكر ؛ فيجب أن تكون تربية المشاعر ابتداء مقصوداً بها تربية العقل . » اه

الرسالة الرابعة

(من إراسم الى هيلانة في ١٣ اغسطس سنة — ١٨٥)

شعور الطفل من أول نشأته بأنه ارقى من الحيوان الاعجم واستخفافه بالعالم لانتسابه الى الانسان ـ بيان أن له نفساً ـ توصية زوجته بمراقبة « اميل » لتعرّف طباعه وذكر اهمال المربين فى ذلك

الطفل يتلقى علومه الاولى من العالم الخارجي، ولكنه هيهات أن يرضى بمجرد الانفعال بالمؤثرات الاجنبية كغيره من الحيوانات التي تخضع لما يقرر لها من أحوال المعيشة ساكتة عليه ، غير مفرقة بين ضاره ونافعه ، فانه لا يكاد يخرج من ظلمة الرحم الا ويكون قد أثبت حريته بصراخه الذي يعارض به ملمات الالم وفواعل الطبيعة ، فتريته يبكي ويتبرم ممن حوله من الناس والاشياء ويوجد عليهم ان لم يجروا على مقتضى رغائبه وهو على عزله وعجزه يلج في الشكوى من سلطان القدر ويتذمر عليه بحسب حاله .

وبعد بضعة أسابيع أو أشهر من ولادته تنفتح عيناه وأذناه تدريجاً في مشهد الكون . ولم يكن في حسبان أحد أن هذا الجسم الضئيل الصغير لا يرتعد لما يراه يثور حوله من قوى الفواعل الكونية . بلى! هو لا يحسب لها حسابا فلا يلبث أن يتأمل في هذا الدولاب الارضيّ العظيم ويرجع فيه بصره الرائق وهو هادىء البال آمن ، مع أن أقل أداة فيه ربما كانت كافية لسحقه ومحقه . وهو وان ولد أسير الفطرة لا يلبث أن

يكون حاكمها المستبد . فيطلب الى أمه بلغته المبهمة الخفية الدلالة أن تجمع له بين الحر والقر والمطر والصحو . بل ربما استسهل أن يسألها انزال القمر والكواكب من السماء تحصيلا للذته . ولما لم تكن الأم في نظره على كل حال الا مثالا حياً للنوع الانساني كان شعوره بالقوة انما يستمد من انتسابه لهذا النوع فتسبق الى ذهنه العاجز عن الفكر غريزة السلطان الذي لتلك الذات المختارة على العالم . فلا يبقى تلقاء هذه القوة المعنوية التي لايدركها الا حدساً غير بين - أدنى تأثير في نفسه لعظم تسلط المادة

ليس الطفل كما يقال لوحاً مصقولا مجرداً من الادراك ، بل له نفس تشعر بالوجود ولا تلبث أن تثبت وجودها بما لها من الطريقة المخصوصة في المعيشة والاحساس وبما يصدر عنها من الانفعالات اختيارا وبما لها من الغرائز خلقة . وكما أن مشاعره قد جعلت بينه وبين ماحوله من الاشياء اتصالا ، كذلك أمياله ورغائبه تتدرج في تعريفه من يعيش بينهم من الناس وتقريبه منهم . نعم ان معظم انفعالاته النفسية تأتيه في أول الامر من الخارج فيكون حبه لغيره وضحكه وكلامه ناشئة من حب ذلك الغير اياه ورؤيته يضحك وسماعه يتكلم . لكنه عما قليل يبدي مايستقر في نفسه من ضروب النفور والميل والترجيح وجملة القول أن طبعه يستبين وسأتكلم عن هذا الموضوع فى بحث اخر

أنا لا أعتقد مطلقاً اني قد اجبت فى رسالتي هذه عن أسئلتك التى سألتنيها فى التربية ، فان توفية الاجابة حقها تستلزم زمنا ، وانا قد عدوت فيها عدواً أسرع مايكون ، فوصيتي اليك ان تفرضي على نفسك أنت أيضاً مراقبة « إميل » فان أبعد الاشياء عن نظر القائمين

بأمر التربية الى الآن وأكثرها افضالا هو اختبار الطفل ومعرفته .

كلما فكرت فيك وفى «اميل» كان مثلى كمثل الخنفساء الطيارة يمسكها التلميذ ويربط أحد أطرافها بخيط ويرسلها فتطير فى الشمس ناسية رباطها وتسبح فى الهواء وتطن فلم يكن الا ان يجذب التلميذ الخيط حتى تسقط على الارض ، فها هو ذا السجان يدعوني لان هذا الوقت هو وقت التنزه على أسوار السجن ، فأودعك وارجو ان يبقى الحب بيننا وثيق العرى . اه

الرسالة الخامسة

(من هيلانة الى اراسم فى ٢ اكتوبر سنة — ١٨٥)

حسن رأيها فى ولدها . قول الدكتور وارنجتون فى سياسة الاطفال
وصف الاقليم والاشجار

« اميل » أجمل غلام فى الدنيا . أقول هذا القول وأنا عالمة حق العلم ان جميع الامهات يدعين ذلك مثلي لاول مولود يرزقنه ، وهذا يدلك على اننا نرى أيضاً بقلوبنا أكثر مما نرى بأبصارنا .

المرأة تتعلم الحب وتتعلم كيف تكون أما . ففي كل يوم تبدولي شواهد على ذلك بما يبعثه في نفسى هذا الغلام المحبوب من الرحمة والحنو المتزايدين ، لكن لا يدعونك هذا الامر الى أن تخاف علي الاستعباد لوجداني والعجز عن القيام بما فرضته على نفسى من تربيته فاني اتباعا لنصائحك ونصائح صديقك أقدم مصالحه الحقيقية على مايقتضيه ميلي

وذوقي ، وقد أقام لي الدكتور على وجوب ذلك ذليلا مستوفي الشرائط فقال بما تعهده فيه من أدب المنطق وحسن اللهجة :

«خلق الله لسائر الحيوانات أعضاء تقوم لها مقام الاسلحة في الذود عن أنفسها. وأما الطفل فلا سلاح له الا ضعفه وصراخه، ولكن ما أشد مقاومته لنا بهما وما أكثر ما يستفيد منهما ، فهو وان كانت أنواع الاحساس فيه لاتزال مبهمة قد طبعت فيه غريزة حب العدل من نشأته فلا يلبث أن يميز بها مايصدر عنا من الافعال في حقه صوابه من خطائه فاعلمي وثقي بما أقوله لك أن الواجب في سياسة الاطفال خاصة هو أن نكون نحن المحقين لاهم لانه لو انعكس الامر فجعل الحق والسلطة لهواهم واستبدادهم لخسرنا كل شيء . ذلك ان الطفل يبكي أحياناً للحصول على ماعوده أهله اشتهاءه ابتداء موافقه لهواهم . فاذاهم لم يبادروا الى أرضاء شهوته إما اغفالا منهم لها أوغضباً عليه ، فانه يستمر في بكائه ساعات كاملة بل قد يبكي حتى يشارف الموت ، فاذا انتهى الامر بالاذعان الى رغبته كان ذلك أيضاً شرا من مخالفته لانه يتبين منه أن والديه خلو مما يدرعانه لمقاومة شديدا هوائه. فلا ينبغي أن يعارض الطفل في شيء مما يشتهيه الا اذا كان في المعارضة خير له واذ ذاك يجب أن تكون عزيمتنا كالقانون ثباتا وصرامة . »

هذا ماقاله لي واني لاخاله عقودا من الذهب يلفظها من فيه، فقد اتفق لي ــ ولا أخفي عنك ــ اني كنت أنسى أحياناً الاخذ بنصائحه في سياستي «لاميل» وفي هذه الحالة كنت أنا وهو نتألم من عاقبة هذا النسيان.

قرأت الفصل الاول من كتابك وهو على ما أرى كتاب تؤلفه

في التربية وأنا في انتظار قراءة باقيه لا كاشفك برأيي فيه، فاعتقد تماما الاعتقاد أن تربية « اميل » ستكون على وفق آرائك ورغائبك، ولكن لا يعزب عن فكرك أن خط المعاني على الورق أسهل من نقشها في صحف الحياة ومجاري الواقع.

أنشأ ورق الشجر هنا يحت ويسقط لكن فصل الخريف في هذا البلد جميل وان كان غزير الامطار، فهو كوداع العزيز ابتسام في بكاء، وتأتي فيه أيام قد يتوهم الانسان فيها انه لا يزال في فصل الصيف، ومما يزيد هذا الوهم قوة ان زنجينا البار قد غرس في حديقتنا المربعة المقابلة لشباك حجرة نومي أشجار العود والصبار والمانوليا [1] وأراد بهذه العناية اللطيفة أن يهديني شيئا من جنى أرض بلاده التي يحفظها في فؤاده أشد ذكر. ويؤكد الناس أن بعض نباتات المنطقة الحارة يمكن اذا حيطت ببعض ضرب من العناية أن تغرس هنا وتنمو ولا ينالها من فصل الشتاء أدنى أذى، فقد قال لي بستاني السيدة وارنجتون ما نصه: « ليس السبب في هلاك هذه النباتات في غير اقليمها هو فقدانها ما كانت فيه من الحرارة، بل هو ما تلاقيه من الجليد في الاقاليم الاخرى، فهي حينئذ تنجح في كورنواي لان أقليمها معتدل اذ ليس فيه إفراط في الحرارة ولا في البرودة. »

كم من امرأة تعيش معيشة هذه النباتات مطوحا بها عن مطلع شمس محبتها فلا تموت لتستريح من عناء هذه المعيشة! اهـ

(١) الصبار هو التين الشوكي وليس بعربي والمانوليا نبات أمريكي بهي الازهار

الرسالة السادسة

من هيلانه الى أراسم في أول يناير سنة — ١٨٥

تلقيح « اميل » بمادة الجدرىّ وبيان وهم الطبقة السفلى من أهل كورنواى في التلقيح بهذه المادة - ذكر مابلغته من تعرف أحوال « اميل »

قد حيرني سكوتك وانقطاع رسائلك عني فقد مضى زمن طويل جدا لم أحظ فيه بشيء من أخبارك فلعل السر في ذلك أن دخول المكتوبات في السجن أيسر من خروجها منه واني على يقين بأنك لا ذنب لك في هذا ، ولكني لبعدي عنك تراني أوجس خيفة من كل شيء

فشا في كورنواي منذ بضعة أسابيع مرض معد أودى بكثير من الانفس ، ويقال انه وفد علينا من جنوب انكلترة. ترى هل كان يدور في خلدك أن مسقط رأس الطبيب جنار[1] يصح أن يكون أحد بلاد أوربة التي فيها طبقتا العمال والمزارعين هما أشد الناس مقاومة لنشر الفوائد التي نجمت من اكتشاف ذلك الطبيب ؟ فكثير من البيوت (العائلات) يرفضون تقديم أولادهم للتلقيح اما بلادة فهم أو حذرا أو وسوسة ، بل منهم من يعتقدون ان في ابعاد المرض باتخاذ الوسائل الواقية منه معارضة لمشيئة الله (تعالى) ثم ان مصلحة الطبيبات في هذا البلد وهن طائفة من القوابل يطببن في القرى على شاكلتهن (طريقتهن) تنحصر في ترويج مثل هذه الاوهام . فان هؤلاء النساء لما كان معظمهن يجهل

(١) جنار طبيب انكليزى هو المخترع للتلقيح بالمادة الجدرية في أوربة حوالى سنة ١٧٧٦ م

طريقة التلقيح وكان شأنهن القيام على من يصابون بالمرض فلا يستغرب بعد هذا ازدياد عدد وفياته . لم يكتف الدكتور بتلقيح « اميل » بل أراد أن يجدد تلقيحي للتوقي من الخطر المحدق بنا .

اني ولا أخفي عنك عند ما أفكر في الجدري آنس من نفسي رعباً واشمئزازاً لا يحيط بهما الوصف وخصوصاً اذا تمثل في خاطري انه لم يسلم من آثار هذا المرض الشنيع الا قليل من رجال القرن الماضي و نسائه وإن الانسان ليقضي يومه تألماً وكدراً اذا خطر في ذهنه ان كثيرا من اخدان الملوك كالآنسة لافاليير[1] والسيدة دوباري[2] وغيرهما من ربات الحسن اللاتي طار صيتهن بالجمال لتعاسة حظهن كن جميعا مجدورات بدرجات متفاوتة في القلة والكثرة ، وأما أنا فاني أشكر لعلم الطب نعمته على

(١) الآنسة لافاليير واسمها فرنسيسة دوقة دولا بوم لوبلان هي ابنة حاكم قلعة اميواز ولدت على مقربة من تور بفرنسة سنة ١٦٤٤ وماتت سنة ١٧١٠ ميلادية وادخلت بلاط لويس الرابع عشر ملك فرنسة لتكون من قرينات العروس ليلة الدخول بها فعشقها الملك وعشقته ثم رزقت منه بولدين ثم انتهى أمرها بترك بلاط الملك والاقامة فى دير تسمت فيه لويز الرحمة وكتبت هناك كتابها المسمى اعترافات مدام لافاليير

(٢) مدام دوباري اسمها مريم جنا كونتيسة ماردوفورنيه ولدت فى فوكولور سنة ١٧٢٦ وماتت سنة ١٧٩٣ كان أبوها كاتبا فى مصلحة العوائد وكانت هي من العملة فى باريس ثم أدخلت حاشية غليوم دوباري بواسطة أخيه جنادوباري وخادم فراشه ثم تزوجها غليوم ثم صارت حظية للويس الخامس عشر ثم نفاها لويس السادس عشر ثم حكم باعدامها لاتهامها بتأليب الناس على الجمهورية ونفذ عليها الحكم فى ديسمبر سنة ١٧٩٣

الانسان وهي تحرير وجهه واعفاؤه مما كان يؤديه من الجزية لذلك الداء المريع في أغلب إغاراته ، فقد كانت الفتاة منا معشر النساء ترى أملها في أن تحب قد انقطع بما كان ينمحي بسببه من محاسنها ، واني ولست الآن فتاة أقول لو جعلت لي الدنيا بما فيها على أن أخسر مالي من بقية الجمال القليلة مارضيتها منها بدلا فاني أخال انني لوفقدت تلك البقية لانكرتني وانقطعت عنك معرفتي .

انك بما كلفتني من مراقبة أحوال الطفولية واستعراف شؤونها في شخص «اميل» كأنك قد بعثتني لاكتشاف بلد مجهول ، فانه من المحقق الذي لا ريب فيه وجود عالم للاطفال على حدته ، لان جميع من رأيتهم منهم لايكادون يختلفون في شيء من طرق احساسهم وابداء انفعالاتهم ؛ ولكن من الصعب جداً الرجوع الى دخول هذا العالم بعد الخروج منه . فاذا رجعنا الى ما نذكره من ماضينا ابتغاء معرفة شيء من أموره تبينا أنه الجنة الارضية التي لم يخرجنا منها الا مجرد نمونا وكبرنا . وانه يكون من العبث البحث عن موقعها في خارطة ذاكرتنا ، وربما ملت الى الاعتقاد بان الطفل ساكن تلك الجنة التي هي مطلع فجر حياته ودار هدوه وسكونه يعرف من أمرها أكثر مما نعرف ولكن اذا كان الله (سبحانه) قد استودعه سرها فهذا السر هو في غاية الحفظ لايطلع عليه أحد ؛ اذ كيف يصح تخمين مايقع في نفس ذات صغيرة عاجزة عن بيان لذاتها وآلامها ؟ — اللهم الا بلهجة مبهمة وأصوات غير معروفة المخارج . وقد تبينت بما ألاحظه في الاطفال كل يوم أن لهم لغة تكون قبل الكلام بكثير ، ولكن ما أبهمها وأعسر فهمها حتى على الامهات أنفسهن ! واني اخالني أفهم

بعض رغبات «اميل» وأدرك أفراحه وأتراحه وهذا لا يكفي في معرفته.
منتهى ما يمكنني أن أقول فيما وصلت اليه من استعراف أحواله : هو أني لاحظت فيه حصول استحالات كبرى ، فانه في مدة الشهرين الاولين من ولادته كانت معيشته كلها في نفسه (ان صح تسمية هذا معيشة) فلم يكن له ارتباط بالعالم الخارجي، وأما الآن فهو يميز بعض مايحيط به من الاشـياء تمييزاً فيه نوع من الوضوح ، وفوق ذلك فهو يتبسم لي .

يومنا هذا هو عيد أول السـنة الجديدة ، ولكن ما أشد حزني فيه وأعظم كدري ! . وأنت تعلم ان من عادة الناس في مثل هذا اليوم أن يرجوا لمن يحبونهـم من الخير ما يشاؤون ، وأنا أرجو لك شيئاً واحدا وهو أن تعود اليك نعمة الحرية .

حاشية — هديتي اليك في هذا العيد هي خصلة من شعر اميل أرسلها في طي هذه الرسالة . اه

الرسالة السابعة

(من هيلانة الى اراسم في ٣٠ ابريل سنة — ١٨٥)

بيان أن سبب فتور مشاعر الطفل عدم التفاته الى المحسوسات لا ضعف المشاعر نفسها ووجوب تنبيهه اليها ـ تدريب الطفل على المحافظة على نفسه بنفسه

قد جاءني السيد . . . . . بشيء من أخبارك بعد طول تطلعي اليها فاطمأن قلبي قليلا بما قاله لي عنك وزال بعض ما كنت أجده من الجزع عليك .

لا يخطرن ببالك اني نسيت ما تلقيه من نصائحك وتعليمك في تربية « اميل » فاني باذلة قصارى جهدي في تعريفه بما حوله من الاشياء، وفي هذا المقام أقول: اني أحسبني قد تبينت أن فتور مشاعر الطفل ينشأ من عدم التفاته الى المحسوسات أكثر من حدوثه من ضعف تلك المشاعر، فان في قدرته أن يدرك أصوات كثير من الاشياء الخارجية وألوانها تمام الادراك لو أراد أن يكلف نفسه الاصغاء والنظر اليها ، ولكن لما كانت هذه الاشياء لا تستميله كان يغفلها اغفالاً تاما وجملة القول في ذلك أنه لا يبصر له ولا سمع الا فيما يحب ابصاره وسماعه ، واذا كان هذا شأنه فكيف السبيل الى معرفة ما يروقه من الاشياء ومالا يروقه ؛ أعترف وانا صاغرة بأني كثيرا ما أخطأت في استعراف تلك الاشياء ، فليس كل ما أتخيره منها لتنشيط حاسة اللمس في « اميل » يحب ان يجيل فيه يديه الصغيرتين ، ثم ان أبهى الالوان وأجملها في نظري تمر أمام عينيه مرور الظلال فلا تلفته أدنى لفت ، وأنا أظن اننا معشر الامهات مدفوعات فى هذا الامر وفى غيره الى احلال أذواقنا محل أذواق الاطفال .

وجورجية — على كونها أقل مني ارتياضاً بالعلم — كثيرا ما تكون أنجح مني في سياسة « اميل » فانها تجد بغريزتها ما يعجبه ويسليه وينبه قوة الاستطلاع فيه وربما كانت تستعرف رغائبه فتسعى فى تحصيلها له ، وسبب ذلك أنها — كما تعلم — قد كانت والدة لثلاثة أولاد حرمها منهم الرق على التعاقب ؛ ولا تدرى أين هم الآن ؛ فلا بدع إذن فى شدة تعلقها « باميل » ومحبتها له، وانا فى وجد عليها من حبها

اياه أكثر مني ، وحاشا أن يكون ذلك حسداً فانه مستحيل ، وانما الذي أحسدها عليه هو قدرتها على أن تكون طفلة مع الطفل وكأن هذا هو الذي تعنيه بكلامك في استعداد المرأة الزنجية للامومة .

لا أخالك تصدقني ان قلت لك ان (إميل) قد صار أصدق التابعين لزورو استر [1] أعني أنه يعبد الشمس . ومن أجل أن تعتقد ذلك ينبغي أن تراه لتنظر كيف يبسط ذراعيه الى ضيائها فرحاً برؤيته :

كان الشتاء عندنا في غاية السهولة فلم ينزل فيه الثلج الا مرتين ، على أنه كان فيهما يذوب بمجرد ملامسته الارض ، ولا تزال الاشجار مجردة من أوراقها ، والريف العاري من الخضرة كالبيت الخالي من الفراش والاثاث . على أن نفحة من الحياة أنشأت تدب وتسري في مادة الكون جميعه ولن تلبث أن تملأ ما خافه الفصل المنقضي من الفراغ ، وقد امست الآصال عندنا في غاية الصفاء واللطف . ولذلك ترى (إميل) اذا رأى الجو صحواً أبدى من القلق ما يدل على رغبته في أن يحمل الى الحديقة ، ولما كانت الشمس في كورنواي خصوصا زمن الربيع لا ضرر فيها على أحد بل هي تلائم الاطفال والشيوخ اعتادت جورجية أن تفرش سجادة على الحشيش الجاف وتجلس

(١) زورواستر هو شارع ديني للامم البكتريانية وهم سكان قسم من آسية كان يدعى قديما بكتريانية وهو الآن تركستان ، وهذا الرجل هو المؤسس للديانة البرسية التي تدعو الآخذين بها للاعتقاد بالهين وهما الضياء والظلام أو منشأهما وهاروخا الخير والشر ، ويسمى الاول اوروموزد والثاني اهريمان أو اهرمن وهذا هو أصل مذهب المانوية .

عليها (اميل) ليلعب ويمرح كما يشاء، ولما رأيته يعتمد علينا في حراسته مدة وجودنا معه قصدت أن أعلمه شيئاً من الثقة بنفسه والارتكان عليها. فاوعزت الى جورجية بالتنحي عنه واختفيت أنا أيضاً عن بصره من غير أن يغيب عن عيني، فلاحظت أنه في مبدأ الامر خاف عند ما شعر بوجوده وحيداً وأبدى بعض القلق، لكنه ما لبث أن تشجع وقوي قلبه، فكنت حينئذ أراه يفتح عينيه ويلتفت الى كل ما يحصل حوله، ويحرك يديه الصغيرتين كأنه يذود ذبابة تطن فوق رأسه، فأخذت على نفسي من هذا الوقت أن أكف عنه مراقبتي حيناً بعد حين حتى اذا أحس بقلة حمايتي له تعلم كيف يستغني عن مساعدة غيره.

كلما فكرت في فروض الامومة بدا لي منها معنى قلما يشابه ما يفهمه غيري من النساء، فاني أرى أنه من الواجب علي بمجرد أن يكبر (اميل) ان أحرم نفسي من لذة مكاشفته في كل وقت بأني مهتمة به لان أكبر شيء يعوق نمو المشاعر في بعض الاطفال ويعطل استقرار طباعهم انما هو — فيما أرى — طريقة القائمين عليهم في تربيتهم، فانهم بكثرة حياطتهم بضروب من العناية البالغة غايتها من الظهور والناشئة عن فرط الاهتمام بهم يعودونهم أن يعيشوا غير مهتمين بأنفسهم، فان الطفل اذا كان غنياً متعجرفاً لا يتكلف اعمال ملكة الاحتفاظ بنفسه بل يكون شأنه كملوك الشرق الحمقى الذين يهون عليهم أن يسموا مشيري دولهم « أبصارهم وأسماعهم » طيبة بذلك نفوسهم، لانه يعتاد أن يستعين في أبصاره وسماعه بالمربيات القائمات عليه المكلفات خدمته وتعرف حاجاته لقضائها، ولا شك أن هذا الطفل البالغ في

حفظه اذا رأي نفسه يوما ما بعد أن كان محوطا بأمتن أسباب الوقاية قد خلي بينه وبين أقل خطر يلم به ، يكون أسوأ الناس حالاً وأكسفهم بالاً ، بل يكون هو الشخص الذي يحكى عنه أنه كان يخاف من ظله

يدعوني (اميل) بأفعاله وأحواله الى التفكر في كل شيء ، فقد ذكرني بالامس شخصا من المذكورين في اساطير الاقدمين ذلك أن الاطفال لا حساب للمسافات عندهم ، وهذ الامر فيهم منشأ لكثير من الاغاليط البصرية فقد كنت في الحديقة وكانت جورجية واقفة ازاء شباك من شبابيك المنزل المشرفة على مكاني وهو على يديها ، فلم يكن الاأن رآني حتى بدت عليه علائم الابتهاج ومدالي يديه كالجناحين ، على أن الشباك الذى كان يطل منه هو في الطبقة الاولى من البيت ، فلما لم تصل الي يداه ظهر عليه الاندهاش ، ثم أفضى به الامر الى أن غضب واحمر وجهه ، والذى كان يبتغيه مني ـ بحسب ما يحلو لي اعتقاده ـ هو ما أبديه له من صنوف الملاطفة والمداعبة ، بل كان يريد أيضاً التقام ثدية لانه لم يكن رضع من بضع ساعات ،فلم يكن لهذا المحبوب المسكين مثيل في عذابه هذا الاطانتال (١)

---

(١) طانتال فى أساطير الاقدمين هو ملك فريجية التى هى قطر من أقطار آسية الصغرى ، وكان قدم للآلهة اشلاء اولاده طعاما فعوقب بالجوع والعطش فى جهنم ويضرب بعذابه المثل فيقال : فلان يعذب عذاب طانتال . اذا كان على الدوام يعتقد انه قد صار من رغائبه بمكان اللامس وهو فى الحقيقة عاجز عن ادراكها

(اميل) يعرفك بل يعرف صورتك التى أريه اياها ذاكرة له اسمك ، ولا أخالني واهمة في ذلك فانه بحملقته في مثالك وابتسامه له ومده يديه نحوه يظهر عليه أنه قد عرف والده تخمينا .

الرسالة الثامنة

من إراسم الى هيلانه فى ١٥ يونية سنة -- ١٨٥

تصويب رأيها فى تعرف اذواق «اميل» وانتقادا لوالدين اللذين ينشئان الطفل على مثالهما فى الطباع والاذواق ؛ وبيان ماهية الطبع وانفعالات الطفل وأسبابها ودوائها ؛ ووجوب مقاومة التربية لاهوائه الفاسدة وبيان أن لهذه المقاومة طريقين أحدهما إلهاؤه عنها ، والثانى جعله بمعزل عن البواعث المثيرة لها

لاسبب لانقطاع رسائلي عنك ألا توقي فرصة تمكنني من إيصالها اليك ، وقد تلقيت مكتوباتك الاخيرة فأخذ ماذكرته فيها عن (اميل) بمجامع لُبي وبعث فيّ دواعي الحنان والرحمة ، ولم أكن الى الآن أعرف شيئاً من ذلك فى حياتي التي قضيتها فى الاشتغال بالعلم ومناظرة الحكماء ومقارعة خطوب الدهر ، ولا غرو فاني ولدت مستعداً للابوّة وأود لو أرى ولدي ولو بذلت فى ذلك جميع ما أملكه من الحطام واني مخبرك بأمر ـ وان كان لا ينبغي مكاشفتك به ـ وهو أني كنت عزمت عدة مرات على دعوتك الى الحضور اليّ به على ما بيننا من البحار الزاخرة

والمسافات الشاسعة ، لعلمي بأن مافيك من الاقدام ورباطة الجأش تتضاءل دونه العوائق ، فلا يثنيك منها شيء عن تلبية دعوتي ، وكأني بك بعد هذا تسألينني عن السبب الذي منعني من هذه الدعوة ولا يزال يمنعني منها ، فأقول : إنني قلت في نفسي قد يكون من الاثرة أن أخمل بسجني ذاتين هما من أحب الناس اليَّ وأخفض من حالهما ، ولا حق لي في أن أستلب من هذا الطفل غرارته وغفلته وبواكير سروره وابتهاجه ، بإلصاقه بي في محنتي التي خصني بها القدر ، معاذ الله أن يكون ذلك مني ، فليشبَّ وليترعرع حراً مغتبطاً في جناح والدته وكنفها

أراك محقة في اهتمامك بتعرف أذواق (اميل) ، فان الوالدين في الجملة ينشئان أولادهما على مثالهما في الطباع والاذواق ، على أن هذا الامر هو الذي كان ينبغي اجتنابه ، لان الطفل اذا كان ألعوبة في أيدي الكبار المنوطين بسياسته ، وآلة تنفعل بمشاربهم وأفكارهم ، فانه يعتاد موافقتهم في جميع الامور ، وهذا هو السبب في ندرة الرجال المستقلين استقلالا صحيحاً في هذه الايام . واننا اذا فتشنا عن العلة في وشك زوال ما فينا من أنواع الاستعداد والقابليات الخاصة والسير الثابتة فربما وجدناها في تربيتنا الاولى فانها مثار آفاتنا ونقائصنا النفسية .

ولنبحث ابتداءً في ماهية الطبع فنقول : جرى اصطلاح العلماء باطلاق هذا اللفظ على مجموع من القوى المؤتلفة التي لا شك في أنها ترجع بأصلها الى الفطرة ، ولكنها على الدوام في تغير وتجدد لاسباب باطنية وظاهرية ، فمن الاسباب الباطنية الارادة فان لها شيئاً من التأثير في أهوائنا وشهواتنا ومحباتنا ، وكأني بسائل يقول : وهل هذه الارادة

نفسها خلقية أو مكتسبة ؟ فأجيبه : انها تجمع الوصفين على ما أعتقد لانها تكاد تظهر فى الطفل بمجرد ولادته ، وكلما شب وكبر قويت وتحددت وجهتها بالتدرب عليها والممارسة لها ، وأما الاسباب الظاهرية فيكفي أن نمثل لها بالبيت (العائلة) والتربية والاختلاط بالناس ومعاشرتهم . فلو أن الفرنسيّ المسيحي وُلد فى الصين من أب نشأ على آداب كونفوشيوس.[1] وتعاليمه لكان مغايراً لنا فى ارائه وسيرته .

القوى المؤلف منها طبع الطفل تكون فى الايام التالية لولادته كانها محجوبة بادراك مشاعره وهو فى هذا الوقت يشعر بوجود ذاته ، بل هذا الشعور قد يكون أحياناً هو الغالب عليه. ولكنه قلّما يبدو منه إلا بحركات ارادية ، وأعنى بهذه الحركات ضروب الرعدة والهياج بل وأنواع الصراخ التي تصدر عنه ، فان كل ما من شأنه أن يولد ألماً أو يحدث غضباً يكون فيه مدعاة الى ظهور هذه العلامات الخارجية ، وكثيراً ماتبدو منه حركات نخالها مختلة مغايرة للعقل لعدم تدقيقنا النظر فى السبب الذي يحدثها ولو دققنا النظر لظهر لنا أنها لا تكون منه الا طلباً لتحصيل لذة أو تخفيف ألم ونحن بذلك جاهلون وعنه غافلون ، فالغلام الذى فى الثانية أو الثالثة من عمره اذا طلب من مربيته شيئاً فنعته إياه فاستلقى على الارض وأنشأ يتمرغ وينتف شعره غيظاً تكون أفعاله هذه معقولة فى حقه لانه يجد فيها بطريق الالهام شفاء لاعصابه من تهيجها فيتلاشى بها حنقه وتنكسر حدته ، وكذلك الشأن فى البكاء

(١) كونفوشيوس هو أحد مشهورى فلاسفه الآداب وعلماء الاخلاق فى الصين ولد فى سنة ٥٥١ وتوفى فى سنة ٤٩٩ قبل المسيح

وغيره من الوسائل التي يزول بها عن أعضاء الجسم ما تجده من الألم بسبب توتر أعصابها .

على أن بعض هذه الحركات الغريزية يبقى ملازماً لنا حتى فى زمن الرجولية فان كثيراً من الناس من يضرب بيده على جبهته اذا بلغه خبر سيء . ومنهم من يزغزغ أنفه ، ومنهم من اذا جاءت الامور على غير مراده انبطح فوق فراشه . ومن هذا تعلمين ان أعقل الرجال تصدر عنه غالباً وهو فى شدة انفعاله حركات لا تصدر الا عن مجنون ، وأنا لا أمارى في أنه يفقد ماله من السلطان على نفسه في هذه الحالة ، ولكنى أقول ان فى هذه الافعال التي تصدر عن غير روية حكمة وان كنا لانرى فيها الا جنوناً وحمقاً ذلك أن للنفس حالات تقتضى من الجسم أوضاعاً مخصوصة لعلة محجوب عنا علمها ، فمن الالام النفسية ما يميل بنا الى الهجوع والسكون ، ومنها ما يدفعنا الى المشي والحركة ولا سبيل الى اكتناه علة هذه البواعث الوقتية التي تدفع بعض أعضائنا الى التحرك عند حدوث شيء من الاضطرابات العقلية الا الاعتراف بأن الوصول الى معرفة هذا السر مما ليس فى مقدورنا وهو سر آخر جدير بالتفتيش عن سببه

أول حرية تجب علينا للطفل هي أن يكون مختاراً فى حركاته ومقتضيات غرائزه ، واني وان كنت كغيرى من الناس لا أحب أن أرى ولدا مسكيناً يحمر وجهه من الغضب ويبلغ به الانفعال الى درجة الجنون — أرى أن الاغضاء على بوادر ذلك الغضب أخف ضرراً من قمعها بالافراط فى التسلط أو القهر ، فانه لاشيء أردأ مغبة فى الغيظ من

اكراه صاحبه على كظمه ، ولا أسوأ فى الطباع ولا أخس فى الخلائق مما يقمع دائما ويرغم صاحبه على إخفائه . على أن الطفل سيتعلم فى مستقبل أيامه ان من موجبات كرامته ان يملك نفسه عند الغضب ويكف سورة انفعالاته. وان البكاء وحركات الضجر وخفة الفرح الخارجة عن حد الاعتدال مما لا يليق بالرجال قطعا ، بل يكون كالاتنا البخارية تحرق ما يتولد من دخانها ، ولكننا يجب علينا ان ننتظر فى بلوغه هذه الغاية ريثما ينمو عقله وتقوى ارادته .

ولست أعنى بهذا ان يترك الطفل وما يعتوره من الانفعالات لعدم وجود ما من شأنه أن يزيلها ، كلا ! فان الاطباء قد اخترعوا لعلاج الجنون طريقة سموها التلهية النفسية يمكن اتخاذها فى تربية الاطفال على ما أرى . على انها معروفة للمراضع من زمن لا تاريخ لمبدئه . فقلما توجد واحدة منهن لا تعرف كيف تسكن غضب الطفل بصرف وجهه إلى ما يلهيه ويشغل فكره . ويمكن تعميم العمل بهذه الطريقة ، فان من الإطفال الحديثى السن جدا من يكون لهم شغف بالموسيقى من صغرهم ؛ ومنهم من يسهل إلهاؤهم بمجرد النظر اليهم ، ومنهم من يجد في رؤية الحيوانات لذة مخصوصة ، ومنهم من يجد هذه اللذة في رؤية بعض الاشخاص ،فينبغي النظر فى هذه الاذواق الخلقية لان جميعها من الوسائل التي يمكن الاعتماد عليها في تربية الطبع فيهم .

أنا لا أعتقد ان في الانسان خلائق شر محضا ، ولكن يوجد من خلائقه ما اذا غلبت عليه وأسيء تصريفها فانها ربما تؤدى الى عواقب وخيمة ، فاذا سأل سائل : هل يجب اعدامها ؟ أجبته : ليس هذا من

رأيي لاننا مع تسليم امكان الوصول الى هذه الغاية نكون قد خالفنا مقتضى الفطرة مخالفة ظاهرة ، وانما الذي ينبغي علينا عمله هو معارضة تلك الغرائز بمشارب وأذواق أخرى .

أجد في نفسي ميلاً الى اعتقاد أنه لايوجد طبع مهما كان فساده الا وقد انطوت فيه وسيلة للخلاص منه ، فلو ان القائمين على التربية حذقوا في التدرع بتلك الوسائل لمكافحة الطباع السيئة ومغالبة الاخلاق الرديئة في الوقت المناسب لذلك لحفظوا على المجتمع الانساني كثيراً من أفراده الذين خسرهم خسراناً مؤبداً في السجون ومعاهد العقاب بالاشغال الشاقة ، ولست أضرب لك تأييداً لهذا القول الامثلاً واحداً اقتبسه من مذكراتي الخاصة : حدثني لص أنه انزبق[1] ذات ليلة في ملهى موسيقي فجلس على احد مقاعده لا ليسمع المغنين بل ليرتقب فرصة تمكنه من سرقة ماعسى أن يجده في جيوب مجاوريه ، فان هذا الامر كان مهنة له ، ولكنه كان هو المسروق في تلك الليلة لانه كان ذا كلف بالموسيقى فلم يكن الا أن سمع أول رنة للكمنجة حتى أحس بأن عقله قد سلب ، ولما أنشأ المغني دوبريه[2] يغني صار الى حالة أسوأ من ذلك لفنائه عن نفسه فيما وجده من اللذة في ذلك اللحن المعروف بلحن الشيطان روبرت الذي في الفصل الخامس من تلك القصة الغنائية ، حتى انه ليخيل له انه لا يزال يسمع رجع صداه ، وجملة القول انه نسي الاشتغال بمهنته تلك الليلة ، فلما كان مساء اليوم الثاني عاد الى ذلك الملهى

(١) انزبق دخل خلسة (٢) دوبريه هو جيلبيرت لويس مغن فرنسي شهير ومعلم لفن الغناء أيضاً وله فيه تآليف

نفسه عاقدا نيته على أن لا يفتتن ببنت البحر [1] ولكنه في هذه النية لم يحسب حساب نزيله الذي بين جنبيه ، أعني ميله الفطري الى سماع الالحان ، فخرج في هذه الليلة أيضاً ممتلىء الاذنين صفر اليدين ، ومن أجل هذه الخيبة أقسم أن لا يعود فيضع قدميه حيث يكون المغنون قائلا انه ان فعل خسر به ميله الى حرفته ، وهو قول دال على قحته واجترائه على القبائح .

الاهواء الفاسدة في الانسان هي قوى مستبدة يبعثها نموها الفطري أو المكتسب على أن تملك قياده فتتغلب على ما فيه من ضروب الوجدان أو الافكار فمن البديهي ان هذه الاهواء هي التي يجب أن تقاومها التربية من أول النشأة ، وهذه المقاومة يصح أن تكون على طريقتين أولاهما الرجوع الى أنواع التلهية التي تشغل الطفل عنها وتصرف ذهنه إلى غيرها كما سبق لى بيانه . وثانيتهما جعله بمعزل عن البواعث الخارجية التي تهيج من غرائزه ما يغلب على الظن ان في تحريكه وبالاً عليه ، فان في بعض الاشياء شيطانا رجيما كما ستعلمين من حادثة جرت في ايقوسية [2] أقص عليك خبرها لتفهمي ما أريده بالبواعث الخارجية التي تهيج الغرائز :

وهي أن امرأة عليها سمة الاحتشام والحياء دخلت أحد حوانيت

---

(١) بنت البحر فى أساطير الاقدمين هى ذات خيالية نصفها الاعلى نصف امرأة والاسفل نصف سمكة كانت تفتن السائحين بلذيذ غنائها فتجذبهم الى شعاب صعبة حيث يهلكون والمراد هنا المغنى ففي الكلام استعارة (٢) ايقوسية جزء من الجزائر البريطانية

الطرف[1]. فلما انتقت ما أرادت ابتياعه وحان وقت دفع الثمن — وكان في نحس طالعه كربع ساعة رابليه — [2] أخرجت من جيبها ورقة مصرف (بنك) قيمتها خمسة جنيهات انكليزية فلما تقدها كاتب الحانوت لم يلبث ان عرف تزيفها ، فبهتت المرأة المسكينة وأخرجت له أخرى لكنها لم تكن بأحسن من الاولى ، فارتاب الرجل في أمرها وسلمها الى الشرطة ، ولم يكد التحقيق يأخذ مجراه حتى ظهر انها خادمة في بيت استوجبت احترام أهله اياها بما لها من حسن السيرة والصدق في الخدمة ، وان الايقوسي الذي كانت في خدمته كان قبض من أحد معامليه قبل هذه الحادثة ببضع سنين هاتين الورقتين المزيفتين وأخطأ في عدم تمزيقهما لتعاسة حظ هذه المحدودة[3] ، وانها لاعتيادها دخول حجرته في كل صباح للقيام بمقتضيات الخدمة كانت تراهما مختلطتين بأوراق قديمة فلم تعبأ بهما كثيرا أول الامر ، ولكن لما تكرر حضورهما أمام بصرها من يوم الى يوم ومن اسبوع الى آخر ومن شهر الى تاليه — أنشأت تمعن النظر فيهما وكأن هاتين الورقتين اللتين كانت تخالهما — على بلاهما — صحيحتين كانتا ترنوان اليها من طرف خفي وتخدعانها وتناجيانها بنصائح غريبة : فرفضت بادىء بدء فكرة

(١) الطرف جمع طرفة وهي الشيء البديع (٢) رابليه هو كاتب قصص فرنسي مشهور واسمه فرنسيس ولد عام ١٤٩٥ ومات عام ١٥٥٣ م اتفق له ان حل في نزل وجلس يأكل مع جماعة فلما جاء وقت المحاسبة على ثمن الأكل لم يكن معه ما يدفعه في حصته فخرج صدره وكأن الساعة كانت دقت الربع اذ ذاك فضرب بوقته هذا المثل لنحس الطالع

أخذهما وابعدتها عن نفسها فراسخ ، لكنها لم يبق في وسعها ان تكف النظر عنهما متى وجدت في الغرفة التي هما فيها ، ثم انها في ذات يوم لمستهما بيديها وبسطتهما وأخذت تقلبهما ثم ردتهما فورا الى اضبارة(١) الاوراق البالية التي كانتا فيها كأن فيهما ناراً كانت تحرق اصابعها وما زال بها هذا الاغراء حتى غلبها وأوقعها فيما علمت .

فاذا كان هذا تأثير الاشياء في الكبار ، فما ظنك به في الصغار ؟ نعم انهم ولله الحمد ليسوا كلهم لصوصاً ، وفوق ذلك قلما تعرض لانظارهم أوراق المصارف صحيحة أو مزيفة ، ولكن توجد عدة من الخلائق الاخرى التي يهم المربين ان لا يقووها فيهم بنظر ما يوقظها من الاشياء : فان رذائلنا وفضائلنا ليست مجرد معان ذهنية بل لها بالخارج ارتباط قوي : فهي تطابق فيه أمورا وأحوالا شتى يكون بها تأثرها وعنها انفعالاتها . فالشراهة مثلا تتحرك في الانسان بنظره الى الطعوم وشمه روائحها . والغيرة تتيقظ فيه بسماعه ما يقال لغيره من رقيق الكلام ، ورؤية ما يعامل به من صنوف الملاطفة . فأول واجب على المربي هو البحث عن طبع الطفل ومعرفته ، والواجب الثاني هو ان يقطع عنه مواد الفتنة أعني البواعث المادية التي تتخذ مشاعره ذرائع لاغراء طبائعه السيئة واثارتها ، فلكثير من الاطفال الحق في ان يقولوا للقائمين عليهم : ناشدناكم الله لا تدلّونا بغرور .

ثم لا ينبغي أن يعزب عن ذهن المربي هذا الناموس الفطري وهو أن الطبائع والغرائز كما انها تقوي وتنمو بالممارسة هي تضمحل وتزول

(١) اضبارة أي حزمة

بعدمها ، فبه نملك قمع بعض المشارب الشديدة التي تظهر في الطفل على أذواقه الفطرية الاخرى وتمنعها من بلوغها غايتها . فأكبر عمل للانسان في اصلاح نفسه منفردا هو مكافحة ما يتغلب عليه من سيء الاخلاق ورديء الطباع ، كما ان أجل سعي في اصلاح شأنه مجتمعا هو ردع المعتدين وكسر نخوة الطغاة الظالمين .

كأني بقائل يقول : هل يكفي في تربية الطفل ما ذكرته من جعله بمعزل عما يثير فيه غرائز الشر وايجاد التوازن والتساوي بين طبائعه ؛ فأجيبه : لا شك في عدم كفاية ذلك ، فان طريقة التربية هذه سلبية والواجب علينا هو أن ننبه في الطفل بمجرد أن يشب ضروب المحبة وعواطف الخير . وقبل الخوض في هذه الطائفة الجديدة من المسائل يجب عليّ أن أبحث أولا فيما يتخذه الناس من الطرق عادة في تربية طبع الطفل كحمله على الامتثال المطلق وتخويفه بالعقوبات وترغيبه في المكافآت ، وكقوة القدوة والاعتقاد الديني وقواعد علم الاخلاق ، وأسائل نفسي عما تساويه هذه الحيل المختلفة . اه

الرسالة التاسعة

(من إراسم الى هيلانة في ٢ يونيه سنة — ١٨٥)

ضرورة استعمال السلطة فى سياسة الاطفال والتعجيل بالكف عنها متى تيسر ذلك وبيان ضرر قهر الطفل على الامتثال

لامراء في وجوب الاستعانة بضروب السلطة المطلقة في تربية

الأطفال اذا كانوا حديثي السن جدا رعاية لمصلحتهم ، فيؤمر الطفل منهم بالاقبال فيقبل ، وبفعل كذا فيفعل ، وينهي عن الانطلاق الى جهة كذا مع قرن هـذا النهي بفعل يحول بينه وبين الذهاب اليها فلا يذهب . مثل هذه الاوامر الصريحة التي تصـدرها الأم لولدها مع تلطيف شدتها بنغمة الصوت فيها ومباشرة ائتماره بها بنفسها مما لا بد أن يقبل عذرها فيه لانها انما تخاطب بها ذاتاً مجردة من العقل على أن الافضل التعجيل بالكف عن الالزام والقسر متى صار ذلك ميسوراً.

قهر الطفل على الامتثال وإلزامه إطاعة الاوامر يستلزم حتما إخماد وجدان التكليف في نفسه ، خصوصاً اذا طال أمر ذلك القهر ، فانه اذا كان غيره يتكلف الحلول محله في الارادة والحكم المطلق على الخير والشر والانصاف والجور لم تبق له حاجة في الرجوع الى وجدانه واستفتاء قلبه وعسى أن لا يكون هذا شأننا مع «اميل» لان الحلول محله في عمله أعني إلزامه اتباع أوامرنا يميت فيه قوى عزيمته الشخصية فمن اجل أن يكون له قيمة حقيقية يجب أن يصير خيرا صالحا باختياره لا رغم انفه ، وان تكون افعاله صادرة عن ارادته ، واود كثيرا ان يكون من صغره عارفا بخصائصه ونقائصه ليزيد في الاولى ويتجرد من الثانية بتقدمه في سبيل الحياة . فعلينا اذن ان لا نتعامى من أول الامر عن حقيقة ولايتنا عليه وحدودها ، فان الطفل لا يصير صالحا بعمل الغير بل يكون كذلك بنفسه ، وكل ولايتنا في تربيته تنحصر في ارشاده الى استخدام وجدانه ، ويجب علينا أيضاً، في سبيل ارجاعه عما يقع منه من الهفوات في سيرته ، ان نقنعه بحضرة الاشياء القبيحة

بما في تلك الاشياء من البراهين الذاتية على ضررها لا بما أنا من الحجج المتسلسلة ، ولو أنى أسعدنى الحظ فتوليت تربيته بنفسي لما طالبته بطاعتي فيما آمره به، بل متى تمكنت من مخاطبة عقله نصحته بأن يسير على مقتضى القوانين التى تجرى عليها شؤون الكون المعنوية وحوادثه المادية .

يجرى معظم الآباء مع أبنائهم على هذه الطريقة فى الاستدلال وهي « اعتقد صدق ما إقوله لك وافعل ما آمرك به ، وسأثبت لك بعد ذلك أنه هو الحق والعدل » وأنا لا أسير عليها ألبتة ، بل اجتهد فى إقناع « اميل » بأن الامر الذى أنصح له باتباعه أو باجتنابه هو حسن أو قبيح لا لأني أراه كذلك بل لانه قد يكون مفيداً للناس أو له أو مضراً بهم وكأني بك تقولين ان ذلك يقتضى أن يكون للطفل المربى مزايا عقلية خاصة به يقل وجودها فى غيره من الاطفال . فأقول : لا بل لا يقتضي الا ذوقاً كبيرا وبساطة كلية فيمن يتولون تربيته وتعليمه ، فليس الذى يؤثر فى ذوق الاطفال السليم هو كثرة الكلام الذى يرمى به جزافاً ، أو طول الشرح فى القول ، وانما الذى يؤثر فيهم هو حسن النيات ونبل المقاصد لانهم أقوى بصيرة مما نتوهمه الف مرة .

الطاعة الصادرة عن حرية واختيار ترفع طبع الطفل . والاذعان الناشيء من القسر يحطه ، فللأم ومعلم المدرسة كلمة يقولانها عن الطفل العنيد العاصي لاوامرهما وهى قولهما « سأذلله » والحقيقة هي أن الناشئين على طريقتنا الفرنسية فى التربيــة مذللون دائما . نعم قد يقال إن فى اتباعها مصلحة للاحداث وللمجتمع الانساني ، ولكن سائس الخيل له أيضاً أن يقول للحصان الذى يروضه : لا تجزع فاني انما أفعل هذا بك

لمصلحتك ، على أن اطلاق الترويض على الحصان أصلح من اطلاقه على الانسان لان هذا الحيوان لا يخسر بترويضه باللجام والمهماز الا حدته الوحشية ، وأما الانسان فانك اذا أخذته بالقهر وسسته بالارغام والقسر تذهب بحب الكرامة من نفسه ، وتبخس قيمته فى نظره ، على أن الخوف وازع ضعيف فانه لا لصّ ولا فاتك الا وهو يرجو النجاة من العقوبة على جريته حال ارتكابها ، ولا طفل يعصي ما يأمره به قيمه ومعلمه أو يعمل الشر الا وهو يتخيل فى نفسه مهارة فى الخلاص من تبعة ذلك ، فاذا نجح فى هذا ولو مرة واحدة يحمله هذا النجاح على الثقة التامة بنفسه فى خداع القائمين بتربيته وتهذيبه ومواربتهم . والطفل الذى يعامل بالقسوة ويؤخذ بالعقوبة يستجم[1] قواه ويستجن[2] بكبره وعناده على حقارتهما ليقاوم سراً حملتنا عليه بولايتنا المعنوية .

لا شيء أسهل على الوالدين من إلقاء نير استبدادهما على عنق الطفل ، كما أنه لا شيء أصعب عليهما بعد ذلك من استرداد مايفقدانه من ثقته بهما ومتى شعر بأنهما يسوسانه بالهوى والاستبداد ، لا يخضع لهما الا بالضغط والالزام ، وفى هذه الحالة ترى عليه أمارات الانقياد والطاعة : ولكنه يطوى جوانحه على نوع من التذمر والعصيان يستره الرياء ، وتترقب ارادته ـ اذا انقبضت فى ظل السوط ـ الوقت الملائم لاستعمال الخداع والمكر ، فان الخداع هو سلاح الضعيف يعده للاحتماء به من شر القويّ ، ولكون الطفل عاجزاً عن مكافحة أهله تجده يبحث دائماً عما يخلصه من ولايتهم ، وطالما عجبت من خبثه واجترائه على

---

(١) يستجم أى تجمع (٢) يستجن بكبره أى يتخذ كبره جُنة يعنى وقاية

الاختلاق فى مثل هذه الحالة ، فان كثيراً من الاطفال لا يبلغون السابعة أو الثامنة من عمرهم حتى يحاكوا فى المكر أسرى بلوت [١] واسقابينى موليير [٢] بل وفيجارو بومارشيه [٣]

ومن عواقب القهر الوخيمة انه يغيض ينبوع الفرح والسرور فى نفوس الاطفال ، فما أشبه الطفل المحروم من حريته بفصل الربيع الذي لا تشرق فيه الشمس ، أتحسبين أن هذه العواقب تنتهي بانتهاء سن الطفولية فلا يكون لها أثر فى مستقبل حياة الطفل ؟ كلا ، انني لأعرف لأول وهلة من رؤية الرجل ما كان من نعمته أو بؤسه في طفوليته . ترى الذين يربون بالقهر جبناء عابسى الوجوه كاسفي البال ، ويكون لذلك ظلمة في عقولهم وعصل في طباعهم (أي اعوجاج بصلابة)

وأنا أسأل الله (سبحانه) أن يخلصنا من المتعالمين والمعلمين ، فانهم هم الذين يفسدون أخلاق الناشئين [٤] .

---

(١) بلوت شاعر هزلى لاتينى برع فى أشعاره زمن الحرب البونية الثانية وكتب عشرين رواية كان من الممثلين فى بعضها جماعة من الاسرى جعلهم مظهر الخبث والخداع (٢) اسقابينى موليير هم أشخاص من الممثلين فى بعض روايات موليير الكاتب الفرنسى الشهير جعلهم عنواناً للدسائس والخبائث

(٣) فيجارو بومارشيه أشخاص من الممثلين فى روايات الكاتب الفرنسى الشهير بومارشيه ناطهم بتمثيل الدسائس والفتن .

(٤) ما أقسى حكم المؤلف على هذه الفئة من الناس اللهم اذ كان الحال فى زمنه يستوجبه بسبب شيوع هذا النوع من التربية القهرية

الرسالة العاشرة

(من إراسم الى هيلانة فى ٣ يونيه سنة — ١٨٥)

وجوب اجتناب تخويف الطفل بالعقوبات الالهية والخوض معه فى المسائل الدينية وتركها له لينظر فيها متى كبر بفكر خال من المؤثرات

أظن أن ما ينسب الى الاعتقاد الديني من التأثير في طباع الناشئين وأخلاقهم مبالغ فيه كثيراً [1] وعلى كل حال نقول : ان التصديق بأن

(١) حاشية المترجم : معظم ما كتبه المؤلف فى هذه الرسالة غير مسلم وهو يدل على ضعف يقينه بدينه وعدم اكتراثه بتكاليفه التى لا يعتبرها الا من الامور التى جرت بها العادة وكأنه لم يبلغه خبر الامم التى وصلت بدينها الى أوج الكمال النفسىّ وغاية التقدم الحسىّ ، فأىّ شيء أخرج الامة العربية مثلا من ظلمات الجهل الى نور العلم ، ومن رذائل التوحش الى فضائل المدنيـة سوى دينها القويم الذى جاء به الرسول الكريم ؟ ولست أدرى كيف أن الاعتقاد بالدار الآخرة وما يكون فيها من الثواب والعقاب يدعو الى خيبة الآمال اذا هو غذى بالاعمال الصالحة وأسس على النظر فى ملكوت السموات والارض ودعم بالتفكر فى سِيَر النبيين وهدى المرسلين فرسخ وصار فى مأمن من أعاصير الشبه ومن مزعزعات الفتن؟ لا شك أن القائل بهذا منكر للبعث وهى ضلالة جره اليها التطرف فى النظر كما جر اليها كثيرا من أمثاله . ولا أراه الا مبالغا فى انتقاده على بعض المسيحيين ما يصدر منهم لاولادهم من التهديد بالعقاب الالهىّ ولا نسلم أن هذا التهديد يكون له من الاثر ما يتوقعه ، وكأنه يعتقد أن الله سبحانه لا يتصف الا بالرحمة والاحسان وينبو عقله عما وصف به نفسه من القهر والجبروت والانتقام ، وليس الامر خاصا به بل قد لاحظته فيما كتبه غير واحد من أهل النظر وهو خطأ بيّن يدل عليه العقل

الانسان يوفى جزاء أعماله في دار أخرى بعد هذه الدار يعرض صاحبه لانواع من خيبة الآمال ، تكون آلامها صعبة الاحتمال ، فانه اذاهبت عليه أعاصير الشبه في مستقبل أيامه فزعزعت أركان عقيدته التي بنيت عليها الفروض والواجبات تلبث دعائم تربيته الاولى ان تنهار انهيارا تاما ، فكيف ترجوا اذن فى هـذا العصر الذي ثارت فيه الشكوك وأطلقت حرية النظر ان لا تؤثر عوارض الشـبه في عقائد الطفل اذا

والنقل ، وترجيحه تخويف الاطفال بالاغوال المشوهة على تخويفهم بالعقاب الذى أعده الله لمخالفى أوامره للعلة التى ذكرهامن خطل الرأى فيما أرى لاطلاقه القول فيه دون تقييده بسن معينة،لانه لا ضرر على الطفل المميز من تحذيره من غضب الله عليه اذا خالف أوامره ما دام أنه يرغب أيضا بنيل رضاه ورحمته اذا أطاعها على أن عبارة المؤلف فى تعليل هذا الترجيح بينة الفظاعة لا تليق بمقام الربوبية ، ثم أىّ ذنب للاديان التى لا يؤمن بها أربابها أو يكون ايمانهم بها ناقصا فيدعوه الى تحاميها والحذرمنهاووصفها بأنها « أضر الاديان بكرامة الانسان » ألا ترى أن أقوم دين وأصحه فى نظر العقل وادعاه الى سعادة الآخـذين به وفلاحهـم قد تحول دون الجرى على صراطه غلبات الهوى وعمايات الضلال فيقع أربابه فى مهاوى الوبال ؛ فكيف تلقى تبعة ذلك عليه اللهم ان هذا بهتان عظيم فانه لا دين الا ما أرسلت به رسلك وليس فيه الا ما يرفع شأن الانسان ويعلمه أن يضع نفسـه فى ذروة الكرامة والمجد . ثم ان ما تخوفه على الطفل من انهيار دعايم تربيته الاولى اذاهبت أعاصير الشبه فى مستقبل ايامه على عقائده الدينية ومن تعرضه بذلك لخيبة فى آماله يصعب عليه احتمالها ما تخوفه من ذلك لا مبرر له لان الطفل اذا كبر فتولته الشكوك والشبه فزاغت عقيدته لا يكون قد خسر شيئا فان كل ماتبعث عليه هذه العقيدة من العمل هو خير يقره العقل فلا موجب للندم عليه

كبر وهي انما تفرغ في مخه حال صغره افراغاً وتلصق به الصاقاً ؟ ان صح ان يقال ذلك .

فالذي أعناه « لاميل » هو ان يكون له وجدان مستقل عن الايمان ، وليس يهدأ لي بال ولا يطمئن لي قلب على سلامة شرفه وتهذيب نفسه الا بحصول هذه الامنية .

كثيراً ما سمعت بعض المسيحيين اذا عصى أولادهم أوامرهم يهددونهم تهديداً وحشياً وهم في شدة حنقهم بقولهم لهم : سيعاقبكم الله ويهلككم . كنت كلما سمعت منهم ذلك تقلص جميع دمي من عروقي الى قلبي غيظاً وغماً . فليت شعري هل الاستغاثة بأحكم الحاكمين على تنفيذ عقوباتنا السافلة على الاطفال والاستصراخ بالذات العلية لتشفي غلنا بالانتقام لنا منهم واقتضاء فعل الشر من الله ليسكن بذلك وجدنا عليهم — هل كل ذلك هو ما يعبر عنه بتأسيس علم الاخلاق على الاعتقاد الديني ؟

أنا لا أجيز في أي حال من الاحوال الاستعانة في تربية الطفل بالمخوفات الالهية ، بل أفضل تهديده بالاغوال ومشوهي الخلق من الناس على جعل الاله ذاتاً مزعجة ، فالتهديد بالاغوال والمشوهين يعتمد فيه على روايات خياليه يزول وهمها في يوم من الايام بتقدم الطفل في السن وأما التخويف بالله فيخشى منه ان ينتقش مبدأ الحياة العامة في مخيلته من صغره على صورة طاغية أو غول .

كأني بك تقولين انك لم تختر من أمثلة التربية الدينية لتوجيه انتقادك الا أردأها وأحقها بالطعن . فأقول نعم ولكن هذه التربية على كل حال فيها عيب شنيع جداً وهو إلزام الناشىء في سيرته بأعمال

لا يدرك عللها ، فلو أني قلت للطفل : يجب عليك أن تكون مؤدباً عاقلا لتكون محبوباً عند الله لكان ذلك مني بلا شك إلغازا وتعمية لانه لايعرف ما الله ولا يعرف علامة يميز بها ما يرضيه وما يغضبه ، واما ان قلت له ، يجب عليك التزام الادب لتحبك أمك فانه يفهم هذه العلة أكثر من سابقتها بكثير .

من تكلم في الدين مع طفل حديث السن جداً فانما يريد منه أن يفسد معنى ما يؤديه اليه من الافكار الدينية ويقلب المراد منها فلو ان الام أشارت بيدها الى السماء دلالة لولدها على انها هي محل الذات الذي يجب أن يتوجه اليه بدعائه لتوهم ان هذه السماء الدنيا المادية هي الـه .

أنا أعلم ان كثيراً من الآباء لا يهتمون بهذا الامر كثيراً ولا ينظرون فيه نظراً بليغاً ولكونهم ممن يشكون في كل شيء ترينهم يلزمون أولادهم أداء بعض الاعمال الدينية التي لا يؤدونها هم أنفسهم أو انما يؤدونها امامهم فقط ، فكأنه لا شأن للصواب والخطأ في حق هؤلاء الاطفال ولا نتيجة لهما ، وان أهم شيء في حقهم هو ان تكون باكورة أعمالهم في أول حياتهم اتباع ما جرى عليه الناس من العوائد مع ارجاء النظر فيها الى المستقبل فمثل هؤلاء الآباء يتسببون في أفساد وجدان أبنائهم وقوتهم الحاكمة بخفتهم وطيشهم أو عدم اكتراثهم بشأنهم ، فأنا أتحامى الاديان التي يكون شأن الآخذين بها فيها كشأن من لا يؤمنون بها بالمرة أومن لا يؤمنون بها الا ايماناً ناقصاً فانها أضر الاديان بكرامة الانسان .

فاحتراماً « لاميل » ولطائفة من المعانى التي يجب ان ينظر فيها متى كبر بفكر خال من التأثر بغيرها -- أود ان يجتنب فى تربيته زمن طفوليته الخوض فى المسائل الدينية فاننا مؤتمنون على عقله وعلى حرية ضميره ومسئولون عن ذلك ، فاذا نحن عجلنا بحرمانه من حق النظر فقد ثلمنا امانتنا هـ .

الرسالة الحادية عشرة

﴿ من إراسم الى هيلانة فى ٣ يونيه سنة ـ ١٨٥ ﴾

بيان عدم فائدة أصول علم الاخلاق فى التربية

معظم من كتبوا فى علم التربية يغالون باصول علم الاخلاق ويرفعون من شأنها وأنا مثلهم اعتقد أن المواعظ الحسنة وقواعد التهذيب المفيدة قد تبعث العزائم فى بعض الاحوال على القيام بصالح الاعمال ، ولكنى لا أعتقد ان ما يلقفه الناشئون منها من أفواه معلميهم فى دروسهم يغير طباعهم تغييراً حقيقياً ، وهيهات ان اعوّل عليها فى ذلك فاننا نرى كل يوم في المجتمع الانسانيّ أناساً من الظرفاء الاكياس جفاة غلف القلوب على انهم لم يحرموا من النصائح العامة الداعية الى التحابّ والتراحم المرغبة في لذة الاتصاف بهما ، فمامن فاسق أو شرير أو بخيل الا وقد سمع الف مرة من ألسنة الوعاظ قولهم « كن حكيما مهذباً تكن عزيزا مغتبطاً »[1] لا تفعل بغيرك مالا

(١) الحكمة واردة فى أمثال سليمان عليه السلام فى التوراة بهذا النص

ترضى أن يفعله بك [1] « لا تجعل لحطام الدنيا حظاً من قلبك » [2] الى غير ذلك من النصائح والحكم.

الانجيل كله مواعظ رائقة وأمثال شائقة ، فليت شعري من ذا الذي يراعيها ؟ هل تجدين كثيراً من الاغنياء أنفقوا جميع أموالهم على الفقراء بعد سماعهم آية « ان دخول الجمل في سم الخياط أيسر من دخول الغني في ملكوت السموات » ؟ [3]

هل تلاقين ولو في القسيسين أنفسهم عددا كبيراً ممن يفضلون عبادة الله (سبحانه) على عبادة الدينار والدرهم ؟ هل يرضي أوائل الناس أو الذين يعتبرون أنفسهم كذلك أن يعاملوا معاملة الاواخر ؟ هل يسهل على الحاكمين أن ينقلبوا محكومين ؟ لا ! بل نرى علماء الدين يغالطون في فهم نصوص الكتاب مخادعين وجدانهم غاشين ضمائرهم ، وما أكثر ما يؤلونه منها تخلصاً من قضائها عليهم وفرارا من عواقب الاخذ بصريحها ! .

وهو « الرجل الحكيم في عز » (١) نص الكتاب المقدس في هذا المعنى هو « كما تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا أنتم أيضا بهم » (هكذا) راجع من انجيل لوقا الاصحاح السادس والعدد ٣١ (٢) نص الكتاب في هذا المعنى هو « لا تكنزوا لكم كنوزا على الارض حيث يفسد السوس والصدأ وحيث ينقب السارقون ويسرقون بل أكنزوا لكم كنوزا في السماء حيث لا يفسد سوس ولا صدأ » راجع الاعداد ١٦ و ١٩ و ٢١ من الاصحاح السادس من انجيل متى .

(٣) راجع (٢٣ : ١٩) من انجيل متى « وأقول لكم أيضا ان مرور جمل من ثقب ابره أيسر من أن يدخل غني الى ملكوت الله »

جاء المسيح يدعو الى السلام في كل قول من أقواله ، فهل رأيت الممالك أصبحت أقل قتالا ؟ ندب الى التآخي بقوله الجميل « كلكم إخوان »[١] فهل هدم هذا القول دعائم الاستعباد ومحا من النفوس ميلها الى التسلط ؟ توعد من يصلت سيفه بغياً وعدواناً بالهلاك فقال ما معناه « من سل سيف البغي به قتل »[٢] فهل ردع هذا الوعيد من كان بيدهم الحول والقوة عن انتهاك حرمة القانون بالبغي والفساد في الارض ؟ قال « من أخذ قميصك فأعطه رداءك »[٣] فلو ان أحدا منا معشر الفرنسيين المتشددين فى التمسك بالدين اتبع هذا الامر وجرى على نصه حرفياً لسجن في شارنتون[٤] خصوصاً اذا كان له من أقاربه وارثون .

لم يختص المسيحيون بهذه المواعظ الحسنة فان لليهود أيضا والصينيين والفرس كتبا فيها حكم بالغة ، وكلم نابغة ولكنهم لم يصيروا بها أحسن منا حالا ؟ فانه لو كان يكفي في تحسين أحوال الناس وتهذيب نفوسهم وجود كتاب مفيد في علم الاخلاق لكانت الدنيا قد بلغت

---

(١) راجع ٢٣ : ٨ من انجيل متى « وأما أنتم فلا تدعوا سيدى لان معلمكم واحد هو المسيح وأنتم جميعا اخوة » (٢) عبارة متى فى هذا هى (٢٦ : ٥٢) « فقال يسوع رد سيفك الى مكانه لان كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون » (٣) نص متى (٦ : ٤٩) « ومن أخذ رداءك فلا تمنعه ثوبك أيضا »
(٤) شارنتون اسم لقريتين من قرى فرنسة احداهما تدعى شارنتون ليويه وهى أشهر قرية فى اقليم السين بقضاء سو واقعة على نهر مارن والثانية تسمى شارنتون سورشير وهى أشهر قرية فى اقليم شير بقضاء سانت ارمند مونت روند وفى الثانية مستشفى للمجاذيب

غاية الكمال من زمن طويل ، لانها والحمد لله لم تخل من علماء الاخلاق يوما ، على اننا لا نسمع فى جميع ارجائها الا أصوات آلام المنكوبين والمكروبين ، وتحريق الأرّم [1] من المقهورين المتغيظين .

أرى انه لا ارتباط بين مذهب المرء وبين عمله غالباً الا فى الخيال والوهم ، فلو أن الخير كله والشر كله كان كل منهما بمعزل عن الآخر في مجرى الحياة وسياق اعمالها لسهل على الناس الحكم فيما اختلفوا فيه من آرائهم ومذاهبهم ، ولانقطع من بينهم سبب الخلاف بأسرع ما يكون ، ولكن هيهات أن يكون الامر كذلك وقد علمت انه لا يعمل منهم بعامه الا الشذاذ . أنظري الى أصول الاخلاق الانجيلية مثلا تجدي أن من لا يؤمنون بألوهية المسيح هم في الغالب اكثر اتباعا لها ورعاية ممن اتخذوا الايمان بتلك الالوهية مهنة لهم .

أنا لا أعني بجميع ماقلته هنا ان علم الاخلاق لا فائدة له في التربية وانما الذي أريده بهذا الكلام هو أن أحسن ما لهذا العلم من الاصول في الدنيا بأسرها لا ينشىء رجالا كملة مهذبين ، وقد فهم ذلك حق الفهم واضعوا الشرائع فعززوا ما دوّن من تلك الاصول في الكتاب بأوضاع تامة للثواب والعقاب .

ثم أن الطفل لا يستفيد مما يلقى عليه من دروس الاخلاق الا اذا كان من الاستعداد والكفاءة بحيث يقدر أسباب اعماله وعواقبها ، فأنى له اذن أن يفهم هذا الاصل الوجداني وقد حجبه عنه ادراك مشاعره

---

(١) تحريق الارّم كناية عن شدة الغيظ والارّم الاكل وهو من فعل الاسنان ومعنى ذلك ان يسحق بعضها ببعض

الظاهرة واشتداد أهوائه وشرة غرائزه؟ وأنى له أيضا أن يكون جميع مايراه من الأسى والامثال من شأنه ان يأخذ بزمام عزيمته الى الخير ويصرفه عن الشر؟ وليت شعري هل تجري أمه دائما على مقتضى ما ترشده اليه من صالح الاخلاق وجميل الصفات؟ نرى الوالد يلقي على ولده خطبة طويلة في وجوب مواساة الفقراء والاحسان الى المساكين، ثم هو لا يلبث أن يلومه اذا أعطى لفقير درهماً من الفضة، فهو بذلك يبذر باحدى يديه في ذاكرته أصول الانجيل، وينقش بيده الاخرى على قلبه صور النفاق والرياء(١)

---

(١) جميع ما قاله المؤلف فى هذه الرسالة من عدم كفاية علم الاخلاق فى التربية وما ضربه من الامثال لذلك شبيه بما رآه من عدم تأسيس التربية على العقائد الدينية ومنشأ هذا كله مذهبه الذى ارتضاه لنفسه وهو حرية النظر التى لا يدين صاحبها بدين ومن الخطأ البين الاستدلال على عدم كفاية اصول علم الاخلاق فى التربية بأنه لم يصلح الناس جميعا فان خروج كثير منهم على هذه الاصول وعدم اتباعهم لها لا يعتبر عيبا فيها بل عيبا فى عقولهم ونقصا فى نفوسهم وانما كان عدم صلاحهم من انحرافهم عنها وعدم جريهم على سننها وانما يتخلف جميل أثرها فى التربية اذا كان المربون غير مرتاضين بها فاذا تحققت بها نفوسهم وظهرت آثارها فى اعمالهم فلا جرم ان يكون لها فى التربية أعظم الفوائد وأكبر العوائد وما اظن المؤلف يجراء على القول بأن اتباع طريقته فى التربية وهى ترك الطفل وشأنه يتعلم مما يحوطه ينشئ الناس كلهم اخيارا صلحاء فالمشهود ان هداية الحواس الظاهرة والباطنة وهداية العقل ناقصة بدليل تباين الناس فى الآراء والافكار والمشارب وهداية الله التى أودعها دينه هي جماع الخير وقصد السبيل

الرسالة الثانية عشرة

(من إراسم الى هيلانة في ٤ يونيه سنة – ١٨٥)

بيان نفع القدوة وشرطه ، ومطالعة قصص الحيوانات فى تربية الاطفال ووجوب استقلال طبع الطفل وتعلمه سير الحيوانات بنفسه .

يعوّل علماء الاخلاق كثيرا في تربية الاطفال على قوة القدوة وتأثير الاسوة ، وأنا في هذا موافق لهم ولكن : أي والد يصح له أن يتبجح بانه على الدوام قدوة صالحة لولده ؟

نحن في الجملة نسعى في غش الاطفال وخداعهم بما نتزين به لهم من لباس الرياء الذي يجعلنا في أعينهم احسن مما نحن عليه في الحقيقة والواقع وبما يصدر عنا كثيرا امامهم من الاقوال والاداب المغايرة كل المغايرة لمعتقداتنا وآرائنا الذاتية ، وحقيقة الامر اننا نقصد ان نربي طباعهم على ماانشأنا عليه موافقة لحسن رأينا في انفسنا ورغبة في تحقيق غيرنا بهذا الرأي ، وان نكسوهم من الفضائل ماننتظاهر لهم باننا متحلون به ، ولكن هيهات ان ينخدعوا بهذه الحيل ، ومن ظن بهم ذلك فقد اخطأ في فهم معنى سذاجتهم وصفاء قلوبهم خطأ بيناً ان الاطفال يعرفون كمال المعرفة ما يعتمدون عليه في كشف مقاصد آبائهم والوقوف على شؤونهم ، وهم يدركون بالحدس والتخمين ما يجتهد هؤلاء في كتمانه عنهم ، واني لفي شك من ان هذا الكتمان وان حمدت أسبابه يزيدهم في نفوسهم اجلالا وتعظيما .

عاقب والد ابناً صغيرا له لم يتجاوز الخامسة من عمره على اكذوبة

قالها ولم يكد ينتهي من غقابه حتى دخل عليه خادمه مخبرا له بأن زائراً ثقيلاً ينتظره في الخارج فقال له ذلك الرجل الوقور «اخبره بأني لست هنا» فياله من درس يستفيد الطفل منه الصدق والاخلاص .

أنا على يقين من ان «اميل» لن يجد فيك الا أحسن أسوة واكمل قدوة ، وهذا هو الذي يملأ قلبي اطمئناناً عليه . ولكن أقول لك الحق غير مداج فيه ولا مدار ، وهو ان غرضي من تربيته أن يكون ذا طبع مستقل لامفرغ في قالب طبع آخر مهما كان لهذا الطبع من الكمال وأذكر لك هنا واقعة حضرتني الآن تدلك على أني محق في قصدي ، وهي اني رأيت ذات يوم طفلا في السادسة من عمره راجعاً مع والدته من تشييع جنازة ، وهو من الاطفال الناجحين المتقدمين جدا على حسب اعتقاد الناس وكان يبكي اويتباكى فارتبت في أمره وظننت انه مخطىء في معرفة من فجع به لان المتوفي لم يكن الا ابن عم بعيد له (على أن الاطفال لايفهمون حقيقة الموت كما تعلمين) فسألته عن سبب بكائه وكدره العظيم فكان جوابه لي أن قال «لاسبب سوى اني رأيت الآن والدتي تمسح عينيها بمنديلها فبكيت» فأضحكني منه هذا التأثر التقليدي وان كان صادراً بلاشك عن طبع ساذج وقلب سليم . لا ازيد ان يكون «اميل» مثل هذا الغلام في تأثره بل اود انه متى بلغ السن التي يرق فيها لمن تصيبه مصيبة ويعطف عليه يكون ذلك منه ناشئا عن غم كارث ألمّ بنفسه وحزن ممض يضطرم في قلبه .

هل يجب ان يلحق مايرى من اعمال الحيوانات وسيرها في حياتها بما للقدوة من التأثير في التربية؟ وكيف لا ونحن نرى كُتّاب الامثال عندنا

على بعد مجتمعاتنا من معاهد الفطرة تزدان تآليفهم وتزدهي دروسهم بما يودعونها من سير الحيوانات وأخلاقها، وان الطفل من أولادنا لا يكاد يقدر على النطق المفهوم والحفظ حتى يحمل على حفظ أسطورة من أساطير لافونتين[1] كأسطورة الصرصار والنملة مثلا. أنا لا أنكر أن في حياة الحيوانات عبراً كثيرة وعلوماً شتى يجب علينا تعلمها، ولكنى أقول: ألا ينبغى لهذا العالم الصغير الذي يحفظ سير هذه المخلوقات الممثلة رواية الكون الكبرى في مشهده الاعظم أن يعرفها ليهتم بشأنها اهتماماً حقيقياً؛ فكم نرى من أطفال نشأوا في حواضرنا الكبرى وقرأوا أساطير ذلك الكاتب الشهير لم يروا في حياتهم تلك المخلوقات التي يحكى لهم قصصها ويمثل لهم أحوالها الا قليلا. فهم على جهل تام بأخلاقها وعوائدها. وفي رأيي أن سليمان (عليه السلام) أعقل من واضعي التعاليم الحديثة اذ قال للكسلان «عليك بالتعلم في مدرسة النملة»[2] فانه دله بهذا الارشاد على ينابيع علم الاخلاق الفياضة لا على

(١) لافونتين واسمه جان دولافونتين من أشهر كتاب الاساطير في فرنسة ولد في شاتوتيرى سنة ١٦٢١ ومات سنة ١٦٩٥م وملخص اسطورة الصرصار والنملة هو ان صرصارا ظل أيام الصيف كلها لاهيا بغنائه عن ادخار قوته بينما كانت نملة جارة له تسعى وتكدح في جمع قوتها لوقت الحاجة؛ فلما جاء الشتاء لم يجد الصرصار ما يسد به رمقه فالتمس المعونة من جارته فسألته ماذا صنعت في الصيف فأجابها بقوله كنت أغنى فقالت له اذهب الآن فارقص (٢) عبارة الامثال في هذا المعنى هي: اذهب الى النملة أيها الكسلان. تأمل طرقها وكن حكيما «هي» التي ليس لها قائد أو عريف أو متسلط وتعد في الصيف طعامها وتجمع في الحصاد أكلها. راجع الباب ٦ من أمثال سليمان والاعداد ٦ و٧ و٨

حياضه التي لبعدها عن تلك الينابيع لاتوجد فيها الا صبابة لاتروي ظمأ ولا تبرد غلة .

الرسالة الثالثة عشرة

(من إراسم الى هيلانة في ٦ يونيه سنة - ١٨٥)

بيان الطريق الى تربية المشاعر الباطنة

اعلمي ان أخص ما يجب الرجوع اليه في إنشاء طبع الطفل هو علم منافع الاعضاء ، واذا كانت هناك وسائل أخرى يستعان بها في ذلك فلا ينبغي اغفالها .

الوليد يرى في أول أمره محباً لنفسه منقبضاً عن غيره لضعفه وعجزه عن الاختلاط ، فعمل المربي معه هو أن يعمد الى ما وهبه الله (سبحانه) من الغرائز المحمودة الكافلة حفظه فيجعلها أصلا يفرع منه بالتدريج صنوفاً من الوجدان أرق وأشرف من محبة النفس والانقباض عن الناس ـ تربطه بأمثاله وتعطف به على أضرابه ، ولا اعتداد عندي بما تسمى به هذه القوى السامية الطبيعية فلنسمها أواصر أو عواطف مثلا ، وانما الذي اعتد به ويهمني أن أقوله لك هو أنها ليست خيالات ولا صوراً ذهنية بل هي حقائق ثابتة لها أصول راسخة في نفوسنا وفي الخارج ، فكل عاطفة من تلك العواطف النفسية لها ارتباط في الخارج بطائفة من الوقائع فالشفقة مثلا توجد عند رؤية آلام الغير ومصائبه ، والشكر يوجد عند الاحسان واسداء المعروف ، وحب

الوطن منشؤه اعتياد الثواء بالامكنة والانتفاع بما فيها من الاشياء ومحبة الناس تنشأ وتقوى بحسن المعاملة ولطف المجاملة .

جميع العواطف الشريفة والسجايا الحسنة توجد فى نفس الطفل ، لكنها تكون كالنبات فى طور البذر ، فالعالم النباتي مملوء بأنواع من البذور ربما لا تهيأ لها ذرائع النجوم والنبت طول حياتها ، لما يعوزها من أشعة الشمس والارض الصالحة للانبات والماء بنسب مخصوصة . كذلك شأن أصول العواطف وضروب الوجدان الانسانية فانها تحتاج فى ظهورها ونموها الى مستقر ملائم ومؤثر خارجي .

كلنا يعلم أن طبع الطفل ينمو بالمؤثرات الخارجية أكثر من نموه بالبواعث النفسية ، فان ما نفعله أمامه من الأفاعيل وما نرى به من الاقاويل ، هو الذي يبعث فيه الفرح تارة والترح أخرى خصوصاً فى أوائل أيامه على أن مالنا من التأثير فى طبعه مباشرة لا يكاد يكون شيئاً يذكر الا ما تحوطه به أمه من ضروب العناية وما تبديه له من أنواع الحنو والرعاية ، فانه يدعوه من غير شك الى حبها ، ولكن الطبع كما علمت يتألف من قوى متمايزة كل التمايز يقتضى كل منها باعثاً خاصاً ان وسعنى أن اقول ذلك . فليس الانسان ذاتاً بسيطة بل هو على ما اعتقد اكثر تركباً فى نفسه منه فى جسده[1]

المشاعر الباطنة كالمشاعر الظاهرة فى كيفية التأثر فالثانية كما تعلمين لا تتأثر الا فى أحوال وبشروط خارجية مخصوصة لان مشعر اللمس مثلا لايتأثر الا متى لاقى أشكال الاجسام وجهاتها ، ومشعر الذوق لا

(١) هذا مصداق لقولهم فيه انه العالم الاصغر .

ينفعل الا بما يقع عليه من الطعوم ، كذلك الاولى لا تنبعث الا عند اجتماع أمور واقعية مخصوصة ، فان حلول الخطر مثلا يولد إحساس الخوف ولكنه لا يبعث وجدان الانصاف مباشرة ورؤية الطفل ما يغمره به أهله من صنوف البر قد تلقي فى نفسه وجدان محبتهم والميل اليهم ، ولكنها قلما توقظ فيه احساس الاحتشام والتواضع . والاحوال التى تحرك فى النفس عاطفة المروءة أو الشجاعة لا تؤثر فى رقة الطبع كما أن الصوت لا يؤثر فى العين والضوء لا يؤثر فى الاذن ، فلكل مشعر باطنيّ أو عاطفة نفسية تقتضى شيئاً يناسبها ويلائمها ، والطفل كالآلة الموسيقية كله أوتار تهتز اذا نقرت ، ولكنها لا تهتز اهتزازاً حقيقياً الا بما يقع عليهامن الاشياء ، ولا تتأثر بجميع الاشياء على السواء وانما لكل انفعال قلبيّ طائفة منها تلائمه .

فاذا أردنا مثلا أن نلقى فى نفس الطفل الذى فى السابعة أو الثامنة من عمره وجدان الاحسان الى الفقراء والزمنى (١) فإيانا والخطابة والوعظ لأن أحسن مواعظ الانجيل لا تفيده فى ذلك شيئاً . بل علينا أن نذهب به الى خص حقير يكون فيه شيخ هرم أبلت الايام قواه ونهكت الحمى جسمه وقد رقد على حصير ومد يده يسأل عوّاده قدح ماء بارد ، وننظر ما يكون منه فى ذلك الوقت ، فاذا هو لم يبادر بنفسه الى ملء جرة من أقرب مورد وتقديمها بين يدي الرجل المسكين فقد حق اليأس منه ، وأما اذا تحرك الى هذا العمل الخيري فايانا أن نسأله عن قصده به وعما يرجوه من الثواب عليه ، فان فى شوب انبعاثه الصالح الى البر

(١) الزمنى أصحاب العاهات

بمثقال حبة من الفائدة الذاتية افساداً له.

قد بانت لك مما قدمته الغاية التي أرمى اليها فى قولي وهي أنه اذا كان يوجد فى الطفل قوى كامنة تتنبه بالمؤثرات الخارجية التي تدعوها الى الشخوص الى العمل وكان لهذه المؤثرات ارتباط ببعض الامور والوقائع الخارجية فالواجب علينا هو أن ننبه فيه بهذه الامور تنبيهاً تاماً عواطف الحفاوة والسخاء واحترام النفس والناس والنزاهة وغيرها من السجايا الحميدة فطريقة تربية المشاعر الباطنة لا تختلف كثيراً عن الطريقة التي بينها علماء منافع الاعضاء في تربية المشاعر الظاهرة ، بل لا يوجد لتربية جميعها الا طريقة واحدة لانها كلها تجري على قانون واحد ليس هناك غيره .

يوجد فرق واحد بين التربيتين وهو ان الانفعالات في تربية المشاعر الباطنة وما يولدها من الاشياء تخالف ما يقابلها في تربية المشاعر الظاهرة ، فان الشيء الذى تنفعل العين برؤيته مثلا لا تنفعل به النفس دائما ، فعلي الام ان تختار نوع الآثار التى تريد احداثها في نفس ولدها و تجعلها صنوفاً واشكالا ، وليس يعوزها في الحقيقة شيء من الاحوال الملائمة لذلك فان حياة الانسان ليست الا مشهداً السلسلة من الحوادث المؤثرة ترى فيها كل حين آلام تحرك عاطفة الرحمة ، وعقبات تدعو الى التدرع بالشجاعة ، ومحن أعدت ليبتلى بها الصبر ، ولكن ينبغي لها أن تكون سليمة الذوق كثيرة الحذق في اغتنام الفرص التي تهيؤها لها الحوادث .
ثم اعلمي أن الكتب قليلة الجدوى جدا في هذا الموضوع ، فالذي عليك ان توجهي اليه في سيرتك مع « اميل » هو قوتك الحاكمة وما يمليه

عليك الوجدان من ضروب الالهام . ولما كان الطفل لا يلتفت الا الى الاشياء التي له فيها عمل كان من الحسن أحيانا ان تدس له فيها العراقيب (الحيل) لاثارة عواطفه الذاتية ، ولكن ينبغي هنا أيضا الاحتراس الكلي من ظهوره على ما يتخذ في ذلك من الحيل فان شعوره بخداع المربي له هو الخسارة الكلية .

اخترع المربون أنواعاً من الرياضة البدنية موافقة لانماء الاعضاء وخاصة بها . والذي أعرضه عليك انا هو فن من فنون الرياضة النفسية تقوى بها الغرائز والاخلاق ، لان خصائصنا ونقائصنا تقوى بالمراس والاعتياد ، فالفضيلة تكتسب بالتعلم ولكن هيهات أن تتعلم الا بممارستها والارتياض بها . وقد جاء في الامثال « بطرق الحديد يصير الانسان حداداً » فكذلك هو لا يكون خيّراً الا بعمل الخير فالعمل العمل ما دام حياً .

أرجيء البحث في قانون الاخلاق الحقيقي لاني لا بد لي من النظر فيه عند الوصول الى محله ، وأكتفي الآن منه بذكر قاعدة في غاية الايجاز والبساطة وهي : ان الطفل يصلح طبعه وتتهذب نفسه كلما زالت منه غرائز الأثرة وحلت محلها العواطف التي تأخذ بقياده الى الصالح العام ، ولكن هيهات أن يكتنه هذا الناشيء أسباب سيرته مع غيره خصوصاً معنى الواجب ، فانه من الغموض والخفاء بحيث لا ينفذ اليه ذهنه الضعيف ، وغاية ما يمكنه ادراكه هو رضاه عن أعماله ورضى الناس عنها . على انه لما يجده في الاعمال الصالحة من اللذة التي لا تقل عن لذة الاعمال السيئة لا يلبث أن يختار الاولى ويرجحها على الثانية متى

ساعدناه قليلا بتوسيط البواعث الخارجية ، فان الاشياء كما يوجد فيها شيطان رجيم على ما علمت يوجد فيها أيضا في بعض الاحيان ملك كريم ، فاذا كان بعضها يحرك فينا دواعي الطمع فان بعضاً آخر منها يبث فينا وجدان البر والخير.

يجب علينا أن نعين الطفل على تربية مشاعره الباطنة ، ولكن علينا أيضاً أن نحترم ارادته ولا نعنفها . فلو اني أوتيت القدرة على تدبير ما يحتف « باميل » من بواعث العواطف وعلى مراقبته في سيرته مراقبة تامة وأمكنني بالاجمال اختراع طريقة للتربية النفسية تسمو بمقاصده حتما الى الكمال لما عولت عليها في انشائه مهما كان فيها من الحسن ، فاني أرجو من صميم فؤادي أن يكون يوما من الايام رجلا خيّراً لا حيواناً خيّراً ، وأعيذه بالله من فضيلة لا يكون كسبها بسعيه وهمته ، ومن سعادة لا يكون هو الذي حصلها لنفسه ، فانه ان أوتى عفواً هذه السعادة التي هي الامتياز التعس لمن خلقوا لها يكون قد ابتاعها بثمن غال جدا وهو خسارة اختيارة . كل فرد من أفراد المجتمع الذي أعد ولدنا للمعيشة فيه مسوق على الدوام الى الجلاد والمغالبة في ميدان الحياة ، فيجب عليه أن يقاوم مقاومة البسلاء آراء الناس وتأثير الأسى وجميع مؤثرات العصر الخادعة ، والا خسر معرفته قدر نفسه واقدار الناس . لان شرف الانسان وفضله مشروطان بأن يكون ذا ارادة تصدر عنها أفعاله وما عليّ ان تكدر بعض الناس من هذا الشرط اللازم ما دمت أنا مسروراً به . فاذا لم يكن للمرء وجود مستقل ووجدان ففيم يكون شرف حياته ؟ اه

الرسالة الرابعة عشرة

(من هيلانة الى إراسم في ٢٠ سبتمبر سنة — ١٨٥)

موافقتها له في طريقته في تربية النفس وبيان ان في التبكير بالقاء النصائح والمواعظ على الاطفال حطاً من كرامتها وبيان ان للاطفال حاسة غريبة يميزون بها بين الحب الصحيح والحب المموه

إخالني فهمت طريقتك في تربية النفس وأراني مرتاعة من عظم العمل المعهود الي به والصعوبات التي تعترضني في سبيل إتمامه ، لان أمر الطفل بفعل ما يجب عليه فعله أهون بكثير من تصفح الاشياء لايجاد ما يبعثه منها الى صالح الاعمال. على أني سأحاول العمل على هذه الطريقة فاني على يقين تام من أن الكلام والنصائح والمواعظ لا تكفي لتهذيب الطبع وتقويمه . بل قد وصلت من هذا اليقين الى حد ان أحدث نفسي بأن في التبكير بتلقين الطفل بعض المواعظ وايداعها ذاكرته حطاً من شأنها ونقصاً من قيمتها مهما كانت حسنة مفيدة . فانه يسهل عليه بذلك اعتياد تلمس الفضيلة في الكلام واعتبار الوجدان أستاذ مدرسة .

على اني الى الآن لم أبلغ مع « اميل » هذه الدرجة . فانني لو كلمته في علم الاخلاق لألفيته بلا شك في غاية العجز عن فهم ما أقوله ، ولكنه على صغره له دين كما يدل عليه اتخاذ اللعب التي يعطاها آلهة يخصها بفرط محبته ومزيد عنايته ، فلو اني أردت من الآن تغيير الاحوال

المقارنة لسنه وفطرته في بضع سنين لأضعت وقتي عبثاً ولما نجحت الا في تبديل تماثيله بأوثان أخرى .

لا تزال عواطف « اميل » في غاية القصور كما رأيت فأصبت في رأيك ، على أن للاطفال مهما كانوا صغاراً حاسة عجيبة يفرقون بها بين الصحيح من أنواع ميل الناس اليهم وعطفهم عليهم والمموه منها ، فهم يحبون من يحبهم وقلما ينخدعون بضروب الرياء والاستمالة وأنواع التدليل والملاطفة ، ومما يشهد لذلك اني في معظم أوقات زيارتي للسيدة وارنجتون ألاقي عندها امرأة ترملت في شبابها وهي تزعم انها تعشق الاولاد عشقاً ، وتقول : لِمَ لَمْ يهب لي الله (سبحانه) ولو ولداً واحداً وتدعي انها كلما فكرت في ذلك يكاد يغمى عليها ، ولكنني في ريب من أن قلبها كقلوب الامهات لان « اميل » لا يطيق النظر اليها .

لا مناص لنا من الانفعال بما يحيط بنا من المؤثرات الخارجية — كما تقول — والا فما السر في أنني أحب التنزه في طريق مخصوص كلما تلقيت مكتوباً من مكتوباتك؟ وكيف ان بعض الاشجار يجذبني اليه ويدعوني الى تفيئه والجلوس تحته في حال ثوران أشجاني خاصة ؟ وبماذا أفسر ما أجده من الارتباط بين رؤيتي لصخرة ، وما أحس به اذ ذاك من نقص في عزمي ووهن في ثباتي ؟ فلا شيء يطابق جميع حالات النفس ويلائمها سوى البحر على ما أرى . اهـ

الرسالة الخامسة عشرة

﴿ من هيلانة الى إراسم في ٣٠ اكتوبر سنة – ١٨٥ ﴾

تفاهمها مع « اميل » بالاصوات وظنها انها أصل اللغات

لا يزال « اميـل » عاجزاً عن التكلم غير ان كلاً منا يفهم مراد صاحبه ؛ لان الاطفال قبل أن يصير في مقدورهم إخراج الحروف من مخارجها بزمن طويل يعبرون عما يعروهم من الفرح والدهشة والخوف والالم بضروب من الصياح والصراخ الفطري يندر أن تخطىء الام في فهم معانيها ، وهي ان لم تكن لساناً معروفاً فأقل ما فيها انهـا لهجة تفصح عما في نفوسهم من ضروب الوجدان والافكار؛ وأنا في شك من أن الكلام يكون في إعرابه لي عن انفعالات ولدي أكثر من هذه الاصوات بيانا ، على انني لا إخال ان صورة أخرى من صور التعبير عما في النفس توافق حالته موافقة هذه لها .

لم يقتصر « اميل » على هذه اللهجة بل قد اخترع من بضع أسابيع طريقة للمحادثة معي ، فاذا أراد ان يكلمني عن كلب البيت قلد نباحه بقدر ما في أعضائه الضعيفة من الاستطاعة ، واذا حملته جورجيـة وخرجت به للتنزه على ساحل البحر فانه عند عوده يخبرني بهبوب الرياح ، وذلك بأن ينفخ فيحدث صوتاً مخصوصاً ، واذ صادف قطيعا من البقر أو الغنم قص عليّ ما راه بأصوات أفهم ما يريده بها ؛ واني على ما أجده في قصصه هذه من اللذة قد أنشأت أقلق لحالته وأحدث

نفسي بأني أفرطت في اغفاله واسلامه الى الفطرة ، وأنه ربما كانت عاقبة ذلك حدوث بعض عاهات في قواه النفسية أكون أنا السبب في حدوثها . استفتيت في هذا الامر السيدة وارنجتون وكاشفتها بما أجده من الخوف لانها لما كانت زوجة طبيب كان لها هي أيضاً بعض الدراية في الطب ، فاجتهدت كثيرا في محو هذا الفكر من نفسي وفي تسكين روعي وقالت لي : إن هذا الامر عام في جميع الاطفال الذين يربون في الارياف .

وعلى كل حال فما أدرانا أن هذه الاصوات ليست هي أصل اللغات الانسانية ؟ أقول هذا وأنا عارفة أنه ربما أضحكك . ولكن ما المانع من أن الانسان وهو في زمن طفوليته اذ كان يسكن الآجام والكهوف كان يتلمس مبادئ الكلام في ألغاط الغابات وأصوات الحيوانات وغيرها من المخلوقات . اه

الرسالة السادسة عشرة

﴿ من هيلانة الى إراسم في ١٠ نوفبر سنة — ١٨٥ ﴾

استعدادها لتعليم « اميل » بالبحث في أحوال النبات

لست أدري أيها العزيز إراسم متى يتيسر لي ايصال بقايا هذا المكتوب اليك . فقد توالت عليَّ الايام وتعاقبت الشهور في ارتقاب فرصة تمكنني من ذلك . ولا ريب في أن ما أكتبه اليك خلو من

كل ما من شأنه أن ينفر الحكومة ويزعجها ؛ فان أخص موضوع احب مكاتبتك فيه هو الحديث عن « إميل » وشؤونه : وأنت تعلم ان « اميل » ليس من المؤتمرين بالحكومة المغرين بالخروج عليها ، على انه لا شيء في عواطفنا وآمالنا يدعو الى ملاحظة أو يستوجب مؤاخذة ، وأنا أراعي في مكتوباتي الحياء والاحتشام حتى اني لأفضل احراقها على اطلاع غيرك عليها .

هاج غضب « إميل » صباح اليوم هياجا شديدا بلا سبب معروف ، ولا بدع في ذلك فاننا مع تبجحنا بالعقل والرزانة لا نعرف على الدوام علة جزعنا وغضبنا ، فقد يكفي في اساءة خلقنا ان نرى في السماء غيما كريه المنظر ، أو في ملبسنا انثناء مضايقاً ، أو نسمع ذبابة تطن في اذننا ، وأيًّا ما كانت علة غضب « إميل » فان جورجية لما رأته في هذا الهياج قدمت له مرآة جعلتها نصب عينيه فأثر ذلك فيه تأثير السحر باسكان غضبه كانه خجل من نفسه أو خاف من صورته .

أنا منجزة ما وعدتك به فتجدني الآن أطالع وأبحث وأعمل لأتمكن يوما ما من تعليم « إميل » وانك لو رأيتني في هذه الحالة لنسكرتني لما صرت اليه من الوقار والرزانة .

انك تعلم اني ما برحت أتوق الى علم النبات ، فتراني الآن من بضع شهور مشتغلة بدرس أزهار الكتان لاني وجدت من ظروف الاحوال ما ساعدني على ذلك ، فان النباتات الطالعة هنا على رمال الساحل في غاية الكثرة والتنوع على أن لها بالبحر ارتباطاً كثيرا ،

ويوجد أيضاً على مقربة من قرية للصيادين اسمها (نيولين) مغارة شهيرة بدقة ورق السرخس النابت على جدرانها وجماله ؛ فان الظل والرطوبة اللذين فيها يشكلانه بأشكال متشعبة مشوشة تدعو الى اعجاب الخبيرين بأحوال النباتات ؛ ولكن لسان حاله ينطق بتألمه ومرضه فهل من الآلام والامراض ما يكسو الصور رونقاً وبهاء ؟

بينما كنت راجعة هذا المساء من نزهة قضيتها ارتياداً للنباتين المعروف أحدهما عند النباتيين بالقوريجيول الشاطئي والثاني بالارنجيون البحري أو لحية التيس (١) بصرت ببنت صياد ملتصقة باحدى نوافذ بيتها تنفخ في زجاج هذه النافذة ثم تكتب بظفر أنملتها الصغيرة اسم معشوقها على ما يظهر من الكلف في صفحة الزجاج ، فاستمالني ذلك اليها وخاطبتها فعلمت منها أن لها خاطباً في استرالية وأنها تترقب مجيئه ولا تعلم متى يجيء لتحظى بلقائه . فعسى أن يكون ذلك قريباً لاني أعلم ما يقاسيه الانسان من مضض الغرام . اهـ

الرسالة السابعة عشرة

(من هيلانه الى ارازمس في ٢ نوفمبر سنة ١٨٥)

تبشيره ببنت سنين « لاميل »

بعد هذا الانتظار كله قد تعهد أحد من تعرفهم بايصال مكتوبي هذا اليك فأسلمته اليه واستودعته الرياح العاصفة والبحر المضطرب

(١) لحية التيس نبت كورق الكراث لكن يرتفع

وحوادث الايام الكثيرة لانه لا محيص من ذلك ولكني لن استودعها أبداً حبك فانه فى حيازة ما لا يعتريه التحول ولا التقلب .

بشرى فقد نبت « لاميل » سنان . اه

الرسالة الثامنة عشرة

(من اراسم الى هيلانة فى ١١ يونيه سنة — ١٨٥)

بيان رأيه فى تفكر الطفل وفى أصل اللغات وفى تعليم اللسان للاطفال وسوء طريقة المربين فى ذلك .

قطع مكتوبك ولله الحمد جميع العقبات التى كانت تحول بينه وبين الوصول اليّ وهو الآن بين يديّ أرى فيه شعاعاً من شمس الحرية قد اتصل بى وها أنا ذا ألاحظك بفكري فى تريضك على شاطئ البحر وأبصر « اميل » من خلال ما تبدينه من ضروب التأثر والانفعال وإخالنى أعرفه .

رباه كيف أكون والداً من سنتين كاملتين ولا أتمكن من تقبيل ولدي الى الآن .

أترك هذا الاسف الذي لا جدوى له وأعاود الحديث معك فيما ينبغي أن يكون أهم ما يعنينا فى هذه الدنيا فأقول : ان من أغلاط المشتغلين بالتربية صرفهم جل عنايتهم فى تقويم القوى والملكات العقلية وقلة التفاتهم الى غيرها مع أنه لا يسعهم انكار ما بينها وبين قوى الادراك الحسية والنفسية من الارتباط ، ولكني فى هذا المكتوب أحب أن

أوجه فكرك الى تربية الادراك العقليّ بنوع خاص .

كأني بك تقولين : هل يتفكر الطفل ؟ فأجيبك ان ذلك لازم له لانه حي ولان العلم اذا كان كلما نفذ في أسرار حياة النباتات والحيوانات كشف لنا فيها بداية احساس بل ربما صح أن يقال بداية ادراك ، فكيف يكون الطفل اذاً أقل حظاً من هذه الكائنات التي هي أضعف خلق الله (تعالى) ؟ نعم ان مخه في الاسابيع الاولى من ولادته يكون في نظرنا كالبيداء المظلمة التي وصفها الشاعر اللاتينيّ بأنها مملكة عفاريت الجن ، ولكنه يتدرج في تمييز الاشياء بعضها من بعض والقياس بينها وانتزاع بعض الاحكام عليها . وانك لا تكادين تجدين طفلا في الشهر الخامس عشر أو السادس عشر من عمره اذا رأى صورة انسان الا وهو يفكر بأنها لشخص معروف .

من الاسباب التي تعين على إنماء عقل الطفل بعد تربيته بما يحتف به من الاشياء تعليمه اللسان .

وأنا أرجح ماتقولينه من أن الانسان في عهد طفوليته كان يتلمس مواد الكلام الاولى في أصوات الكون المحيط به ، وقد يدلنا على ان هذه الاصوات هي أصل اللغات الانسانية ما نجده في جميعها خصوصا ما كان منها قديما جدا من آثار التوافق الناشيء عن التقليد ، وما أجل مع هذا كلام الانسان وأعظمه ! ومن العبث أن اقتنع بقولي : ان أسلافنا الغابرين قد جمعوا في بداية نشأتهم الاصوات المبهمة المنتشرة في جميع ارجاء الكون وصيروها لغة ، فان هذا القول لا يكشف لي جميع ما في كلام الانسان من المعاني ، لانك تجدين لكل شيء في هذا العالم

كلاماً ، فالمعدن يتكلم لانه اذا نقر صوت تصويتاً يخبر بماهيته نحاساً كان أو ذهباً ، والحيوان يتكلم لانه يدل في كل حين بما يبديه في صوته من الكيفيات المختلفة على حاجاته وضروب وجدانه وشهواته ، والهواء والبحر والرعد تتكلم لان اصواتها تنبيء عما يقع بين الفواعل الكونية من الكفاح والمغالبة ، ولكن شتان بين كلام هذه المخلوقات جميعها وكلام الانسان ولو كان طفلا ، فان الطفل متى قدر على النطق ببعض الكلمات ولو مع التلعثم فيها واستطاع مثلا أن يقول « أنا » مثبتاً بذلك استقلال الانسان وقيام الحياة العامة به — رأيت ان جميع ما في الكون امامه قد دخل في شبه عبودية وخضوع .

أصوات المادة معلولة للحوادث التي توجدها وأصوات الحيوانات ناشئة من الغرائز المستقرة في أنواعها ، وأما لفظ الانسان فهو حتى في حال تمتمة الطفولية دال على ذات شأنها الحرية والاستقلال .

على انه لا ينبغي أن نعمى عن الفائدة الحقيقية من أساليب الكلام من حيث كونه ركناً من أركان تربية الادراك . ذلك لان الطفل لا يتلقى عنا وقت الكلام معه الا أصواتاً فمن أجل ان يكون تعليمنا مفيداً له يجب أن تكون هذه الاصوات التي يسمعها مقرونة في نفسه بمدلولاتها .

أنت تذكرين تلك الفتاة التي جاءت بها الى والدتها في يوم من الايام تستفتيني في أمرها ، فقد كانت شبيهة بتلك المغارات المقفرة تردد جميع الاصوات غير فاهمة شيئاً منها ، وكنت أعتقد انها لجمالها الرائع لو كانت شهدت قدماء اليونان لاتخذوها الاهة لصدى الاصوات .

لانها ـ لفرط ما أوتيته من قوة السمع الميؤس من تعديلها وغريزة التقليد المتعاصية على الترويض — كانت على الدوام ترجع ما كنت أوجهه اليها من الاسئلة بدون ان تجيب عن شيء منها ، وقد عالجتها بجميع طرق العلاج النفسية فلم يفدها ذلك شيئاً .

فأنا أخشى كثيراً ان لا يوجد بين هذه البلهاء المسكينة التي لا تفهم شيئا مما تردده من الكلام وبين كثير من الاطفال الذين يرددونه على قلة فهمهم اياه أو على فهمه مقلوبا الا فرق خفيف .

على أني أرى أن الميل الى التكلم بغير فائدة مرض من أمراض العقل عند الانسان ، فكم من نساء يجتهدن في تسرية ما يجدنه من الضجر والسآمة بأغاني ليس فيها شيء من المعاني المعيّنة ! . وكنت أعرف مسجونا كان على قصور ادراكه جدا كلما وضع في السجن المظلم عقابا له على ما كان يرتكبه من الذنوب يجتهد في مخادعة العزلة والظلام بأحاديث خالية من المعاني .

يوجد في الشعائر الدينية القديمة لكثير من الامم صيغ من العزائم والتعاويذ هي عبارة عن كلمات أو جمل مرتبة تلتذ بسماعها الاذن ولكن لو أراد سامعها البحث عن معانيها لكان محاولا عبثاً . وما لنا وللرجوع الى تلك الأزمان الغابرة نستشهد بما كان فيها على ما نقول وأمامنا كنائسنا الكاثوليكية نسمع المؤمنين يدعون الله فيها بأدعية لاتينية لا يفهم معانيها الا النزر القليل منهم .

على اني أرى أن عدم صرف اللسان عن هذه الوجهة الفاسدة واعانته على الجري في مضمارها من الامور الشديدة الخطر على العقل

فاذا لم يحترس منهما أصبحت الالفاظ خلوا من معانيها وصارت عُوَذاً للعقل .

الطفل فيه شيء من خاصية الببغاء ولا وجه للشكوى من ذلك فانه بهذه القوة التقليدية يتيسر له الاختلاط بمن حوله ومعاشرتهم ، ولكن حلّ عقدة لسانه أيسر من فتح مغلق عقله ، فالالفاظ لا تؤدي دائماً الى فهم الاشياء التي وضعت لها . وفي لغة الخرس مزية لا توجد في لغتنا معاشر الناطقين ، ذلك ان الاشارات عندهم هي رسوم للمعانى والوقائع ، وليس الامر كذلك في النطق الذي هو عبارة عن أصوات متنوعة وأجراس مختلفة كما يعلمه كل منا . ثم اعلمي ان محادثة الاطفال مما لا شك في فائدته فانها من دواعي ابتهاجهم وانشراح صدورهم ، ولكن على شرط أن تكون الكلمات وسيلة الى انتقال أذهانهم الى مدلولاتها ، فيجب عند تلقيهم للدوالّ اللفظية ان ينبهوا الى ما تدل عليه ويفهموا ما بين الدال والمدلول من الارتباط ، فبهذه الطريقة تُعَوَّد اذهانهم الاستقرار وعدم التشتت .

لست أدري لماذا نهتم كثيراً بمقاومة ما يجده الاطفال من اللذة في تقليد أصوات بعض الحيوانات ، فما أسعد حظ امرىء يكون فيه من المواهب الالهية ما يؤهله لفهم جميع ما يعيش على وجه البسيطة : ولا أقصد بقولي هذا أن من يحاول محاكاة أصوات بعض الحيوانات يفهم معنى لسانها ، ولكني أريد به أن مثل هذا السعي في التقليد يدل على ان صاحبه قد وصل الى درجة ما من النظر والملاحظة ، فالطفل الذي يحاول تقليد صوت الكلب أو الديك مثلا قد لاحظ ان في هذا العالم

مخلوقات أخرى غيره وان لها في التعبير عما في أنفسها من ضروب الوجدان طريقة خاصة بها .

اللغة الانسانية وان كانت وضعية فأصولها على التحقيق فطرية . انظري الى الاطفال تجدي لهم لغة معروفة في جميع أقطار الارض ، وهي — وان اختلفت يسيرا من أمة الى أخرى — تتألف في الاصل من أصوات آحادية المقاطع ، فاصول الكلام الملفوظ عند جميع الامم لا تخرج عن حرف ساكن وحرف لين يتكرران بحركة الشفتين مثل « بابا ، ماما ، تاتا ، دادا » وغيرها ما عدا بعض تنويعات خفيفة والطفل يقضي من دور طفوليته زمناً طويلا لا يعرف فيه اداة التعريف ولا الضمير ، وأما الفعل فلا يدرك منه الا المصدر ولا ينفذ ذهنه الى فهم صيغ الماضي والمضارع والامر وغيرها من المشتقات ، ولا يعرف من النعوت الا قليلا وأقل منها معرفته بحروف العطف فلغته شبيهة بلغات الاجيال الاولى .

روى لنا أحد السياح أنه يوجد في افريقية قبيلة يتألف لسانها من اثنتي عشرة كلمة لا غير ، وقال : ان أفراد هذه القبيلة على قلة ألفاظ لغتهم الى هذا الحد يتفاهمون جيدا فيما بينهم باضافة الاشارات الى الاصوات ، وكم يوجد من أطفال يفهمون أمهاتهم ما يريدونه بما هو أقل من كلمات تلك اللغة ! مثل تحريك الاعين أو الاشارة أو مالا يكاد يكون شيئاً يذكر مع افصاحه عن افكارهم واظهاره لمقاصدهم .

وهناك أمم أخرى تكاد تكون أمية ولكنها تبرّز علينا في علم ربط الوقائع بعضها ببعض وانتزاع الاحكام منها، فالعرب القاطنون في ما بين

النهرين (الدجلة والفرات) لا يكادون يقرأون شيئا من الكتب لانه لا مدرسة لهم سوى الصحراء، ولكن من المحقق أن البدوي منهم اذا رأى آثار الخُطا على الرمل حكم فوراً بأنها آثار انسان أو حيوان، وان كان انساناً عرف قبيلته وكونه عدواً أو صديقاً، وقدّر تاريخ مروره سواءاً كان قديماً أم حديثاً. واستنتج ماعسى أن يكون قصده من سفره وحكم أيضاً ببعض علامات يراها منتشرة فى الطريق على البعير هل كان حاملا شيئاً أو خالياً، شبعان أو جائعاً، مستجم القوى أو مهزولا، وعلى صاحبه هل هو من سكان الحضر أو البدو . فاذا تأملنا قليلا فى سبب وجود هذه المعرفة عندهؤلاء القوم ظهر لنا أن طريقة البدوي فى ربط الوقائع بعضها ببعض وانتزاع الاحكام منها هي بعينها الطريقة المعروفة فى العلوم الصحيحة .

من الجلي ان أحداً لا يسعه انكار مكانة اللغات ومالها من الفوائد فى تربية عقل الانسان ؛ ولكن مما ينبغي الأعتراف به ان الالفاظ اذا كانت تعفى من النظر فى الاشياء وملاحظتها كما هو الشأن فيها غالباً فهي مضرة بالادراك لا مفيدة له فالطفل وان قدر على تسمية الفرس بخمس لغات مختلفة لا يعرف في نهاية الامر الا حيواناً واحدا، فلو اتفق انه لم يره في حياته كان لم يعرف شيئاً .

أراك تذكرين ما اشتهر عن هاملت (١) من تعجبه من تشبث الناس بالالفاظ حين قال : ألفاظ ألفاظ ألفاظ : فهذا الامير كان درس في

(١) هاملت أمير شبه جزيرة الدينمارك المسماة جوتلاند تظاهر بالجنون ليأخذ بثار أبيه الذى قتله أخوه

المدارس ، وكأنه بهذا الاستغراب ينتقد طريقتنا فى التربية ، فان المشتغلين بهذه الطريقة يوجبون على الطفل من أجل كمال تربيته أن يحفظ أفكار غيره ويرددها ، مع أن الواجب عليهم أن يسألوه دائماً عن أفكاره ويبادروه بالحث على النظر فى الوقائع والقياس بينها وتمرين نفسه على الحكم عليها .

قد رأيت فيما سبق أن العمل هو اللازم في تربية العواطف الفاضلة وضروب الوجدان الشريفة ، فكان الواجب على المربين أن يكون مرجعهم هنا أيضاً الى العمل لاحياء جرثومة الادراك في الطفل وتلقيحها لتنتج الثمرات المطلوبة . اه

الرسالة التاسعة عشرة

﴿ من إراسم الى هيلانة في ١١ يونيه سنة — ١٨٥ ﴾

بيان أن التفكر مما يتعلمه الطفل وخطأ المربين فى عنايتهم بالالفاظ دون المعانى ووجوب تعويد الاطفال النظر والملاحظة ليتمرنوا على التفكر .

قد يسأل سائل ، هل التفكر مما يتعلمه الطفل ؟ فأجيبه : هذا ما اعتقده ، غير انه ينبغي التمييز التام بين ما يتلقاه من غيره من الافكار وبين ما يستنتجه هو منها بنظره الى الاشياء ، ونحن في تخاطبنا معه لا نفعل شيئاً سوى تأدية أفكارنا اليه على وجه التمام أو النقص ، مع أن الذي كان يجب علينا أن نصرف همتنا اليه هو ايقاظ ذهنه واستنباط

أفكاره وآرائه. فاذهان من يعاشرون الكبار من الاطفال محشوة بجمل من الكلام لا يفهمون منها فى معظم الاحيان الامعانى في غاية التشابه والالتباس، وليس شحن أذهانهم بهذه الجمل ممايني فيهم قوى الادراك والفهم بحال من الاحوال، ولكنه ابهاظ[1] لها، بما ليس من حقه أن يكون فيها. وكم لاقيت في سالف أيامي أطفالا يشتهرهم الناس بكونهم آيات في الذكاء والفطنة فرأيت ان كل ما يدّعي لهم من العقل ينحصر في انطلاق ألسنتهم بما لا معنى له من القول، وكنت عند نظري اليهم – وهم في تنوّقهم[2] وأعدادهم أنفسهم لنيل الشهادات المدرسية – يعروني من انقباض النفس وضيق الصدر مالا أجد سبيلا الى دفعه كالذي يعروك لرؤية المتصنعين المدعين ما ليس فيهم، وكنت أقول في نفسي: ان المشتغلين بتربيتهم يسلبونهم اليسير الذي آتاهم الله (سبحانه) من المواهب الخلقية بتعليمهم اياهم أفانين القول وأساليب الكلام ليسموهم بسمات العقل الذي لما يبلغوا رتبته. أما والله لو كان لى الخيار لاخترت «لاميل» أن يصدر عنه فكر ساذج ولو واحداً فقط يكون منبعثاً عن محض اختياره وكسبه؛ ولفضلت هذا على كل ذلك الزخرف القولي والثرثرة التي لا نسبة بينها وبين العقل.

اذا نظرت الى الكون رأيته مملوءاً بأناس يتكلمون بما يوجد في الكتب، فان كل من يسمعهم يذكرانه طالع فيها جميع ما يقولونه والخطأ في هذا الامر راجع الى تربيتهم لانهم قد تعلموا من نشأتهم أن يرددوا اراء غيرهم.

(١) الابهاظ التثقيل وتحميل مافوق الطاقة (٢) التنهوق الدعوى الباطلة والمجرفة

الأم بالنسبة الى ولدها هي المجتمع الانساني بل المثال الحي لآثار السلف ، ولا يشك أحد في أنها مكلفة أن تعلمه كثيراً . ولكن يجب عليها في تعليمها هذا التلميذ الصغير أن تكون على غاية الحذر من أن تلقى في نفسه الخضوع للالفاظ والاستعباد لها ، ذلك ان هذا الامر ليس من شأنه أن يفتح مغلق عقله بل فيه اغاضة لينبوع المعارف الحقيقية ، ولا بدع في ذلك فأنت ترين الناس قد سموا أعمالا كثيرة قدستها العادة فروضاً مع رفض العقل اياها وعدم تسليمها ، وترين الحق يدمغ جميع الاباطيل على التعاقب ، والقوة في كل زمن تسلب الحق ماله من موجبات الشرف والاعتبار . فمن لم يبلغ به علمه الى الاحتراس من غرور القول وباطله والسير في ظلمات اللغة الانسانية على هدى فذلك الذي يعيش دهره مفتوناً بزخرفها اسيراً في ربقتها .

فالذي يجب علينا للطفل هو تعريفه بحالة الكون المحيط به تعريفاً يكون بلا شك في غاية القصور على الظواهر والاقتصار على مالا بد له من معرفته ، فان الكون كله معان ، واريد بذلك ان كل شيء مؤثر من شأنه ان يفعل في عقل الانسان ويولد منه فكرا . ومن ظن أن الاطفال بعد انقضاء سنتين أو ثلاث من عمرهم لا يكونون مفكرين فقد ظلمهم وحط من قدرهم . نعم ان أفكارهم ليست كأفكارنا في جميع الاحوال ، وذلك مما يدعونا ايضاً الى اعتبارها وعدم اغفالها ، وقلما يوجد طفل لا يهتدي بنفسه الى مالا يعلمه القائمون عليه اياه اذا تكلفوا اقامته على طريقه . فعليهم ان يستعينوا بالتجربة والتمرين على ازالة بعض ما تقع فيه مشاعره من الاغلاط ، وان يحثوه بالاشارة والكلام على

النظر والملاحظة ، فاذا فعلوا ذلك سهل عليه بما يجريه من الاقيسة ربط الحوادث بعضها ببعض وارجاع بعضها الى بعض ، كارجاع استطالة ظل الرمح مثلا الى انحدار الشمس عن أوجها ، واصبح القياس بهذه الطريقة ملكة راسخة في نفسه على ما يفيده اياه من العلوم الاوليه ، فان في اسناد الحوادث بعضها الى بعض تعلما للحكم عليها .

الرسالة العشرون

(من اراسم الى هيلانه فى ١٠ يوليه سنة - ١٨٥)

(محاولته الهرب من السجن مع المسجونين وعدم افلاحهم
وخوفه انقطاع المراسلة)

قد هم المسجونون بالهرب من سجن . . . . . . وشرعوا في ذلك فعلا فانكشف امرهم ، وستقرئين في الصحف تفصيل هذه الواقعة وكانت الاحوال كلها مساعدة لنا على هذا الهرب ، وناهيك بليل غاب بدره ، وريح اشتدت عواصفها ، ومطر انهمرت سيوله على جدران السجن ، ولكننا أخفقنا بعد ان قطعنا أصعب العقبات واشدها ، وأوشكنا ان نفوز بالنجاة ،

وسيكون من نتائج هذه الحادثة بحسب الظاهر زيادة التشديد في مراقبة المسجونين ، وان تصير المراسلات مع ما كانت محتفة به من العوائق على خطر الانقطاع مدة طويلة ، ولست أدري هل يصل اليك

هذا المكتوب أم تحول دونه الحوائل ، وأرجو أيتها العزيزة هيلانة ان لا يوجدك عليّ هذا الامر فاني لم أستطع ان اصم اذني عن نداء الفطرة التي تدعوني اليك والى ولدنا . اه

الرسالة الحادية والعشرون

(من هيلانة الى اراسم في دسمبر سنة — ١٨٥)

بيان شغل « اميل » وان الاعمال الصبيانية ليست باطلة برمتها بل منها ما قد يكون مفيد؛

كتبت للحكومة ثلاث مرات استطلعها شيئاً من اخبارك ، فصدر في كل واحدة منها أمر رسمي باجابتي انك بخير ، وذلك تهكم وسخرية .

أنا لا أطيق هذا السكوت الذي طال أمده بيننا ثمانية عشر شهرا ، فانه قد أمضني وأحرج صدري ، ولكني أراني قد اهتديت الى حيلة لايصال مكتوباتي اليك سترى حتما ما يكون من نجاحها ، وسواء عليّ أفلحت فيها أم لم أفلح فاني لن آلو جهداً في ملازمة جدران سجنك ومحاصرتها على النحو الذي أعرفه .

انقضت كل هذه المدة ولا سلوان لي عن همي الا في « اميل » أوّه ! اني لأبذل أنفس ما عندي لمن يأتيني بكَ الساعة لتراه يغدو ويروح في البستان مكشوف الساقين الى نصفهما عاري الذراعين

مرســل الشعر ، فان شهر ديسمبر هنا كما أخبرتك فيما سبق غاية في اعتدال الاقليم ، ويقول صديقك الدكتور ان شــد أعضاء الاطفال وتقويتها بتعريضها لهواء الجو يعود بالفائدة عليهم في أبدانهم . ثم اعلم ان « اميل » غلام متعب فانه كلف بلمس كل شيء يقع بصره عليه ، فهل ينبغي منعه من ذلك ؟ وليتك ترى ما يحدثه كل يوم في البستان من ضروب الاتلاف التي كان قو بيدون في بداية الامر يتوجع منها ويشكو فلما أعيته الحيل انتهى بالضحك عجزاً ويأساً . ذلك لان ولدك له في الاشتغال طرق شتى هو مخصوص بها ، فهو يقلب الأرض بمقلب صغير من الخشب ، ويغرس الاشجار ، استغفر الله بل أظنه يبني أيضاً ولعلك تقول انه يبني له قصوراً في اسبانية [1] — لا ! وانما هو يقيم بالحصى منارات وكهوفاً . ثم ان الذي يضحكني ويسليني منه انه يسمي تلك الألاعيب شغلا وهي تسمية تشير الى ان الاطفال مجبولون على تعظيم اعمالهم في أنفسهم وتقديرها بأكثر من قيمتها ، على أن ما يصدر عن سذاجتهم وسلامة طباعهم من أنواع هذا التقدير ليس بجملته باطلا بطلاناً تاما ، فان ثمرة البلوط مثلا اذا سقطت على الارض من يد صبي صغير لم يحسن القبض عليها لا ينافي ذلك ان تصير يوما ما شجرة عظيمة (فكيف اذا هو غرسها في الارض) اه

---

(١) مثل يضربه الفرنسيون لمن يتشبث بالاماني الوهمية ويغتر بالخيالات الكاذبة

الرسالة الثانية والعشرون

﴿ من هيلانة الى اراسم فى ١٢ يناير سنة ــ ١٨٥ ﴾

أنس « اميل » بالدواجن وانسها به وتعليل انقطاع تأنس الحيوانات المتوحشة بزوال سذاجة الانسان الفطرية التي كانت تدعو تلك الحيوانات الى الثقة به

اتخذ « اميل » له خليلة ولهذه المناسبة ينبغي أن أقص عليك حادثة وقعت عندنا فارتعنا جميعاً بسببها ارتياعاً عظيما : ذلك انقو بيدون لما كان قليل الثقة بشرطة الحكومات المدنية في حفظ الانفس والاموال لما هو لاصق بذهنه من أفكار متوحشي افريقية — قد عثر من حيث لا أدري على كلبة ضخمة طويلة ، الا انها من أشد أنواع الكلاب توحشاً فسميناها (الدبة) وهو اسم ينطبق عليها كال الانطباق في شعرها الاسود وقوتها العظيمة وغرائزها العدائية ، وقد وضعت منذ شهرين خمسة جراء تماثلها لانها من حين ولادتها بدت عليها سمات الدمامة والبشاعة فاسكناها في بيت الدجاج وكان من وراء وضعها ان ان زاد توحشها الفطري بسبب حنوها الامي كما يحصل ذلك غالباً من الحيوانات الضارية ، فقد تخيلت ان تخفي جراءها في سقيفة كانت تحرس مداخلها وتمنعها بنفسها لظنها بلا ريب اننا نأخذها منها ، وقد كنت امرت بأن لا يدخل « اميل » بيت الدجاج بعد سكناها فيه لاني كنت أخشى عليه مقابلة هذا الحارس الجهنمي ، ولكن كيف

السبيل الى ذلك ؟ وهو مع كونه لم يتجاوز التهادى فى مشيته يتسلل ويتدخل في كل مكان . فنى عصر ذات يوم افتقدناه فى البيت والبستان فلم نجده ، فأرسلت قو بيدون فى طلبه ، ثم رأينا بيت الدجاج مفتوحا فلم يبق فى نفوسنا ريب في انه دخله ، ولكن ضاع بحثنا فيه سدى ، فأول خاطر مرّ بفكر الزنجيّ هو ان الكلبة افترسته وهو خاطر فيه ريح التوحش حقاً .

لم تكن دهشة قو بيدون بأقل من ذعرة اذ دخل السقيفة مخاطرا بنفسه فرأى « اميل » وقد رقد على الدبة وأخذ بأذنيها الطويلتين المتدليتين يجذبهما اليه وأكثر من هذا خروجاً عن مألوف العادة وأبعد منه عن معهودها ان ذلك الحيوان كان يتسامح له فيما كان يفعله به ويتحمل منه لجاجته في محكه بشهامة وعلو نفس لا يتصف بهما الا الآخذون بطريقة زينون [1] فلم يلبث قو بيدون ان فهم وهو مندهش ان الكلبة قد اتخذت (اميل) خليلا وأكرمت وفادته فقبلته بين أولادها ، لكنها لم تمنح الزنجيّ شيئاً من هذه المراعاة لأنها لما رأته أنشأت تهرّ وتكشر عن أنيابها زجرا له ، فرأى من الحزم الفرار من أمامها فخرج داعياً (اميل) الى اللحاق به فتبعه جزلا مبتهجاً غافلا عما كان قد اقتحمه من الخطر . ومن هذا الحين انعقد التعارف بين « اميل » وبين الدّبة ، وكأنها توهمته جروا صغيرا لم تحسن أمه لحسه

---

(١) هو المسمى بزينون السيتيومى نسبة الى سيتيوم مدينة فى جزيرة قبرص ولد فى سنة ٣٧٢ ومات فى سنة ٢٧٤ قبل المسيح وهو صاحب مذهب مخصوص فى الفلسفة أساسه الصبر على المكاره

فكانت من أجل ذلك تعتبره ممن تجب لهم حمايتها ، وتلحس ما انكشف من أعضائه بلسانها العريض ، وعلى كل حال قد ظهر لي أنها حميدة المقاصد فلم يبق لي من موجب للخوف منها على ولدي .

لم يقتصر (اميل) على مصادقة الدبة بل له أصدقاء غيرها فجميع سكان بيت الدجاج معارفه ، ومن العجيب أن تراهم فى غاية الائتلاف والوئام واست أخفي عنك أني مهتمة بهذا العالم البيتيّ الصغير ومشتغلة بشأنه كل الاشتغال .

يوجد على القرب من بستاننا بركة فيها وشل (ماء قليل) يزداد بما ينصب فيها من ماء المطر المتحلب من سطوح المنازل فخطر ببالنا أن نضع فيها بطاً ، وتعهد بذلك قوبيدون فاشترى ثلاث بطات من كفر مجاور لنا وأصبحنا نتسلى برؤية ريشها الاخضر الجميل الممثل لفلذ المعادن ونبتهج بما تبديه لنا من ضروب المرح واللعب فى الماء وبما تسمعنا من البطبطة وترينا من الائتلاف الصحيح الذي جمعها وشائجه ، ولكن الزنجيّ لم يلبث أن لاحظ عدم التناسب والتلاؤم فى تألف هذه الجماعة فانه وجد فيها ذكرين لا نثى واحدة مع أن البط على ما يظهر يميل الى تعدد الزوجات على نحو ما عليه الترك يتزوج السلطان الواحد منهم كثيراً من النساء . فمن أجل مداواة هذه العلة التى جزم قوبيدون بمخالفتها لمقتضى الفطرة [1] قد اشترى زوجاً آخر من هذا النوع بعد

(١) عجباً لقوبيدون وأمثال قوبيدون ممن يحكمون على الامور عن غير بينة ويعيبون عوائد قومهم بلا تروٍ ولا بصيرة تقليداً للاجانب ومحاكاة لهم فى مذاهبهم فليس صحيحاً ان تعدد الزوجات مخالف لمقتضى الفطرة كما يقول

أن تأكد هذه الدفعة من أنوثته وتحراها كما ينبغي وبذلك أصلح الخطأ الاول بعض الاصلاح وبقي أمر ما كان يخطر لنا على بال قبل شراء هذا الزوج فانعكس فيه تقديرنا وخاب حسباننا ، وهو استقبال البطات القديمة لهذا الزوج فانها بمجرد أن رأته ولته ظهورها مصرة على مجانبته وكلما حاول القرب منها نهرته وأوسعته نقراً ، فأردنا التوسط فى الصلح بين الفريقين فلم يجد ذلك نفعاً ، لاننا ما كدنا نفارقهما حتى عقدت الثلاث القديمات مجلساً للشورى بينها بمعزل عن الحديثتين وأنشأن يبطابطن طويلا ، ولم أعرف ما دار بينهن من التداول والتشاور بنصه لعدم معرفتي لسانهن . ولكن معناه كان ظاهراً فكأنهن كن يقلن : اننا قد سكنا هذا المكان قبلهما ، ولنا الحق من أجل ذلك أن نعتبرهما دخيلتين ، فأجدر بنا أن نُشوى على السفود شيئًا وأن نجهز باللفت طعاماً للآكلين من أن نقبلهما فى جماعتنا فنحن بط ، وأما هما فليستا الا من السقط .

موافقة لرأى سيدته وتعامياً عن حالة التعدد الفطرية التى نشأ هو وقومه فيها من عهد الخليقة الاولى بل الفطرة تقتضي بقاء نسل كل ما دب على وجه الارض من الحيوانات لاستمرار عمارة الارض والمشهود ان الاناث من كل قبيل اكثر عددا من الذكور لذلك كان ادخل فى مقتضى الفطرة وأنسب لغرضها أن يكون للذكر الواحد اكثر من أنثى ولكن الله سبحانه الذى كرم الانسان وفضله على كثير من خلقه تفضيلا لم يتركه سدى بل أرسل له الرسل يحملون له صحفا مطهرة فيها كتب قيمة حددت له الحدود فى سيرته تهذيباً لفطرته وتقويما لسيرته فأباحت له التعدد ما دعت اليه الضرورة ومنعته منه عند عدمها حفظا للنسل ومنعاً للعنت وتحقيقاً للعدل .

لما لاحظ قوبيدون أن أحد أفراد هذه الجماعة ـ وهو ذكر أبيض ذو قنزعة (١) طويلة ـ كان أشدها الحاجة في النفور صمم على ذبحه على نصب الوفاق فداء للاتحاد والتآلف فلما فعل أنتج هذا القربان ـ مع أسفي عليه ـ أثره المطلوب ، فأخذ كل فريق يتدرج في التقرب من الآخر حتى انتهيا بأن صارا جماعة واحدة ، وان كانت البطة القديمة هي السلطانة الحظية ، فما رأيك في ذلك الشمم والترفع في هذا الجنس الحيواني ؟ أترى أن الميل للسؤدد والشرف هو الاصل الثابت في الفطرة وأن المساواة بالمعنى الذي نفهمه منها أمر عارض عليها اكتسبه الانسان بالعدل

لو شئت لقصصت عليك أيضاً وقائع كثيرة في عوائد الحمام وأخلاقه هي بالنسبة اليَّ جديدة ، فقد تبين لي من النظر في معيشته في برجنا أن أموره لا تجري تماماً على ما تصفه الكتب من جعله في الجملة مثالا للصداقة والوفاء بعقد الزوجية لاني رأيت ذكراً عتيقاً متزوجاً بحمامة فتية كان حظه منها حظ أولئك الشيوخ الضعاف الذين تمثل الروايات الهزلية خضوعهم وتسليمهم قيادهم لمن يخالطونهم : فتركته في يوم من الايام واستبدلت به ذكراً فتياً متصافاً استمالها منه بلا ريب رقيق كلامه ، وجميل تحيته وسلامه ، وكأني بك تقول : أي الزوجين كان مخطئاً ؟ آلزوجة لانها طائشة وسريعة التحول والانقلاب ؟ أم الزوج لانه أغفلها ولم يراعها كما ينبغي ؟ فأجيبك انه ينبغي الحذر من المجازفة في الاحكام على غير علم ، ومن أجل ذلك أمسك قبل كل شيء عن الحكم : وأقول ان الزوج المخون على كل حال قد تلقى سقوط

(١) القنزعة خصلة من الشعر أو الريش تكون في أعلى الرأس

حرمته بعلو نفس يدل على الشجاعة الحقيقية ، فكان اذا اتفقت مقابلته لزوجته الخائنة في طريق يمرّ بجوارها بدون أن يظهر عليه أنه رآها وان يبدي أقل امارة على حنقه عليها ، الا أنه لم يكن البتة على هذا التسامح مع من اغتصبها منه لانهما عند ما كانا يتقابلان كانا يتبادلان النقر الاليم الوقع كما كان منيلاس وباريس يتبادلان الطعن والضرب في حومة الوغي [1] ولما قضت الحمامة المطلقة زمن العشق وحان وقت حضانة البيض لم تحسنها لانها ورفيقها كانا من فرط اشتغالهما بدواعي الحب بحيث لم يكن ليتيسر لهما ان يكثرا من التفكر في فروض البيت ، ولم تعزب هذه الحالة عن ذهن الزوج المهجور ، فاننا رأيناه ذات يوم يخرجهما من احدى المحاضن حيث كانا مشتغلين بتربية أفراخهما وهما والحق يقال ما كانا يأتيان بها على وجهها . وكأنه كان يقول لهما وقت اخراجهما « أف لكما أنتما لاتعرفان من التربية شيئاً فخليا مكانكما » فلم يكن الا ان خلياه بعد مقاومة ضعيفة وجعل هو يحسن العناية بشأن ادعيائه وسمة الظفر والفخر بادية على وجهه فنبهت فكري هذه السيرة الشريفة الى أمر من المحتمل ان يكون هو سبب شقائه بزوجته وهو ان صفة الابوة فيه غالبة على صفة الزوجية .

---

(١) منيلاس هو ابن اتريه وأخو آغا ممنون صار ملكا لاسبارطة بتزوجه بهيلانة بنت بندار وباريس هو ابن بريام وعقيبه وكان السبب فى انتشاب حرب تراوده الشهيرة بخطفه هيلانة زوجة منيلاس ملك اسبارطة قتل فى هذه الحرب اشيل وقتل هو أيضا بسيف بيروس

« اميل » كما لا يعزب عن فكرك يجهل كل هـذه الاعتبارات المختلفة التي لاحظتها في معيشة الطيور ، وبودي ان لا يفهم كل مافيها وانما الذي أعجب به هو ما استقر بينه وبين معظم سكان بيت الدجاج من الالفة والارتباط . هذا واننا كثيراً ما تساءلنا عن السبب في ان تأنيس الحيوانات كاد ينقطع من عهد ان وجدت المجتمعات المدنيـة ، ولا شك أن علة ذلك ليست هي أعواز الحيوانات المتوحشة ، فان في الصحراء كثيرا من أنواعها النافعة التي يكون من فائدتنا الظفر بها لو زال المانع من ذلك ، فاذا كان الامر كما أقول فقـد يكون السبب في وشـك انقطاع التأنيس هو كون الانسان في عصرنا الحاضر لم يبق فيه من سذاجة الفطرة ما يكفي لثقة الحيوانات المتوحشة به وان صفات الطفولية هي اللازمة لذلك . اه

الرسالة الثالثة والعشرون

﴿ من هيلانة الى اراسم في ١٤ يناير سنة — ١٨٥ ﴾

تأثير الجمال في الاطفال واحتياجهم الى كثرة التعلم

لاحظت ان اميل كلما صحبني الى دار السيدة وارنجتون ووجـد هناك نسوة من المدينة اصطفى لمعرفته منهن عادة أحسنهن خلقاً ، وربما دل ذلك على ان للجمال تأثيراً في نفوس الإطفال .

وبدا لي منه أيضاً أنه يحب الشيوخ ولعل السبب فيه احتياج

الاطفال الى كثرة التعلم وميل الشيوخ الى الاكثار من التكلم .

لكن لا يدعونك هذا الى أن تتصور فيه أنه مثال لا ترابه ، علي أنني لا أريد أن افتات عليك بالحكم في هذا الامر فأدعه لك تحكم فيه بنفسك . أنا ألوم نفسي وأبكتها على استمتاعها دونك بما تجده في منتآي من السكينة والدعة ، وقد عزمت من أجل هذا على أن أبذل نفسي لك كما بذلت من نفسك فاستأجرت مخدعاً في سفينة ستقلع من بنزانس الى . فعليك اذن أن ترتقب لقاءنا . اهـ

الرسالة الرابعة والعشرون

﴿ من إراسم الى هيلانة في ٢٠ منه سنة - ١٨٥ ﴾

أخبارها بصدور أمر بنقله الى سجن آخر
واقناعها بالعدول عن السفر اليه

ترددت حيناً في الكتابة اليك لاني لم أجد في نفسي من الاقدام ما يبعثني على إخبارك بآخر بلاء أصابني وأنا على ما اعلمه الآن من أنك قد تطالعين خبر هذا البلاء في الصحف أفضل أن انبئك به على كل حال ؛ ذلك انه قد صدر من حيث لا أدري أمر بنقلي ....

ليس شأني كما تعلمين شأن المقضي عليه بعقاب فهو يذوق عذابه لان هذا في قبضة القانون ، وأما أنا ففي قبضة القوة تصرفني كيفما شاءت ، فلست أدري من ذا الذي قضى عليّ وأمر اتهامي سر يعلمه

الله ، واذاسألت : ماذا يراد بي ومتى وأين ينتهي عقابي وهل هذا النقل الحديث آخر مرحلة من مراحل سفري الاليم الممض ؟ فلا أجد جوابا لواحد من هذه الاسئلة .

على انه لا ينبغي ان ترتاعي لهـذه المحنة الجديدة فالبحار تعرفني وأنا أعرفها ولاعتيادي المعيشة في أقاليم مختلفـة أصبح في استطاعتي احتمال حرارة الشمس ورطوبة السواحل .

وعليك الآن ان تكفي عن التمسك بأمل اللقاء فان بيننا بحراً كالصحراء وأرضين وبيئة ، وان تبذلي نفسك في سبيل تربية ولدنا ، وعلينا جميعاً أن نداب في عملنا وان نتلقى كل ما يعترضنا من العقبات بعزيمة صادقة وقصد ثابت .

أرجو موافاتي باخبار « اميل » متى تيسر لك ذلك .

فيما انطوت عليه أحشائي أمران لو اجتمعت قوى البشر على ان تسلبني اياهما لردت بالخيبة والخسار الا وهما فكري وحبك ، فيكفيني ما لديّ من البراهين اليقينية على اني محق في تقويتي على احتمال ما ابتليت به من الاضطهاد والظلم . اهـ

الرسالة الخامسة والعشرون

(من هيلانه الى اراسم فى ٦ مايو سنة — ١٨٥)

تعليم الاطفال الصدق والاحسان والرحمة بالحيوان والعدل فى المعاملة واحترام الزمنى بالعمل والممارسة دون الحفظ والتلقى

كانت عاقبة جدي في السعي ان فزت بوصل حبل المراسلة من وراء ما بيننا من المسافات الشاسعة بعد طول انقطاعه ، ولست أعد من الترسل ما تناوبناه منذ ثلاث سنين من المكتوبات [١] غير المهمة التي كان دأب كل منا فيها الاقلال من القول جهده ، فانا محتاجة في تخاطبي معك الى مناجاة قلبك بفكر تام الاختيار وضمير كامل الحرية

لا أرجع الى ما مضى من الحوادث فالكلام فيه عديم الجدوى وانما أقول :

اني قد عراني لخبر نقلكَ من سجنك الى غيره من الألم ما لج بي في التصميم على اللحاق بك لحاجة لم أحس بمثلها من قبل ، ولم يمنعنى من المضي معها سوى ما غلبنى من الاحساس بوجوب طاعة أمرك وسماع نصائح صديقك الدكتور ورعاية مصلحة ولدنا فانصعت لذلك الاحساس آسفة مرتقبة تحقيق أملي في اللقاء

علمت مما سبق من رسائلي ما عليه (اميل) من صحة البدن ،

(١) هامش الاصل — لم نورد تلك المكتوبات التى ذكرتها لانا لم نر فيها مصلحة للقارىء فان أكثر فائدة فيها انما هى تكميل عدد الرسائل

وأريد الآن أن أحدثك عن تقدمه في اكتساب العلم فأقول : ليس ولدنا بدعا من الاطفال — وهو أمر أعترف به وانا في غاية الإستكانة والغضاضة — بل يجد الناس هنا فيه شيئاً من توحش سكان أطراف العالم ، ولكني أحبه كما هو لاني أرى جميع مافيه منبعثاً عن الفطرة ، ولم أعْنَ حتى الان بتعليمه مواضعات المعاشرة وآداب الاختلاط لان جل عنايتي كان مصروفاً الى النظر في أخلاقه وأحوال نفسه والاجتهاد في تقويم طبعه وتربية ادراكه : وسأسرد لك من تجاربي معه ما تحكم به على مبلغ نجاحي في ذلك .

لاحظت أن فيه نهامة وهي عامة في جميع الاطفال فلم يسلم منها أحد منهم ، ولكن قد أتت علي معه ساعة ارتعدت فيها فرائصي خوفاً عليه من تلوث نفسه برذيلة أفظع من النهامة وأشنع منها كثيراً ألا وهي الكذب ، ذلك ان جورجية كانت تخبز ذات يوم قرصا فطيراً فلما استوى أخرجته من الفرن ووضعته ساخنا على الخوان[1] ثم دعتنا شؤون مختلفة للخروج الى البستان فتركناه وخرجنا الا « اميل » فقد لاحظت منه أمراً دهشت له وهو اجتنابه الذهاب وراءنا . فلما عدنا الى المطبخ لم نجد للقرص أثرا فاستولت عليّ ريبة شديدة في أمره ، ولكنني تجاهلت السارق والتفت الى جميع الحاضرين مظهراً اني أخاطب كلهم فقلت : ليت شعري من ذا الذي أخذ القرص من فوق الخوان ؟ فاما قوبيدون وجورجية فانهما لم يبسا بكلمة لعلمها البراءة من نفسيهما وأما « اميل » فلما لم يكن شأنه كذلك لم يسعه الا أن خجل وصاح

(١) الخوان بالكسر المائدة

قائلا : هي الدبة التى أخذته

فلما سمعت منه هذا الجواب انجرح فؤادي غما ، وأنت تعلم من أحد مكتوباتى السالفة أن الدبة هي كلبة البيت ، ولما أعلمه بينه وبينها من الالفة والارتباط رأيت أن هذه فرصة سنحت لايقاظ وجدان العدل في نفسه فصممت على اغتنامها وقلت ان كانت الدبة هي الآثمة فلا بد من جلدها ، وأشرت الى قوبيدون بتنفيذ هذا الحكم وكنت كل هذه المدة أتأمل في وجه « اميل » وأحس بأن فؤادي يطير شعاعاً ، ولا غرو فأي شيء كنت أرجوه منه اذا كان أصر على الكتمان وانكار الحق ؛ أدرك الزنجي بلا ريب موجب جزعي وفهم ما قصدته فتقدم الى الدبة المتجنى عليها تلوح عليه سمات جلاد ممن تمثلهم القصص المحزنة ، وكانت قد بدت عليها منذ حين علائم الانس بمن في البيت والسكون اليهم لفراغها من اداء واجب العناية والحماية لجرائها ، وكأنها أدركت جميع ما حصل لانها كانت تنظر الى « اميل » نظر المستعطف الآمل ولسان حالها يخاطبه بقوله « أهكذا تدعنى أعاقب ظلماً ؟ فاضطرب الغلام من هذا النظر ثم اجهش بالبكاء واستلق بين يدي قائلا : كلا ! ليست الدبة هي التي أخذته بل أنا الآخذ ! : عند ذلك سرّيَ عني ما كان أبهظ نفسى من متراكم الكدر ، ولكنني رأيت ان من الواجب عليّ فى هذا المقام الثبات وعدم التعجل فى اظهار الحنوّ فصحت قائلة له . من حيث انك تجنيت على الدبة ما لم تجنه فهي التي ينبغي الرجوع اليها في طلب العفو ، ففهم انه في الحقيقة قد فرط منه في حقها هفوة يجب الاستقالة منها ، فعمد الى جيب صدرته فأخرج

منه نصف القرص لانه لم يكن تيسر له أكله كله ومد يده به اليها قائلا خذى ، فتدللت عليه فى بداية الامر ولكنها لما رأت ان استماحته العفو منها صادرة عن قلب سليم ازدردت تلك اللقمة اللذيذة وسمات الرحمة والبشر بادية على وجهها ، فبعثنا ذلك على أن قهقهنا جميعاً .

أنا وان كنت لا أقوّم طاعة الاطفال لوالديهم بأكثر مما تراه فيها أجدني فى بعض الاحيان مضطرة اضطرارا شديداً الى قمع أهواء « اميل » والحيلولة بينها وبين الوصول الى ما قد يضره ، ورأيت من الواجب عليّ ان أستعين فى هذا الامر باستعداد فطريّ يوجد قطعاً فى جميع الاطفال على السواء . ذلك أن « اميل » لما يحصل فى ذهنه من حوادث العالم الخارجي الا صورة مبهمة ، فتراه يعتبر ما يتعاصى عليه من الاشياء ولا يوافى رغبته ذا قوة متمردة وارادة متصرفة . خذ لك مثلا وهو ان له كلفا بأن يقلب مربعاً من البستان بمقلب صغير ، فاذا باشر هذا العمل سلاّني وأضحكني منه ان أراه يسحق ما يخرج من المدر برجليه الضعيفتين مبدياً دلائل الابتهاج بالظفر كانما فى كل مدرة منها عدو له قد أرغمه وأذله ، واذا اخترق الاسوجة النباتية فأصابه فرع منها فى وجهه تناوله بيده وجعل يهزه ويعبث به ولسان حاله يخاطبه موبخا له بقوله « علام تؤذيني أيها الغصن الحقير » وانى لاخاله يجلد البحر اذا اغرق مركبه الصغير على نحو ما فعل به كزرسيس [1]

(١) كزرسيس هو ابن داريوس الاول أحد ملوك الفرس خلف أباه سنة ٤٨٥ ق . م ومات سنة ٤٧٢ ق . م أراد اتمام فتح البلاد اليونانية الذى كان شرع فيه والده فارسل اسطوله اليها فاضطرب البحر واغرق قنطرة كان قد

هذه الشكاسة التي فى الاشياء — وانما أسميها بذلك موافقة لافكار الاطفال — تدعو « اميل » الى اظهار الطاعة للكبار الذين يعلمون من نواميس الكون وسننه أكثر مما يعلم . فان خضوع العالم لتلك النواميس والسنن هو الذى ألزم الانسان المحافظة على رعاية أحكام التجربة واقتفاء آثار السلف ، ولذلك قد اتفقت مع قويدون على طريقة بها يعاقب « اميل » كلما عصى أوامري وأغفل الاخذ بنصائحي بحيث اني لا أتولى عقابه بنفسى بل أكله للجمادات المحيطة به ، فانه بذلك يعتاد أن يلتمس فى الطاعة جُنة[1] تقيه شر ضعفه وشر ما للفواعل الكونية من الطغيان والعتو .

جريت معه على هذه الطريقة بعينها فى ضرب آخر من ضروب سيرته ، واني وان لم أصل بها فى جميع الاحوال الى النجاح المقصود إخالني على الطريق الموصلة اليه ذلك انى رأيته شغفاً بالاندلاق من البيت ، وكثيراً ما أنذرته بان فى خروجه منه وحيدا ضرراً عليه فلم يجد ذلك نفعاً ، فلما رأيت منه قلة الاصغاء الى نصائحى فى هذا الامر أوعزت الى قويدون بأن يغري به بعض أطفال القرية فكانوا كلما رأوه فى الخارج تظاهروا له بأنهم يحسبونه وليداً أضل بيته وقبضوا عليه وردوه اليّ قهرا ، فأدرك من ذلك الحين الموعظة التي أردت أن أعظها اياه وهي ان الانقياد والطاعة أمثل من القسر .

على انني رأيتني قد عرفت فيه انه لم يخلق لان يعيش وحيدا ولا

اتخذها من السفن فأمر بجلده ثلثمائة جلدة كما يعاقب الاسير العاصى

(١) الجنة بالضم الوقاية

لان يقضي جميع زمانه مع الكبار لانه ما دام ذا عقل وكان مقصوراً على مخالطتنا يشيخ قبل بلوغه سن الشيخوخة ؛ واما اذا اختلط بلداته وعاشر اترابه أشرق في وجهه نور الفرح بابتهاجهم ، وسرى الى نفسه روح السرور منهم ، ولهذا رأيت من مصلحته أن يتخذ له رفقاء من أطفال القرية جعلت أمر اصطفائهم موكولا اليّ حتى لا يكون له فيهم أسًى سيئة ، ولم ألاق في هذا الامر صعوبة لان الناس هنا لاشتغالهم طول النهار بتحصيل رزقهم يرون في تسليم أطفالهم لمن يقوم بشأنهم تخفيفاً من حملهم ، فاصبح بيتنا من هذه الجهة شبيهاً بملجاءٍ من ملاجيء الاطفال . اذكر لك من اخصاء « اميل » اثنين فقط وهما غلام اسمه « وليم » يكاد يساويه في سنه ، أعني انه في الخامسة أو السادسة من عمره ؛ وفتاة في السابعة من عمرها عليها مخايل الحسن تسمى « ازابلا » ولكن الناس يختزلون هذا الاسم اختزالا لا شبهة في وجه مناسبته فيدعونها بلاًّ (كلمة تليانية معناها جميلة »

أخص ما أعنى به في شأن أولئك الاطفال الثلاثة هو ايجاد رابطة اختلاط وعشرة بينهم فتراني اذا صرحت لهم بالانطلاق الى التنزه أوزع عليهم ثلاثة أصناف من الطعام، ولكني أراعي في هذا التوزيع أن يكون الخبز كله لواحد منهم واللحم البارد مثلا للثاني والفاكهة للثالث فاذا حانت لهؤلاء المتبطلين ساعة اشتهاء الاكل – وقلما تتأخر لانهم يأكلون أكل صغار الذئاب — دعا من نال الخبز منهم رفيقيه الى مقاسمتهما اياه على شرط ان يقاسماه أيضاً ما معهما من اللحم والتفاح مثلا فتقبل منه هذا الدعوة عن طيب نفس لان لكل منهم مصلحة

فيها ، وبهذه الطريقة يتعلمون بالغريزة الجرى على سنة المعاوضة التي هي على ما أرى حقيقة معنى المساوة .

من أصول الرذائل الخبيثة التي أصرف في استئصالها من نفس « اميل » جل اهتمامي الاثرة فان الاطفال مجبولون على الاستئثار بكل شيء ، وهذا الاستعداد الفطريّ مبني في الغالب على الشره والحرص ذلك ما أراني لاحظته فيهم وأود ان أكافحه وأغالبه . ومما رأيته أنه لا ينجع فيه زخرف القول وبلاغة المنطق ، وان الواجب عليّ — كما رأيت — فأصبت ان أشخص لولدى ما أسوقه له من العبر في الاعمال ولعلك سائلي عما فعلته للوصول الى هذه الغاية فأقول : انني انتقيت من بين الاشجار المثمرة في بستاننا ثلاثاً جعلت لكل من غلماني واحدة منها مدة السنه ولكوني أنا التي توليت توزيعها عليهم أعطيت « لاميل » كرزة « ولوليم » خوخة « ولبلا » اجاصة طعمها قوبيدون ولما تثمر واحدة منها لتأخر فصل الصيف ، وأنا والحق أقول في شك من وفرة احمالها هذه السنة . وعلى كل حال أرى ان هؤلاء البستانيين الصغار الثلاثة مهتمون بملاحظة ما وضعوا عليه أيديهم ؛ وقلما يفترون عن ذود الدود وغيره من الحشرات المهلكة عنه . وليس يبعد على « اميل » في ابان الكرز أن يأكل جنى شجرته جميعه دون ان يعطى منه شيئا لرفيقه . ان فعل ذلك فصبراً لانه لا بد ان يأتي يوم مقايضة الجزاء بمثله . ذلك انه متى أنشأ الخوخ والاجاص ينضجان ذكر « وليم » و « بلا » معاملة « اميل » لهما وقابلاه بنظيرها مالم يكونا أكرم منه نفساً وأسخى كفاً فيرضيا مقاسمته ما لهما على ما فيه من الميل مع الاثرة

وفي كلتا الحالتين عقوبة له .

من السهل كثيراً على الاطفال أن يدركوا معنى الملك في حق أنفسهم، ولكن من الصعب جداً إقناعهم بأن للغير ملكا يجب احترامه .

يشهد لذلك ما سأقصه عليك وهو ان مما يزرع في انكلترة الرواند وهو نبات بهي المنظر شديد النمو ، يعرف في مزارعه بعرض أوراقه وعلو سوقه، يدخله أهل هذه البلاد لندرة الفواكه عندهم في عمل أقراص ومربيات يغالون بها كثيراً سواء أخطأوا في هذه المغالاة أو أصابوا فترى اطفال القرى بسبب بقاء أذواقهم على حالتها الفطرية كلفين بأكل هذا النبات حتى انهم لا يحتاجون في تعاطيه الى تسويته بالنار ولا الى ادخاله في الاقراص بل هم يأكلون سوقه الغضة فجة ويجدون لها طعماً مزا من أجل هذا حصل ان تلاميذي (لاني اعتبرهم كذلك) بينما كانوا يتنزهون وحدهم في ضواحي بنزانس لمحوا حقلا من حقوله فحركتهم اليه كما حركت حمار الاسطورة [١] دعوة الفرصة لهم الى اغتنامها

(١) تشير الى حكاية الحمار والكلب من اساطير لافونتين وها كها منظومة من كتاب العيون اليواقظ :

عطارنا واسمه فلان قد خانه الدهر والزمان
سافر من داره بجحش واسم ذا الجحش مرزبان
واتخذ الكلب حين ولى والكلب ذا اسمه أمان
فحصلوا غابة فحطوا لراحة زانها المكان
ونام مولى الجميع لما رأى مروجا بها الامان
أما الحمار اعتراه جوع وحوله الند والنبات

وغضوضة النبات وطراءته وبعض نزغات الشيطان ، فلم يكن الا أن تخطوا ما يحيط بالحقل من الحواجز الواهية ثم انقضوا بقوتهم على بعض أشجار منه رأوها أطرى من غيرها فأكلوا منها كفايتهم ولكن لم يلبث وجدانهم بعدُ أن أخذ يناجيهم فيما ارتكبوا ، فقال « اميل » وقد بدا خجله . أتحسبان أننا قد أحسنا فيما فعلنا فاضطر رفيقاه الى الاعتراف بأنهم جميعاً قد أساؤا

ثم استأنفوا الكلام فقال « وليم » قول القدرى الرزين . لقد كان ما كان فلم يبق فى قدرتنا اصلاحه . فأجابته « بللا » — وهي لكونها أكبر منه سناً أعرف بطرق المعاملات منهما ـ « بلى إن لنا سبيلا للخروج من تبعة هذا الخطإ لانه يصح لنا فى كل حال ان ندفع ثمن ما اتلفنا » فكان لما قالته لرفيقيها لمعة ابتهاج أشرق بها ضميرهما لانهما عولا على اصلاح التلف وبذلك يؤبون الى بيتهم هادئى البال .

فصار يرعى وما توانى — وآن من حظه الاوان
قال له الكلب ياحبيبى — الخبز فى الخرج والدهان
ارقد على الجنب منك حتى — آكل فالجوع لى هوان
فاطرح القول ثم ولى — ولم يطاوعه مرزبان
ولم يدم ان أتاه ذئب — له للطع الدما لسان
فقال للكلب قم اليه — فاننى معك لا أهان
قال له الكلب كيف هذا — لافاتك الضرب والطعان
احرمتنى الاكل فى نهارى — والجوع لاشك ترجمان
ذق غصة الموت وامض عنى — فالموت اولى به الجبان
واغتاله الذئب وهو يجرى — ولم يدافع ولا أمان
وهكذا فى الاصول قالوا — كما يدين الفتى يدان

على أنهم لم يلبثوا ان وقعوا فى حيرة عظيمة لانه لم يكن مع وليم و « بالا » من النقود فلس واحد . واما « اميل » فانه كان غنياً بوجود بني [1] (عشر سنتيمات) فى جيب صدرته ولم يتردد فى اخراجه ليدفعه ثمناً لما أكلوه ، ولما لم يروا في الحقل أحـدا يقوم مقام مالـكه في قبض الثمن أدتهم سذاجتهم الى ان وضعوا قطعة النقد على ورقة عريضة من أوراق الراوند وانصرفوا .

علمت بتفصيل هذه الواقعـة من بدايتها الى نهايتها من الجناة أنفسهم لاني لما كنت لا أعاجلهم بالعقاب على مايقترفونه كانوا يحسبونني كاحـد معلمى الاعتراف فيقرون لى بما يقترفونه من الذنوب طيبة به أنفسهم ، ولما خفت ان يكون ما تركه الاطفال من الثمن غير كاف فى تعويض ما أتلفوه تراضيت مع المالك على قيمته ودفعتها له على انهـا لم تـكن كثيرة ، وبذلك حسمت هذه المسألة بنفقات قليلة وكنت أبذل ما يطلب مني فى مقابلة ما أشرق فى بصائر أولئك النهابين الصغار من بريق العدل في الوقت المناسب له . ولو كان « اميل » هو الذي صدرت منه فـكرة رد قيمـة ما سلب لـكان سروري بذلك أعظم ، — كما لا أخفي عنك — وفرحي به أكبر ، على ان له فضلا ببذل ما كان معه على قلته

كيف يكون تفهيم الاطفال ان كل ما ينبت على وجـه الارض ليس مباحاً لجميع الناس ؟ .

---

(١) البنى عملة انكليزية هى جزء من اثنى عشر جزءا من الشلن الذى هو جزء من عشرين جزأ من الجنية الانكليزى وقيمته بالعملة المصرية أربعة مليات

أرى ان من أحسن مدارس الاخلاق للصغار الذين هم في سن « اميل » المدرسة الخلوية فانه يتعلم فيها من نظره الى ما ينهمك فيه أهل القرى من الاشغال الشاقة أكثر مما يتعلمه بجميع البراهين الممكنة ، لانه يرى في كل يوم أن القمح لا ينبت الا اذا بذرت الناس حبوبه ، وأن أجود أرض لا تصلح للزراعة الا اذا قلبت وحرثت .

ثم ان الحيوانات أيضا تعلمه اختصاص كل منها بما يملك . أذكر من ذلك مثلا فأقول : يوجد في ضواحي بنزانس على شاطيء جدول يجري بعض أميال ثم ينصب فى البحر لفيف من الاشجار يحوم على واحدة منها فى غالب الاوقات طائر يقل وجوده فى هذه الناحية وهو المسمى عند الانكليز بملك جوارح الطير : وعند الفرنسيين بالخطاف الصياد (لعله الذي يسمى بالعربية الزُمَّج)

لفت هذا الطائر الجميل أنظار أولادنا في أول الامر ببهاء لونه ، ولكني نبهتهم الى أن شهرته بالمهارة في كسب قوته ، ليست بأقل من شهرته بجمال سرباله ، ذلك لان هذا المسكين يكد في كسبه وينصب فانه يجثم ساعات كاملة فى مكانه أي وراء غصن من الاغصان يحجبه عن الاعين ولا يعترض بصره حيث يراقب كما تعلم بعينيه اليقظاوين اللتين لا يفوتهما فائت مرور السمك فى الماء ، فاذا سنحت له واحدة منها انقض عليها انقضاض السهم واصطادها ثم ارتفع بها معلقة فى منقاره القوي الى محله . وبعد ان يمزقها كل ممزق ويلتقمها يعود الى ما كان فيه من الترقب الشاق لعلمه أن الحظوظ نادرة ، وان شهوة الطعام حاكمة عليه . فى ذات يوم شهد الاطفال قتالا عجيباً وقع بينه وبين

جارح اخر أراد أن يختبس [١] ثمرة صيده فلم يلبث « اميل » ان فهم ان هـذا الطائر الثانى هو السارق لانه أراد أن يسلب خصمه ما كسبه بجده وسعيه .

من العواطف التي أريد أيضا أن أغرسها في نفس ولدنا احترام ما يصيب الناس من العاهات . وقـد رأيت ان القاء المواعظ عليه في ذلك مما يضيع به الزمن عبثا ، ولاحظت أيضاً ان كثيراً من الآباء والامهات يخطئون بتمثيلهـم عيوب الخلقة وضروب التشوه الفطري لاولادهم فى صورة عقوبات الهيـة ، ومن الامثال على ذلك ان فتاة تسكن النزل الذى أنا فيه شبت على هـذه الاوهام الشنيعة فكانت تعتقد اعتقاداً راسخاً في عجوز من جيراننا شوهاء قوساء ان الشيطان يسكن حدبتها . فالذي أريد اقناع « اميل » به هو عكس ذلك بالمرة . أريد أن أفهمه من غير افراط فى تنبيه عاطفة الشفقة فيه ان من سلبهم الله من عباده محاسن الخلقة عوضهم منها مواهب لم تقسم لغيرهم . علمت بأنه يوجد على مقربة من قرية مرازيون غلام اكمه يعيش من ثمرة كد والديه اللذين هم من صلحاء الفلاحين ، فرأيت فيه فرصة حسنة لتجربة الفكر الذى تصورته ، وطلبت من تلاميـذى الثلاثة أن يقبلوه رفيقا لهم فرضوا بذلك لانه متى كان المقصود للاطفال التسلى والانشراح لا يعتبر عـددهم كثيراً بالغا ما بلغ . وقد يكون لرضائهم بصحبته سبب آخر وهو أن الانسان لا يكره مطلقا أن يكون له رفيق يظهر علو درجته عليه لعلة فيه ككونه محروماً من بصر يضيء له سبيله وان كان

(١) الاختباس الخطف

ذلك الرفيق في الحقيقة أشد منه قوة وأكبر سناً ، فاننا كثيراً ما نشوب حنوناً بشيء من الكبر والصلف ، والاطفال مثلنا في ذلك وان لم يكونوا عالمين به على انه لا حاجة بي الى استقصاء أسباب أعمالهم .

يتسلى عرمة الاطفال هنا في فصل الربيع باصطياد طائر من الطيور الخاصة بكرنواي وهو الغراب الاعصم[1] ولكون هذا الطائر نفوراً في حالته الفطرية تراه لا يسكن غالباً الا الاماكن المهجورة ولعله بشدة رغبة الناس فيه لندرته يدعوه ادراكه الى ان يتخذ وكنه[2] في وسط مالا يكاد ينال من الصخور ، ولكن الصغار البحاثين المنقبين لا يفلت شيء من أيديهم ، فبعضهم مدفوع في بحثه بما فيه من حب الاستطلاع ، وبعضهم يحركه الى ذلك طمعه في الربح لان هذا الغراب غالي القيمة ثم ان أكثر وجوده في ضواحي بنزانس بالشعاف[3] الوعرة المنتشرة حول خليج الجبل حيث يعتصم في صخور الصوان المتصدعة المنقلبة بسبب ما انتابها في غابر الازمان من الرجفات والزلازل . ويوجد بالقرب من هذا المكان المنعزل الوعر قرية للصيادين تدعى (موس هول) ومعناها جحر الفأر وانما سميت بذلك لتعلقها على الساحل كأنها جحر فأر في جدار .

أنا لا أستحسن بحال صيد هذا الطائر لاسباب مختلفة ، ولكني ربما توهمت ان في التعجيل باظهار مذهبي في ذلك لتلاميذي خروجاً عن

---

(١) الغراب الاعصم هو الاحمر الرجلين والمنقار الذى فى جناحه ريشة بيضاء
(٢) الوكن بالفتح عش الطائر فى جبل أو جدار أو مقره فى غير عش
(٣) الشعاف جمع شعفة وهى القنة أى الرأس

مقتضى السياسة والحزم لانهم يرون لهم أسًى فى أطفال القرية تحركهم الى هذا الفعل ، ومن أجل ذلك لم أمنعهم من الذهاب للصيد . فانطلقوا فى بكرة ذات يوم يصحبهم الاكمه ويتبعهم قوبيدون من بعد على غير مرأى منهم لخوفه عليهم أن يحل بهم خطر فى تسلقهم الصخور . وكان وليم وبللا يتناوبان العناية بشأن الاكمه المسكين ويقودانه فانقضى نهارهم على ما يرام ولم يكن تنزههم على القنن الصوانية الا سبباً لازدياد شعورهم بعلو درجتهم على الاكمه لانه كثيراً ما كانت تزل قدمه فى أقل العقبات . وقد أنستهم كثرة اشتغالهم انقضاء الزمن بحيث انهم لم يفرغوا من تناول طعامهم الشظف الذي تناولوه معاً حتى رأوا الشمس على وشك الغروب فدهمهم الليل وهم لا يزالون على مسافة بعيدة من البيت وكان أصعب ما عليهم في ذلك الوقت تمييز طريقهم الذي صعدوا الجبل منه ، فلما رآهم قوبيدون في هذه الحيرة اشتدت رغبته فى أن يظهر لهم ويسكن روعهم ولم يمنعه من ذلك الا اخلاصه فى اتباع ما أرشدته اليه فانتظر حتى يرى كيف يتخلص هؤلاء التائهون من ورطتهم

أتدري انه لما جن عليهم الليل انعكس الامر فيهم كل الانعكاس فأمسى الاكمه بصيراً لانه بما حفظت ذاكرته ودقة لمسه (التي هي من خواص العمي) من مواقع الطريق ميز الشعاب التى مرّ بها فى الصباح كل التمييز فبات قائداً بعد ان كان مقوداً . فلما رآه الاطفال على هذه الحالة يسترشد فى الطريق بأطراف أصابعه كأن له فيها أعيناً كادوا يعتبرونه فى ذلك الوقت أرقى منهم فهم فى ذلك كالمتوحشين يسهل انتقالهم من شعور متجاوز حده الى شعور آخر ليس أقل منه خروجاً

عن الحد وقد يدلنا هـذا على أن عبادة بعض الشعوب القديمة لذوي العاهات من الناس مبنية على مثل هذا السبب .

على أن ميل (اميل) ورفيقه الى الاتيان بمثل ما أتى به ذلك الاكمه قد بعث فيهم روح الاستطلاع . فالموهبة التى أوتيها الاعمى قد يصح لغيره من البصراء أن يكتسبها بالتمرن لانك ترى الاطفال يدلهم حدسهم الفطري على بعض طرُق من شأنها أنها تنمي فيهم قوة السمع ودقة اللّمس أكثر من غيرها ، فمن ذا الذي اخترع اللعبة المسماة بالمسة ؟ [1] لا إخال أن مخترعها هو حاوي[2] أو غـيره من أعضاء المجتمع العلمي (اكديميه) فان هذه اللعبة التى يسميها الانجليز هنا جلدة الاعمى ليست الا تعاميا تتعرف به الطرق التي للاعمى فى معرفة ماحوله . أنشأ (اميل) ورفيقاه يمارسون فيما بينهـم كثيراً من الالعاب وطرق التدرب التى تقتضي الالتفات وأعينهم مغطاة ومع كون الفضل كله للابصار بالعينين كانت أنوتهم التى هيجها فيهـم ما رأوه من فعل الاكمه توحي اليهم أن النظر الدقيق هو النظر باللّمس ، وأنا فى شك من أنهم ينالون من هذه الجهة بكسبهم ما للاعمى من النظر الطبيعي ولو قضوا في مزاولة ذلك

---

(١) المسة لعبة . للاعراب يقال لها الضبطة فاذا وقعت يد اللاعب من الرجل على بدنه أو رأسه أو كتفه فهي المسـة واذا وقعت على رجله فهى الاسن — كذا فى معاجم اللغـة ويظهر أن هذه اللعبة طبيعية توجد عند جميع الامم ولها كيفيات وأسماء كثيرة

(٢) حاوى واسمه والنتين هو عالم فرنسي ولد فى سنة ١٧٤٥ م ومات سنة فى ١٨٢٢ م استبدل بالحروف الخطية الحروف المجسمة لتعليم أحـداث العميان القراءة والكتابة وأسس مدرستهم المشهورة فى باريس

طول حياتهم ، غير انه من فائدتهم ان يتعلموا في اللعب ما بين المشاعر من التعاون وقيام احداها محل الاخرى ، ولست أنسى ما كنت تقوله لي كثيرا من انه لا يعرف طرق السمع والبصر حق المعرفة الا من تعاوره الخرس والعمي .

يجب عليّ الآن ان أعود الى ما كنت بصدده من حكاية اصطياد الغراب الاعصم فأقول : لم يعثر الاطفال على وكن ما في الصخور وذلك لان (اميل) ووليم لايزالان من الضعف بحيث انهما لا يستطيعان الوصول الى الشعاف الوعرة التي يلجأ اليها ذلك الطائر ، واما بللا فلكونها بنت رجل يدين بمذهب المرتجفين [1] ترى ان استلاب أفراخ الطير من أمها من فعل الشر . هذا المذهب الديني كما لا يخفى عليك يورث أصحابه ميلا عظيما للاحسان الى الحيوانات . ولكون قوبيدون أقل تحرجا منها في هذا الامر وأحرص دائماً على فعل ما يرضى (اميل) كان أمهر منهم أو أسعد حظاً فى بحثه لانه بتلك الخفة في التسلق التي تمثل انسان الآجام فى شخصه كان قد اصطاد من بين القنن الصوانية والادغال زوجاً من هذا الطائر صغيراً نبت ريشه لكن أجنحته لما تطل لتستطيع الطيران ، فلما رأى الاطفال الزنجي

---

(١) المرتجفون لقب لجماعة الاخوان فى انكلترة وهم طائفة من رجال الدين أنشأها جورج فوكس المولود فى سنة ١٦٢٤ م . وأول من لقبهم به هو جورج بنيت فى دربي (من أعمال انكلترة) لان جورج فوكس المذكور خاطبه وخاطب من حضروا معه بقوله : ارتجفوا اذا سمعتم كلام الله : هكذا جاء فى جريدة جورج فوكس نفسه .

دهشوا دهشة عظيمة لانهم ما كان يخطر لهم على بال أنه بهذا القرب منهم يتدخل فى كل مكان وهو كالليل فى السكون فابتهجوا برؤيته وزادتهم فرحا رؤية الفرخين اللذين كانا شبيهين بكرتين من الزغب ركب فيهما منقاران أحمران حتى إن « بللا » نفسها أبدت من البشر والارتياح في هذه الساعة ما دل على أنها نسيت مذهبها القديم .

ولعلمي ما يعامل به الاطفال الطيور عادة اذا وقعت في أيديهم بقيت وحدى غير مشاركة لهم في هذا الابتهاج العام الذى ولده اصطياد هذين الفرخين ، ولكن ماذا كان فى وسعي أن أفعله أو أقوله ؟ فلو اني قلت لهم خلوا سبيل أسيريكم لاطلقوهما ولكن مع الكراهة والاسف . من أجل هذا رأيت أن الامثل بي الرجوع الى طريقة أخرى وهي أني وضعت الفرخين في حجرة سفلى من حجرات البيت كنا نضع فيها أدوات البستان فاتخذتها بيتاً للطيور ثم أخذت أبين « لاميل » انه يجب عليه أن يتولى بنفسه تغذيتهما لانهما أصبحا محرومين من أمهما التي كانت تعولهما و بالغت له عن قصد فيما يستلزمه ضعفهما الشديد من ضروب العناية ليقوم ذلك مقام ما كان يكنفهما من رعاية وليهما الطبيعي ، فكان من ذلك ان حبس نفسه طرفا من النهار في بيت الطيور ولم يلبث بهذه الطريقة أن عرف أنه قد أصبح أسيراً لاسيريه وصارت كراهته لهذا العمل أمراً محتما والذى استفاده فيه من العبرة هو انه لا يتأتى للانسان حرمان غيره من حريته الا بفقد جزء من حرية نفسه ، ولذلك لم تمض بضعة أيام حتى جاءني راجياً اطلاق الفرخين ليمضيا في سبيلهما .

لما رأيتني نجحت في سوق العبرة « لاميل » في الآلة صممت على الاستمرار في تجاربي فعلمت ان في ضواحي قريتنا راعياً صغيراً مشهورا بالبله يسخر منه جميع عرمة الاطفال في القرية ويهزأون بسذاجته وكنت أرتعد خشية أن يفعل « اميل » فعلهم لان القدوة شديدة العدوى ، والضحك مما ينبغي الرثاء له واحترامه هو من ضروب القسوة التي في الاطفال ، ولكن أعانني ولله الحمد على ما كنت بسبيله ما أعملته من الفكر وما سنح لي من الفرصة . ذلك اني قابلت هذا الراعي الصغير ذات يوم في الحقول فتبينت فيه أنه يميز كل شاة من شياهه على حين أن قطيعه كله لم يكن في نظري وفي نظر « اميل » الا شاة واحدة مكررة مئة مرة ، فتلك إذن مزية له علينا عاهدت نفسي عهدا أكيدا على الانتفاع بها في سياستي « لاميل » فعرضت عليه في اليوم التالي لتلك المقابلة ان يصحبني الى الكثبان اذ علمت بوجود ذلك الراعي هناك فلما رآه قال « ويكأني به المجنون ! » وهو الاسم الذي يطلق هنا على السخفاء والبله ، فتظاهرت له بعدم الالتفات الى ما قال ووجهت نظره الى خصيصته في تمييز شياهه بعضها من بعض بمجرد نظره اليها على ضعف عقله مع تشابهها علينا كثيراً ، فكان ذلك باعثا لدهشته وموضوع محادثة مع ذلك الابله تبين لنا منها أنه على علم تام بأسنان شياهه وطباعها بل بأقل الشيات الظاهرة فيها ، فقسني بذلك (لاميل) أن يقتنع في نفسه بأن هذا الجاهل المسكين أعلم منا في بعض الامور الخاصة به . ولكي أستفيد من هذا الاقتناع طلبت من الابله قبول ولدي في مدرسته بضعة أيام يعلمه فيها ما أوتيه من

العلم فقبل ذلك طيبة به نفسه منتظراً من ورائه مكافأته ، بل ربما كان أيضاً معللا نفسه بحسن ظن الناس بصلاحيته لبعض الامور وكان هذا بحسب ما ظهر لي من حاله أول اكرام ناله في حياته .

وأما (اميل) فانه كان على ما يظهر لي أقل ارتياحاً منه بكثير لهذا الامر لانه بسبب حبه لنفسه وعجبه كان يتألم من أن يكون تلميذا لشخص يعتبره هو ورفقاؤه أحمق ويرى أن فى ذلك غضا من كرامته ولكني لم أجد وسيلة أخرى للوصول الى مقصدى . على انه لا شيء عليه في ذلك فلشد ما سيفتخر على أقرانه بابداء ما تعلمه لهم وان قل ويظهر لهم من الشمم به مثل ما كان للاحمق عليه . استفدت له من هذا التعليم فائدتين : أولاهما ان ملكة تمييز أدق الفروق التي بين أفراد القبيل الواحد لا تقصر على استعمالها في الغنم بل متى حصلت صح أن تتعدى الى جميع ما تكلم عنه علم التاريخ الطبيعي من صنوف الموجودات . والفائدة الثانية وأراها أنفس من الاولى هي أن يعلم اننا على الدوام محتاجون الى التعلم حتى من أضعف الناس عقلا .

يتوهم (اميل) انه لا يكون رجلا الا اذا لعب كما يلعب الجندي ولذلك تراني أبيح له شيئاً من هذا اللعب موافاة لميله ومراعاة لسنه ، ولكني منذ بضعة أيام رأيت منه فى أثناء هذا اللعب ما راعني وأطار لبي اذ رأيت فتيان القرية منقسمين الى فئتين متحاربتين وهو فى وسطهم يحمل لهم اللواء .

نعم كانوا يقتتلون بسيوف من الخشب ولكن لو أنها كانت من الصلب وكانت هذه الايدي الصغيرة العاملة بها ذات أعصاب قوية

لتمثل أمامي قطعاً مشهد من مشاهد تلك المذابح الفظيعة التى تصبغ أديم الارض بالدماء ويسميها الناس حروباً ، فقمت أنا وبللا بما كان يعمله قدماء السابينيين [1] أعني اننا توسطنا بين الفريقين المتحاربين وحجزنا كلاً منهما عن الآخر . رأى (اميل) مني حتماً اني تألمت لهذه الحادثة لانه لما رآني شحب لونه وألقى بنفسه بين يدي طالباً مسامحته .

واني في الحقيقة لا أخفي عليك قد انجرح قلبي لهذا المنظر وان كنت أعلم انك في يوم ما ستعلمه من غير شك ان هناك حروباً مبنية على الحق والعدل ، وان من أجمل ما يتصف به الانسان ويحمد عليه الذود عن حوزة بلاده والموت فى سبيل الدفاع عن رأيه ، ولكنه فى السن التى هو فيها الآن لا يفهم هذه الدقائق ولا يرى فى الكفاح على أي حال الا ما يراه معظم الناس من كونه وسيلة للشهرة والتمايز وذريعة الى ظلم الاكفاء والنظراء . وسواء اتخذ الاطفال لواءهم من الورق أو الخرق البالية تراهم كالجنود منقادين الى وجدان واحد لا تقوى فيه ولا ايمان ، فتبعثهم غرائزهم الوحشية على أن يرفعوا أيديا لا ينقصها من أول نشأتها الا قوة القتل ليضربوا بها اخوانهم اذا كانت الحروب تنتشب بين الحكومات فليس ذلك الا لأن غريزتها قد سكنت قلب الانسان من أمد بعيد ، وكيف لا تسكنه ونحن نرى

(١) السابينيون أمة قديمة كانت تقطن الجزء المتوسط من ايطالية أقام قسم منها فى رومية مع تايتوس وبقى القسم الآخر فى الجبال حتى أخضعه توريوس دانتاتيوس .

القائمين على الاطفال يصرفون عنايتهم الكبرى في اعلاء شأن عطش الانسان الى شرب الدم الذي يجعلنا كالوحوش الضواري ؟ فأي اسم من الاسماء الجميل ظاهرها كالشرف والظفر وحب الوطن لم يقرن بذلك الميل الذي تعبده الناس كما كانوا يعبدون وثن ملوخ [١] ؟ وأنا أستعيذ بالله من ان يكون قلب ولدي مغرساً لهذه الشهوة التي كلها كذب وقسوة .

لما انتهى أمر هذه الواقعة أخذت (اميل) بيده وانطلقنا فاتفق ان رأيت في طريقي تلك الساعة كلبين ضئيلين يقتتلان ويعض كل منهما الآخر على عظمة قد قرض نصفها ، فقلت له : تأمل فتلك صورة جميع ميادين القتال ، ولست على يقين من أنه أدرك هذه المرة معنى ذلك الكلام ، ولكن أقل ما في هذا الامر أنه فهم سبب تأثري لانه وربك كان بالغاً مني مبلغاً عظيما .

أنا مع يقيني بما في تقبيح هذه الاوهام السيئة في نظر « اميل » وتشهيرها من الفائدة له لا أرضى أن يكون جباناً ولو أعطيت في ذلك ما في الارض جميعا . ترى الوالدين في الجملة يفرطون أثناء تربية أبنائهم في اساءة التصرف بما فيهم من وجدان الخوف فانهم يجتهدون في ارهابهم بكل ما في وسعهم من طرق الارهاب ، فيخوفونهم من السماء بحجة أن سحبها تقل صواعق الانتقام ، ومن الارض بقولهم « ان الله سبحانه قد لعنها وغضب عليها بسبب خطيئة آدم » ومن الحياة لان أعمالهم فيها ستعرض على حاكم يحصيها جميعها . ومن الموت بجعله

(١) ملوخ هو معبود الفينيقيين والقرطاجيين وكانوا يقدمون له الاطفال قرابين

محفوفاً بمخاوف لا تنقضي الى الابد .

هذه التربية التي أساسها الارهاب والتخويف انما تلائم الارقاء تمام الملائمة ، ولكنني في شك مريب من أنها تنشىء رجالا أحراراً فاذا كان لابد « لاميل » أن يرتاع ويفزع فليكن ارتياعه وفزعه من وجدانه وسريرته ، ولكني خلافاً لاولئك المربين اجتهد في تطمين قلبه وتسكين روعه من هذه المخاوف المبهمة الخيالية التي كثيراً ما تلازم أذهان الاطفال ، وأود لو أراه شجاعاً جريئاً على الاشياء وديعاً مخفوض الجناح للناس . فالواجب أن تكسي الشجاعة حلة الشرف الحقيقي لا أن تتحلى منه بالبهرج الكاذب .

رأيت « اميل » كغيره من الغلمان الذين في سنه يخاف من الليل ومن كل ما ليس معروفاً له ، فيوجد في أقصى البستان روضة من شجر البندق المتوسط في الكبر لايجرأ على دخولها وحده بعدغروب الشمس كانه يخشى أن يؤكل فجأة ، وعلى أي حال ليس في الامر ما يدعو الى الافراط في الاستغراب فان الاطفال لم يكونوا ليشتغلوا بأحدوثة الاصيبع [١] كل هذا الاشتغال الذي نعلمه منهم لو لم يبق فيهم أثر من

(١) اسطورة الاصيبع احدى اساطير شارل برولت الكاتب الفرنسي الشهير المولود سنة ١٦٢٨ المتوفى سنة ١٧٠٣ م التي وضعها للصغار وسماها أساطير الجن وملخصها : أن حطابا ضاقت به الحال لانزوجه كانت نثورا أقل حملها التوأم فاجتمع له سبعة ولد لا كبرهم عشر سنين ولاصغرهم سبع وولد هذا ضئيلا كالاصبع فسمى « الاصيبع » وكانغصةلوالديه مهضوما عندهما على كونه أذكي أخوته وادهاهم . اصابتهم سنة شهباء اضطرت الوالدين الى

الانسان الوحشيّ الذي كان يعيش محوطاً بجميع ما في الكون من الاغوال ، وربما كان الذي يمنع « اميل » من الدخول في تلك الروضة مساءً هو اشفاقه من أن يقابله فيها ذئب القبيبعة الحمراء [١] وبالجملة فهو نفسه لا يعرف أن يعبر عما يرهبه والحقيقة أنه يخاف من ذلك الشيء الذي يسمع عنه أنه يجول في الظلام .

التواطؤ ليلا على اضلال الاولاد في غابة لكيلا يشاهدا موتهم جوعا فسمعهما الاصيبع فبات مسهدا وبكر الى الشاطئ فملأ جيوبه حصى أبيض وكان يلقي كل بضع خطوات من طريقهم الى الغابة حصاة ولما أضل الوالدان الاولاد وعادا طفقوا يصرخون فهداهم الاصيبع الطريق وسلموا ، ثم تواطأ الوالدان أخرى ولكن لم يتمكن الاصيبع من الخروج لاخذ الحصى فادخر الكسرة التي أصابته من الخبز ففتتها والقاها في طريقهم الى الغابة ولكنه لم يهتد اليها بعد الاضلال لان الطير أكلتها فصعد الى شجرة فآنس بصيص نار في الظلام فأمه بأخوته فاذا هو بيت الغول فقبلت زوجه ضيافتهم في غرفة بناتها فجاء الغول وشم ريحهم وحاول اغتيالهم فاستمهلته الى الصباح وسمع الاصيبع فاستبدل تيجان البنات الذهبية بقبعاتهم فاشتبه الامر على الغول فذبح بناته ليلا وتسلل الاخوة لواذا ثم تبعهم الغول بنعله ذات الفراسخ السبعة فأووا الى كهف أدركه الغول من الغد فنام فوقه ليستريح فسرق الاصيبع النعل وعاد بها الى زوجه قائلا ان اللصوص قبضوا عليه وطلبوا منه الفداء فأرسله بالنعل ليحضر له جميع ماله فصدقت العلامة وعاد بالمال الى أخوته فحملوه الى البيت وحسنت به حالهم . وموعظة الكاتب المقصودة هي أن الناس يكرمون الجميل من ولدهم ويمتهنون الدميم مع أنه قد يكون سبب سعادة جميع أهله .

(١) يشير الى اسطورة أخرى من أساطير ذلك الكاتب ملخصها ان جارية بارعة الجمال البستها أمها قبيبعة حمراء زادتها جمالا فعرفت بها وأرسلتها يوما

لما رأيت أن آثار الخوف ألصق بالنفس من جميع الآثار والانفعالات ، وان التظاهر بمقاومتها لا يزيدها الا ثباتا اقتصرت على أن حسنت « لاميل » دخول الروضة المذكورة مستصحبا الدبة لانها لا ترهب شيئا ولاستعدادها في كل وقت لاقتفاء أثره ، فلما رأى بهذه الواسطة أن له رفيقا لم يمتنع من الدخول ولم يلبث أن عرف ان الذي كان يشوش ذهنه الى تلك الساعة انما هو وحشة المكان وخلوه من الانيس ولم تفتني الاستفادة من هذه العبرة أنا أيضا لانني قد فهمت بها جميع ما قد زاد في نفس الانسان من القوة بسبب اختلاطه بالحيوانات المستأنسة في أعصره الاولى .

لجدتها وكانت مريضة بقرص وصحفة زبدة فصادفها الذئب فى الطريق ولكن صده عن افتراسها حطاب فاستبان الذئب مقصدها فدلها على طريق بعيد وسلك القريب الى جدتها فاكلها ونام فى فراشها فلما جاءت الجارية دعاها الى النوم معه مقلداً صوت جدتها ففعلت وراعتها أعضاء جدتها التقليدية فقالت . أى جدتي ما أطول يديك قال : ذلك لاحسن معانقتك . فقالت : وما أطول ساقيك ! قال : ذلك لاحسن العدو . فقالت : ما أعظم عينيك ! قال : لأجيد النظر فقالت : ما أطول أنيابك . قال : انما خلقت كذلك لآكلك . وافترسها

قصد الكاتب أن الاطفال الحسان ولا سيما البنات مخطئون فى الاصغاء الى كل من يكلمهم ولا غرو أن يأكل الذئب كثيرا منهم ، وما كل ذئب ذئب القبيعة الحمراء فان من الناس ذئابا يبصبصون ويتملقون للفتيات ويغازلونهن متبعين خطواتهن فى الازقة والشوارع ولكنهم على ما يظهرون لهن من اللطف والحب أضر عليهن من جميع الذئاب لانهم يفترسون شرفهن الذى هو أكرم من أجسادهن .

أنا الى اليوم ملتزمة مع « اميل » عدم الخوض في المسائل الدينية موافاة لرغبتك، ولكن قد حصلت بيننا واقعة في الاسبوع الماضي ينبغي أن أقصها عليك: ذلك اننا رأينا في عصر ذات يوم من ذلك الاسبوع هيدبا [١] من السحاب رصاصيّ اللون كان أول ما رأيناه قزعا [٢] ثم تراكم حتى صار مكفهرا [٣] ثم اختلط فصار قطعة واحدة مظلمة أناخت على الماء بكلكلها [٤] وكنا نرى شعاعاً أكدر من أشعة الشمس لايزال يخترق هذا الستار الحدادي في بعض جوانبه ولم يكن الا قليلا حتى غاب في شبه دجنة مخيفة منذرة بالمطر ثم انقطع هبوب الريح فلم يبد منه أقل نفحة، وقلما كنا نسمع من بعد تنفس الخليج بامواجه وهي تعلو وتنخفض متثاقلة كأنها صدور المكروبين اللاهثين ونظرنا الى الشاطىء فلم نر فيه عود حشيش واحد يتحرك، فكان الكون في سكونه هذا كالمشدوه الغائب عن رشاده يتوقع حصول أمر عظيم له ثم لم يكن إلا أقل من ساعة حتى عصفت العاصفة بعد كمونها ثم صدع البرق قبة السحاب المتراكب صدعا متمعجا [٥] وقصف الرعد لاول مرة قصفا اهتز له جميع البيت فارتعدت فرائص « اميل » وأسرع الي محتميا بي مستندا الى صدري كأن في قدرتي أن أمنعه

---

(١) الهيدب السحاب المتدلي الذي يدنو من الارض مثل هدب القطيفة

(٢) القزع قطع السحاب الصغيرة المتفرقة

(٣) مكفهرا مسودا غليظا

(٤) الكلكل الصدر والمراد به هنا الثقل والكتلة

(٥) متمعجا ملتويا متثنيا

من هياج الفواعل الكونية : ثم تعاقبت البروق والصواعق وأنشأ ماء الخليج يغلي وهو اكدر مزبد كالسكب (البرنز) صهر في مرجل ثم أخذت الريح بعد ارتفاعها فجأة تبدد سيول المطر مزمجرة ، وكنا نسمع هزيم الرّعد في السحاب من بعيد ونرى وميضاً فجائياً متتابعاً ، ثم تبع ذلك كله الهدوء والسكون.

ولما كان « اميل » أكثر من في الارض مسألة سألني وهو متأثر قائلا : « أماه ! ما هذا الذي أثار غضبه فوقنا ؟ » فحرت هذه المرة حيرة شديدة في اجابته ، لاني لو قلت له : ان ذلك هو الله لكنت قد ألقيت في ذهنه معنى سخيفاً لذلك الذات الكامل القدرة البالغ الحكمة المبرإ من الانفعالات ، فاقتصرت على ان فسرت له بأحسن عبارة مناسبة لفهمه سبب هذه الظواهر التي أزعجته . على ان الغلام قد أدرك بحدسه من هذه الاصوات الشديدة التي سمعها من العاصفة ومن هذا الجو الممتلىء بالمفزعات الإلهية ، بل ربما أيضاً من عينيّ اللتين كانتا على رغمي أكثر من لساني كلاما — نعم أدرك من كل ذلك — ان من وراء هذه الآثار شيئاً آخر وذلك ان الله (سبحانه) ليس ظاهراً للعيان ، فيشار اليه بالبنان ، ولكنه موجود يحس به الوجدان ، ويعرفه الفكر والجنان ، من أجل ذلك قمت أنا و « اميل » وأدينا فرض العبادة لذلك المريد الذي لا حد لارادته القادر الذي بيده مقاليد السموات والارض وان كان عقلنا لا يصل الى ادراك كنه ذاته.

كل يوم تبدو لى صعوبة العمل الذي شرعت فيه ، فان طريقة التربية بالعمل التي أسير عليها تقتضى أن يكون في المربى معارف أنا

خلو من كثير منها ولكن هذا لم يمنعني من اعتقاد أنها هي الطريقة الوحيدة فى تقويم خلق « اميل » ثم اعلم ان حياتى بدونك انما هي فراغ أجتهد في ملئة بالقيام بذلك الفرض العظيم ، ولم يبق لي من غرق سفينة آمالى الاولدنا الذي اتشبث به تشبث الغريق بلوح النجاة وأحبه لذاته ولك ء على أن بعض هواجس مشؤومة تمر بخاطري من حين الى حين فتكدر صفاء ما فى قلبي من نفيس عواطف الحب ، ذلك اني أقول في نفسى : ما يكون الحال اذا كان هذا الطفل بعد ما بذلناه له من صنوف العناية يخون فى مستقبل أيامه عهود والده وينكر مبادئه ويدوسها تحت قدميه ولا يكترث بما عراه من الا لام طول حياته ؟ اذاً لاقتلنه . . . كلا ! بل أقتل نفسى ولكن تحقق هذه الهواجس من المستحيل ، وأرجو أن يضالنى كلمة منك تزيل عني هذه المخاوف المكدرة التي بلغ تشويشها لي الى أعماق نفسى . اه

الرسالة السادسة والعشرون

﴿ من اراسم الى هيلانة فى ٣٠ يوليه سنة — ١٨٥ ﴾

وجوب اعتراف المربى للطفل بجهل ما يجهله وانتقاد المربين فى دعواهم العلم بكل شى
وانتقاد التعليم الدينىّ والسياسىّ واستحسان طريقة زوجته فى التربية
وبيان بعض شروط التربية التى منها أن ينسى المربى ماتعلمه
ليعود الى تعلمه مع الطفل

أنا أيتها العزيزة هيلانة أعرف فرط حبك لي وجميل انعطافك

نحوي وأقدرها حق قدرها ، ولـكنني لست معك فيما يخامر قلبك من المخاوف في شأن مستقبل « اميل » فاني وان كنت والده لا أرى لي حقاً بحال من الاحوال في ايجاب أن يكون تلميذاً لي ، فمن ذا الذى يصح له ان يتبجح بأنه قد وصل الى الحق المطلق وان حسنت منه النية في البحث عنه واعتقد أنه يذوق المكروه من أجـله . نعم انه ليؤلمني ألماً شديداً أن أراه في مستقبل حياته مخالفا لى فى آرائي غير آخذ بمعتقداتي ولكنني أكون أنا المخطيء الملوم في ذلك دونه لانه قد يكون سببه عـدم حذقي في ايصال أفـكاري الى نفسه أو حكمه على هذه الافـكار بما عسى أن يكون هو الحق فيها ، أعني أنها أغـلاط عقل صادق في بحثه عن الصواب مخلص في تلمسه طريق الرشد .

على أنه لا فائدة فى الاشتغال بالمستقبل فان الذي يعنينا هو الوقت الحاضر .

تقولولين : ان « اميل » محب للاستطلاع كثير المسألة فأبشرك بأن هذه أمارة حسنة على نجابته ، ولكنني أنصح لك اذا سألك عن شيء تجهلين حقيقته أن تعترفي له بجهلك اعترافا خالصا من المواربة وان كان ذاك مخالفا لما عليه معظم الوالدين ومعلمي المدارس الذين لديهم كما ورد فى الامثال « لـكل فتق رتق ولـكل مسألة جواب ، فكأنهم يتوهمون انه يكون لهم بهذا نوع من السلطان على عقول تلاميـذهم وأنت بحمد الله فى غنى عن التذرع بهـذه الذريعة الخطرة لاثبات ولايتك على « اميل » أقول انها خطرة : ولا أحول عن وصفها بذلك فان في تعويد الطفل اعتقاد أن لـكل شيء معنى محققا يمكن ان يتناوله

من غيره بسهولة مبادرة الى اخماد قوة الذهن ودعوة لها الى التبلد ، لانه متى سبق اليه الوهم بأنه يوجد فى الناس علم كافل بازالة جميع الشكوك التي تعترض الذهن فى فهم معاني الاشياء لا يجد موجبا لتكلف البحث والملاحظة ، واما اذا اعترفت له بأنك لم تمعنى النظر فيما يسألك عنه امعانا يكفي لابداء رأيك فيه فانك تكونين قد عجلت بتعليمه أن اصابة الحق هي ثمرة عمل الجادّ ونتيجة بحثه ، وأي جواب يساوى هذه الموعظة ؟

ثم ليحذر الوالدون والمعلمون أن يكونوا فى ادعائهم لانفسهم نوعا من العصمة في العلم استدباراً للغاية التي يسعون اليها . ذلك أن الناشىء اذا كشف له المستقبل بغتة ما يقع فيه أولئك المصرفون لعقله من الاغلاط تزعزع اعتقاده فيهم مرة واحدة وزالت من نفسه الثقة التى أرادوا أن يجعلوها محلا لها ، وليس ما أخشى مغبته على « اميل » من أنواع الريب هو الحذر النافع الذي يكوّن فيمن تعلموا من صغرهم البحث فى الامور وعدم التسليم بها قبل انضاح وجه الحق فيها ؛ وانما الذى أخافه عليه هو مرض زوال الاعتقاد .

مما ينبغي التصريح به أن الصبغة الاعتقادية التي نراها فى طريقة التعليم عندنا ناشئة من جميع مقومات أوضاعنا الاجتماعية ، فانه متى اعتبر أن القائمين على الدين وعلى السياسة قد فكروا في مصلحة الامة لزم بطريق البداهة أن تنزل من سماء علاهم طائفة من العلوم مقررة فيفرض على عقول الاحداث قبولها بلا نظر ولا مناقشة : فأنت تجدين فى التعليم الدينيّ أسراراً يتعاصى على عقل الانسان اكتناهها ، وأعمالا

وعادات ليس في مقدور أحد من الناس تغيير شيء منها ، وأحكاما لا تقبل العرض على محك النظر بل تقيد قوة الادراك الى الابد فلا تجد سبيلا الى الجولان فيها[1] واما التعليم السياسي فهيهات أن يكون ما يلقيه فيه

(١) انما دعا أراسم لتوجيه هذا الانتقاد الى التعليم الديني كونه من غلاة أهل النظر وله ولامثاله بعض العذر في هذا الانتقاد لما دخل على الاديان من الفساد الذي دعا الى اختلاط الحق بالباطل ، والدين الحق لا يخالف النظر العقلي لان الاسلام يعلمنا ان أساس الدين العقل وما أخبر به الكتاب الالهي من أمور الغيب ليس فيه شيء ممنوع في نظر العقل . ومن لم يصدق الا بما يراه لا يمكنه أن يثق بقول مؤرخ ولا طبيب ولا كيماوي ولا طبيعي اذا قالوا أو اكتشفوا شيئا حتى يراه بعينه ويكتشفه هو بنفسه وذلك يدعو الى أن يكون كل انسان أجهل الجاهلين

وقوله انه متى اعتبر ان القائمين على الدين قد فكروا في مصلحة الامة الخ .. يدل على اعتقاده ان رجال الدين هم واضعوا قواعده واحكامه وفارضوا أعماله وعاداته التي يشكو من تعاصي أسرارها على العقل أن يكتنهها وعدم امكان تغيير شيء منها ومن تقييدها قوة الادراك تقييدا لا تجد معه سبيلا للجولان فيها وذلك منه وهم محض لان الاديان لو كانت من الاوضاع البشرية لابلاها مر القرون ودثرها كر الدهور شأن كل ما هو من عمل ذلك المخلوق الضعيف الفاني الذي لا حول له ولا قوة ولا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا فبقاؤها على الايام وملازمتها لكل جيل من اجيال البشر من أقوى الادلة على انها تنزيل من رب العالمين وهداية من أرحم الراحمين جعلها لخلقه سراجا منيرا يهتدون به الى سبيل الحق ويتنكبون بنوره عن متاهات الغي والضلال اذا جمح بهم فيها ذلك العقل المسكين الذي يريد له اراسم التسلط على كل شيء حتى على خالقه وواهبه وما يتنزل منه على خلقه من هدى ورحمة نعوذ بالله من علم ينقلب جهلا وفتنة

الاستاذ على تلاميذه أقل مما ذكر إلزاماً لان الاستاذ لما كان أجيراً للحكومة كان بالضرورة صدى يردد أصوات أحكامها: فبخ بخ لهذا النظام الذي لو لم يكن مؤدياً الى استعباد النفس لما رأيت لي وجها في انتقاده ، وانما كان مؤدياً الى ذلك لانه بما له من الأثر في إماتة عزيمة الناشىء يحصر فائدة التعليم في مجرد تمرين الذاكرة ، فوارحمتاه لذلك المسكين الذي هو كالبعوضة حُمّلت من تواريخ القرون الماضية وعلومها وأقوال الثقات فيها ما أبهظها فعاقها عن الطيران .

على أنه يندر - والحق يقال - أن يصل أرباب الحصر والتضييق النفسيّ الى تمام الفوز الذي كانوا يؤملونه من ورائه ، فان تأثير الزمان الذي يعيش فيه الطفل أو ما يوجد في طبعه أحياناً من المقاومة والمعارضة أو ما يتلقاه من آراء أهله الذين يتربى بينهم يخلف في كثير من الاحوال ظنون القائمين على التعليم الرسمي ويأتي بعكس ما كان في حسبانهم ، ولكن لا بد من الاعتراف بأنه لا ينجو من وحدة هذا القالب الذى تصاغ فيه الاجيال الناشئة على الشكل المطلوب الا العدد القليل ، وأما السواد الاعظم فان مدار تعلمه يكون على التسليم والاعتقاد والوقوف عند حد ما تلقاه عن معلمه الذى يعيد عليه ما أخذه عن أساتذته ، فالتربية في مثل هذه الاحوال سلاح ذو حدين يتسنى به استعباد العقل كما يتسنى به تحريره ، ومرجع الحكم في ذلك الى المصادفة والاتفاق ، وإني لن أرضى أن أكل مستقبل « اميل » الى مداحض مصادفات يتردد بينها الحق والباطل ، وتعتورها الحرية والاسترقاق ، ولو أوتيت في ذلك أنفس شيء في العالم كله .

على أني أعوذ بالله أن أجحد ما لآثار السلف من المزايا والفوائد الا أن في الاخذ بهذه الآثار كما في الاخذ بغيرها من الامور حداً وسطا يصعب تمييزه ، فالطفل الذى لا يتلقى شيئاً من المجتمع الذى يعيش فيه يصير إما متوحشاً واما أحمق ، وأما الرجل الذى يتلق منه كل شيء بالتسليم مرتكنا على ثقته به مجتنبا مشقة النظر فيما تلقاه منه بدعوى أن من سبقوه قد كفوه مؤنة ذلك وكانوا أصح منه نظرا فانه لا يكون أبداً الا ضعيف العقل معجلا بوقف نفسه على جميع ضروب الاستعباد.

ثم اعلمي أن معظم أغلاطنا ومعتقداتنا الباطلة مبنيّ على آراء يتداولها الناس ويرون تسليمها واعتبارها حقائق معصومة من تطرق الباطل اليها أسهل عليهم بكثير من استقصائها واستجلاء الصواب فيها بنور العقل فمثل هذه الاراء تسرى الى نفوسنا من أول نشأتها وينتهي أمرها الى أن تكون من الامتزاج بها بحيث يلزم لاستئصالها في المستقبل بذل جهد عظيم في إعمال القوة الحاكمة والاستعانة بشيء من الاقدام والبسالة . نعم انه من الصعب جداً أن لا يعلق بنفس « اميل » شيء من تلك الافكار الفاسدة ولكن الذى يهمنا هو أن يكون مايتصل به منها أقل ما يمكن وأن يجد في مستقبله من حرية نظره وسيلة لتمييزها والخلاص منها .

وجملة القول ان طريقتك في تربية « اميل » قد نالت من رضائي واستحساني أكمل حظ ووقعت من قلبي أجل موقع فان التربية عمل ملائكة بذل النفس وقوامه الحب ، وأنا أعرف من كبار الرجال من دأبهم الاحتراس والانقباض في معاشرة الاخصاء ومخالطة الاصفياء ، فأمثال هؤلاء لاينبغي أن تعهد اليهم تربية الاحداث لانه يشترط فيمن يتولونها

أن يكون فيهم من انبساط النفس ما يأخذ بقلوب الناشئين اليهم ، وأن يكونوا من المحدَّثين (١) فيها المبعوثين عليها ببعض البواعث الفطرية فمربى الطفل ومعلمه الحقيقيّ المستكمل لهذه الشروط انما هو امه .

ثم اني مستحسن كذلك ما رأيته من ادامة الدرس والمطالعة ليتيسر لك القيام بهذا الفرض الذى قدر لك ، ولكني أعظك بأن تجعلي هذه الحقيقة دائماً نصب عينيك ألا وهي : ليس أول شرط فى التربية أن يكون المربي عالما وانما هو أن ينسي جميع ما تعلمه ليعود الى تعلمه مرة أخرى مع الطفل . اه

الرسالة السابعة والعشرون

﴿ من اراسم الى هيلانة فى ٢٣ اغسطس سنة — ١٨٥ ﴾

بيان وجوب التدرج فى تعليم العلوم للاطفال بلفت أذهانهم الى ما حولهم وانتقاد الكتب التعليمية

أذكر أن رجلا فاضلا من أصدقائي كان قد وجد فى نفسه انبعاثاً الى التربية فاوجب عليها الاشتغال بها ، ثم انه ندب لادارة مدرسة كان غيره أنشأها فألفى نظام التأديب فيها بالغاً من الشدة غايتها ، اذ رأى فيها أفرادا من التلاميذ يخصون بالعقوبة دون غيرهم فيقضون ساعات الاستراحة فى فنائها كل يوم جثياً أو قياماً فى مواقف الجزاء ، ولم يكن يعوزها شيء مما تشرف به من طرق العقاب كالتكليف بمضاعف العمل والحبس والمنع من الخروج لانها كانت على الاصول القديمة القويمة ، فما لبث صديقي هذا ان أبطل كل ذلك النظام التأديبيّ دفعة

(١) المحدثون بصيغة اسم المفعول هم الملهمون

واحدة لعلمه بانه لا يرهب الا الجبناء ولا ينشأ عنه أثر للتهذيب فى نفوس المتعلمين ، وقال للتلاميذ : أنا أعلم من سيعاقبكم بعد الآن ان أنتم أسأتم . ذلك هو وجدانكم الذى لا ينجو من سوط عذابه من أعفي من ضرب العصا .

كان شعار هذا المربى فى تعليمه « لا قلنسوة (١) لعالم ولا لحمار » .

وكان التلاميذ قبل وجوده فى المدرسة لا يتسنى لهم أن يخطوا خطوة في دهاليزها الطويلة وفي عرصاتها وقاعاتها الفسيحة الا وهم مصطفون مثنى مثنى تحت رعاية كبير لهم يسمونه ضابط الرجالة تهكما به ويكرهونه من صميم أفئدتهم ولا يفترون عن مماحكته وابتلائه بضروب الحيل والخبث ، فجمعهم المعلم الجديد ليلقي عليهم نبأ عظيما فقال لهم . اعلموا أنكم من الغد أحرار لاسيطرة لاحد عليكم وأنه لن يرعاكم في سيركم وسيرتكم سوى عين الواجب الذي تشعرون به . ولا أراني بعد هذا في حاجة الى القول بأن كلا منهم بمجرد سماعه هذا التنبيه قد اعتبر طاعة النظام من أمس الامور به وألزمها له .

وبينما كان في يوم من الايام مجتازاً حديقة المدرسة بصر بتلميذ تسلق عريشة كرم ممتد على جدار عتيق يتدفق من فوقه ضوء الشمس وأنشأ يأ كل من قطوفه أكلا لمًّا ، فتظاهر له بالغفلة عن فعله ورجاه أن يلتمس له أمين المدرسة . فأتاه من فوره يتبعه الغلام النهاب والريبة تدب الى نفسه فقال المدير للامين ، كيف يصح أيها السيد أن لا يعطى

(١) القلنسوة فى نظام التعليم الاوربى شارة العلماء ينالها من أتم الدارسة وأدى الامتحان فيها

هذا الغلام من الطعام كفايته فانه لم يكد يخرج من قاعة المائدة حتى جاء الى الكرم وطفق يجني قطوفه خلسة ،فأرجو أن تأخذه الآن بنفسك وتوده الى المطعم ليأكل ما يكفيه .

كان هذا المربي أقل الناس شبهاً بمديري المدارس وكان من أجل ذلك محبوباً لتلاميذه ، فاني كثيراً مارثيت لحال معلم الاطفال الذي هو شهيد الشهداء لمقتهم إياه مع إحسانه اليهم وعلى كل حال لست أدري هل كنت مخطئاً في ذلك أو مصيباً فلا إخال الطفل كفوراً بنعمة معلميه ولكنهم هم الذين أرادوا أن يطعموه من باكورة العلم صاباً وعلقماً، كيف لا وفي التعلم سعادة المتعلمين . وفي التمرين والتدريب حياة لكل قوة من قوى الانسان ولا شيء الا وهو يطلب الوجود والظهور والنمو .وهكذا شأن التلميذ ،وانما القهر هو الذي يحيل فرحه الى ترح ومرحه الى خمود فانه يجيء الى المدرسة وللحياة فيه دوي كدويّ النحل فيجد مديرها عابس الوجه متمسكا بالكتب واثقا بها ثقة الظالم الغاشم ، فياله من تنشيط للاحداث وترغيب لهم في التعليم .

الكتاب الذي ينبغي أن يتعلم منه الحدث هو صحيفة الموجودات والمدارس خلو منها .

انك اذا دخلت غرفة من غرف المدارس لا تجدين فيها سوى مكاتب ماطخة بالمداد ، ومقاعد من الخشب غير مستوية القوائم،وجدرانا أربعة عارية من الزينة وسقفا مرفوعا على خُشب غليظة خشنة يمتد بينها نسيج العناكب التي هي عوامل الضجر المحزنة ، فاذا نظرت خارج تلك الغرفة من نوافذها المفتوحة رأيت الطيور مطلقة السراح مغردة في الجو

كأنها تسخر من التلاميذ ، فان الكون الخارجي كله أصوات وأضواء وأشكال وألوان تدعو الطفل الى التعلم بواسطة مشاعره وأما هذه الغرفة فلا شيء فيها يلفت نظره ، فقلما يوجد فيها صورة وشيء من خوارت تقويم البلدان ، وما عسى أن يوجد من الصور فدميم قبيح ، ومن الخوارت فهو يشبه خط قدماء المصريين فى غموضه وتجرده من الرونق وقصوره عن تمام البيان ، فأقسم بالله على المتولين أمر التربية أن يدخلوا في هذه المقابر التي أعدوها للاحداث نفحة من نفحات العالم الخارجي وشعاعاً من أشعة الحياة .

كل أمة تعني بالتربية حق العناية ينبغي أن لا تخلو مدرسة من مدارسها من منظار معظم (ميكروسكوب) لمضاعفة أجرام الاشياء التي لا ترى بمجرد النظر ، ومن مرقب (تليسكوب) تسهل به رؤية أشكال أقرب الكواكب الى الارض ، ومن كرة جوفاء تمثل في باطنها أقسام الدنيا (جيوراما) ومن مربى للحيوانات والنباتات المائية ومرآة للصور الماثلة (استيريوسكوب) وبالجملة يجب أن يوجد فيها جميع الادوات اللازمة لتحصيل معنى الكون وآياته الكبرى في أذهان الناشئين .

اعلم أن اللفظ والخط طريقتان قاصرتان جدا عن ايصال العلوم الى نفس الحدث وان اللازم له انما هو رؤية الاشياء ، فلمربيه توجيه فكره ولو قبل تعليمه القراءة الى أمور كثيرة لا تخرج بحال عن متناول ادراكه ، ورأيي فيما عليه المربون الآن : هو انهم يفرطون في التعجيل بتعليمه بعضاً من فروع العلم كان حقها التأجيل وفي تأجيل بعض آخر

كان أولى بالتعجيل ، وكان يجب عليهم في اختيار العلوم وترتيبها أن يرجعوا الى درس القوانين التي يجري عليها الانسان في نمو جسمه ونفسه وعقله .

قولهم « لما يجيء وقتي » كلمة تصدق على معظم قوى الانسان في ساعةٍ ما من عمره ، فالطفل الذي وصل الى أن يدرك من الاشياء ابعادها وعلاماتها الظاهرة يكون عقله في غاية القصور عن الاحاطة بما بينها من الروابط ، ويكون أيضاً أشد قصوراً عن النفوذ فيما يجرى عليه من القوانين ، ويقصر عقله خصوصاً عن تتبع سلسلة الاسباب التي نشأت عنها ، فاليافع يتأثر بالقضايا الشعرية وترتاح نفسه اليها ، ولا يميل الى القضايا المنطقية والاصول الحكمية . ومن حاول استمالته اليها فقد عبث ، والسبب في هذا ان ضروب الاستعداد المناسبة لهذه العلوم العقلية لما توجد فيه أو أنه لم يوجد منها الا جراثيمها ، فالادراك لفظ عام يدخل في مفهومه عدة قوى متمايزة كل التمايز لا تنمو الا بالتدريج ، ولكل منها طور كمون ثم تظهر تابعة في ذلك لجملة مِنَ الحوادث تتغير بتغير الاشخاص وما يحيط بهم ولكنها على التحقيق محدودة بنواميس الكون والزمان ، فأفكارنا ووجداناتنا لها أعمار كأعمارنا .

الشيء الواحد يقتضي أن يتعلمه الانسان عدة مرات ومن وجوه مختلفه . خذي لك مثلا . الطفل لا يرى في الوردة بادىء بدىء الا وردة ثم اذا نمت فيه قوة الادراك قليلا انتزع من شكلها ولونها ورائحتها مثالا عقليا ممتازاً يعرف به الوردة كلما وقعت في يده وهو في هذا الطور من

الحياة لا يهتم بمرتبتها التي عينها لها علماء النبات في ترتيبهم ولا تركيبها ومعيشتها ، فتلك طائفة من الشئون والافكار يجب على مربيه الاحتراس التام من الخوض معه فيها اذا كان يعنيه ان لا يضل مدركته ، وكذلك الشأن في جميع الموجودات .

اذا أردت أن أعلم « اميل » علم طبقات الارض (الجيولوجيا) مثلا وهو العلم الذى يعتبره العارفون أبا العلوم فاني أنبهه أولا الى ما يوجد في الاحجار بل في حصا الطرق من أشكال المخلوقات العضوية المنطبعة عليها ، فان حبه للاستطلاع وميله للاستئثار بالمعرفة مع مساعدة الفرص يعودانه في أقرب وقت تمييز أهم العلامات التي توجد في دفائن الارض من بقايا تلك المخلوقات فجميع ذلك مناسب لسنه أو قريب منها ثم بعد ذلك ببضع سنين ادعوه الى ان يقيس ما قد يكون جمعه من هذه النموذجات بعضه ببعض وان يرتبها على حسب ما بينها من التشابه وفي هذا الوقت دون غيره أتلطف في تسريب معنى أطوار الارض وعصورها الى ذهنه ، وأقص عليه تاريخها مستعيناً بتلك الحصا والحجارة فقد قال شكسبير « ان فى الحجارة لموعظة وذكرى » وأنا أقول ان فيها ما هو اسمى من ذلك فهي وحي يعلمنا كيف خلقت الارض . ثم اذا بلغ « اميل » الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة من عمره - أي صار فى سن تؤهله لفهم كل ما أقوله له حق الفهم استعنت بعلم طبقات الارض على تعليمه حكمة التاريخ فهو أمثل مقدمة لها .

فيما كاشفتك به من أفكاري هذه غناء عن تعريفك اننا لا ينبغي لنا فى تعليم « اميل » ان نعول على شيء من المؤلفات الموجودة .

فالوجيزة منها والصغيرة والكتب المدرسية التي بين أيدي الاطفال جميعها وضعت لغير الوجهة التي تقصدها . فانها مختصرات علمية توهم واضعوها انها تكون ملائمة لادراك الاحداث بسهولة عباراتها ، وليس العيب هاهنا في شكل الكتب وانما هو في أصل وضعها ، فان أول شيء يتسني للطفل ادراكه من نظام الكون هو ما كان يدركه منه الانسان في أول نشأته قبل تقدم العلوم وتقسيمها ، فالمعلمون لا يفتأون ينسون ان التعاريف والتقاسيم والقوانين لم توجد الا بعد التجارب ، كما أن علوم اللغة متأخرة عنها في الوجود وكذلك علوم الدين ، ويغيب عن أذهانهم ان علوم الانسان لم تتكون البتة بالصورة التي يتعلمها عليها الاحداث الآن فان الانسان لم يصل الى ايجاد طائفة من العلم محدودة الا بالانتقال من حادثة جزئية الى أخرى ومن سلسلة من الحوادث مرتبط بعضها ببعض الى غيرها ، وبعد ان وجدت له طائفة منها أنشأ يستنبط لها القوانين التي تضبطها ثم تفرعت دوحة المعارف وتمايزت فروعها وانفصل كل علم من الآخر .

فالجري في تعليم الطفل على غير هذه الطريقة قلب لنظام عقل الانسان فالمعلمون انما يلقون عليه نتائج العلوم وخلاصتها قبل أن تؤسس قوته الحاكمة بمبادئها وتدعم بمقدماتها فترينهم ينحدرون مرة واحدة من الذروة التي رقي اليها العلم في عصرنا بعمل الاجيال الماضية الى ما هو فيه من حضيض الجهل ، والذي يستحسن أولئك المعلمون تسميته مبادىء العلوم انما هو في حق الطفل ثمرات العقل البالغ في تحضيرها ومن نتائج ربط الاشياء بعضها ببعض .

أنا لا أجرى على هذه الطريقة فى تعليم « اميل » فاني أود قبل أن اعلمه تاريخ الموجودات أن أعرفه بما فى الكون ، فاجعل له به انسا بأن أوجه نظره الى حوادث الحرارة والضوء والكهرباء قبل تعليمه قوانين علم الطبيعة ، واعلمه شيئا من أوصاف أشكال الاجرام السماوية ومواقعها من قبة الفلك قبل الخوض معه فى علم الهيأة ، بل قصدى الى أن أشرح له فى المستقبل ما أعلمه من نواميس الكون أقل بكثير منه الى ايقاظ وجدان الملاحظة فيه ، فان تعليم الطفل ليس بشيء يذكر وانما الامر الخطير هو أن يؤتي وسيلة التعلم بنفسه وتحرك فيه دواعي الاقبال عليه ، فدروسي « لاميل » كلها لا يكون فيها الا ماله شأن في تنبيه عقله وتقويته لانه مرجع جميع علومنا على اختلافها .

رأيت مما قدمته لك أنه قد قضى عليك أن تكوني (لاميل) كتاباً يأخذ عنه علمه فلا تستعيني بشيء من صغار الكتب وموجزاتها ومختصراتها ، وعليك أن تلتمسى له أبسط المعاني وأليقها بحالة ادراكه مع التدرج فى ذلك بحسب ارتقائه فى الفهم وان تجعلي تعليمك مطابقاً لاحوال سنه .

الرسالة الثامنة والعشرون

﴿ من اراسم الى هيلانه فى ١٥ أغسطس سنة ـــ ١٨٥ ﴾

(فوائد التصوير والمعارض فى التربية)

لو أني عهد الي ببناء مدرسه كبرى للناشئين فى أمة من الامم العظيمة

لبذلت وسعي فى أن أبث فى جدرانها من العلم روحاً وعقلا

ذلك لان القائمين على التعليم لم يزالوا فى سبات من الغفلة عما كان لمعاهد التربيه من التأثير فى خيال المتعلمين خصوصا في سنيهم الاولى. ولقد كان القدماء أنفذ منا ادراكا في سر التعليم بالمشاهدة، جروا في ذلك على نواميس الفطرة الانسانيه الحقيقيه ..

ليست المعابد والبيع عند جميع الامم الا مدارس اتخذها الكهنة والقسيسون في الاديان القديمة والحديثة صحفا لمجموع عقائدهم ومذاهبهم عما وجدوه لذلك من الوسائل الكبرى في فن العمارة ونحت التماثيل وصناعة التصوير ، وبقاء العبادات الى الآن يدلنا على درجه انتقاش الرموز والصور الاعتقادية في أذهان العامة، فان مخترعات الخيال التي يبرزها الرسم للوجود الخارجي في صور نخمه تبقى شائعة بين الناس بعد فناء الفكرة التي أنتجتها بعدة قرون، يشهد لذلك بقاء مظاهر المعتقدات الجمادية مع أن الامم قد كفت من عهد بعيد عن توهم انها لا تزال على عادتها في عبادتها [1].

اذا كنا قد رفعنا هياكل للآلهه الباطلة كالحرب والروع والظفر بالاعداء وجميع بلايا الانسان ومصائبه فالنا لا نرفع للعلم هيكلا وأي كلفة في هذا العمل على أمة عظيمة ؟ لا يقال ان أول عائق دونه هو قلة المال وغلاء المواد اللازمه لاقامته لاني أرى أننا في غنى عن الذهب والمرمر

---

(١) ما قاله المؤلف هنا لا يصح قبوله على اطلاقه بل يجب تقييده بالعبادات الوثنية لان العبادات الخالصة من شوائب الشرك التى مناطها القلوب ليس فيها اشكال ولا رسوم

والخشب النفيس ؛ وفى مقدورنا الا نتعرض فى انشائه لشيء من صنوبر لبنان ولا من نفائس المعادن التي تم بها العظم والجلال لهيكل سليمان فان فى الجبس بل فى الورق المقوى غناء عن ذلك كله فى سبيل التربية اذا وجد له أناس صنع اليدين يهيئونه ويستخدمونه فى الدلالة على المعاني ، وقد أصبح اليوم من الميسور تحصيل أهم مثل الاشياء الخلقية والصناعية بنفقات زهيدة ، وذلك بفضل ما اخترع من طرق افراغ المواد فى القوالب وان فيما يوجد بمعاهد التمثيل عندنا من تماثيل الزينة وصورها لبرهانا ناطقاً بأن فى قدرة المصور أن ينقل الرائي الى رومية [1] وأثينة [2] ومنفيس [3] ببعض جولات يتحرك بها قلمه وبشيء من المغالطات البصرية لانه متى أتقن تمثيل ما يمثله من الاشياء فى شكله ولونه كاد ان يحدث فى الخيال ما يحدثه أصله من الاثر فلا عبرة بالمادة وبما يتخذ من الوسائل لبث الروح فيها ما دامت الصورة تنبه المشاعر وتؤدي الى العقل معنى صحيحاً لما يراد تعريفه اياه .

كل دين اذا استكنهناه رأيناه يرجع الى فهم ما ذهب اليه أربابه من الآراء فى خلق العالم ونظامه [4] لكن فهم هذه الآراء هو فى

(١) رومية هي عاصمة ايطاليا الآن وكانت فى غابر الازمان عاصمة مملكة الرومانيين ثم عاصمة لولايات السلطة الروحية ومقراً للبابا كما انها مقره الآن . (٢) اثينة هي مدينة شهيرة من القدم فى بلاد اليونان وهي الآن قاعدة حكومة تلك البلاد (٣) منفيس مدينة كانت عاصمة لمصر فى الازمان الغابرة اطلالها قريبة من القاهرة (٤) فى هذه القضية الكلية مجازفة فى الحكم دالة على أن قائلها بعيد بعدا كبيرا عن فهم حقيقة الاديان خصوصا الدين الاسلامي الذى جوهره الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله

الغالب غاية فى الصعوبة ، وانه لولا الاستعانة بالرموز فى ادراكها لنبت عنها عقول العامة نبواً كلياً . وأما الهيكل الذي أقصد رفعه للعلم فهو معرض تتجلى فيه الحوادث على الناشئين ، بل هو تاريخ حي محسوس للعالم الذى يعيشون فيه مواده كلها موجودة لكنها متفرقة فيما عندنا من المتاحف والمكتبات والمجموعات ونحن عنها غافلون . فليس من الحق ان يكلف اليافع التماسها فى أماكنها لان ما فى هذه الاماكن من العظام النخرة ، والحيوانات المصبرة ، وجذاذ الاوثان المكسرة انما يفيد العلماء. وأما الاحداث فاللازم لافادتهم ايجاد مشهد تجتمع لهم فيه المثل الحية الكبرى للانسان وغيره من المخلوقات على صورة جاذبة لنفوسهم.

هذه معارضنا العامة التى تقام فى باريس ولوندرة قد تعلم منها الجهلة — وهم فى كل أمة سوادها الاعظم — من مناشىء الصناعة وتوزع الاجيال على سطح الارض وأحوال الترقي فى الامم المختلفة أكثر مما يتعلمونه من جميع الكتب التي وضعت فى التدبير السياسىّ وتقويم البلدان ، فكيف اذا عززت مشاهدة الاشياء وكانت بتعليم خاص . تلك المعارض لا تتسنى اقامتها مسانهة وهي فوق ذلك لا تحتوى الا على طائفة من الوقائع والامور المخصوصة واذا كنت قد نوهت بها

والبوم الآخر وقوامه التفكر فى بدائع صنعته والنظر فى ملكوت السموات والارض للاستدلال عليه بآثار قدرته والاقرار له بالعبودية الخالصة من شوائب الشرك وملاكه تطهير النفوس من أرجاس الذنوب وتزكيتها من الشر لتعمر الدنيا أحسن عمارة مؤسسة على أقوى دعائم العدل وأوثق أواصر الاخاء فتستمد بذلك لقائه فى دار البقاء وتنال من رضوانه أكبر الجزاء . فهذا الدين هو الملة الحنيفية السمحاء التى لا رموز فيها ولا ابهام ولا خفاء

فانما قصدت بذلك أن أبين لك ما يعود على الاحداث من الفائدة اذا أقيم لهم معهد آخر للعلوم تمثل لهم فيه صورها .

أصبح علم الكرة الارضية خلواً مما يستميل نفوس المتعلمين موروثاً للسآمة والضجر بمن ما رسمناه له من الخوارت وألفناه فيه من الكتب ، أفلا يكون الحال على خلاف ذلك لو ان هذه الخوارت استعيضت بنسيج تصور عليه الارض وما فيها تصويرا اذا جال النور فى ارجائه ضاعف مغالطة بصر الطفل فخيل له انه على الجانب الآخر للمحيط مثلا ؟ وليس يلزم لذلك الا مصور صادق فى عزيمته باذل نفسه من أجل البلوغ الى غايته .

قام بفكر أمريكي شجاع اسمه « جون بانفارد » يوماً من الايام أن يصور مجرى نهر المسيسبي [1] فركبه وحده فى قارب مكشوف مُصِراً على انفاذ فكره غير مبال بما كان يعترضه من الصعوبات الكثيرة ويعتريه من الآلام الشديدة فيبست يداه وخشنتا بسبب استعمال المجذاف واحترق جلده بحر الشمس فصار عما قليل كواحد من هنود أمريكا فى لونه وقضى أسابيع كاملة بل شهوراً لم يصادف فيها انسانا يكلمه ، ولم يكن له رفيق سوى قرينته فقد كانت هذه الرفيقة تتكلم بأعلى صوت كلاماً حقا لا خطأ فيه يفهم بعضه طيور النهر والاجمة . وكان يخرج فى كل مساء من قاربه الى البر ويوقد ناراً فيشوى عليها ما يصطاده ثم يرقد ملتفا فى غطائه مكفئا فوقه القارب ليكون له جنة دون الحيوانات

(١) المسيسبي نهر عظيم فى أمريكا الشمالية يصب فى خليج المكسيك بالقرب من مدينة نوفل أورليانس وطوله ٥٥٠٠ كيلو متراً

الوحشية وسقفايقيه ظل الليل ، وكان عند شروق الشمس يهب من نومه ويمضي عامة يومه في اجتياز النهر من شاطيء الى آخر على التوالى طلبا لمنظر جديد ، فكان يسترعي طرفه فى مكان خليج عميق وفى آخر اسراب من الطير وتلفته فى ثالث جزيرة صغيرة عليها خضرة نضرة وهو لا يفتر عن تسويد ما يلاحظه فلم يغادر شيئا مما يستحق التصوير الا رسمه خطفا واختلاسا ، ولما فرغ من تقييد اشاراته وملاحظاته اتخذ له فى المدينة المسماة « لويسفيل » بولاية « كنتوكى »[1] بيتامن الخشب حيث أنشأ يصور ما قيده على النسيج — وما كان أطوله ! — فقد بلغ ذرعه ثلاثة أميال . لا شك ان ذلك المصور كان أهلا لان يأتى بطرفة من الطرف وان كان رسم مناظر المسيسبي ليس في الحقيقة الا حكاية صادقة لسفره خطها قلم الرسم خطا بطيئا ، ونحن على كل حال نرجو الله (سبحانه) أن يقيض لنا من يحتذى مثال « جون بانفارد » من المصورين وأن يهبهم من الاقدام والاخلاص للعمل ما وهبه فانه لو تحقق ذلك لاصبحنا بسطح الكرة التي نسكنها أعلم منا الآن بكثير

وليت شعري ! أي مانع يحول دون انفاذ عمل كهذا يكون تاريخا للارض ومن يقطنها من الامم ؟ ربما قيل : ان ذلك هو ما يقتضيه من انفاق المال الكثير فأقول هذا مسلم ولكنا ننفق فى تبديل سلاح بآخر أو طريقة من طرق القتال بغيرها أو فى بناء بارجة أو اقامة حكومة جديدة مدة بقائها ثمانية عشر شهراً على الاكثر ننفق فى هذا أضعاف

---

(١) كنتوكى هى احدى الولايات المتحدة فى امريكة الجنوبية سكانها ١،٨٥٥،٤٥٠ نفسا وعاصمتها فرنكفورت

ما تقتضيه منا طريقة التربية على نواميس الفطرة الانسانية اه .

لاشأن لنا فى ذلك وعلينا التسليم والامتثال فان هيكلا كالذي وصفته تتجلى فيه الوقائع والمعاني انما هو صورة من صور الخيال لا وجود له فى الخارج ولن يوجد بلا شك فيجب علينا اذاً بناؤه فى للمستقبل فى ذهن « أميل » بمواد أخرى اه .

الرسالة التاسعة والعشرون

﴿ من هيلانه الى اراسم فى ٣ فبراير سنة — ١٨٥ ﴾

« التربية والتعليم بالفانوس السحرى والتمثيل المعارض »

وهمت أيها العزيز فى دعوى أن ذلك الهيكل الذي تمنيت اقامته للعلم لا يوجد ولن يوجد فانه موجود بالفعل فى سايدنهام [1] على غاية القرب من لوندرة واسمه القصر البلوري وفى نيتى أن أزوره أنا «واميل» متى أمكنتني الفرص وصار في سن تؤهله لادراك ما فيه من مواد التعليم ، نعم اني لست على يقين من مطابقة طريقة بنائه لآرائك تمام المطابقة ، ولكن أقل مافيه على ما سمعته أن القصد من انشائه موافق لقصدك وقد يدهشك أن تعلم أن ليس للحكومة يد فى بناء هذا القصر العامي (وانما أصفه بذلك لان المقصود الاصلي من اقامته انما هو تربية

---

(١) سايدنهام قرية من قرى انكلترة واقعة على بعد ثمان كيلومترات من لوندرة بنى فيها القصر البلورى للمعرض العام الذى أقيم فى سنة ١٨٥١

طبقات العامة) فان كل ما فيه من البساتين الواسعة والبناء البلوري والآثار القديمة والتماثيل وجمل الاشياء المفيدة ملك لجماعة من المتساهمين وقد عهد برفعه الى مشهوري العلماء والصناع والآخرين فكانوا يباشرون بأنفسهم افراغ المواد فى القوالب وتحصيل مُثُل الاشياء . ذلك لان الانكليز اذا قصدوا تحقيق غرض مفيد أو انشاء معهد جديد لمنفعة عامة اعتمدوا على أنفسهم بسبب ما آتتهم ضروب الحرية ووسائل العمل الذاتية من قوة العزيمة وشدة البأس غير راجين من الحكومة مساعدة مالية ولا قولية لعلمهم أن العمر ينقضى دون الوصول الى ما يرجون فهم متى أرادوا أقاموا تماثيل لعظمائهم ورفعوا هياكل لفكرة يبديها الواحد منهم .

أراك تشكو من عدم وجود معاهد للتمثيل عندنا خاصة للاطفال فاعلم أن لاطفال الانكليز واحداً منها ، ذلك أنك فى صبيحة عيد الميلاد تجد معظم تلك المعاهد كأنها قد انفكت عن الاختصاص بالقصص الجدية والهزلية ولا يقبل فيها من الكبار الا من كان مولعاً بسماع الاساطير كاسطورة اهاب الحمار [1] واسطورة الاصيبع فكل واحد

---

(١) اسطورة اهاب الحمار من اساطير شارل برولت الذى سبق التنويه بذكره فى هامش الرسالة الخامسة والعشرين وملخصها أن ملكا كانت له زوجة يحبها جدا ورزقت منه بينت فائقة فى الجمال ثم مرضت وعند احتضارها استحلفته أن لا يتزوج الا بمن تكون أجمل منها فلم يجد فى عقائل مملكته من تحقق فيها الشرط الا بنته فافضي اليها بميله الى تزوجها فأنكرت عليه الامر فصمم فاشتكت الى جنّيتها فارشدتها الى ان تطلب منه حلة كالزمن فى لونه

منها يصح أن يعنون بمعهد الرءوس الشقر لان الاطفال في شهرين أو ثلاثة من السنة يكونون هم المتصرفين في اختيار نوع الألاهي العامة والمتمتعين بكل ما في المعاهد من المقاعد المخملة والموسيقى وضروب الغرور والفتنة ، ويؤكد لى الناس هنا أن كثيرا من تلك المشاهد يحصل فيه التمثيل مرتين في اليوم احداهما بعد الظهر لمن يتعجل في النوم من الاطفال الذين لا يقوون على السهر والثانية في العشي لليافعين والآباء

فاستصنعها لها فأوعزت اليها بطلب أخرى كلون القمر ، فما كان أقرب من تقديمها لها ، ثم بثالثة كلون الشمس فكان ما طلبت ، وكان لابيها حمار يحبه كثيراً لانه كان يجد تحته كل يوم مقدارا وافرا من النقود ، فلما أعيت الحيلة تلك الاميرة وظنت أن لا خلاص لها امتلا قلبها حزنا فأوحت اليها الجنية بأن تطلب اهاب الحمار (جلده) فقدم لها بعد استغراب فزادها ذلك جزعاً فقالت لها الجنية كفى فهذا وقت خلاصك فالبسي اهاب الحمار وأخرجي فانه لا يشعر بك أحد وسأتبعك بحليك وحللك أينما قصدت فخرجت فى ذلك الاهاب وساحت فى الارض فدخلت مملكة أخرى فاستخدمتها زوجة مزارع فى رعاية الديكة وكنس معلف الخنازير لرثاثة حالتها وقذارتها ، فرآها ابن ملك تلك الجهة من خصاص كوخها وقد تعرت عن اهاب الحمار ولبست حلة من حللها ففتن بها وذهب الى أهله مدنفا سقيما وحار الاطباء فى أمره وقالوا انه لا مرض به الا الفكر ، وبعد الحاح من والديه طلب ان تصنع له الخادمة التى تلبس اهاب الحمار قرصا ففعلت ودست فيه خاتمها لانها قد فهمت حقيقة الامر فلما تناول الخاتم فى فمه قال لوالديه انى أريد أن أتزوج بصاحبة هذا الخاتم فنودى فى المدينة بأن أية فتاة يوافقها الخاتم الذى فى بيت الملك تكون زوجة لولىّ عهده وكانت نتيجة ذلك أن تزوجت به وعاشا فى نعيم ورغد واسطورة الاصيبع تقدم تلخيصها فى هامش الرسالة الخامسة والعشرين

والامهات وللشيوخ الذين حفظوا للشباب في ناحية من أذهانهم شعاعا من ضيائه ولمعة من بهائه ؛ وينبغي على ذلك ان أول شرط يلزم تحققه في النظارة ان يكونوا صبيانا أو مستصبين ؛ والا فكيف يروقهم سماع ما يروى هنالك من أقاصيص الجن وما يمثل من الاضاحيك ؛ نعم إن مواضيع تلك الألاهي البهجة هي في الجملة غاية في الابتذال ، وانك لتأسف على ما يضيع في سبيل تربية الادراك بهذه الاماكن من نفقات الزينة والثياب وغيرها من عتاد التمثيل لان ما يحصل فيها من تغيير المناظر قلما يفيد الا اثارة وجدان الاعجاب والدهشة ، ولكن ما أشد ما يبديه الاطفال عندها من دلائل الفرح المنبعث عن السذاجة ! وما أبلغ ما يظهر من تشوفهم اليها . وأعظم ما يكون من بريق أبصارهم وحملقتها بسبب استغرابها والافتتان بها ! خصوصاً اذا جاء دور ذلك المنظر المعروف المسمى منظر الانقلاب والتحول ، فاشد ما تخفق القلوب هنالك خفة ومرحا .

ومهما كان في تلك المرائي من الابتذال فلا ينبغي أن يستخف عما يتجلى للاطفال فيها من تلك القصور المسحورة وأمطار العسجد والشرر والانوار المشتملة على جميع ما يرى في الفجر القطبيّ من الالوان المتباينة والجزر السعيدة (الجزائر الخالدات) والنساء العائشة في السحب وفي الاشجار والازهار ، وبالجملة لا تصح الاستهانة بتلك المخترعات الخيالية العامية التي تمثل في أضاحيك المناظر فأينما طار بنا الخيال وان على أجنحة من الورق المقوي ولم يرفعنا الا قليلا فانه يفككنا ساعات مما يبهظنا من اغلال العوائد والحاجات . تلك المناظر الغرّارة لن تنفك

أن تكون محبوبة للعامة والاطفال لأنها تفتح لهم جزءاً من أبواب الكمال المطلق البالغ أقصى غاياته .

لما رأيتنى لا أملك الآن الذهاب « بأميل » الى القصر البلورىّ ولا الى معهد التمثيل عولت على الاستعانة بآلة يطاف بها هنا فى المدن والقرى وهي الفانوس السحري ، وكأني بك تضحك من ذلك ، ولكن أىّ مانع يمنع من أن تكون تلك الآلة المستعملة لتحصيل اللذة والاعجاب من وسائل التعليم أيضاً ؟ فليس ذنباً للفانوس السحرىّ انه قلما استعمل الا لتمثيل الصور المضحكة الغريبة فى دارة مضيئة بل هو لا يكون الا مفيداً اذا قصد به الجد ، ولو أن العلماء تفضلوا على المصورين بارشادهم الى ما يختارون من مواضيع العمل والى طريقة التصوير على الزجاج لادى الفريقان للاطفال — فيما أرى — فوائد حقيقية ، وقد سمعت أن المتولين أمر التربية فى انجلترة سبقوا الى اتخاذ هذه الطريقة فى بعض المدارس لتأدية شيء من معاني علم الفلك وتقويم البلدان والتاريخ الى عقول الناشئين .

أنت تعلم أن علماء الفلك قد رسموا صور الاجرام السماوية الكبرى وخططوا آثار ذوات الذنب والشهب والخسوف والكسوف أو انتزعوا صورها بآلة التصوير الشمسىّ (الفوتوغراف) فلو أننا أردنا أن نجعل الفانوس السحرىّ الذى هو الآن مشهد الاوهام والمغالطات مشهداً للحقائق أيضاً كفانا في ذلك أيضاً أن ننسخ على زجاجه رسوم السماء وما فيها مصورة على الحالة الفطرية تصويراً مضبوطا .

اذا كان المراد تمثيل الارض فى هذه الآلة فلست على يقين من

صلاحيتها لتحصيل صور جميع ما فيها من سلاسل الجبال الكبرى ومجارى الأنهار العظمى ومجاهل الصحارى المريعة وأشكال السواحل الوعرة المغمورة بالمحيط ، ولا حيلة لنا فى ذلك فعلينا أن نكتفي بمبلغ طاقتنا من تصويرها فيها . على أن الطفل يروقه نظر الاشياء تفصيلا أكثر من النظر فيها جملة فهو اذا نظر الى صور الاقاليم وهيئاتها فانما يلتمس أثراً يروعه ويدهشه كصخرة غريبة الشكل أو نبات أجنبيّ أو حيوان عجيب أو انسان مغاير لنا بلون جسمه .

وأما التاريخ فلا شك فى صلاحية الفانوس السحريّ لتعليمه فانه يتأتى به احضار خيالات من يتحدث عنهم من الماضين فلامانع من أن يرسم على صفحته صور الشجعان الغابرين بزيهم وبزتهم وصنوف ماوجد من الصور الغريبة كأبى الهول والثيران ذات الاجنحة وذات الرءوس الانسانية واللحى السوداء والجنّيات والآلهة وغيرهامن الصور الخرافية لانها اذا كانت خرجت من الليل فلا عجب أن تعود اليه .

أنا لسوء حظي لست عالمة ولا مصورة ولكنى أرسم رسماًمناسباً لحالتي ؛ وكنت أرى منك أحياناً استحسان رسومي الكثيرة الألوان نعم اني لا أحسن طريقة التصوير على الزجاج فانها حرفة تتعلم وكمال سأفتخر بأن يكون « اميل » هو صاحب الفضل عليّ فى كسبه ، وأصعب ما عليّ فى ذلك ـ فيما أرى ـ انما هو الحصول على مُثُل متقنة لاني أخال أن الواجب على المربي هو أن يكون دقيقاً فيما يعلمه الطفل وأكره أن لا أبرز الاشياء لولدى فى صورها الصحيحة ، وقد وعدني الدكتور « وارنجتون » وهو موافق لي فى كثير من أفكارى أن ينتقي

لي من اوندرة صوراً منتزعة بآلة التصوير الشمسى (الفوتوغراف) أو رسوماً أخذت من علماء الطبيعة وعلماء الآثار والسياح ، وأنا بفضل معونته على أمل من إنشاء مشهدى الصغير عما قليل . اه

الرسالة الثلاثون

﴿ من هيلانه الى اراسم فى فبراير سنة ١٨٥ — ﴾

تعلم الاطفال الضرب فى الارض ومعرفة جهاتها بالعمل وتعلمهم الصناعة بمعالجة ما يشترى لهم من اللعب

أحب أن أصف لك « اميل » فأما صورته فقد عرفتها فى الرسم الذى أرسلته اليك منتزعاً بآلة داجير التصويرية (الفوتوغرافيـة) وأما سيرته وأحواله فهي التي أريد أن أحدثك عنها فأقول :

أرى له جراءة على السير والتجوال لا توجد فى أترابه ففيـه ما أظنك تسميه بغريزة خرت الارض [1] وقد بلغ تمكن هذه الغريزة من نفسه مبلغاً ما أراني فيه قادرة على اضلاله ولا هو يحتاج فى الاهتداء اذا أنا أضللته الى القاء الحصى وفتات الخبز في الطرق لتكون كالصوى والاعلام [2] لانه يهتدى بنفسه ولا يلبث أن يميز بهب الريح وحركة السحاب الجهة التي ينبغي أن يؤمها وأرى أن الذى أظهر هذا الاستعداد فيه هو ما استفاده بالعمل من صحبة (قوبيـدون) فانت تعلم ان في

---

(١) خرت الارض (كنصر) عرفها ولم تخف عليه طرقها ولعل لفظ (الخارطة) أو الخريطة مأخوذ منها (٢) تشير الى أسطورة الاصيبع التى سبق ذكرها

عيني هذا الزنجي ورأسه بيت ابرة مغناطيسية

لا أنكر أن مثل هذه العلوم من الاوليات ، وذلك يؤكد وجوب أن يتعلمها الاطفال وكلامي في ذلك عن خبرة وتجربة فانني تربيت في مدرسة داخلية كان التلميذات فيها غافلات عما وراء المدرسة من شؤون الحياة ومتاعبها . وكنت بعد ذلك اذا خرجت الى المزارع والرياض لا أعرف الشمال من الجنوب ولا أميز بين الشرق والغرب ، وأخجل ذلك الخجل الضار أن أسألك عنها خشية ظهورك على جهلي . ولو كان هذا الجهل خاصا بمثلي لكان الخطب سهلا ، وأراني صادقة اذا قلت ، ان كثيراً من أهل النهاية في العلم ليسوا بأوسع علما مني ببعض مواضيع مساحة الكرة الارضية العملية . أنا لا أدري بالضرورة ان كان كتب على « اميل » أن يكون سائحا وجواب آفاق ، ولكني أرى أن الناس محتاجون في جميع أطوار الحياة الى معرفة الجهات والامكنة احتياجاً تختلف درجاته ، فبعضهم أحوج الى التوسع فيها من بعض وان صدق النظر اذا تعزز بالتجارب كان للانسان ركنامن أركان الحرية .

يأكل « اميل » على المائدة كالانكليز أعني انه يأخذ السكين بيده اليمنى والشوكة بيده اليسرى يأكل بها ، وقد أنكرت هذه العادة أولا ثم تبين لي انها أسهل فان استعمال كلتا اليدين معا يمكن من القطع والتناول فضل تمكين ، فالانكليز عُسُر (جمع أعسر) في الاكل دون الاعمال الصناعية .ولست أدري ما هو عذرنا في ترك تمرين عضو من أعضائنا على العمل ، فهل كانت أعضاؤنا زائدة عما

نحتاج اليه في استعمار الارض ومقاومة ما يعترضنا من العقاب المادية في سبيل الحياة فنستغني عن بعضها و نغفله ؟

قرأت في ترجمة حياة (جمس وات) المهندس الانكليزي الشهير انه كان يستعمل فى طفوليته أدوات والده النجار فى اختراع لعب لنفسه أو تحويلها من شكل الى شكل . ويقال ان هذا التمرين ساعده كثيراً في تدريب يده على الصناعة وقوى ما كان فى نفسه من الاستعداد لعلم الآلات (الميكانيكا) حتى صار ملكة راسخة فيه . ولست أطمع أن يكون « اميل » مخترعاً لآلات جديدة ، ولكني أرغب أن يكون ماهراً فى تحريك أصابعه ولهذا لا أمنعه من تكسير لعبه ليرى ما فى جوفها — كما يقول — اذا تعهد لي بارجاعها الى أصلها .

على انى لاحظت أمراً أحب أن أعرضه عليك ، وهو أن لعب الاطفال تكون مناسبة لطبيعة البلاد التي ينشؤن فيها فأهل السواحل يلعب أطفالهم بما تحدثه في نفوسهم صناعة الملاحة . وقد أجاب (قوبيدون) الذي هو كالفرد في الخفه والمهارة رغبة « اميل » ورفيقيه فصنع لهم بسكين مركباً شراعياً صغيرا أنزلوه فى خليج الجبل باحتفال حافل فكان بذلك قدوة لهم في هذه الصناعة البحرية حتى انهم أنشأوا لهم أسطولا مؤلفاً من طرادات وسفن من ذوات السارية ومن ذوات الساريتين وقوارب وزوارق ، وبعض هذه السفن مسلح بمدفع من الخشب ، فكأن لسان حالهم يقول : ها نحن أولاء مستعدون . فليهاجمنا المهاجمون ، وكنت اذا سئلت عن قيمة هذه الاشياء السابحة على وجه الماء أظهر ترجيح ما يصنعه الاطفال من سفن اللعب على ما يبتاع من

التجار من نوعها وان كان أحسن منها صنعا .

يحب « اميل » العمل ويميل الى سماع القصص كما هو المعهود من مثله . وأنا موافقة لك فى انتقاد توسع الناس فى مخاطبة الاطفال خصوصا مخاطبتهم بما يعلو ادراكهم وأفهامهم وينبو عن مشاربهم ، وهذا من آفات التربية التي يجب تجنبها ، وما أعظم الفوائد والمزايا التى يستفيدها الاطفال من تعليم أمهاتهم الشفوي ان تجنبنها . وانما حدا بي الى هذا الفكر النظر فى ما يؤثر عن جميع الامم قبل اختراع الكتابة والتصنيف مما كان الاعتماد فى حفظه على الذاكرة فقد قرأت فى كتاب لا أذكر اسمه الآن ان بعض اليونانيين كانوا يعارضون قدموس[1] في وضع الحروف الهجائية لهم محتجين بأن اعتياد الناس اثبات حوادث التاريخ على الالواح يضعف الذاكرة بالتدريج . وكان لهم وجه في هذه المعارضة فهي تشبه المعارضات التي توجه الآن الى كل ضرب من ضروب ارتقاء الانسان .

نرى الاطفال قبل تعلم القراءة والكتابة ينتحلون كثيراً من الافكار والآراء فأهم شيء يبتدىء به المربى هو النظر فى اختيار أمثل ما يودعه فى نفوسهم من المعارف ثم فى اختيار أمثل الطرق لايصال ذلك الى أذهانهم الخالية ونقشه فى الواح نفوسهم الصقيلة وكثيراً ماخرجت مع « اميل » عن أساليب لغتي وقواعدها لاجل ذلك ، وما كان أشد اغتباطي وسروري عندما كنت أراني قد ملكت سمعه بتكلمي بلغته .

(١) قدموس هو الرجل الفينيقي الذى أنشأ مدينة طيبة ونقل الحروف الهجائية من مصر الي بلاد اليونان .

والنجاح في هـذا يتوقف على اخلاص القلب و نسيان النفس وهذان الامران انما يحصلان بالرياضة والمزاولة على ما أرى .

من الثابت المقرر ان للاطفال شعراً خاصا تعرفه الامهات حق المعرفة ولـكننا نحكّم فيه شعرنا وخيالنا ،فـكيف السبيل الى حفظ هذه القوة الشعرية و بقاء غضاضتها بحيث لا يسقط عبثنا بها زهرها ، ولا يذويها ويذهب بنضرتها لاحلال شعرنا محلها .

الدنيا مملوءة بالحـكايات التي يدعى انها وضعت للاطفال وأمثلها حكايات (برولت) وأرى ان ما فيها من الصنعة والحذلقة يخرج بهـا عن مهد الطفولية الى مستوى الـكهول ومرتبة الشيوخ . وأفعـل الحـكايات في استمالة اميل وتحريك رغبته وميله ليس مما يعهد في الشعور العام والحس المشترك أعني ما يجول في أذهان البالغـين دون الولدان الذين في السادسة أو السابعة فالحـكايات الخرافية القديمة جدا التي لم يخفف الدرس والصنعة ما فيها من معاني الشعر الفطرية هي التي تقع من نفسه موقع القبول في مثل هذه السن .

فمن الحـكايات المتداولة في البلد الذى نسكنه مافيـه ذكر المرَدة والاغوال والجنّيات والتنابيل (القصار جداً) وهو ما يذهب بنوم الاطفال في ليالي الشتاء ويجذبهم الى السّمار [1] لسماع تلك القصص محدقين بابصارهم الى السامر ولى أن أعتقد أن هذه الحـكايات مختزلة من أشعار وقصائد قديمة ضاع أصلها وتناقلت الناس ما بقى من معانيها مرضع عن مرضع وأم عن ام حتى انتهت الينا في شـكل يخالف شكلها

(١) السمار بتشديد الميم جمع سامر وهو الذى يتحدث فى الليل

الاول قليلا أو كثيراً .

زعم عالم من كرنواى ألاقيه أحياناً فى منزل صديقنا الدكتور أن لديه وسيلة هو واثق بأنها توصل الى معرفة أصل هذه الخرافات ومنشئ تلك الحكايات ، والذى فهمته عنه من هذه الوسيلة هو أنه يستعين على تلك المعرفة من حيث هو عالم أثرى بلحن تلك الحكايات ونحواها من حيث مشابهتها لما نخترعه من الحكايات وعدم مشابهتها له ، فهو يرى أنه كلما كان معنى الحكاية بعيداً عن تصورنا واختراعنا كانت أوغل فى القدم فاذا بحثنا فى شأن الجنيات فى هذه الحكايات نرى أنها فى الاعصر القديمة كانت توصف بأنها مجردات منزوية عن الناس ، شرسة صعبة الراس ، وقوى طبيعية رفعت الى مرتبة الآلهة وألبست شعار الدين ثم ما زالت تقرب من الناس وتتشكل بشكل الانسان قرناً بعد قرن وتأنس به حتى صارت اناثاً يتزوج بها الرجال . ومما يروونه فى هذا ان رجلا تزوج بجنية وعاشا معاً عمراً طويلا فى كوخ وقد كان من طول أنسه بها أن نسى كونها جنية الا أنها فرت ذات ليلة متعلقة ببعض أشعة القمر . كذلك شأن المردة فان هذه الكائنات الوحشية المشوهة كانت تعرف فى الزمن القديم بأنها مثار الوساوس المخيفة والهواجس المفزعة وبكرور الزمان ومرور الايام اقتربت من الانسان فى أحوال معيشته وضعف سلطانها فى نفسه وتأثيرها في وهمه وخياله وتحول الرعب الذى كان مقروناً بذكرها وتصورها الى الضحك والسخرية وهكذا تنتهي دولة الخرافات وتزول .

لا ريب انك واقف على قصة يعقوب مواثب المردة وقاتلهم الذى

كان يعيش في كورنواى على ما يروى فى الاساطير (فاميل) يحب حديثي عن غزوات هذا الشاب الشجاع ابن أحد الزراع وأشهر وقائعه التي سار بخبرها الركبان مايروى أنها وقعت فى جبل ميخائيل قديس انكلترة وهو صخرة تكاد تكون بأزاء منزلنا وكان المارد الذى يخطف الناس والبهائم قد تبوأها منزلا واتخذها مثوًى له . وقد كان أعظم خدمة قام بها حماة الحق في عصور الهمجية ـ ان لم أكن واهمة ـ هى مقاتلتهم السلبة والوحوش الضارية وقتلهم لهم فانهم بذلك قد طهروا الارض من العتاة والبغاة الذين كانوا يعيثون فيها فساداً . وبهذا الاعتبار نرى اليونانيين قد أنصفوا في رفع مكانة هرقل[1] وتيزيه[2] وجعلهما من أنصاف الآلهة كذلك فعل يعقوب بالمارد فانه هاجمه في مغارته وانتصر على تلك القوة الوحشية الفاتكة بالحيلة فكان جديراً بأن يكون خلفا لأولئك الشجعان الاقدمين .

لهذه الخرافات فضل وقيمة ولو أنها الغيت من التعليم القولي لاسفت كثيراً فان امام الطفل في هذا العصر الذي كله حقائق زمناً طويلا يتسنى له فيه التحقق بأخلاقنا وعوائدنا الحقيرة ، فلنغنم فرصة

---

(١) هرقل أو هرقول اليونانيّ كما هو فى أساطير اليونان (ميثولوجيا) ابن جوبيتر (المشترى) كبير الآلهة من زوجه ألكمين وأعظم الشجعان الذين كانوا يقتلون التنانين والضوارى والافاعى العظيمة .

(٢) تيزيه من شجعان اليونان المشهورين وهو ابن (اجيه) ملك أثينا قتل مينوتور وهو بحسب خرافاتهم وحش نصفه آدميّ ونصفه ثور واشتهر فى وقائع عصر الابطال .

فجر حياته القصير الامد الذي ترتاح فيه نفسه للاحاديث الخرافيه وتتأثر بغرائب الاساطير لنودع فيها أنواع الوجدان الاعلى ، ونبعثها على حب الاعمال الجليلة والسجايا الفضلى ؛ فان طبع الطفل يتكون وينشأ في قوالب المثل التي تكون لها مكانة في نفسه عندما ياتى اليه خبرها وتمثل له صورها . نعم ان (اميل) لن يكون قاتل مردة — وأين المردة اليوم — ولكن قصارى مافى قص هذه القصص عليه من الفائدة انها تهز نفسه وتحرك أريحيته بما فيها من ذكر غزوات عصر الابطال ولو كنت أجد منه انقباضاً وشكا عندما أقص عليه تلك الوقائع التي أبالغ عن قصد فى بيان اخلاص أبطالها وعلو نفوسهم وأمانتهم لساءني ذلك وأحزنني .

نحن فى شؤون الحياة لا نزال دون غايات الكمال المبتغاة فيجب علينا — ان لم أكن واهمة — ان نعجب بما يروى عن اولئك الابطال من فضيلة الشجاعة وان بعد احتمال وقوعها حتى لا نكون فى أسفل دركات الجبن .

في نفسي أمر أنا فى أشد الحذر من الافضاء به الى (اميل) لسببين أحدهما انه لا يفهمه والثاني انه يذهب بما لهذه الخرافات من الشأن الرفيع عنده ، وهو ان تلك المردة التي هي موضوع تلك الاساطير ليست سوى أشخاص هذه الصخور الكثيرة فى كورنواي . فالحق والحق أقول ان هذه الاجرام الصوانية الهائلة تحتمل فى كل يوم أقصى ما قدر فى هذا العالم على كل قوة ذات مقاومة غير مألوفة أن تحتمله ذلك ان تنبالا كان يتسلق تلك الصخور العظيمة المحيطة بذلك المكان الذي

يسمونه نهاية الارض « Land's End » وينقر باداة من الحديد نقرة يضع فيها قرطاساً من البارود ذا فتيلة ويشعل الفتيلة ويكر راجعا فيكون الانفجار ويتصدع الصخر وتتزلزل الارض ويضطرب البحر . فيعللون في الاساطير مثل هـذا التزلزل والاضطراب بسقوط المارد .

يتراءى لي أن محو الخيالات من أذهان الاطفال لا يفيد المربين شيئاً فأين تلك الحكايات والقصص الغريبة التي كان الاطفال يفتنون بها لما فيها من السذاجـة والغرابة ؟ لقد ضاعت ونسيت وصار عصرنا هذا وهو عصر القصص والروايات الخيالية أبعد الاعصر عن القصص والاساطير المذكورة ، فان القصص التي ندونها فى هذا العصر لا تمثل الا الوقائع المعهود للناس نظيرها ، لاننا بما كنا من أهل الحقائق المعتمدين على الوقائع الثابتة ومن سكان المدن الآهلة والحواضر البعيدة عن الوهم والتخيل كانت عنايتنا فى التربية محصورة فى ايداع جميع أذواقنا ورغائبنا فى نفوس أولادنا . أقول ما قلت لا لانني أدعي الحكمة والفلسفة وأعوذ بالله من دعوى الاشراف على الغيب والحكم على الاستقبال ؛ ولكني اسائل نفسي عن حال هؤلاء الاطفال الذين صاروا شيوخا وهم فى سن اللبان ، وقد قطعنا عليهم طريق الوهم والخيال ، فنحن نعلمهم قيمة الفضة وهم في طور يجهلون فيه الحسن المطلق والجمال الذاتي . ومن العبث ان يقال ان ما تصفه لنا الاساطير من الاخلاق الفاضلة والمزايا العظيمة لا أثر له في الوجود ، فان عدم وجود اولئك الرجال والنساء الموصوفين بما ذكر من الاخلاق والمزايا في أنديتنا وسمارنا ، وعـدم تجوالهم فى أسواقنا وشوارعنا ، يجب أن يكون من الاسباب التي تحملنا على عدم

اخراجهم وطردهم من جنة الطفولية حيث يتمتع الاطفال ، فى عالم التصور والخيال . فاستحاف القائمين بأمر التربية بالله (تعالى) ان يدعوا لهم متبوءاً فى البيوت . وأما أنت يا عالم الخيال . من الجنيات والابطال الذي هززت قلوبنا فى طور الطفولية ، وحركت نفوسنا للخيرات والفضائل النفسية ، بما كشفت من النقاب عن وجه الكمال ، وأبرزت من مظاهر الجمال والجلال . فلا تزل ولا تحتجب عنا فى جو هذا العصر الوخيم ، المثقل بضروب الحسبان والهموم ، الذي شغلت أهله الاغراض المادية ، وطلب المنافع الجسمانية ، فاننا نصغر ونحتقر اذا صرفنا أولادنا عن الاعتقاد بعظمتك الخيالية التى علمتنا الحسن الذاتي والعظمة الحقيقية .

أرى من الخطأ أن تعاب هذه الخرافات ببعدها عن الحقيقة فان هذا وإن كان مذموماً بالنسبة الينا فهو محمود بالنسبة الى طور آخر من أطوار العمر . فما يظهر لنا بعيدا عن الحقيقة حقيقي في نظر الطفل . أخذت هذا الحكم من طبع (اميل) الذي ابتهج بأني سبرته واختبرته فهو على عدم سماعه شيئاً من الدين متدين بطريقة خاصة به ، وله قوة عجيبة في ابتداع الصور الخيالية التى يمتاز بها الانسان في طور الطفولية وتضعف في سائر أطواره بالتدريج ، فانه يرى وراء كل حادثة كونية كالمطر والريح وغروب الشمس قوة حية بل ذاتاً مشخصة ، فقد فرّ منذ أيام من البستان مذعورا لانه رأى سحاباً مركوماً ظهر في السماء باشكال غريبة وقال لي إنه رأى فيه رأس شيخ ذي لحية بيضاء . أليس لمثل هذا التأثر الناشىء من الخوف خوف الاجلال والاعظام الفضل

في ادراك معنى الالوهية الاول الذي فهمه الانسان . ؟ اه

الرسالة الواحدة والثلاثون

﴿ من هيلانة إلى اراسم في ١٥ مارس سنة — ١٨٥ ﴾

(تعليم القراءة والخط والرسم

لما يتعلم (اميل) القراءة ولا يكاد يعرف حروف الهجاء وربما كنت أنا اللومة على ذلك لانني لم أحثه على التعلم الا قليلا . ذلك انني لا أنفك أذكر تلك الغضاضة والكراهة للتعليم الأول وما سببها على ما أرى الا الاكراه عليه وهضم ما كان يجب لطفل صغيرة مثلي من حق الحرية والاختيار . وأرى ان حملي « اميل » على التعلم لان غيره يتعلم كما كان يقال لي جناية عليه لان عاقبة هذه الحجة أن تطبع الناشىء على التقليد الاعمى والاقتداء بالناس فى جميع عاداتهم من غير تفرقة بين الحسن والقبيح . ولم نختار ركوب الصعب في هذه السبيل ولدينا المركب الذلول وهو حمل الطفل على التعلم بالتشويق والتنويه بما في المطالعة من اللذة فقد يستغنى الانسان عن الاشياء التي يجهل فوائدها ومزاياها .

أنا جاهدة في تلمس الوسيلة التي تذيه اشتياق « اميل » الى الحروف المطبوعة وتبعث فيه الميل الى معرفتها . واذا علم أن القصص العجيبة والاساطير الغريبة التي أفكهه بملحها وأفاكيهها كلها مأخوذة

من الكتب فلا بد أن يجدّ به الميل وتحمله الرغبة على أن يأخذ تلك الحكايات من مصادرها ويستخرجها من ينابيعها بنفسه في يوم من الايام . واذا تولدت هذه الرغبة يوما ما فكل ما بعدها يتبعها من نفسه وانني لا أفتأ أنتظر تولدها وانبعاثها الحسن فيه وقد طال تأخرها .

نحن مع صيرورة القراءة حاسة سادسة لنا بما رسخت ملكتها فينا لم نحط خبراً بالعقبات التي تحول دون وصول الطفل الى معرفة الحروف الهجائية بسهولة ، وأنا باحثة عما عسى ان يكون منشأ لهذه العقبات الثابتة الراسخة ويشق عليّ الوقوف عليه وربما كان منشؤها ان ما دون علم القراءة والكتابة من سائر العلوم يساعد بعضها على معرفة بعض ، ويعد متعلم أحدها ويؤهله لفهم الآخر اذا هو انتقل اليه لما بينها من الصلة واتحاد طرق الدلالة . وأما علم القراءة والكتابة فانه يخالفها في ذلك لانقطاع الصلة بين الاشياء وبين هذه الاشكال والرسوم الصناعية التي وضعت للدلالة عليها ، فاذا انتقل المتعلم من مسميات الاشياء الى أسمائها المرسومة في الورق انقطع الاتصال به فجأة

لا يصعب على « اميل » ان يميز فيما يراه من صور الاشخاص المرسومة وجوه أصحابها اذا كان رآها لان الشكل في الصورة والمصور يكاد يكون واحداً فاما الاسم المكتوب فانه لا يمثل له شخص المسمى بحال من الاحوال فهل توجد طريقة لربط هذين النوعين من الاشياء في فكره وأعني بهما الرسم والكتابة ؟ هذا أمر يطلب منك الجواب عنه .

أنا أكلم « اميل » بالفرنسية وهو يتكلم مع أهل كورنواى بالانكليزية فهو بهذه الطريقة يتعلم لغتين من اللغات العصرية بلامشقة بل لا حرج عليَّ اذا قلت بلا شعور منه بذلك ، الا انه يغلط فيهما غلطا غريباً فيمزج أحياناً بعضهما ببعض مزجا يكون من أشد الاضاحيك استضحاكا . مثل لنفسك غلاما يقول مخبراً لك بأنه يريد الخروج (Je voudraistogo out) ألست تغرب لهذا الخلط ضحكا؟ لا غرو فما كان تكوُّن اللغات المختلطة فيما سبق الا فى مثل هذه الحالة وهي تجاور جنسين متمايزين واختلاطهما زمنا في مكان واحد . أنا أعتقد انني أعلم « اميل » وهو فى الحقيقة معلمي لانه قد فتح عيني وهداني الى عدة مسائل ذهب تعبي في البحث عن حلّها فى الكتب سدى . وليت شعري هل تصدقني اذا قلت لك انه يعلمني التاريخ .

يعرف « اميل » الرسم والتصوير وان كان لمّا يعرف القراءة والكتابة فهل ولد مصوراً ورسّاماً ؟ لا أنكر أن النظر الى خرابيشه [١] يضعف هذا الاعتقاد أو يذهب به ولكنها على كل حال صور آدميين وحيوانات ومساكن وغير ذلك . وهو لا يكتفي بأن يحاكى بالقلم العادي أو الرصاصي شكل مايقع عليه بصره بحسب ما يتفق له بل أراه يحاول التعبير عما في نفسه من ضروب الوجدان وما فى فكره من الحكايات بما يرسمه على هذه الاوراق من خرابيش الخطوط والصور . انظر كيف

---

(١) جمع خرباش أو خربوش وهى الخطوط الفاسدة غير المنتظمة ويقال خربش الخط .

حاول أن يكتب اليك مكتوباً — استغفر الله قد أخطأت فى كلمة يكتب وكلمة مكتوب وكان ينبغي أن أقول : يرسم لك خطا بربائيا [١] وأنا لا أخشى أن يصعب عليك فهم الرسم الذي يرسله اليك فارجو أن أكون أنا في هذه الدفعة شامپوليون [٢] هذا الرسم فأقول :

يمثل لك الرسم ريحاً عصوفاً هبت لليلتين من شهر ابريل وظلت تعصف الى الليلة الثالثة منه وليس هذا مما يحصل هنا نادراً ، ولله بيوتنا فانها مبنية بالصوان (وهو الحجر الموجود فى الضواحي) ولولا ذلك لتداعت أو لدكت بقوة العواصف والاعاصير الشديدة التي تضطرب لها هنا السماء والارض والماء . على ان البحر لم ير منذ سنين بمثل هذا الاضطراب الذي أحدثته هذه العاصفة ولا يجد الواصف لهذه الحالة وصفاً الا ان يقول : ان حجاب الروع والفزع قد أسدل على هذا الكون الذي لا نهاية له .

لا يسمع من لغط الناس المشؤم في هذه الحال الا أخبار الغرق والغرقى تتردد من ساحل الى ساحل ، ولم يكن لخفراء السواحل يومئذ هم منذ طلع الصباح الا مراقبة البحر الهائج بمناظيرهم المقربة للبعيد يصوبونها الى الافق من على تلك الصخور الوعرة المحيطة بالخليج ، وكانوا لا يكادون يبصرون في ضوء ذلك الصباح الملون بخضرة البحر الحواء (الضاربة الى سواد) على ان أشعة أبصارهم قد خرقت تلك

---

(١) البربائى الخط الذى يوجد على جدران البرابى وهى هياكل ومعابد معروفة فى مصر (٢) شامپوليون هو أول من حل الخط البربائى الهيروغليفى بقراءة حجر رشيد المشهور

الحجب الجوية ، وعلم الناس انهم ميزوا على بعد من وراء تلك الامواج المتراكبة المصطخبة سواد سفينة قد وقعت في شعب مخيف فانكسرت ساريتها الكبرى وتحطمت جوانبها فسقطت تضطرب كحوت أصيب بجروح عظيمة فصار يتقلب على جنبيه وكان مما يثير الخوف ان الامواج التي كانت تهيجها العواطف فتعلو فجأة كالجبال ربما تتناول السفينة التلفة من حين الى حين فتقذفها على تلك الصخور الصم . وصار يتسنى للانسان فى ذلك الجو المطبق المحزن ان يميز فى ضوئه السنجابي اللون أيدى الناس فى السفينة تشير بقطع من الشراع .

لم يكن للناس حينئذ من أمنية الا نجاة هؤلاء الغرقى على أنهم ما كانوا يجهلون صعوبة انقاذهم وتعسره نعم ان أهل كورنواى أولو شجاعة ونجدة ولكنهم مع ذلك أصحاب حذر وفطنة . هدأت الريح قليلا بعد شروق الشمس كامدة شاحبة والبحر مازال متماديا فى طغيانه مصراً على عدوانه ، فكان يخيل لرائيه انه يتحرك بنفسه وأنه أخذته حمّى نافض من القاصف فاحدثت فيه هذه القوة العجيبة فى الرعدة والاضطراب ، وكان بعض الصيادين المحنكين يرمون بأبصارهم الى الامواج يتتبعون حركاتها بأعينهم المدربة ثم ينغضون رءوسهم وتعلو وجوههم كآبة اليأس ، وكأن لسان حالهم يقول : لا حول لنا ولاقوة على انقاذ هؤلاء المساكين ،

أتى على الناس نحو نصف ساعة وهم يتراوحون بين اليأس والرجاء كان عليهم كنصف قرن . ذلك انهم كانوا يرون بعض اخوانهم بين مخالب الموت ونابه وهم يرجون منهم النجدة فلا يجدون لانجادهم سبيلا

وبينما هم فى هذه الحالة اذا بزورق النجاة قد أحضر فصاح الناس صيحة واحدة كانت منبعثة عن جميع الصدور ، وهذا الزورق يعده الملاحون للدواهي الكبيرة وقد أحضر بقوة السواعد والخيول ووضع فى مكان من الساحل يرجى منه الوصول الى الغرقى وما عتم أن امتلأ بالناس على وهنه وخفته ، وعظم الخطر فى ركوبه ، وقد تحمل « قوبيدون » الذى تطوع فى هذه الخدمة منذ سنتين أو ثلاث كل مشقة فى الذود عن مكانه وحفظ مجذافه وكان الذين ركبوا الزورق يحسدونه على شرف التعرض لغائل المحيط وفخاخه ، وما نجح فى ذوده ودفاعه هذا الا بقوة حقوقه المكتسبة بسابق هذه الخدمة . أنزل الزورق فى البحر وانحنى المجذفون الجريئون على مقاعد تعلو نصفها الامواج وأوغلوا فى البحر وكان « اميل » على ما أرى يأسف أن لم يكن له من السن والقوة مايؤهله لمساهمة رفيقه قوبيدون فى هذه السياحة الدالة على جراءة الجنان ، وشرف الوجدان ، وأراه قد اكتسب فى هذا المشهد من العبرة باخلاص المخلصين ، والاسوة باحسان المحسنين ، مالا أبيح لنفسى التعبير عنه بالكلام ، ومحاولة شرحه بفصاحة البيان ، لئلا أضعف من قوته ، وأشوه من صورته فان حضور المشاهد العظام ، ورؤية الاخطار الجسام ، تعلمنا بغير كلام ، وتربينا بدون الزام .

غاب الزورق ساعات والناس فى قلق مميت واذا بصائح يصيح : هاهو ذا راجع ، وكان يقترب من الشاطىء حقاً والناس فى ريب من نجاحه فى مسعاه الشريف . وما كان أشد شجاعته فى مساورة غضب

الامواج الثائرة : وأنت ولاشك تعرف ماتأتي به صناعة الملاحة من هذه العجائب ، أعني الزوارق المنشأة من الهواء والبلوط التى هي فى الخفة كالريشة وفى القوة والمتانة كما يحب الخير ويرضى . كان يخيل للرائي فى كل لحظة أن الفواعل الكونية المصطخبة ستبلع بقوتها هذه الصدفة الخشبية التى تطاولت بجراءتها الى منازعة البحر فى غنيمته ولكنها تطاولت فطالت وحاربت فظفرت ؛ فكان هذا الزورق كان انساناً يسبح وقد أعطته جنية طلسمها ليتقي به مفزعات النوء ، وما كان أبدع منظر رجاله والماء يتدفق من فوق قلانسهم المشمعة وثيابهم المزيتة وهم راجعون أعزاء ظافرين . وان كان الموج نال منهم وترك أجسامهم كاجسام الضفادع ونحوها من حيوان الماء ، وقذف بهم أحياناً فى مهاوى عميقة كبطون الاودية ، وطفر بهم أخرى الى قنن عالية كشعاف الجبال يظهرون بها للابصار فى ضوء الشمس السقيم ، وكلما غلبتهم الامواج على مجاذيفهم فنزعتها من أيديهم بادروا الى استرجاعها بقوتهم كما يأخذ الشجاع سلاحه من عدوه . صاح قوم من الملاحين كانوا على صخرة قائلين « نجوا »

فلما سمعت هذا الصياح شخصت ببصرى الى الزورق الذي كان يدنو من الشاطيء دنواً غير محسوس وأنشأنا نميز بين رجال الزورق ثلاثة من الغرقى شاحبي اللون شحوباً مفزعاً وفتاة صغيرة ليس فيها أدنى علامة على الحياة .

وصل الزورق بمشقة شديدة ورسا فى مرسى من المراسى المحمية بالخليج فلم ألبث أن تلقفت بعض التفصيل عن حادثة الغرق فعلمت

أن انقاذ الغرقى كان عسراً خطراً ، وانهم لقوا الألاقى الشديدة ، ويظن انهم قضوا يومين على الطوى . وقد وجدوا معششين كالطير البحري حول بقايا أدوات السفينة التي لم يدمرها البحر كلها تدميراً ، ولا شك انهم لما صاروا عرضة لجميع شدائد الجو تسلقوا هذا الموضع الحرج عند اغتيال الامواج سطح المركب وثبتوا فيه بخوارق الشجاعة وقد تعب منقذوهم فى تخليص الحبال من أيديهم التى أيبسها البرد ، وكانوا عاجزين حتى بعد نجاتهم عن مدافعة النعاس الذى كان ينيخ عليهم بكلا كله .

كان الناس يتساءلون : من هم ومن أين أتوا ؟ ومما كان يزيد فى سوء حالهم انهم ما كانوا يحيرون جواباً لانهم ما كانوا يفهمون خطاباً فحسبت انهم يعرفون غير الانكليزية فخاطبتهم بالفرنسية وبالالمانية بل استنفدت جميع ما أعرف من اللغات فلم أر فى وجوههم أمارة على فهم شيء منها ، وكان فى الميناء بعض الملاحين الروسيين واليونانيين والنرويجيين فلم يكونوا أسعد منى حظا فى مخاطبتهم . تجلت هذه الحادثة بشكل الامور الغريبة فكأن هؤلاء الغرقى فى نظر الناس أموات بعثوا ولم يعرفوا لغات الاحياء .

وأما الفتاة الصغيرة التى يظهر انها بنت خمس فكانت نجاتها كمعجزة من المعجزات وكانت أبصار الملاحين قد زاغت دونها ولم تهتد فى الضباب الذى أثارته الامواج اليها ولكن قو بيدون لمح بعينه التى تحاكى عين الفهد شبه كتلة معلقه فى بقايا أدوات السفينة وخاطر بنفسه فى التسلق لا كتشافها أشد المخاطرة فألفاها بنتا قد لفت فى

نسيج ولبوس وعلقت على ارتفاع عشرين قدماً وسط الحبال المتقطعة وكانت مغمى عليها من البرد والجوع والخوف فأخذها وألقاها في الزورق فظلت في غيبة نعاسها كذلك الطائر البحريّ المسمي مويتا الذي يرى متخدراً طافياً على سطح المحيط . أدرك هؤلاء الغرقى في الوقت الذي كان يجب انقاذهم فيه اذ لم يمض على ذلك بضع ساعات حتى هاج البحر هيجة حطمت بقايا السفينة وبددت ألواحها تبديداً وكانت القرائن تدل على أنه لم ينج من ركابها الا هؤلاء .

أخذ الغرقى الى ملجأ الملاحين ليساعدوا على ضعفهم ، وطلبت أنا ان تضم البنت اليّ والفضل كله في هذا البر لاخلاص قو بيدون ، وليت شعري من أيّ البلاد هي ؟ إن ملامح وجهها وشعورها الحالكة وجلدها الذهبيّ تدل على انها من البلاد الجنوبية . هل هي يتيمة ؟ وهل غرق أبوها ؟ ومن هو صاحب اليد التى علقتها في بقايا السارية ؟ تلك أسرار محجوبة عني ولكن الظاهر أنها ليست لاحد الذين نجوا من الغرقى ، ولابد أن نقف قريباً على خبر السفينة ومن فيها ، وسأكتب اليك بما أعلمه من ذلك وأستودعك الله قائلة إن من حبك أن أتأثر بمصائب الناس وأهتزّ لها .

(حاشية) عرف اسم السفينة وهو (أيا كوكو) وغرقاها من البيروفيين الذين يتكلمون الاسبانية غير الصحيحة . هذا كل ما علم الى الآن عن هذه الحادثة البحرية المحزنة . اه

الرسالة الثانية والثلاثون

﴿ من الدكتور اراسم الى زوجته فى ١٨ ابريل سنة ـ ١٨٥ ﴾

التدرج الفطرىّ فى تعليم الرسم والخط والقراءة

تلقيت رسم « اميل » فاغتبطت به ولله ماتفضلت باضافته اليه من الشرح الذى كان كالمفتاح لمغلقه فلولاه لما نفذ ذهنى فى سر خطه البربائي ؛ لاشك ان هذه البقعة الكبيرة السوداء تمثل العاصفة والبحر المضطرب والسماء المظلمة بالسحب وهذه يدى رهن لمن شاء ، على أني أرى فيه السفينة الغريقة وان كانت قوانين علم المرئيات لم تراع فى الرسم بالتدقيق ، وذلك الشيء الطافى على وجه الماء لابد أن يكون زورق النجاة ، وأما هذا الوجه المصبوغ بالمداد فلا وجه للخطأ فى معرفته فهو وجه قوبيدون ، وكأني أرى بعين الارتياح في الصورة الصغيرة الملقاة على الارض تلك الفتاة المغمى عليها التى نجت من الغرق أراك تجدينني فهمت ذلك الرسم الذى لا أعرف من آثار ولدي سواه ، وقد علقته هو وصورته على جدار حجرتي .

ان صناعة الاطفال تذكرنا دائماً بطفولية الصناعة ، وإن تصوير بعض أشكال هذا العالم الخارجي هو ملكة غريزية في نوعنا وربما كانت هي التى تميزنا عن غيرنا من سائر الحيوانات أجلى تمييز فان انسان

(الغاب) الوحشىّ الذي لا تعرف لغته ولا تاريخه قد علم عنه اليوم انه كان في زمن ماينقش بالظران (١) على الحجر أو على قرن الايّل القطبيّ صورا سمجة لا أثر للاتقان فيها كصورة الفيل القديم ذي الفروة المسمى (بالمموث) كما رسم بعض الحيوانات الاوابد التى كان يغالبها فى التسلط على الآجام والغاب .

لدينا كذلك برهان على ان مجتمعات الانسان الاولى مارست فنون التقليد من قبل أن تضع لنفسها قوانين ثابتة تكفل لها حاجيات معيشتها

استنتج مما قدمته ان تعليم الاطفال ينبغي أن يبدأ فيه بالرسم وهذه هي الطريقة التي تلمسينها لنقل الطفل من التصوير الى الكتابة. قد أحسنت النظر اذ انتبهت الى ان حروف كتابتنا لا صلة بينها وبين ما وضعت للدلالة عليه بشكلها ، وانه ما ثم الا المواضعة والاصطلاح ، فان الطفل ما رأى في الكون شيئاً هو (ا) أو (ب) ولكن اختراع هذه الحروف هو من أعظم الآثار وضروب فوز العقل الانساني المخلدة في صفحات تاريخه . واذكري ان الامم القديمة كانت قد استعدت من زمن طويل للحروف الهجائية بممارسة الرسم ثم انتقلت منه اليها ، فقد استمد الفينيقيون حروفهم من الخط الكهنوتي القديم ، وأما أبناء هذا العهد فان هذا الاتصال بين الرسم والخط مقطوع في نظر الطفل الذي يتعلم القراءة والكتابة بخطهم ، فانه ينتقل فجئة الى عالم معنوي لا يجد فيه شيئاً يسترشد به ولا رابطة القياس والمماثلة . وبعد هذا يندهش

(١) الظران بالضم والكسر مع تشديد الراء جمع الظر وهو الحجر المحدد

معلمه من استثقاله ما يراه امامه من العقبات . ليس هو الذي يحق له المعارضة في مثل هـذه الطريقة المضادة للعقل بل كل ذي ذوق سليم وحكم صحيح يحق له ذلك .

كل ما يتعلق بالخط يحملنا على اعتقاد أن الحروف الهجائية التي اخترعت أولا ربما لا تكون إلا صوراً لبعض أشياء كانت تنسب اليها أكثر من غيرها ، والخط ابتدىء باختصار في الرسم ، وليت شعري هل محيت تلك الآثار البربائيـة بتمامها من الحروف الهجائية للغات الحديثة ؟ أقول ان هذا الامر محل للشك ، واني اعرف رجلا كيّساً كان يرجع أشكال حروف لغتنا المطبوعة الى بعض الصور الخلقيـة . نعم ان مضاهاته كانت أحياناً تشف عن بعض التكلف ، ولكنني أود عن طيب نفس اتباع طريقته للتوفيق في ذهن « اميل » بين طائفتين من الاشكال تظهران لاول نظرة متباعدتين كأن بينهما بحراً زهواً . فاذا رسم مثلا مسطحاً مستديراً يمثل به الشمس اكتب في أسفل هـذا الرسم اسم هذا الكوكب بالفرنسية « **Soleil** » معتنياً باظهار حرف **O** مكبراً فاذا كان الرسم « منزلا » « **Maison** » أو ثعباناً « **Serpent** » أو طريقاً متعرجاً « **Zigzag** » أو عيناً باصرة **(oeil)** بذلت جهدي في بيان وجوه الشبه التي عسى ان توجد بين الحرف الاول من هـذه الكلمات والاشياء التي تمثلها في الذهن فان « اميل » يفهم بهذه الطريقـة أن الخط هو كيفية أخرى للرسم بها يبين الانسان مراده بأوضح مما يحاوله بالرسم وفي زمن أقل .

إن الذي يحير الطفل ويضله هو الزامه اتباع طريقتنا في النظر بدل

أن نستدرجه من المعلوم الى المجهول استدراجاً سهلا ، فترينا نبادر الى صب المعاني العقلية فى ذهنه صباً على حين انه لم يكتسب بعدُ ملكة تمييز هيآت الاشياء المادية — نضطره الى ذلك بفضل ما لنا عليه من الولاية المعنوية على اختلاف درجاتها فينا ، ولكني أرى اننا بهذه الطريقة نجني على ذهنه جناية تقضي بالاسف ، فان الزامه التعلم وقهره عليه يسلبان معظم ميله الى الملاحظة والتعلم بنفسه ، وضرر الاستبداد فى البيوت لم يكن أقل من ضرر استبداد الحكومة .

أرى أن الرسم والكتابة والقراءة هي ثلاث ضروب من التمرين مرتبط بعضها ببعض بحيث لا ينبغي التفريق بينها فى التربية الاولى ؛ على ان الرسم هو الذى تجب البداءة به فان في ذلك مزايا كثيرة أولها كفاية الطفل مؤنة ما للدرس من السآمة والملل فى أول أمره ، فان معظم الاطفال يكرهون الكتب ، ومامنهم احد الاله ميل الى الصور ، بل فيهم دافع طبيعي يحملهم فى الغالب على أن يرسموا بأيديهم مايقع تحت أبصارهم ، فالرسم عندهم ضرب من اللعب خصوصاً اذامارسوه بدعوة الغريزة واجتهدوا من تلقاء أنفسهم فى أن يمثلوا أشد الاشياء استمالة لهم . ولا أنكر ان ملكة التمثيل والمحاكاة لا يستوى فيها جميع الاطفال ولكن التأسى كاف في تنبيهها غالباً

ليت شعرى هل ولد الانسان رساماً ؟ هذا مالا أعلمه وانما الذى يثبته لنا التاريخ هو ان فنون الرسم كانت فى جميع الامم سابقة لانتشار الكتابة والعلوم واذا كان الامر كذلك فالتاريخ يعيد نفسه فى الاطفال كل يوم بأعيننا . ومن مزايا الرسم أيضاً انه يربي القوة الحاكمة فى

نفس الطفل ، فان فى فتح أبواب السكون له قبل فتح الكتب امامه مبادرة الى ارشاده الى ينبوع العلم فمحاكاة الجماد أو الحيوان أو النبات توجه نظره دائماً الى الصفات المقومة لماهية ما يحاكيه وان جاء الرسم ناقصاً . الرسم هو تمثيل أشكال الاشياء وحدودها بخطوط فيجب ان يكون الراسم قد رآها وقام فى نفسه معنى ما يميزها عن غيرها من العلامات والصفات الاصلية .

وأما الكلمات المكتوبة فانها لا تقتضى هذا العمل فى الملاحظة فانه متى عرف الطفل التهجية وتركيب الحروف يمكنه أن يسمى عدداً لانهاية له من الكائنات الحية والجمادات التي ليس له بها أدنى معرفة ، وتوجد له بذلك ملكة غاشة متى قويت وثبتت بالعادة أضلت معظم العقول البسيطة التي لا هم لها إلا القشور .

لا يوجد الاستقصاء والتعمق فى معرفة الاشياء الا حيث يوجد القياس والمضاهاة ، فاذا لم يعتد الطفل التفكر فيما يرى وملاحظته يكون قليل الاهتمام جدا بتفهم ما يقرأه .

آخر ما اذكره من مزايا الرسم انه إعداد أولى كبير النفع في تعلم الخط فان « اميل » بتخطيط صور الاشياء التي يستملحها تخطيطاً حسنا أو رديئا يمرن اصابعه على الحركة ويكتسب نوعاً من الخفة والدقة لتكوين الخطوط التي منها تتألف حروفنا الهجائية ، ولكن الغرض انما هو إعداد الذهن للانتقال من الرسم الذى هو كتابة الصور الى الخط الذى هو رسم المعاني فلو انبا تيسر لنا ان نربط فى حكم « اميل » التمثيل الخطي للاشياء المشهودة بالعلامات المعنوية التي تقوم مقامها

لكنا كاتنا وضعنا على البحر الفاصل بينهما جسراً ، على انه لاشيء ايسر من تصغير الرسم فى العمل فان « اميل » كلما رسم شجرة أو ثمرة أو حيوانا اقول له : انك قد رسمت حروفاً من حيث لاتدرى غير انه توجد حروف اخرى أصعب من هذه رسما وقراءة يكتبها المتعلمون ، فاذا هجت فيه بهذا القول داعية الشوق وحب الاعجاب هيجاً شديداً اكتب له الكلمة الموضوعة للشيء لذى رسمه واحرضه على محا كاتها افعل ذلك كله وانا اضحك

سواء عندى نجح فى ذلك أم لم ينجح ما دام يجتهد فى كتابة تلك الكلمة ولاشك أنه يجتهد فى ذلك اذا حمل عليه بالحذق والمهارة ولابد من اعادة الكتابة عدة مرات قبل أن يكتسب شيئا من ممارستها ولكن الاصل باق على كل حال . وبهذه الطريقة يعرف (اميل) من هذا الحين السبب فى الكتابة وكيف أن الناس قد استبدلوا برسم الاشياء حروفا اصطلاحية تدل على مايدل عليه الرسم وتفضله بكون مساحتها أصغر ووقت وضعها أقصر . هاتان هما مزيتا الخط على الرسم وهما اللتان اطيل له الشرح فيهما لانهما أقرب الى فهمه وأدنى من علمه .

الطفل يجري فى تعلمه تكوين الحروف عادة كما يجرى الدولاب فما أحسنها طريقة للدخول فى عالم المعقول .

نعم انى عرفت بعضا من المصورين كانوا لايستصوبون مطلقا ترك ملكة المحاكاة والتقليد مطلقة بلاقيد فى الطور الاول من الحياة ويرون ان الطفل انما يرسم فى الغالب بالهوي لا بمقتضى الفطرة كما يعتقد، وهذا الاطلاق يفسد عليه عمل يده بما يعتاد من عدم النظام ولو صدقناهم فى

ذلك لقلنا بوجوب الولاية والتأديب فى تعليم الفنون الجميلة . هذه مسألة يمكن اختلاف آراء الناس فيها كغيرها من المسائل ولكنها على كل حال ليست محل نظري فاني اراهن بألف ازاء واحد على ان (اميل) لن يدعي استحقاق جائزة رومية على الرسم ، فأيّ وجه لي فى الخوف أو الرجاء فى أن يصير بعدُ مصورا ؟ الذى ابتغيه هو أن يكون رجلا ولاشك فى أن الشعور بما يوجد فى الكون يعين على انماء العقل والطبع. ومهما كانت رداءة رسومه فان أقل ما فيها أنها تشهد له ببعض التفات وتوجه الى ما يحيط به من الاشكال وهذا يكفيني منه الآن . فاذا كان ممن لهم ملكة حقيقية فى الفنون فلابد أن تظهر هذه الملكة فيه يوماً ما . أليس من الشواهد التى تذكر فى هذا المقام ذلك الراعي الصغير الذى كان يتعلم الرسم بنفسه فى أثناء رعي نعاجه ولما تكمل فيه بعد بواسطة التعلم فى المدرسة صار (الاستاذ رفاييل) ؟

أرى أيضا ان تعليم الكتابة كان يجب أن يسبق القراءة أو أن هذين التمرينين يجب أن يتصل احدهما بالآخر . كان اندروبل — وهو من أعلم أهل عصره ولابد أن تكوني سمعت شيئا من سيرته فى انكلترة — يبحث من سنين عديدة عن طريقة معقولة لتعليم القراءة والكتابة ، ولما كان فى الهند اتفق انه رأى يوماً من الايام مدرسة فى ضواحي (مدراس) ثلة من احداث الهنود يرسمون بأصابعهم حروفا على الرمل فوقف يلاحظهم ملاحظة المتأمل ، وبعد أن عرف طريقتهم ضرب بيده على جبهته قائلا: « قد وجدت مطلوبي » ليت شعري كيف كانت هذه الطريقة ؟ هي ولاشك طريقة بسيطة جداً ذلك ان اطفال

الهنود لما كانوا أقرب منا الى الفطرة وكانوا لذلك أعمل بمقتضيات العقل كانوا يبتدئون برسم الكلمة التي يرونها مكتوبة ثم يبحثون عن أسماء حروفها ويتهجون مقاطعها ثم ينتهون بقراءتها .

أخص فائدة أراها في هذه الطريقة أنها تشغل اليد والفكر معا ، فان الذي يتعب الطفل ويسئمه عند ما يقف امام كتاب انما هو التفاته الذي يطلب منه بلا بصيرة ، فان عمل الانسان بنفسه وبحثه وتخمينه وسيره من المعلوم الى المجهول طريقة فضلي في مخاتلة الضجر وخداعه .

لست والحق أقول معجباً كثيرا بطرق التعليم المخترعة فانها تفوق الحصر ومعظمها خيالية لا تنطبق على ما في العالم الخارجي مطابقة ويحضرني أن هولانديا أعرفه خطر بفكره أن يجمع مجموعة من النعال وأراك تقولين ضاحكة : هذا خاطر غريب . نعم انه غريب ولكنه وقع فان الانسان لا يكون هولانديا بلا شيء وقد وجدت في خزائنه المقفلة بالزجاج كثيرا من الانموذجات المفيدة ففيها من جميع الانواع ومن جميع البلدان والاعصر من البابوج ونعل المشخصين الى جرموق الصينيين ، ومن نعل متوحشي أمريكا الشمالية الى بابوج كبراء الترك ، ففي هذه المجموعة من النموذجات المتعلقة بطبقات التاريخ المختلفة قد نسي صناع النعال شيئا واحدا الا وهو شكل قدم الانسان . اذا صح ما أقول فربما دعاني الى توجيه مثل هذا اللوم الى واضعي طرق التعليم ذلك أنهم يتعقلون كما ينبغي وبعضهم ليس مجردا من ملكة الاختراع ولكن ينقصهم شيء من التفصيل وهو في الحقيقة هين الا وهو شكل عقل الانسان في أطوار حياته المختلفة .

الطريقة الفذة التي أراها تلائم حالة التلميذ انما هي سلامة ذوق معلمه، ولا أقصد بذلك أنه لا موصل غيرها يمكننا أن نسترشد به في تيه التربية، بل أعتقد أن كثيرا من الطرق العملية التي استعملتها الاجيال الفطرية ولا يزالون يستعملونها ربما استعملت استعمالا مفيدا في تعليم الاطفال. لا شك أنك سمعت الحديث عن آلة (الحاسب الصناعي) التي أدخلت في بعض المدارس لتسهيل بعض عمليات الحساب على التلاميذ بواسطة استعمال كرات من العاج هذه الآلة وان لم أقف على مزيتها تمام الوقوف أنا على يقين من أننا أخذناها عن الصينيين وهي الحاسب الكروي المسمى في مملكة السماء (سوان بان).

وعلى كل حال أعوذ بالله أن أنتقد مثل هذا الاخذ بل آسف من عدم رجوعنا كثيرا إلى الطرق الصناعية والممارسات العملية للامم المتأخرة لتسهيل الوصول الى بعض العلوم الاولية على المبتدئين.

هؤلاء الاقوام المتأخرون هم أطفال التاريخ، وقد عرفت الآن بعض القوانين التي جرى عليها في جميع جهات الارض تكوّن اللغات والكتابة والفنون والديانات والصناعة، ولم تقف عند حد معرفة مناشىء العلوم فقط بل أدى بنا البحث في دوالّ المعاني أثناء أطوار الحضارة الاولى الى معرفة استعداد العقل البشري وطرقه المتعاقبة في الوصول الى العلوم، فاما ان أكون مخطئا خطأ فاحشاً واما أن يكون هذا الترتيب الطبيعي في الترقي هو الذي ينبغي اتباعه في تربية الاحداث.

طرق التعليم عند الامم التي وقفت فيها حركة الترقي والتقدم عبارة

عن شؤون دائمة وحالة وجود ومعرفة مستمرة فلا ينبغي أن تكون الا وسيلة وقتية للطفل في الاجيال المتمدينة فانه وان كان في الاصل جاهلا مثل هؤلاء الامم يمتاز كل يوم عن الوحشي والبربري بملكة التحول التي كأنها مرسومة في أعضائه ؛ فهو يعرج بسرعة على معارج حالت بين الاجيال الدنيئة وبينها عقبات كؤود فلايقف في عروجه هذا الا عند الحد الذي تضعه له استعداداته وملكاته الشخصية ونوع القوم الذين يعيش بينهم وتأثير الزمن فيه . فنسبة طرق التعليم الى التربية كنسبة الاوضاع والقوانين الى المجتمع فهى لاتلائم الاحاجة وقتية من حاجات العقل فيجب اعتبارها جميعها وقتية فيكون من الحمق حصر عقل التلميذ في بعض الاشكال التعليمية كما كان من الجور في القرن السادس ارادة إبقاء الامم على قوانين القرون الوسطي وعقائدها

الرسالة الثالثة والثلاثون

﴿ من إراسم الى هيلانة في ٢٢ ابريل سنة ـ ١٨٥ ﴾

تربية قوة الخيال والتلطف فى محاورة الاطفال

أرى أن (اميل) على ما وصفته لي قد حبيت اليه بدائع الخيال وغرائبه وأنا مسرور بذلك مهما بلغت درجته في نفسي لاني لاأحب من الاطفال من كان مشككا مرتابا فان الارتياب فيهم من دلائل نضوب

قوتهم الخياليــة وعقمها . ولست أدرى ان كان حنين الانسان الى ما وراء هــذا العالم المشهود من أسباب شرفه أو من امارات خسته وكلا الامرين فى نظرى سيان اذا كان هذا الحنين يرفع نفسه من حضيض هذا الـكون المادىّ ، ويسمو بها الى ما يتمثل في الخيال من معارج الـكمال الروحي ، وانا اقاسمك الاسف على مايضيعه القائمون على الاطفال من قوة الخيال التي كانوا يجوبون بها مفاوز عالم الغيب وهم متعلقون بشعور جنياته . ذلك لان لله (سبحانه) حكمة في قسمة المواهب بين الناس حتى فيما هو اشدها خطراً وهو المواهب الخيالية فلم يهبها لنا عبثاً فليس لنا ان نسعى فى امانة قوة من قوانا لمجرد حكمنا عليها بأنها وهمية أو خلو من الفائدة بل الاجدر بنا فى شأنها ان نطلب لها ما يقابلها ويوازيها فقوة الخيال متلاسياً تيها الزمن بما يعارضها من قوة ملاحظة الحوادث وملـكة التعقل والاستدلال فاستحاف المربين بحق الحياة وقدرها في نفوسهم ان لا يقسروا من قوي الاطفال وأن لا يمحوا منها شيئا فان الانسان لم يبلغ من الغنى بها حدا تزيد فيه عن حاجته .

ان لنا في الـكون لعبرة فلننظر الى حوادثه فاننا نرى جميع الموجودات في حركة واضطراب وتغالب وجلاد وترق وازدياد ونشاهد ان القوىّ المتعاندة تزدوج فتولد نظاما ، والفواعل المتباينة تأتلف فتنشىء ملائمة ووئاما ، فأىّ ضرر يلحق الانسان اذا جرى في تربية نفسه على هذا المثال .

الرسالة الرابعة والثلاثون

﴿ من إراسم الى هيلانة فى ٢٣ ابريل سنة — ١٨٥ ﴾

خطابه لاميل وحثه على تعلم الكتابة :

اليك مكتوباً « لاميل » في طي مكتوبي لك وهو :

ولدي العزيز : لقد أبهجنى مكتوبك الذى أرسلته اليّ وانشرح به صدرى كثيراً غير اني انبهك الى أن هناك طريقة أخرى للكتابة هى الى الكلام أقرب من طريقتك اليه ، وأحثك على المبادرة الى تعلمها ، فأسأل والدتك أن تعلمك طريقتها فى قراءة رسومى القلمية التي تغاير رسومك بعض المغايرة . فى نفسي أمور كثيرة أروم الافضاء اليك بها ، فهل لديك ما تحب ان تكاشفني به ؟ فاني على عدم تمتعي حتى الآن برؤيتك ، مشغول الفكر بك ، عامر الفؤاد بحبك ، فاذا وافتني كلمة منك استبشرت بها وهشت لها نفسى ، ولست أدرى كيف أصف ما أجده من الفرح لو منّ الله عليّ بلقائك فضممتك الى صدرى .

الرسالة الخامسة والثلاثون

﴿ من هيلانة الى إراسم فى ٢٠ يونيه سنة — ١٨٥ ﴾

الصحة فى تغيير الهواء . وتربية الخيال والذاكرة بمحاسن الغبراء

كان « اميل » عليلا وكنت مشفقة عليه فى بداية مرضه من الحمى الحصبية ، ولكنه لم يصب بالحصبة والسبب في عدم اخبارك بذلك : هوأن الدكتور كان قد تعهد بأن يكاشفك بسير المرض ، ثم انه لما لم يجد فيه أدنى خطر عليه رأى من العبث أن يوقظ ما نام من همومك ويحرك ما سكن من دواعى قلقك ، ولقد عجلت اليه العافية فلم يمض عليه خمسة عشر يوماً حتى رد له لباس الصحة ، وثابت اليه أوابد القوى ، وأما أنا فكان شأني غير ذلك لان ما قاسيته من التعب فى ليالى سقمة التي لازمت فيها السهاد ، وما كان يساورني فيهامن الحزن والاشفاق ، قد تزعزعت له صحتي ، ووهت به عافيتي ، وللطب الانكليزي في مثل حالتي هذه دواء لا بد أن يكون هو سيد الادوية على ما أرى . وسندي في هذا الرأى ما أراه من ثقة الاطباء به فى وصفه لمرضاهم ، ومن اذعان هؤلاء له طيبة به نفوسهم ، وهذا الدواء هو تغيير الهواء .

نعم ان الهواء الذي نستنشقه في مرازيون جيد ، غير ان أخص ما يعول عليه أطباء الانكليز في ايصائهم للمرضى بتغيير الهواء لتجديد

قوامه انما هو الانتقال من مكان الى آخر والنظر فى مجالى الكون ومشاهده وتغيير ما التزموه من عاداتهم ، وإني والحق أقول قد أعجبت بهذا الرأى بعض الاعجاب لاني أعلم أن ضواحينا التي يتوارد عليها السياح كثيراً غاصة بضروب المحاسن الحقيقية ، ولهذا السبب لم أعارض في هذا الرأى بل أذعنت له اذعان المريض المطيع الذى يجل أحكام العلم ويكبرها .

لم تكلفنا معدات السفر كبير عمل ولا مزيد عناية ، فان السيدة وارنجتون بفضل خبرتها بطرق البلاد وجهاتها قد تكلفت ان تشرع لنا طريق السير . وسقط قوبيدون على مركبة عتيقة من المركبات المكشوف مقدمها مرت عليها أيام كانت فيها أسعد حالا بأصحابها ، وعلى فرس كبير السن لا يزال فيه على كآبة منظره من القوة ما يقدره على احتمال مشاق الصعود والهبوط فى انجاد هده الجهة وأغوارها الكثيرة ، فاستأجرناهما باجرة قايلة ، وفي صبيحة يوم ظعننا استوى الزنجي البارّ على كرسي المركبة استواء السائق المختال المعجب بنفسه .

كان وجه « اميل » — وقد زال شحوبه وعاد اليه لونه — يتلألأ فرحاً ويزهو بشراً وطلاقة ، لانه لا شيء يلذ للاطفال كتوقع الحوادث ولكننا لم نصادف في طريقنا شيئاً منها نقص عليك حكايته ، فلم نلاق سلبة ولا وحوشاً ولا أسارى مقيدين فى مغارات الصخور ، مع اننا قد جبنا أرضين مقفرة تحدها سواحل قحلة مهجورة معرضة لجميع ما يطرأ من ضروب هياج البحر وطغيانه .

لم يكن خروجي الى التنزه لمحض التداوى بتغيير الهواء ، بل كنت أرمي الى غرض آخر أيضاً وهو أن ينفعل « اميل » بما يشاهده من المناظر الخلوية وصورها المدهشة فتنتقش لها فى نفسه آثار حية ، فانه يقال ان أول شيء بعث فى نفس بَايْرُون [١] تباشير ولعه ولهجه بالشعر انما هو منظر ما يوجد فى هضاب ايقوسية من البحيرات وقمم الجبال ، ولست اعتقد ان (اميل) سيكون بايرون عصره بل لا أجد شيئاً من الحق في التطلع الى ذلك ، ولكني أتكدر وأحزن ان رأيته من حيث هو انسان لا يتأثر بما هو مسطور فى صفحات الكون من جيد الشعر وبديعه .

قد وهمت فيما علقته على هذا السفر القصير من الامل الكثير فى تنبيه القوى الحاسة فى « اميل » وها أنا ذه أعترف لك بخطائي صاغرة إذ قد تبين لي أني تعجلت فى هذا الامل فاني رأيته لا يشوقه الا النظر الى الجزئيات واستطلاع وقائع الارياف وهو من حداثة السن بحيث يصعب عليه ادراك الاشياء فى جملتها ومجموعها .

أرى أن الطريقة المثلى فى تنبيه الاطفال وبث روح الملاحظة فى نفوسهم هي أن لا تطلب منهم الملاحظة ولا يحملوا عليها ، وقد سرت على هذه الطريقة فى سياستى « لاميل » فلم أشذعنها الا مرة واحدة .

---

(١) بايرون هو اللورد بايرون الشاعر الانكليزى مؤلف القصص الكثيرة التى منها قصة الغلام هار وقصة الدوق جوان ولد فى سنة ١٧٨٨ ومات سنة ١٨٢٤

ذلك أننا كنا فى راس ليزارد [1] وما أكثر عجائبه . وان أردت تخيلها فتمثل لنفسك صخوراً هائلة على جميع الاشكال بعضها قائم وبعضها ساقط وشيء منها متصل وآخر منفصل يهيج بينها البحر ويصطخب ، ومنها ما غمره البحر فطوق جيده بقلادة من الزبد ولم يبد منه سوى رأس مخروطي أملس مصقول لاتفتأ الامواج تغسله ، ثم تصور ان بصرك يتتبع من بعيد خط السواحل فيرى ما يتخللها من نقطة الى أخرى من الصدوع العظيمة والوهاد والمغارات المظلمة ، فاذا وقف الانسان وسط هـذه المشاهـد الكبرى كانت حيرته فى اختيار المكان الذى يشرف منـه عليها . وقفت أنا وأميل تجاه (كينانس كون) وهو أحد الخُلُج التي يرى فيها البحر أجمل مايكون وسـط الاطلال وقطع الصخور ، وأخذت بيده ثم قلت له : انظر الى هذا المكان نظراً بليغاً وانقشه فى حافظتك فلعلك لن ترى هذا المنظر بعد اليوم .

كأنى بك تقول ؟ هـل القوة الذاكرة مما يأتمر بأمرنا فنأمرها بالحفظ والذكر ؟ فأجيبك بأن لي بعض الحق أن أعتقد هذا اذا رجعت الى مادلتني عليه تجربتي . ذلك أني ايام كنت فيما يقارب سن اميل؛ سافر والداى الى مقاطعة أوفرني [2] وأخذاني معهما ، وفى يوم من أيام اقامتنا هناك صعدنا على إحدى شعاف الجبل المسمى «مندور» وهناك نشدني

---

(١) هو رأس من رؤس سواحل انكلترة فى الطرف الجنوبى الغربى لقونتية كورنواى (٢) مقاطعة أوفرنى هى اقليم قديم من اقاليم فرنسة قاعدته «كلير مونت فيراند» تكونت منه ومن جزء الهوت لوار « والكروز » مقاطعتا «كانتال وبوى دودوم»

الله والدي جاهراً بصوته أن لا أنسى ما كنت أشاهده فى تلك الساعة ما دمت حية . ولا أراك الا سائلي عن نتيجة هـذا الاقسام ، فاعلم أن جميع ما كان ينبسط أمام ناظرى فى ذلك الوقت من المشاهد المحدقة بى وهي مشاهد الجبال والربى والوديان لا يزال مرسوماً فى لوح ذاكرتي ومن هذا تعرف السبب الذى حمانى على اتباع هذه الطريقة مع « اميل » نعم ان والديّ قد أوصياني بعد هذه المرة بحفظ منظر آخر لا أذكره الآن فلم يجد هذا شيئاً فى الحفظ وأنا أستنتج من ذلك أنه ان تيسر فى وقت ما أن يكون للمربى شيء من السلطان على حافظة الاطفال فلا ينبغي الافراط فى استعماله لانه وسيلة فعالة .

اذا وكل « اميل » لنفسه كانت دهشته بالاشياء التي يراها أكثر من اعجابه بها ، وهذا مما يحمانى على اعتقاد أنه لا بد فى رؤية الامور على حقيقتها كمال الرؤية من شيء من الخيال . خذ لذلك مثلا وهو أن الطفل لا يعرف من البحر سوى دائرة الافق التي يحويها بصره وهي دائرة ضيقة بالنسبة الى الواقع ، فان حجاب المسافات يحول بينه وبين ماوراءها من بقية البحر ، فاذا كان الشاعر يفنى عن شهوده وترتفع نفسه اذا وقف أمام مشهد المياه الجليل فذلك لانه ينظر بفكره الى ماوراء الافق من امتداد المحيط فانه متى انفك ساعة من ربقة عجز المشاعر الظاهرة اتسعت فى خياله حدود العالم المشهود فيضيف الى هذه البقعة المائيـة المضطربة التى لا يرى منها الا جزءاً حقيراً مهما كانت دقة بصره صورة عدم التناهي والجلال وكلاهما من مدركات العقل لا دخل للحس فيهما وبالجملة فانه يرى الجلال والعظم فى ماهية البحر ومعناه الذهني لا فى

صورته المرئية .

فخلو نفس (اميل) من ملكة التفكر التي لا بد أن تظهر فيه بتقدمه فى السن يكشف لي سر عدم اكتراثه بما يراه من مناظر الكون بل تقليده غيره فى الاعجاب بها ، كما يبين لي سبب انبعاث شوقه الى بعض جزئيات ما كانت تخطر ببالي مطلقاً ولهجه بها لهجاً شديدا . ذلك أن معظم الصخور التي يتكوّن منها رأساً ليزارد ولندس اند (طرف الارض) وضع لكل صخرة منها اسم خاص بها ، كأنه يخاطب الخيال ويوقظه فيريك الدليل الخرّيت منها صور العمود وعرين الاسد والمطبخ والمنافيخ والمقلاة والفرس ورأس الدكتور جونسن ووجه الدكتور سنتاكس وغيرها ، فمن هذه الاسماء ما ينطبق ولا شك على مناسبات خرافية تختلف درجة قربها أو بعدها من الحقيقة ، غير أن منها أيضاً ما هو مبني على وجود وجوه شبه ظاهرة للعيان بين مسمياته الاصلية وبين تلك الصخور التي وضع لها ، ومن المحتمل أن تكون هذه الالعاب الكونية والصور الاتفاقية والحجارة التي تمثل هيئة الانسان أو شكل شيء من الاشياء مع عدم نحتها بالمنحات هي التي بعثت فى نفوس الاولين فكرة صناعة التماثيل ، ومهما كان أصل هذه الصناعة فان هذا الفن الفطري الاضطراريّ الذي نقشته على الصوان يد الخالق القادر هو من الغرائب غير المألوفة التي هاجت شوق « اميل » الى معرفتها ، فانه كان يجتهد من نفسه فى إدراك ما بين قطع الصخر وبين بعض الاشياء المعروفة له تمام المعرفة من وجوه الشبه التي لم تعزب أيضاً (كما يدل عليه أسماء تلك القطع) عن فكر صيادي السواحل السذج البسلاء

من عهد أن رأيت جميع النموذجات الاصلية لفن العمارة ظاهرة فى المغارات وسلاسل الصخور لم يسعني الا الارتياب فى أن هذا الفن من مخترعات الانسان ذلك لانك تجد فيها أصل النافذة القوسية والقباب بما يقومها من الارتفاع والانحناء والدعائم الثقيلة والعمود الرفيع المخطط والشبابيك الطويلة المقبوة والمماد وغيرها من الاشكال الكثيرة ، فليس على الخيال الا أن يتوجه الى هذه الكتل الصخرية المتراكمة حتى يميز النظر من بينها مُثُلاً لمعابد عتيقة ، وصفوفاً من تماثيل صخرية ذات وجوه ناقصة ، وزخرفاً رمزيا ، ووحوشا خرافية لو فصلت من الصخر لكانت شخوصا مستقلة .

كان بودى على كوني لست من العلماء ولا من الاثريين أن أعلم (اميل) فى هذه الفرصة الجميلة بأن ألقي فى ذهنه معنى للآثار السلتية [1] التي لا تخلو منها بعض جهات كورنواى ، وأكثرها شيوعا هو كما تعلم الدوائر القسيسية [2] والاحجار الطويلة القائمة فى الارض على قواعدها كالمسلات ، والرؤوس الصوانية الطبيعية التي صارت بعد عمل صناعي قليل هي الحصون الاولى للبلاد تحميها من لصوص البحر وكان أشد هذه الآثار استمالة لي مدرج بيلدين فى رأس ليزارد ، ومما يحمل على الظن بأن يد الانسان هي التي نحتت هذا المدرج فى الصخر ما يشاهد

---

(١) السلتية نسبة الى السلت وهم شعوب قديمة من الناس كانوا يقطنون بلاد الغول وشمال ايطالية وبريطانية العظمى وايرلاندة

(٢) نسبة الي القسيس لان القسيسين هم الذين كانوا مختصين بهذه الدوائر فلا توجد فى غير عالمهم

في بعض أرجائه من آثار أعمال تلك اليد الفطرية التي محا نصفها كرور المصور وما نبت من الاعشاب الدقيقة على سطح الصخور . ومن الاقوال المروية في شأن ذلك المدرج أن الدوائر العظيمة الناتئة في سمك الحجر كانت فيما غبر من الزمن صفوف درجات وان السلت قد انتهزوا حينئذ فرصة وجود منحن خطته يد الفطرة ووهدة يزيد البحر في قاعها فجعلوها مسرحاً لابصار النظار وعملوا لجمهم حولها . اذا صحت هذه الرواية فليت شعري ماذا كان المنظر الذي كان يحشر الناس له في هذا المكان ؟ ان كان ذلك هو الكون وعظمه فانه مشهد جدير بأثارة وجدان الاعجاب والاكبار خصوصاً في هذه البقعة ولكني أرجح ان ذلك الاجتماع كان لقضاء بعض المناسك الدينية لوجود جملة من الصخور السوداء ناهدة على سطح الامواج تجاه المدرج يقال ان القسيسين كانوا يتخذونها مذابح للقرابين وتلك شعائر أقل ما فيها العظم والجلال .

يوجد أيضاً في هذه الناحية حجارة عمودية يتألف من تناسقها دوائر متناسبة الاجزاء تسمى بالكروملك يكتنفها نبات الخلنج الادكن المحزن فيورث رائيها الغم والخوف ، ولكن : أني « لاميل » أن يكون له كبير اشتغال بمثل هذه الآثار القديمة وهي خلو من أثر صناعة النقش ومجهولة التاريخ ؟ وكيف يرجى منه الاهتمام ؟ على أني أرى أن نفسه قد انفعلت بآثار كامنة فيها لما شاهدناه ستظهر فيه يوماً ما ، واني أستند في هذا الرأي على أمر صبياني جدا غير ان كل شيء في عالم الطفولية هو أكبر مما يظن به ودونك قصة هذ الامر :

كان يوم ١١ يونيه عيد ميلاد « اميل » فأراد أن يشهر هذا اليوم

العظيم بمأدبة خفيفة موافاة لما تقضى به عادة أهل البلد الذي نسكنه ، وأنه فوق ذلك قد عمد فى هذا العيد الى اختراع افتجره[1] افتجاراً فقد أخذ بثوبي وسار بي الى بستان فرأيت فيه وأنا فى غاية الدهش كوماً من الاحجار المتوسطة فى الحجم مرتبة مرصوفاً بعضها فوق بعض بنوع من الحذق والصناعة وقد عددتها فوجدتها سبعة فعلمت من ذلك أنه قد استفاد من مدرسة قدماء « السلت » فانه لما فهم من الآثار التي زرناها على طول الساحل أنها أقيمت تذكاراً لحادثة من الحوادث ـ طبق ما رآه على نفسه فأصبح كما ترى ، وله أن يقول ما قاله هوراس[2] من قبله وهو : « قد رفعت لنفسى أثراً »

على أني أسائل نفسى : لماذا يسمى سن « اميل » بسن التمييز والتعقل ؟ فليت شعري أي شيء يتعقله الطفل فى السابعة من عمره؟ لا أراه يتصور الجزئيات فانه لم يعمر من الزمن مايكفيه لتصورها ، ولا يدرك الكليات ، فانه يجب لادراكها أن يكون العقل قد وصل الى حد معلوم من الرشد ، واني اذا حكمت بمقتضى ما أدتني اليه تجربتي واختبارى أقول : ان « أميل » لا يزال أكثر انبعاثاً الى العلم بالاشياء منه الى الحكم عليها ، فالذى يهمه ويشغله انما هو كيفيات الموجودات الظاهرة وبعض دلائل الفكر وأماراته . وسأبين لك مرادى بمثال آخذه من ضروب تسلينا فانتظره فى المكتوب الآتي . اهـ

---

(١) افتجره ابتدعه (٢) « هوراس » هو شاعر لاتينى شهير ولد فى سنة ٦٨ ومات فى سنة ٨ ق . م

الرسالة السادسة والثلاثون

من هيلانه الى اراسم فى ٢ نوفمبر سنة — ١٨٥

« تعليم التاريخ الطبيعى بتمثيل الفانوس السحرى »

فرغت من إقامة معهد التمثيل الصغير الذى كنت حدثتك عنه فى بعض مكتوباتي السابقة ، ولي أن أقول ولا فخر إنه ناجح مؤد الى الغاية المقصودة منه .

استحضر لي الدكتور وارنجتون من لوندرة فانوساً سحرياً ، وهو آلة جميلة معدة لان تتجلى فيها المناظر المتعاقبة بواسطة الضوء واللون ، ومن خواصها أنها تكبر ما يمثل فيها من الاشياء تكبيراً فى غاية المناسبة وترسم على حجابها الذى هو من النسيج صوراً لا يمكن أن يرى أظهر ولا أوضح منها ، لذلك تراني قد قمت بما أخذته على نفسى من رسم معظم الصور وتلوينها على زجاجها مختبرة ما يكون للوهم من الأثر فى النفس عند النظر اليها ، وقد بدا لي أيضا من المفيد أن أؤلف بين ما تمثله هذه الآلة من المشاهد المختلفة بتنسيقها وجعلها على شكل قصة وجيزة تجعل التمثيل مرتبا متواصل الاطراف يستميل النفوس ويبهج الانظار . ولما انتهيت من هذا العمل دعوت الى المعهد فى الشتاء الماضى عشرين طفلا من الولدان والولائد مخالفة فى ذلك سنة الكونتيسة « ديكاربانياس » فانها كانت تشخص فى بيتها القصص الهزلية وتأمر

بوابها بأن لايدخل أحداً ، وسبب هذه المخالفة اني أعتقد أن الانسان لا يمكنه أن يلتذ بشيء من مروحات النفس الا اذا كثر عدد حاضرها وأنهم اذا كانوا أطفالا تكون الاستفادة أعظم والنفع أتم .

ابتدأت التمثيل بعرض أشياء فى غاية البساطة كداخل ضيعة أو طاحون ، والمعيشة فى سفينة ، ثم مثلت هذه السفينة فى يوم آخر وقد نقلتنا الى بلاد بعيدةوكان أبعدهاعن أخلاقنا وعوائدنا أدعاها الى إثارة الاستغراب وتهييج الشوق فى نفوس النظارة[1] الصغار فكانوايحبون أن يروا بيوتا بنيت على خلاف طريقتنا فى البناء وشوارع وساحات ورحبات عامة فيهارجال و نساءغريبو الازياء والهيئات ، وكان فيماعرضته عليهم صورة صيد الحيوانات الوحشية خصوصا أضخمها وأضراها كالفيل وفرس البحر والكركدن والاسد والنمر فلم أعدم منهم تحمساً فى الدهش والاعجاب بها ، ثم أريتهم قافلة تجوب الصحراء فشاقهم منظرها كثيراً ولقد كفتني هذه التجارب في الاقتناع بأن في فانوسي السحري عزيمة « يا سمسمة انفتحي »[2] وإني إن لم أستعن به على فتح أبواب المجهولات لاصدقائي الاحداث كنت مخطئة ملومة .

يتشوف الاطفال كثيراً الى معرفة كيفية تكون الحيوانات والنباتات والصخور وتتشوق نفوسهم الى معرفة طريقة نشوء جميع ما يشاهدونه كل يوم . من أجل ذلك آذنت جماعة النظارة جهرا بأننا سنمثل على الدوام قصة ذات بهجة وجلال مؤلفة من عدة فصول تسمى

---

(١) النظارة هم المتفرجون (٢) عزيمة سحرية خرافية لفتح الابواب المقفلة ذكرت فى كتاب الف ليلة وليلة

تاريخ الارض .

استعنت عشية هذا التمثيل بجميع مافي الفانوس من أقوة الاستعداد وبصور اعتمد في رسمها على اراء علماء طبقات الارض من الانكليز وبقليل ما حصلته من العلم بمطالعة الكتب ، واستقر رأيي على أن أجعل في التمثيل لفواعل الكون وقوى الطبيعة لساناً تفصح به عن الحقائق والحوادث وهو تجوز يمكن أن يسمح به في الغناء والتلحين الشعري ، على انه لم يكن المقصود من ذالك قرض الشعر بحال بل كان الغرض منه ايضاح ما لم تكف آثار الضوء والالوان المتنوعة في اظهاره على الحجاب اظهاراً تاماً بعبارات في غاية السهولة . مثال ذلك ان أقول للنظارة أتدرون ماذا كان يقول المحيط الذي هو أصل الاشياء لما غمر سطح عالم ازهقت روحه مياهه ؟ الحق أقول انني لم أقف على كلامه . أخال أنه كان يدعو الحياة دعاء الانبياء ويسألها أن تزيل الوحشة من أعماقه المظلمة ولجه القاحلة .

ولا غرو فقد بدا في أشعة الضوء السحري أقدم ما عرف من اشكال الحيوانات كالاوداميا [1] واللنجولا [2] والاورتوسيراتيت [3]

---

(١) الاوداميا حيوان هلاميّ من المكونات الاولى توجد آثاره ولا تعرف اخباره (٢) اللنجولا حيوان رخو ذو محارة مخروطية مستطيلة يشمل جنسه عدة انواع بادت ولم تبق الا آثارها واعضاء الحركة في هذا الحيوان توجد في رأسه (٣) الاورتوسيراتيت حيوان هلاميّ رخو يقوم فيه الذراعان مقام الرجلين محارته ذات فلقتين يشتمل جنسه على عدة انواع بعضها عائش وبعضها بائد فلم يبق الا آثاره .

طاغيـة البحار السيلورية [١] والتريبوليت [٢] وغيرها من مخلوقات الـكون الاولى التي رسمت صورها اعتماداً على بقاياها الأثرية أو على ما انطبع على الصخور من تلك البقايا .

ثم تلا ذلك ظهور أول أرض انحسر عنها الماء فنهدت على سطحه ، وكانت طوائف من الجزر كان يخيل للنظارة بواسطة المغالطة البصرية انهم يشاهدون الاعشاب الشجرية تنبت منها وذلك كالسيجيلاريا [٣] والاستجماريا [٤] وغيرهما من المُثل الاصلية للنباتات القديمة ، ولست أنـكر أن جميع هذه المناظر هي صور في نهاية الحقارة بالنسبة لما تمثله من المشاهد الـكبرى للـكون في عصره الاول ، ولو ان انساناً — كان قد قدر له أن يشهد خلق الاشياء - حضر في معهد تمثيل تلك الصور لما وسعه الا أن يضحك منها لانها ليست الا أشباح لاعب ، ولـكن لا يعزب عن ذهن هـذا الساخر ان هـذا لتمثيل انما جعل للاطفال ، وان القصد منه هو تعليمهم وهو غرض جليل يجب الاغضاء عن حقارة ما يتخذ من الوسائل للوصول اليه .

كان يتلو كل عصر من عصور تاريخ الارض فترة جهالة عمياء وسكوت عام كان يدل — كما نبهت النظارة اليه - على اشتغال الدهر

---

(١) السيلورية نسـبة الى بلاد السيلور وهم اقوام كانوا يقطنون بلاد الغال في بريطانية العظمى (٢) التريبوليت حيوان رخو محارته ذات فلقتين

(٣) السيجيلاريا نوع من النباتات البائدة التي لا يوجد منها الا آثارها يحتوي على نحو ستين صنفا ويوجد في الطبقات الفحمية من الارض

(٤) الاستجماريا نوع آخر من تلك النباتات

بعمله البطيء الخفي .

ظهر في الفصل الثاني من القصة سلسلة مناظر مختلفة آذنت بحصول بعض الحوادث الكبرى على سطح الارض ، منها أن جزءاً نتأت من الماء وتواصلت فكانت بدايا تكوُّن القارات المستقبلة ، ومنها أن ظهرت نباتات وحيوانات جديدة لم يكن عُهد لها وجود في العالم الى ذلك الحين . وأخص ما أثار دهش النظارة من تلك الحوادث وهاج اعجابهم دور ظهور الزواحف وقد حملني ما رأيته من ذلك على اعتقاد أن بين طفولية الكون وطفولية الخيال مناسبة ومطابقة لما خلته من ارتياح نفوس تلاميذي الصغار لمشاهدة صور تلك المملكة الحيوانية البائدة ، فاني مثلت لهم الليبيرانتودون [1] وهو ضفدعة كالثور في الضخامة ، والاختوزيور [2] ذو العين الهائلة ، والبليزيوزيور [3] الذى عنقه كعنق الثعبان ، والميغالوزور [4] فيل الزواحف الذى رأسه كرأس الضب ، والهيليوزور [5] ذو الظهر الشائك ، وصنوف الحيات الطيارة المسماة بالبترودا كتيل التي تشابه ذلك الوحش الخرافي ذا الاجنحة الذى وجهه وجه امرأة وجسمه جسم عقاب واسمه الهازلى ، فأثارت دهشهم وإكبارهم لها بمقادير أجسامها الهائلة وقوة الدفاع فيها ثم تلاشت نوعا

(١) الليبرانتودون هو نوع من الزواحف البائدة أثبت وجوده العالم الانكليزي المسمى اوين بما عثر عليه من بقاياه (٢) الاختوزيور نوع من الضب فني فلم تبق الا بقاياه (٣) البليزيوزيور نوع آخر منه

(٤) الميغالوزور نوع ثالث منه اضخم من السابقة (٥) الهيليوزور نوع من الزواحف الهالكة وجدت بقاياه فى ارض انكلترة .

بعد نوع كما تتلاشى الاحلام :

كانت النظارة يعتقدون ان جميع هذه المخلوقات كانت عائشة على وجه الارض لاني كنت أؤكد لهم ذلك بذمتي ، وكان هذا التأكيد مصدر استغراب جديد لهم ، على اني ما قصدت اضلال أحد منهم ولا التمويه عليه بل قصصت عليهم بالايجاز كيفية معرفتي إياها وبينت لهم ما أضفته من عندى الى ما عرف حق المعرفة من تركيبها وتاريخها ولو أن سائلا منهم سألني عن سبب انمحائها من على وجه الارض لاعضلني سؤاله ، على أني كنت أجيبه : إنا معاشر الموجودات قد زج بنا في محيط الدهر زجاً شديداً ، والدهر كما تعلم منشأ التقلب ، وقد وجد فى طبائعنا الاستعداد لجميع ما قدر لنا من ضروب تصاريف الحياة واستحالاتها ، فمهما كان عمر الزواحف القديمة طويلا فلا بدأنها قد مرت بما قدر للكون من النظام العام كما كانت تمر أشباحها على الحجاب المعد لقبولها .

آذن الفصل الثالث من القصة بمناظر خلوية اجتهدت في أن أمثل فيها آيات العصر الذى يسميه علماء طبقات الارض فجر حياة الارض الحالية (أيوسين) وظهر بعد الزواحف الضخمة اجسام الحيوانات الثديية كالجاتيريوم [١] الهائل ، والدينوتيريوم [٢] مارد المردة في عصرها ، والمستودنت [٣] كبير الحيوانات البائدة الصفيقة الجلود وغيرها

---

(١) نوع من الحيوانات الثديية انقرض وبقيت بقاياه (٢) نوع آخر منها أرقى من الفيل توجد بقاياه فى الارض الرملية والحجرية (٣) نوع من الزواحف البائدة الهائلة

مما لم أذكره وان كان من أغربها. أحضرها سحر الفانوس فعرضها على الانظار برهة، ثم لما رأت ان هذا الكون الذي نعيش فيه لم يخلق لها حتى ما كان منه في حيز الوهم والمغالطة لم تلبث ان لبت دعوة العدم فزالت على التعاقب كما بدت ·

على ان ما تلا هذه العصور الاولى من الاستحالات والانقلابات في النباتات والحيوانات التي كانت موجودة فيها قد آذن بأن الارض صائرة الى أحوال العصور الحالية فأنشأ الاطفال يتدرجون في الشعور بأنهم في أرض يعرفونها مع ما كان لا يزال يوجد من التباين بين ما فيها وبين ما يعرفونه من أرضهم. كانت تتجلى امامهم غابات تقارب أشجارها أشجار غاباتنا تجول فيها ايل ضخمة الاجسام تعدو وراءها السباع التي لا يزال نسلها يفترس فرائسه الى اليوم في الصحاري والقفار.

لم يكن البرد الى ذلك الحين قد كدر صفاء هذه المشاهد التي كان يسبح فيها ضوء الشمس ممزوجاً بحرارتها القوية. ولكن في آخر العشية بدت تباشير الثلج فكان لها مناظر محزنة متعاقبة استعنت في ابرازها للعيان بكل ما في فانوسي من قوة الاستعداد، ففهم منها النظارة أن حيوانات العصور الاولى قد أهلكتها هذه المؤثرات المبيدة أو انها أوت الى أقاليم أخرى أشد حرارة من أقاليمها الاولى، وكان صاحب السلطان على هذه الاقاليم الباردة هو الوعل القطبي والفيل ذو الفروة المسمى بالمموث ؛ وكان يخيل للاطفال ان الارض صائرة الى الفناء وخلتني أطالع في عيون أكثرهم التفاتاً آيات القلق والحيرة ولم أر من الضروري ان أسرّي عنهم هذا القلق فقد تكلفت ذلك الحوادث ،

استغفر الله بل صور الحوادث .

بدت امامهم مغارة نحتتها يد الفطرة في سمك الصخور فكانت ملجأ أوت اليه الحيوانات الوحشية كالدب والضبع الذي هو نوع من الكلب وغيرهامن النزلاء التي ترجع في نسبها الى أنواع من الحيوانات قد اصبحت اليوم مستأنسة . ثم ظهر لهم خلق جديد هو عجيبة الكون ذلك هو الانسان . رأوه على ضوء نار أوقدها لنفسه في جانب منزل من الارض وهو شبه حي عرف كيف يختطه لنفسه . فليت شعرى ما هو ذلك الخلق ؟ ومن أين هو ؟ لا شك ان مثل هذين السؤالين هما من الاسئلة المعضلة التي يحار الانسان في الجواب عنها والمناقشة فيها امام اطفال لا تتسع عقولهم لها ، على اني لست متثبتة في العلم بالاجابة عنهما من أجل ذلك رأيت من الحزم ان أطفيء فانوسي وا كف عن الخوض فيهما .

اجابة لطلب جميع النظارة — كما يقال فى اعلانات معاهد التمثيل — قد استعد معهدنا لايجاد عدد عظيم من المشاهد ستمثل فى قصتنا .

عقدت النية على الاستمرار فى دروس التمثيل هذه وعلى أن أحكي لاصدقائي الاحداث بواسطة الفانوس تاريخ الانسان ومغالبته لفواعل الكون وما اتخذه من آلات صيده وأدوات عمله الاولى وتجاربه الصناعية مذ كانت الصناعة في مهد طفوليتها . ثم أبين لهم بعد ذلك بهذه الطريقة عينها ما عرف من المجتمعات القومية والعوائد القديمة وآثار الفنون الاولى ، فاني أرى انه لاشيء الا ويمكن أن يفهمه الاطفال على شرط اطلاعهم على كل ما تحدثهم به من الاشياء والنزول معهم

في التعبير الى الحد الذي تطيقه أذهانهم .

لست أغبي عن قيمة صناعة رسم الاشباح ولا أجهل ما تساويه تلك الالاعيب الخيالية ولا خفاء في اني لا أدعي أني اذا استعرضت امام « اميل » بعض الصور لما كانت عليه الارض والناس في عصورهم القديمة أكون قد علمته علم الطبقات الارضية أو علم التاريخ . واني اعلم أيضاً أن كثيراً من الصور السحرية لا تلبث أن يزول أثرها من أذهان الاطفال كما يزول من حجاب الفانوس ولكن كل هذا لا شيء فيه فحسبي أن يثبت في أذهانهم صورة أو صورتان فان تم ذلك رجوت لهم في مستقبلهم أن يجتهدوا في تحصيل العلم بأنفسهم من المدرسة الكونية أو من مدارسة الكتب ، وعلى كل حال فليس الغرض من تعليمهم في الصغر أن يحصلوا العلم وانما الغرض منه ان تبعث فيهم روح الشوق والميل الى المعرفة . اه

الرسالة السابعة والثلاثون

﴿ من هيلانة إلى إراسم في ١٤ يوليو سنة ١٨٥ ﴾

« بقية أخبار السفينة الغريقة وسرعة تفاهم الاطفال باليسير من الكلم »

لقد زها « اميل » بالمكتوب الذى أرسلته اليه وأعجب به اعجاباً كثيراً . وكان فيما رأيته شديد الحنق من عجزه عن قراءته بنفسه ؛

وهو على انتظاره بلوغ أهلية الترسل قد طلب الىَّ أن أكتب اليك بما لقفناه من أخبار حادثة الغرق بعد الذى أخبرناك به فأقول : قد ابتلي ملاحو السفينة بضروب المحن وأنواع الشدائد ثم اخترمتهم المنية فلم تبق منهم إلا واحداً أنشأ يستجم ويستجمع ما تبدد من قواه وتيسر التفاهم معه بواسطة ربان اسبانيولي يعرف لغته . ومما استفيد من أقواله أن السفينة الغريقة المسماة (أيا كوكو) كانت لرجل من الملاحين في بلاد البيرو (١) شحنها بضاعة وقصد بها انكلترة ، فما هو الا أن أحاطت بها ريح عاصف من أشد ما يمكن تخيله من العواصف فأغرقتها ومما يوجب الاسف أن غرق ذلك الرجل مما لا سبيل للريب فيه ، وقد كان استصحب بنته وهى فى الخامسة من عمرها لاسباب لا تزال فى طىّ الخفاء ، وكان من فى السفينة يدعونها «لولا» وهو اسم مختزل فيما أظن من دولوريس .

عهدت الى بعض الناس هنا بمراسلة أهل الفتاة فى بلدهم ولما يجبه أحد منهم ، ويقول الملاحون إنها فقدت والدتها من بضع سنين وليس لها أخ ولا أخت ولم يبق من ذوى قرباها الا أباعدهم ، ويؤخذ من كلامهم أن صاحب السفينة كان من المثرين ، ولكن ما أدرانا أن ثروته لم تكن قصورا فى اسبانية (٢) لان البيرو هى اسبانية وراء البحار

(١) بلاد البيرو جمهورية فى أمريكة الجنوبية عاصمتها ليما وسكانها ٣،٠٠٠،٠٠٠ نفس (٢) يشير بقصور اسبانية الى المثل الفرنسى المشهور — وهو قولهم ان فلانا يبنى قصوراً فى اسبانية ويضربونه لمن يتعلل بالامانى الباطلة ويحلم بادراك المقاصد الخيالية

أثار سوء حظ هـذه الفتاة في نفسي عواطف الرحمة والحنان فأمسكتها حتى يأتيني فيها أمرك ، وأنا على يقين من أن عملي هذا لا يقع منك الا موقع الرضا . نعم اني قد لاحظت في أحوالها وهيآت أفعالها شيئاً من الجفاء والوحشة ، ولكنني أرى على هذا الجفاء الصبياني مسحة من الحسن والطلاوة كما ان وجهها تبدو عليه مخايل الجمال والنضرة وهي الآن تعلم « اميل » ما تعرفه من الاسبانيولية على قلته وهو أيضاً يعلمها الفرنسية والانكليزية ، ولا غرو فان الاطفال يتفاهمون بالنزر من الكلم أسرع ما يكون . اهـ

الرسالة الثامنة والثلاثون

﴿ من هيلانة الى إراسم في ١٧ يوليه سنة — ١٨٥ ﴾

تعليم السباحة وتربية العضلات

أنا مع اشتغالي بتربية عقل « اميل » أرى ان أخص ما يجب الاشتغال به في سنه هذه أن تعدفيها أعضاء سليمة قوية لاحتمال متاعب الحياة ، من أجل ذلك تجدني أحثه على ممارسة الرياضات البدنية والاكثار من قبض عضلاته وبسطها اختياراً ، واقتحام العقبات التي لا تخرج عن وسعه اقتحامها . نعم ان لي رجاء قوياً في أن لا يصير من المصارعين ولا أحب ان أرى فيه مثالا صغيراً لذلك المصارع الشهير

المدعو « ميلون دوكرتون » وان أوتيت من أجله انفس شيء في الدنيا ولكني أرى ان كل ضعف يلحق الانسان بدنيا كان أوعقليا يصير سببا من أسباب استعباده .

بدت على قو بيدون منذ حين سمات الكدر لكون « اميل » لا يزال جاهلا بالسباحة ، ولما كان يفضي الي بأسفه من ذلك كنت اعترض عليه بأنه لا يزال من حداثة السن بحيث لا يستطيع أن يمسك نفسه على الماء ، وهو اعتراض لم يكن له قيمة لانه اذا كان ما يعتري الانسان من الخوف عند وجوده في مكان مجهول له هو اكبر العوائق التي تعطل جري حركاته في هذا المكان فلا يكون تقدمه في السن الا من اسباب ازدياد هذا الخوف وقوته . والذي يستفاد من كلام الزنجي البار انه كان يسبح من عهد ولادته ، وهو يقصد بذلك ولا شك انه لا يذكر تعلمه السباحة كما انه لا يذكر تعلمه المشي على الارض لان هذين النوعين من الرياضة هما في نظره من الامور الفطرية . انتفت عني شكوكي ومخاوفي بتأكيده ان لا خطر على « اميل » من تعلمه ذلك الفن ، وقد رأيت ان من مزايا تعلمه انماء العضلات وتقويتها ، وكانه يوسع مجال حرية الانسان في حركته ومرحه في برزخ يفصل بين عنصري التراب والماء . وهو فوق ذلك وسيلة من وسائل النجاة ومن هذه الجهة يكون تعلمه فرضا علينا لأنفسنا ولنظرائنا . على انني كنت أعرف في قو بيدون انه وان كان يتغلب عليه التهور في تعريض نفسه للخطر يحرص كل الحرص على حياة « اميل » فلا يعرضها لما يخشى منه ولو سيقت له في ذلك الدنيا بحذافيرها .

يوجد على مقربة منا شبه بحيرة صغيرة ناشئة من اجتماع مياه غدير يصرفه عن الانصباب في البحر ما يعترضه من الشعاب والكثبان رآها قوبيدون موافقة لتعليم « اميل » مبادىء السباحة فأنشأ يعلمه فيها غير متخذ له منطقة من الفلين ولا مثانة مملوءة بالهواء ولا غيرهما من الآلات الاخرى التي تستعمل احياناً – ان لم أكن واهمة – لمساعدة قوى المبتدئين في السباحة ، ولما كان يقال له في ذلك كان يجيب بلسانه الساذج قائلا يجب ان يكون الطفل فلينة نفسه ، وارى ان طريقته في التعليم سهلة جدا على حسب ما تيسر لي من الحكم عليها ، فأهم شيء بنيت عليه هو بث روح الثقة في نفس المتعلم ، وقد اكد لي من رآه في وقت التعليم انه من أجل أن يكون قدوة في ذلك لتلميذه كان يستلقي على ظهره في الماء ناظراً الى السماء سادا فاه متنفساً بأنفه وقد برز جزؤه من الماء ، فكان لسان حاله وهو في هذا الوضع يقول لناظريه : هاأنتم أولاء ترون ان الانسان لا يصح ان يغرق ، وانه اذا غرق بعض الناس فانما يغرقون مختارين .

لم يلبث هذا الاستاذ ان ابدى كثيرا من التيه والفخر بتقدم تلميذه . غير انه كان يرمي في سبيل نجاحه الى غاية أبهر من ذلك واظهر فكنت اسمعه يهمهم متهكما بالسباحة في البحيرة قائلا ما احسنها سباحة في مغتسل ! دعيني من البحيرات وحدثيني عن البحر تجدي اذنا صاغية فهو الذي يمسك من يسبح فيه ويسنده ويزيد في قواه ، ولكنني كنت اعارضه وانهاه عن الذهاب « باميل » اليه وعن تجربة سباحته فيه لما كان يخامر قلبي من الروع والفزع المنبعث عن المبالغة في توهم ما عسى ان

يكون في ذلك من الاخطار ، لاني اكبر هذا الخلق العظيم واجله إجلالا مشوباً بالروع ، فانه كثيراً ما اغتال اناسا في نواحينا ، ولا بد ان اقول : ان « اميل » أيضاً كان يشاركني في هذا الروع بعض المشاركة ، فان البحر خلق حيّ مضطرب يرتفع ويجذب السابح فيه اليه مططخباً ، وفي كل صفيحة من صفائح أمواجه شخص بل عد ولذلك السابح عامل على اهلاكه ، وفي دوام روحات هذه الامواج وجيآتها ما يمثل للانسان اضطراب بحر الازل بعوالم المخلوقات ويقوم له منه اكبر موعظة وذكرى تنبهه الى ضعفه وعجزه .

لم يطل عهد نفور « اميل » من البحر وخوفه منه ، وها انا ذا مبينة لك السبب الذي قمع ذلك النفور وشرد هذا الخوف فأقول :

إنه يفهم من سجنك معنى مبهما ، ولم أرد أن اكشف له حقيقة هذا الامر الذي يهيج الكلام فيه ساكن آلامي ويثير كامن اشجاني لسببين ، اولهما انه يصعب عليه فهم مرادي من الكلام (فماذا عسى ان يفهمه من قولي له ان والدك سجن بسبب سياسي ؟) وثانيهما ان سوء ادراكه للحوادث التي حصلت قد يبعث في نفسه بغض فرنسة وعداوتها . لذلك تراه قد جره امساكي عن الخوض في هذه المسألة الى ان يخترع لها حكاية يعللها بها ، فهو يتوهم انك أسير في قبضة جنية أو غول أو تنين ، وانك رهين قلعة يحصنها البحر ، وربما كان الباعث له على هذا وجوده يوماً ما فوق صخرة وغشيان المد اياه واحاطة الامواج به إحاطة ذلك الكلب الخرافي ذي الرءوس الثلاثة المقول عنه في أساطير الاولين بأنه حارس جهنم ، ومهما كان الحامل على ذلك الاعتقاد فانه قد وطن نفسه على ان يحمل حملته الاولى لتخليصك مصاحباً لعزم كعزم

اشراف المائدة المدورة [1] أو كعزم شاب باسل قتال للوحوش غلاب للاغوال . على انى لا يسعنى إلا اتهام الزنجي الخبيث بأنه زين له أوهامه وحبب اليه خدع نفسه ليحمله على مشايعته فى آرائه وموافقته لافكاره .

دخل عليّ البيت كلاهما ذات يوم ووجه قوبيدون تعلوه قترة الريبة ، وقد غلب على « إميل » ما يغلب على كل ظافر بطلبته من الفرح ، فلم ألبث ان فطنت الى المكان الذى جاء منه وهاج غضبي عليهما الى حد ان صار وجهي أحمر كالجمر ، وعنفتهما على مخالفتهما لامرى فلم يتزعزع « إميل » لهذا الهياج ، بل تلقاه بثبات الشجعان ، وأجابني وقد بدا على وجهه من الاصرار ما لم أعهده من قبل فقال انى أريد أن أتعلم السباحة لافك والدى من أسره وآتيك به ، فما سمعت منه هذه الكلمة وشاهدت لحظه المعرب عن حرية ضميره وخلوص طويته ورأيت ثقته بنفسه المنبعثة عن سذاجته وعلمت مقاصده النبيلة — حتى سكنت ثائرتي وكفت بادرتي ، فبششت فى وجه بعد العبوس وتبسمت له وضممته الى صدرى وأشبعته تقبيلا فى جبينه الذى كان لا يزال مندى بماء البحر .

---

(١) اشراف المائدة المدورة هم رهط من الاشراف عددهم اثنا عشر يجعلهم كتاب القصص القديمة من رفقاء ارتوس وهو شجاع قصصى من شجعان بريطانيا العظمى .

الرسالة التاسعة والثلاثون

﴿ من هيلانة إلى إراسم فى ١٨ يوليو سنة – ١٨٥ ﴾

اخباره بالعفو عنه

اذا صح ما نشرته الجرائد الانكليزية وما ذاع من الاشاعات فى الهواء لم تبق حاجة « لاميل » فى ان يتسلح تسلح الاشراف ولا ان يطوى البحار ليخلصك من قبضة التنين الذى يعتقد انك فى اسره — لان الناس هنا يتكلمون بحصول عفو سياسى ، واني كنت أتمنى ان يحصل لك من الحكومة فوق هذا العفو عمل يكون جزاء لما لحقك من الضرر وتحقيقاً لمقتضى الانصاف ، ولكني لم اطلب لك شيئاً من ذلك فلا تعجل بالرفض واعلم ان قلبي يرقص طرباً كلما فكرت فى وقت التلاقي . اه

الرسالة الاربعون

﴿ من الدكتور وارنجتون الى هيلانة . . ﴾

بشرى الحرية

أيتها السيدة .

علمت الليلة فى لندرة خبراً أبادر بابلاغك اياه : ذلك ان زوجك قد منح نعمة الحرية وفى الختام لك منى السلام والاحترام . اه

الـكتاب الثالث

(في اليافع)

شذرات مقتطفة من جريدة الدكتور اراسم

الشذرة الاولى

﴿ حررت في مرازيون فى سنة — ١٨٥ الداخلة فى سنة — ١٨٦ ﴾

حب الزوجة والولد والوطن

منذ سنة تغيرت شؤون حياتى كلها .

وجـدتها هي بعينها (١) ولما تلاقينا كنا كأ ننا لم نفترق فى حياتنا ، فان النوى لم يغير شيئاً من ضروب وجداننا ولا من عاداتنا لبقاء قلبينا على ما كانا عليه من الارتباط والاتحاد ، وغاية ما حدث اني أراني الآن آنس مني فى جميع أيامي السالفة بحسن معاشرتها ، نعم انها لم تبق طفلة كما عهدتها ولـكنها لم تأخـذ من مرور الايام الا ما يزيد المرأة فى القلوب محبة وفى النفوس تأثيراً ، فـكأن روحها وملامح وجهها تكملت

(١) يريد زوجته أم « اميل »

وتطهرت بادائها فروض الامومة المقدسة .

كنت أوشكت أن أقنط من معرفتي لولدي ، ومما ينبغي التنبيه عليه في هذا المقام ان الذين هم أكثر الناس اشتغالا بالتربية لم يرزقوا أولاداً أو رزقوهم وحرموا من رؤيتهم ، وربما كان هذا هو الباعث لهم على الاهتمام بالتربية وجعل البحث في شؤونها غايتهم ليؤدوا بذلك ما فرضه الله عليهم منها بنوع آخر من الاداء .

فليت شعري بماذا استحققت أن أكون أسعد من هؤلاء مع كونهم أجدر مني بالسعادة ؟

ما أشدني حنواً وتأثراً عند تقبيل ولدي إياي ! وما أعظم زهوى واعجابي به عند ما آخذ بيده وأتنزه معه في المزارع ! وان الدنيا لترى في عيني جديدة وهو معي كأن لم أرها منذ سبع سنين . لا جرم أن الانسان لا يبصر وهو رهين السجن محروم من الحرية فكل ما كنت أراه من أشجار وصخور عمرت عمر الدنيا القديمة كان يخيل اليّ انه لم يخلق إلا بالامس .

خطر في ذهني ساعة خاطر العود الى فرنسة ولكن الف مانع — وان شئت فقل الف وهم — قد تحول بين المرء وبين معيشته في وطنه، وما أدراك أن من هذه الموانع ما يعتريني من الالم الممض الذى لا أستطيع التعبير عنه اذا رأيت أمة عظيمة عهدتها حرة قد أصبحت في قبضة حاكم وجميع ما يحصل في هذا الوطن لا يقل عن ذلك ايلاماً للقلب ولا ازهاقاً للنفس

يوجد في جميع عصور التاريخ رجال بررة صالحون رأوا من

الواجب عليهم لانفسهم ولاوطانهم أن يخدموا هذه الاوطان وهم بمعزل عنها ، فمثل هؤلاء فيما أرى أشد حباً لها لانهم سواء قربوا منها أو بعدوا عنها يحيون بنفحاتها وينتعشون بمجاهداتهـا في سبيل الخير وبما لها من الآمال في الوصول اليه . جرحهم في صميم أفئدتهم ما مس أمتهم من القروح وان كان يبدو من حال الامة عدم شعورها بألمها كأن في مرور الزمن عليها واعتيادها احتمالها من قوة التأثير ما يكفي لاندمالها جميعاً مثل هؤلاء المتطوعين بالاغتراب والنفي يلومون الناس وحوادث الدهر ولـكن اذا حاول محاول امامهم ان يغض من كرامة فرنسة ويحط من شأنها استشاطوا غضباً وتبيغ [1] الدم في عروقهم . ذلك أن هذه القطعة من الارض التي تنازلوا عن سكناها مختارين قد تغلغل حبها في أحشائهم وأخذ بمجامع قلوبهم ، فتراهم يبذلون الوطن نفسه في اعزاز شأن المعنى الذي قام في أذهانهم منه ويفضلون الحكم على أنفسهم بالبعد عنـه على رؤيتهم اياه مهيناً ذليلا .

كأني بسائل يقول : لماذا اتخذت هذه العادة وهي تقييد أفـكارك ومذكراتك كل يوم بحسب المصادفة والاتفاق ؟ فأجيبه ان هذا مطوى أيام معيشتي في السجن أنشره للناس لانني لما لم يكن لي فيـه أنيس أطارحه الحديث كنت أكتب كأني أراسل نفسي .

---

(١) تبيغ الدم هياجه وثورانه

الشذرة الثانية

﴿ تعليم المسميات قبل الاسماء ﴾

لم تخلف طريقتها فى تربية « اميل » أملا من آمالى فلتبق على ما هي بسبيله من تهذيبه وتثقيفه بما تقدمه له من الأسى وبما توحيه الى نفسه من الثقة بها ، على اننا من عهد أن أنعم الله علينا باللقاء رأينا من المفيد أن نقسم العمل بيننا لان التعليم — ان لم أكن غاليا فى حكمي — هو من وظائف الوالد غالبا وأما التربية فانها من أعمال الوالدة وان أردت أن تعلم أين نحن من قيام كل منا بعمله فأقول :

لما يدرس «اميل» شيئا درسا منتظما فهو انما تقف دروسه الاولى فى علم التاريخ الطبيعي متفرقة على نحو من الاتفاق وذلك بمعاينـة ما كان يجده كل يوم على شاطيء البحر من أنواع المحار والصدف . ثم اني أمكنه حينا بعد حين من النظر بالمنظار المعظم (الميكرسكوب) — وهو آلة شائعة الاستعمال جدا عندنا — محركا أجزاءه بنفسي فيكبر له بعض عجائب المخلوقات غير المتناهيـة فى الصغر ، وأريه بالمرقب (التليسكوب) وهو آلة أرصد بها النجوم ليلا — عجائب المخلوقات غير المتناهية فى الكبر . وقد ملاءنا اناء من الزجاج بالماء الملح ووضعنا فيه حيوانات هلامية وحيوانات قشرية وأسماكا وكنا نجـدد ماءه كل ثمانية أيام ، ومنه تلقى « اميل » كل ما عرفه فيما أرى من عـلم حياة

الحيوانات التي تعيش فى جوف البحر . وفى بعض الاحيان اكرر بمشهد منه بعض تجارب سهلة جدا فى الكيمياء والطبيعة ، وهو على جهله باسمي هذين العلمين يدرك بعض الادراك تأثير بعض الاجسام الفطرية فى بعض . وفى ذات يوم رآني أصنع مقاييس للحرارة والهواء مع كونها لم تكن من الاتقان فى شىء بدا لي منه انه أدرك استعمالها فى الجملة لاني رأيته يريد محا كاتها . جميع ما تقدم هو كتب تعليمنا حتى الآن .

لا بد أن أكون أنا « واميل » تابعين فى التعليم لمذهب ارسطاطاليس لان أغلب درسنا يحصل فى وقت التنزه ، فاني أدع لامور الكون وحوادثه تنبيه ذهنه غير متعرض لها بشرح ولا تفسير الا أن يكون اجابة عما يوجه اليَّ من الاسئلة مجتهداً فى أن يكون الشرح واضحاً والبيان وافياً . وقد عرفت من محاورته أن الوسيلة الى اصغائه اليَّ هي تتبع سلسلة أفكاره عند محادثته . ان كثيراً ممن يأخذون على أنفسهم تعليم الاطفال ليبالغون لهم فى البيان ويفرطون فى الشرح كما لو كانوا فى حاجة الى أن يثبتوا بذلك لانفسهم انهم على معارف واسعة وعلوم جمة . أنا لا أعلم « اميل » شيئاً بل أتعلم منه فعوضاً عن كوني أعلمه طريقتى فى النظر أجتهد فى معرفة طريقته وتمييزها ومالا يميل الى معرفته بحال أجهله مثله أو اتجاهله . نعم ان هذه الطريقة ليس من شأنها أن تعلي قدر الاستاذ فى نظر تلميذه ، وانه لابد فى اتباعها من تنزه العقل عن الغرض وتنازله عن شهواته ، ولكن ما هو متبع الآن من نقش صيغ العلوم وقوانينها وقضاياها فى أذهان الاطفال

ليس هو الا كرقم الالفاظ على الرمل .

ملكة البحث عند الطفل هي كغيرها من الملكات تنمو بالاعتياد والمراس فان الشوق الى معرفة الاشياء يتولد فى الانسان ولا يولد معه وانما يكتسب ذوق الملاحظة الاستقلالية بالملاحظة نفسها ، ولاريب أن أعين تنبه « اميـل » والتفاته بأن أريه ما لايراه فى الاشياء لاول نظره اليها ، غير انه فى هذه الحالة يجب أن يكون هو مصدر الميل الى ذلك أيضاً وأن يكون صدور هذا الميل منه فطرياً . ثم ان الاطفال فى الجملة مدفوعون جـدا بسائق الطبع الى الاكثار من السؤال ، فرأيي ان التعجيل لهم بالجواب قبـل السؤال وتجاوز حدود ما يطلبون معرفته هو مما تخبو به نار هذا الاستعداد المبارك لان ذلك يفضى بكثير منهم الى التزام السكوت ليكفوا انفسهم مؤنة سآمة الدرس وطوله . اه

الشذرة الثالثة

﴿ تربية الذكور مع الاناث وتعليمهما معا ﴾

اني أخشى مغبة افراطي وافراط هيلانة فى ميلنا الى تلك الصبية التي ألقتها العاصفة بين أيدينا لجواز أن يطلبها بعض ذوي قرباها يوماما وكيفما كانت نتيجة هذا الميل فلا بد لى هنا من اثبات أمر يتعلق بعلم تركيب الانسان ومنافع أعضائه فأقول : كانت دولوريس لما التقطناها

وآويناها الى بيتنا محلا لجميع العيوب التى توجد فى نظائرها اللاتى من قبيلها وبلادها .

كانت مع ظرافتها مكسالا وانية قليلة العناية بشأن نفسها ، وان كان لابد من التصريح قلت انها كانت كثيرة الوساخة ، وكان هذا الاغفال منها لنفسها مع مقدار عظيم من التغنج والتدلل من موجبات كدر هيلانة وحزنها ، ولم ينجح في الكسر من زهوها والطأمنة من صلفها ما اتخذته لذلك من العظات وضروب التوبيخ وأنواع الايلام الخفيفة . ولما كان فيها من حدة المزاج بل والتهيج عند مخالفتها فيما تريد — كانت لا تبدى أدنى اشتهاء للتعلم . أفرغت هيلانة جهدها فى ايقاظ عقل هذه الحسناء ناعسة الغابة [1] من سباته فأخفق مسعاها

(١) يلمح المؤلف بقوله « هذه الحسناء ناعسة الغابة » الى أسطورة من اساطير الكاتب الفرنسي شارل بيرولت المسماة حكايات الجن ملخصها ان أحد الملوك وزوجته ابتليا بالعقم مدة طويلة ثم رزقا فتاة حسناء فجملاها فى كفالة سبع جنيات وأولما لهن وليمة أعدا فيها لكل واحدة منهن صحفة فاخرة لها كيس من الذهب الخالص فيه ملعقة وشوكة وسكين من الذهب أيضاً وفى أثناء جلوسهن على المائدة جاءت جنية عجوز ثامنة لم يكن حضورها فى الحساب فقدمت لها صحفة بلا كيس فظنت ذلك احتقاراً لها فخافت احدى الجنيات أن تسيء هذه المولودة فخرجت ثم ان كلا من الاخريات منح المولودة صفة جميلة ما عدا العجوز فانها قالت ان الفتاة ستخرق يدها بمغزل وتموت فجاءت الجنية التى كانت خرجت وقالت انها لا تموت ولكن يغشاها النعاس مائة سنة ولا يوقظها الا ابن ملك من الملوك ثم اتفق اذ الفتاة رأت مغزلا فى يد عجوز فتناولته فخرق يدها فسقطت نائمة ثم نقلت الى قصر لوالدها فى غابة وبعد مائة سنة أيقظها ابن ملك وتزوجها

وبطل أثر ما استعملته من التعاويذ والطلسمات لرد هذا السحر الذي لا يدري أية جنية خبيثة من جنيات البيرو رمتها به على ما يظهر . وان أردت أن تعلم من الذي أبطل هذا السحر فاعلم انه « اميل » ذلك لان ميل « لولا » الى ان تعجبه وان تتحامى ضروب سخريته بها وأنواع زرايته عليها – كان أشد تأثيرا فى ارادتها من جميع عظاتنا ونصائحنا ،

كان هذا أول سلطان « لاميل » على قلبها ولا خطر فيه فى سنهما.

من ذلك الحين وقع التنافس بينهما ، أما من جهته فلشدة زهوه وفخره بماله من التقدم عليها فى علومه القليلة ، وأما من جهتها فلغيرتها ورغبتها فى منازعته ذلك التقدم ، والمرجو من هذا التنافس أن يعود دائما بالفائدة على كليهما فان درسهما مجتمعين أحسن وأتقن منه منفردين لانه اذا اعتبر « اميل » نفسه أعلم من لولا اجتهدت فى التبريز عليه فى ميدان المطالعة .

أرى ان هذه الصحبة تفيدهما فى أخلاقهما أيضاً فائدة كبرى فان الاطفال على علم تام بما يشتركون فيه من العيوب ، ولا يبقى بعضهم على بعض فى تشهيرها وتعييره اياها ، لذلك نرى « اميل » قلما يوقر « لولا » فيما يراه من النقائص ، وهي أيضاً لا تقصر في أن تكيل له الصاع بمثله بدون أن يكون في هذه المشاغبات الخفيفة ما يكدر صفو مودتهما الشريفة في شيء ، وكأني بقائل يقول : ان هذه المزايا بعينها توجد في معاشرة الاخ لاخته ووجودهما معاً ، فأجيبه بأني في شك من ذلك لعدم تمام الشبه فى الجهتين .

زرت فيما مضى مدرسة للصم البكم كانت تنقسم في أول نشأتها

الى قسمين أحدهما للذكور والاخر للاناث ، فلم تلبث التجربة أن كشفت عيوب هذا التقسيم فان الصبايا اللاتي كن مقصورات فى قسمهن كان يبدو عليهن التأخر عن الغلمان سنة أو سنتين ، ولم يكن الغلمان أنفسهم بارعين في التقدم والنجاح ، فخطر في بال القائمين على المدرسة أن يجمعوا الفريقين في غرف واحدة فكانت نتيجة هذا التغيير محمودة فانه لم يمض الا يسير من الزمن حتى زال تأخر أحد الفريقين وانحطاطه عن الآخر وتقدم الاخر تقدماً لا نزاع فيه . ذلك لان العجب الذى هو خلق فطريّ في الذكر والانثى ، والطمع الذى هاجه فى نفوس الغلمان وجود منافسات زاهيات بأنفسهن بينهم واهتمامهم بأن يظهروا في أعينهن ممتازين عنهن ، كل ذلك ساعد من الجهتين على ازدياد درجة معارفهم في دروسهم مع انهم كانوا هم التلاميذ الاولين لم يتغيروا وانما ظهر أن قواهم تضاعفت . لماذا لا يصح فى حق الناطقين والناطقات ما صح فى حق الصم البكم .

انما يعارض القائمون على تربية الناشئين فى الجمع بين الذكور والاناث بحجة المحافظة على الاخلاق والآداب ولو كانت هذه المعارضة مبنية على سبب صحيح لكانت وجيهة سديدة ، ولكن لا بد أن نجيب هؤلاء المعارضين بأنه لم يفكر أحد البتة فى جمع هذين الصنفين فى قاعات النوم العامة ولا شك أن تقسيم محال المدرسة وأفنيتها والرياضات المدرسية بالحكمة والتدبير يجنب كثيراً من المضار التي يخشى منها على الآداب والاخلاق .

على أن العمل العقلي انما جعل لتذليل الغرائز والشهوات الخبيثة

وقمعها لالتنبيهها وتقويتها ، وانى أرى ـ خلافاً لاولئك المعارضين ـ أن فى التفريق الكلي بين الصنفين خطراً على الفضيلة ، فان فرط الاحتراس والاحتياط الصادر عن الرياء والنفاق لا يكون منه الا دعوة الفساد الى الاحتيال للتطرق الى الاخلاق من سبيل الشر فلا يلبث أن يظهر فيها وان كثرة بث روح الحذر فى أطهر المعاملات وأعفها توقظ فى اليافعين ماهو نائم من شهواتهم وتظهر ما يكون كامناً من أشواقهم فينبغي أن تزال هذه الحدود المادية ويعتاض منها بحدود الله التي فطرهم عليها وجعلها فى نفوسهم سياجاً لما فرضه عليهم .

لا أريد مما تقدم أن الذكر والانثى فى التربية سيان يصلح لاحدهما كل مايصلح للآخر كلا . بل كل منهما يقتضى تربية خاصة لاختلافهما فى المواهب والفروض والغرض الذي خلقا لاجله . على أننا نرى النابغين والنابغات من الصنفين يتكافؤن ويتناسبون فى بعض ذوى العلوم والفنون الجميلة والشعر ، فالاجدر بنا أن نفكر فى اعداد الازدواج بين ما أوتيته الانثى من رقة الوجدان ، وما أوتيه الذكر من حصافة الجنان فان فى ذلك لذة حياة الصنفين ، وان فى تربية شطري النوع الانساني منعزلين كأنهما لا يشتركان فى شيء مما خلقا لاجله تعجيلا بقطع الصلة الاجتماعية : وأما تقديم الصبية الى الصبي وتفهيمه أنها ستكون له فى مستقبله رفيقة فى العمل والكدح فى سبيل الخير والعدل والحق فهو أكثر انطباقاً على مقتضى الفطرة وعلم الاخلاق ، وعلى كل حال ستتعلم « لولا » و « اميل » معاً الى أن تقتضى الحال التفريق بينهما ، وانى لأرجو لكل منهما خيراً كثيراً من وراء هذا الاقتران العقلي . اه

الشذرة الرابعة

الجزيرتان والتعليم بضرب الامثال

يحسن أحياناً فى حوار الاطفال أن يكون تفهيمهم الحقائق على طريقة ضرب الامثال

سألني « اميل » منذ أيام لماذا وجد فى الناس فقراء وبدا لي من « لولا » كثرة اهتمامها بمعرفة العلة فى أن فيهم أغنياء .

جرى على الالسنة جواب مشهور لهذين السؤالين وهو « ذلك ما أراده الله » وما كنت لاجيبهما بمثل هذا التعليل ، لانه فيما أرى ليس من شأنه أن يؤدي الى أذهان الاطفال معنى كبيراً لعدل الذات العلية ، وما كنت أيضاً لادخل معهما فى أعوص مسائل علم الاقتصاد السياسي وأصعبها . من أجل ذلك رأيت ان أحسن جواب أخرج به من هذه الحيرة أن أقص عليهما قصة فقلت :

روي أنه كان يوجد فى مكان سحيق من بحر لست على يقين من معرفته جزيرة بنى فيها الأغنياء قصوراً من المرمر وزرعوا فى أرضها بساتين وحدائق ذات بهجة ربوا فيها من الازهار ما يندر وجوده فى غيرها واحتفروا بركا توفيراً لاسباب اللذة ، ولم يكن فى الدنيا ما يعادل زخرف موائدهم ، فقد كان يطاف عليهم بصحاف من الذهب فيها أقشار ضخمة طبخت بمرقة سرطان البحر (وهو ألذ ألوان الطعام فى ذوق

« اميل » .) وكانوا فى لباسهم بالغين حد الافراط فى التأنق خصوصاً نساءهم وكان أولادهم يلعبون الكجة[1] فى الميادين العامة بكرات من الماس.

وأما فقراء تلك الجزيرة فكانوا يمشون حفاة وكانت صباياهم تغدو كل يوم فى أسمال من الثياب فتطوف بأبواب الاغنياء التماسا لما ألقاه خدمهم من قامات موائد العشية . ولم يقتصر الاغنياء فى سوء معاملتهم على استعمالهم فى الاعمال الشاقة الممقوتة بل كانوا يحتقرونهم ، وبلغوا من ذلك الى حد أنهم كانوا يحظرون على ذوى الثياب الرثة منهم أن يوجدوا فى المتنزهات العامة ، ولم يكن لهذا الحظر من سبب سوى خوفهم على بسطها السندسية أن تدنسها أقدامهم ، أوخشيتهم أن يكون منظر بؤسهم قذى فى عيونهم ، وهذا هو الاقرب الى الحقيقة .

من أجل ذلك كله غادر الفقراء المدينة ذات ليلة وآووا الى جبل ليأتمروا بالاغنياء فكان رأي الشبان منهم أن يأخذوا أسلحتهم ويسطوا عليهم وهم نيام فى مضاجعهم ويقتسموا أموالهم ، فقام من بينهم شيخ حكيم وتربص بهم حتى قرت شقشقتهم ، ثم قال إياكم أن تفعلوا من ذلك شيئا لاسباب ثلاثة أبديها لكم : أولها ان الاغنياء يقوم على حراستهم فى صروحهم خدم هم شر منهم ، وكلاب أضرى من الحراس أنفسهم . ثانيها اني لا أعتقد أن سطوكم هذا عليهم وسلبكم لاموالهم يكون من العدل ، لانهم قد كسبو هذه الاموال التي تحسدونهم عليها أو كسبها

---

(١) الكجة بالضم والتشديد لعبة : يأخذ الصبي خرقة فيدورها ويجعلها كأنها كرة ثم يتقامرون بها وتسمى هذه اللعبة فى الحضر باسمين فاما الخزفه فيقال لها التون واما الآجرة فيقال لها البكسة

أسلافهم من وجوه شريفة أو خسيسة ثم ملكوها من بعدهم بمقتضى قوانين - أرى مع كوني لا أدرك كنهها كمال الادراك - انه لا بد لوجودها من سبب لان جميع الناس محافظون عليها مطيعون لاحكامها حتى الآن . ثالثها أن ما يجوز أن تنزعوه اليوم من أعدائكم بغلبتكم عليهم يجوز أن يسلبه غداً منكم غيركم بقوته وضعفكم ، فعلينا اذن أن نفكر جميعاً في اتخاذ وسيلة أخرى : لا بد أنكم سمعتم بوجود جزر أخرى في البحر غير هذه الجزيرة التي قضى علينا نحس طالعنا بالولادة فيها ، فقد حكى لنا فقراء الملاحين اخواننا الذين يحضرون الى هنا بسفينتهم مشحونة بالارزاق ومواد الزخرف التي يستعملها الاغنياء - أنهم رأوا غير مرة في أسفارهم أرضين تنهد من الماء مكللة بالنباتات والاشجار الكبيرة المثمرة ، ويستفاد من حكايتهم ان احدى هذه الجزر خالية من السكان ولا ينقصها الا ارادتكم حتى تصبح جنة جمة الثمار دانية الجنى ، فان لنا سواعد قوية تساعدنا على العمل وها أنا ذا مع شيخوختي سأكون لكم قدوة فيه وأمدكم بنصائحي عند الحاجة ، هذا هو رأيي قد أفضيت به اليكم فانظروا ماذا تفعلون .

فتلقى جميعهم نصيحته بالقبول وما عتموا ان هاجروا الى تلك الجزيرة متعاقبين على سفن واهنة صنعوها بأنفسهم من ألواح خصاصهم فشمل الاغنياء فرحا لسفر هؤلاء الغوغاء ولم يستطيعوا كتمان فرحهم بل كانوا يصفقون ويجهرون بقولهم : حبذا حبذا هذا الخلاص .

فلما كانت تلك السفن تقلّ الا أشخاص المهاجرين لانهم كانوا لا يملكون شيئاً . أستغفر الله ! بل حملوا معهم فيها أدوات عملهم .

مضى على سفرهم بضع سنين انقطعت فيها أخبارهم واختلف أقوال أهل الجزيرة في شأنهم ، فمن قائل بأن البحر ابتلعهم ومن واهم بأنهم أكل بعضهم بعضاً ، وبينما هم في هذا الاختلاف اذ رأو ذات يوم سفينة مشحونة بالغلال وعروض التجارة رست على ميناء جزيرتهم فلم يلبثوا ان عرفوا من لهجة ملاحيها وبعض ملامح وجوههم انهم من سكانها السالفين ، وقد أخبرهم هؤلاء الملاحون انهم آتون من جزيرة أخرى استقامت فيها أمورهم ونجحت نجاحاً عظيما ، لانهم ما حرثوا الارض وأحيوا مواتها حتى جللتها الحصائد وملأتها المزارع والمواشي فاعتبر الاغنياء هذه الاخبار من الاساطير وقهقهوا لسماعها قهقهة المجانين.

على ان الملاحين لم يكونوا مبالغين في شيء مما قالوا ، فانه كان يخرج من أرض تلك الجزيرة القفرة على نحو من السحر حقول مكسوة بالزروع وقرى ومدن وطرق وترع ، وكان سكانها في معيشتهم على وفاق تام لانهم كانوا منها في غبطة وهناء وقد ضربت عليهم السكينة رواقها ، فكانوا يعتبرون أبناءهم بذوراً لخلف أرقى وأكثر منهم ، ولذلك كانوا يبكرون بتعليمهم العمل وانشائهم على حبه .

أصبح الامر على خلاف ذلك في جزيرة الاغنياء ، فكانت الثروة فيها تنقص من يوم الى يوم ، لان سكانها لما كانوا من فرط الكبر والكسل بحيث انهم يستنكفون أن يتولوا بأنفسهم حرث الارض لم تلبث أن امتلأت عاقولا ، وتعطلت جميع الحرف والصنائع لفقد عمالها ، وتبع ذلك زوال مواد الزخرف ، وتداعت الصروح والقصور فلم يوجد من الرجال من يقيم منآدها

فزع الاغنياء في بداية هذا الانحطاط الى صناع الجزائر المجاورة لهم فلم يجيبوا دعوتهم لانهم كانوا على بينة مما كانوا يعاملون به اخوانهم فلم يرضوا لانفسهم ما قاساه هؤلاء من ضروب الاهانة .

نعم ان من بقي في الجزيرة من سكانها كانوا يملكون كثيراً من الذهب والفضة ، وانهم اشتروا من التجار الاجانب كل ما كانوا في حاجة اليه مدة من الزمن ، ولكن كل كنز لا بد من نفاده بالغا من الكثرة ما بلغ خصوصاً اذا كان أصله لا يتجدد ، ومن أجل ذلك لم يمض الا بضع سنين حتى غاضت أموالهم ، وأنشأوا يندمون — ولات حين مندم — على ما فرط منهم من القسوة والظلم في معاملة الفقراء .

صاروا الى حالة محزنة جدا ، فقد تخلى عنهم من كانوا يحوطونهم من الخدم والحشم لعجزهم عن دفع أجورهم ، وعجزت خيلهم عن جر عجلاتهم لفقدها من كانوا يقومون على تغذيتها واصلاح شأنها . وكانت نساؤهم ترى في الشوارع منتعلات نعالا من الديباج مشوهة الاعقاب ، ولابسات جلابيب من الحرير المذهب كلها ممزق ومخرق ، لانه يخجل اولئك السيدات الجليلات ان يرقعن ثيابهن بأيديهن ، فاذا نظر اليهن ناظر وهن في هذه الاهدام بهذا الصلف والعجرفة دعته حالهن الى الضحك والاستهزاء بهن لو لم يكن من القسوة واللؤم الاستهزاء بالتعساء البائسين ولو كانوا من الاشرار .

وجملة القول ان جزيرة الاغنياء المترفين قد أصبحت جزيرة الفقراء المعدمين . كان القحط يزداد فيها من سنة الى أخرى ، فقد

ضعفت الارض عن التحصيل لعدم ما كان يخدمها من الايدي ، وكاد الاغنياء يموتون جوعا في صروحهم ، ولو لم يتداركهم أولئك الفقراء الذين أخرجوهم من ديارهم بالافراط في سوء معاملتهم ويساعدوهم بما فضل عن حاجتهم لهلكوا على بكرة أبيهم .

كان « اميل » كثير الاصغاء اليّ في حكايتي لهذه القصة وما فرغت منها حتى ابتدرني بقوله : يستفاد من القصة اذن ان العمل هو سبب الغنى والثروة ، فاجبته : ان هذا ليس مطرداً ولكن أقل فائدة له انه يغني الامم التي تعرف مناهج العدل وتسلكها . اه

الشذرة الخامسة

الخط الديواني

أنشأ « اميل » يخط بالقلم خطاً مناسبا لحاله ولكني فى شك من جريه على قواعد الخط فى شيء مما يكتبه .

كان الخط فيما مضى كأنه من صفات الكاتب الذاتية ، وكان يدل على حالة من أحواله سواء فيه الحسن والقبيح ، ولذلك وجد متوسمون يعتقدون أنهم يقرأون فى خط من لا يعرفونه من الناس ضروب استعداده النفسيّ ، ولا بدع فى هذا فان كل أعمال الانسان منبعثة عن أخلاقه وسجاياه ، فلا شيء من الاستحالة ولا من البعد عن الحقيقة على ما أرى فى أن يكون الخط ـ وهو الأثر الدقيق المثبت لصنوف الوجدان وأنواع للمعاني على الورق ـ سمة من سمات النفس وامارة من

أمارات الطبع ، يشهد لذلك أن كثيراً من الذين خطوطهم بين أيدينا قد غيروا فى حياتهم طريقتهم فى صوغ حروفهم عدة مرات فلا يمكن أن يكون هذا التغيير — الذى يحق لنا المراهنة على حصوله بغير شعور منهم — أجنبياً عن بعض استحالات حصلت فى عقولهم . ومن الامور التي اعتقد الباحثون فى هذه المسألة انهم تنبهوا اليها ولاحظوها ان أقرب أطوار الكاتب الى الفطرة هو ذلك الطور الذى يكون فيه خطه موسوما بأقرب السمات اليها أيضا .

اخترع الناس فى هذه الايام للخط طرقا لا شك أن لها مزية فى تهذيبه وتقويم يد الكاتب ، ولكنها متى انتشرت وعم استعمالها اتحدت الخطوط وتشابهت فلم يبق بينها فروق تميز بعضها من بعض ، فنحن فى هذا القرن ـ قرن السكك الحديدية والاقلام الحديدية نسارع كلنا الى تحقيق الوحدة في كل شيء .

لو أن هذا الميل الى الصناعة اقتصر على أمارات الفكر وقوالب المعاني لكان الخطب هينا ولكنه لم يقف عندها بل تعداها الى الفكر نفسه .

أنا على يقين من وفرة علومنا ومعارفنا فليست هي التي تعوزنا فقد وجدت طرق سهلة صيرت مبادىء العلم وآداب اللغة والفنون الجميلة قريبة المتناول لجميع الناس. وكل يوم يتحدث الناس بانتشار أنوار العرفان بيننا ، وهو أمر أنا بعيد عن المنازعة في جلالة خطره وعظم شأنه . ولكني لا أرى عليّ حرجاً ان سألت نفسي هذه الاسئلة وهي : هل ارتفع عقل الانسان في هذا القرن الى مدارك أسمى مما بلغه فى القرن

الثاني عشر ؛ هل حصل له من قوة النفس والانبعاث الذاتي الى العمل والاخلاق الممتازة التي تتجلى في صورة مجتمعه المظلمة والاعمال البديعة أكثر مما كان له في ذلك القرن ؛ هل ارتفعت قوة الادراك مع انتشار تساوي الناس فيها كل يوم ؟

وا أسفي . أني ألتفت حولي عراني الذهول وملكني الدهش لما أراه من غلبة الاوساط في العقل وكثرتهم ، وأسمع الناس يرددون القول بأن العقل والاستعداد قد شاعا في هذه الايام حتى عمّا السابلة والغوغاء ولو أنهم قالوا ان كل واحد أصبح فيه عقل غيره واستعداده ، لكان هذا القول أصح وأقرب الى الصواب . نعم ان قرننا قد وصل الى طريقة بديعة في الاكثار من الدواليب والآلات الحاكية للفكر ، وقامت المهارة في الفنون مقام الاستعداد الفطري والعزيمة ، وأزهق التكلف في آداب اللغة روح الالهام والسليقة ، واستنزلت الدسيسة والخداع في مجرى الحياة وشؤونها الفضل والجدارة عن عرشهما وحلا محلهما فترانا الآن مسوقين بلا شعور منا على طريق عام الى محو ضروب الفضل والرجحان في العقل والخلق محواً تاماً فعليك أيها الانسان من الآن أن تقنع بأن تكون كجميع الناس .

ولا شك أن هذه الحالة التي عليها العقول الآن ترجع الى أسباب كثيرة ليس من غرضي استقصاؤها هنا : منها نظام معيشتنا وفقدان الحرية السياسية عندنا واهتمامنا المتزايد بالمصالح المادية ، ومنها أمر لا يسعني اغفاله والا استحققت اللوم، وهو أن التربية بالحالة التي هي عليها اليوم أقرب الى ستر عيوب الاطفال واخفاء مواضع الضعف فيهم

بعض طرق التعليم السريعة التي تكاد تكون آلية محضة ، أقول : انها أقرب الى ذلك منها الى اكتشاف ملكاتهم وقواهم النفسية وتنميتها ، فترى القائمين على التعليم لا يرشدونهم الى أن الغرض من مجاهداتهم وكدحهم في التعلم انما هو نيل الفخر بأن يكونوا عمالا نافعين وهو الواجب بل يجعلون غايتهم الارتقاء الى المناصب و نيل الغنى ، ويقتضون منهم أن يبلغوا اليها . وهم بذلك يبكرون بحمل الاحداث على أن يتبينوا أن المواضعة والصنعة هما أقرب طرق النجاح وأحسن وسائل الفلاح .

الشذرة السادسة

« مذهب تشغيل المتعلمين بالاشغال المادية الشاقة »

توجد فى بعض المدارس بانكلترة عادة قديمة يدهش منها الاجانب كثيراً وهي ان التلاميذ ـ فيما يوجد منها بمدينتي اتون وهارو وهي التي يدخلها أبناء السراة غالباً – يخدم بعضهم بعضاً ، وليس أمر الخادمية والمخدومية فيها متعلقاً بمكانة التلميذ فى قومه ولا بغنى أهله أو فقرهم ، بل بالاقدمية وبعض الدرجات المدرسية ، فيجوز أن يلزم الطفل الغني السريّ تنفيض ثياب الطفل الفقير الوضيع وتأدية مطالبه وتنظيف غرفته وإيقاد ناره وتسوية طعامه وحمل كتبه اليه فى قاعة الدرس ،فيقع إيجاب الخدمة على من تجعلهم المدرسة فى الدرجات الدنيا من أقسامها .

والذى أستهجنه من هذه العادة هو ما يكون بين التلميذين الخادم والمخدوم من رابطة التابعية الذاتية ، فان الاقدمين من التلاميذ

يسيرون أحياناً مع من يعدونهم خدماً لهم من إخوانهم سيرة في غاية القسوة حتى انه ليقع منهم في حقهم ما تقرأه في قصص موليير [1] المضحكة من الشتائم وضربات الاكف وجميع ضروب سوء المعاملة التي كانت تقع من صغار الموالي على خدمهم بأرجلهم وأيديهم الخفيفة الحركة . أولئك الخدم الصغار الذين كانو بالامس ارقاء صُبرًا على الذل مستسلمين للجور يصيرون في الغد سادة قساة متجبرين . وهكذاشأن الدنيا وبمثل هذا تنتقل جميع أنواع العتو والطغيان من سلف الى خلف.

لا أرى فيما عدا هذا العيب شيئاً في هذه الطريقة ، فانه لا ضرر البتة في أن يقوم بخدمة المدرسة التلاميذ أنفسهم . ولقد عرفت فيما مضى مدرسة كان يديرها رجل وافر العقل عالي الفكر اختار هذا المذهب وتيسر له أن يجني منه فوائد كبرى في تربية الناشئين . ذلك انه عهد بمعظم أعمال مدرسته الى جماعات من الغلمان واليافعين منقسمين الى طوائف على حسب مقتضيات أذواقهم وضروب ميلهم الفطريّ ، لانهم كانوا في هذه الاعمال مختارين متطوعين فكان الواحد منهم اما لباداً أو كناساً أو وقاداً للمصابيح أو موقظاً لاخوانه في الصباح أو منظماً لقاعة الدرس : وكانوا يتناوبون خدمة المائدة ، وكانت الاعمال المسخرة التي تقتضي أكثر من غيرها إخلاصاً أجل من غيرها أيضاً في نظر التلاميذ . لان رئيس المدرسة كان يتظاهر بتمييزها عن غيرها بما كان يوزعه من شارات الشرف على من كان يدعوهم إقدامهم إلى

(١) (موليير هو اكبر شاعر قصصي فرنسيّ ولد في باريس سنة ١٦٢٢ ومات سنة ١٦٧٣ مسيحيه

مباشرتها . وليتك زرت هذا المكان حتى كنت تشاهد مقدار التحمس الفرح الذي يبديه كل تلميذ في القيام بعمله الذي كأنه فرض اختياري على نفسه . كان من مزايا هذه الخدمة البيتية للتلاميذ انها كانت تسلية لهم من عناء الدروس ، لانه كان من رأي رئيسهم ان في المراوحة بين الاعمال استراحة من مشقتها وكان من غرضه فوق ذلك أن يلقي في نفوسهم معنى احترام جميع الوظائف وكل فروع العمل اليدوي ، فان الانسان لا يحتقر من غيره ما يباشره هو بنفسه .

تعرض لي في بعض الاحيان أحوال تحملني على اعتقاد أن ما ندعيه من حب المساواة ليس الا رياء ونفاقا ؛ لاني أرى من لا تفتر ألسنتهم عن اللهج بهذه الدعوى لا يجرون على مقتضاها في أعمالهم ، فالطفل الذي يرى في المدارس أو البيوت أناساً استؤجروا لخدمته يستنتج من ذلك طبعاً ان الاعمال الشاقة أو الكريهة هي من حظ الطبقة السفلى من قومه ، ولا يفيده في محو هذا الاعتقاد من نفسه ان تحدثه في المستقبل عن ضرورة تقسيم العمل بين الناس أو عن غير ذلك من المسائل النظرية الكثيرة ، فانه يعلم كمال العلم ان ليس للخدم أن يأكلوا على موائد سادتهم ، ولما كان يتوسم في والديه انهما يعدانه لان يكون من العلماء ويكفيانه بذلك مؤنة الاشتغال ببعض الاعمال التي من شأنها أن توسخ يديه أو تقذر وجهه كان رأيه في هذه الاعمال لا بد أن ينتقل الى من يقارفونها من الناس فيحكم عليهم بحكمه عليها وبذلك لا يكون الا كثير الانسياق الى احتقار جميع الصناع والزراية عليهم

صممت أنا وهيلانة على تكليف « أميل » أن يعمل كل مايلزم

لفراشه وحجرته وثيابه . ولا أكره أن أراه يمسح نعليه ويسوى عند الحاجة طعامه ، فان الفائدة التي تعود عليه من ذلك ليست قاصرة على كونه يتعلم عدم امتهان من يكسبون قوتهم بمثل هذه الاعمال ، بل فيه ايضا تنمية لحريته الشخصية بتعويده الاستغناء عن مساعدة غيره فالاسير المسكين من يعجز عن خدمة نفسه .

الشذرة السابعة

﴿ رؤيا منام ﴾

فيما يجب أن تكون عليه التربية وفى آثارها اذا كانت كما يجب

رأيتني ممتطياً جواداً أسيح فى بلاد مجهولة لا أدرى أهي من الدنيا القديمة أم الجديدة . ولكني بحسب ما بدا لي من ظواهرها أرى أنها لا بد أن تكون واقعة على تخوم بلاد الالدورادو (١) أو الاوتوبيا (٢) بصرت فى طريقي بحظائر مسيجة بأسيجة خضراء فيها قطعان من

---

(١) الالدرادو كلمة أسبانية معناها بلاد الذهب وتطلق على بلاد يزعم الناس أن ضابطا من مدينة بيزار اكتشفها فى امريكة الجنوبيـة وأنه كان يوجد بها من الذهب وخيرات الارض شيء كثير ثم أطلقت هذه الكلمة على بلاد الرخاء والنعيم (٢) الاوتوبيا كلمة يونانية تطلق على بلاد وهمية جرت أمورها على احسن ما يتخيل من النظام ووصفها كاتب اسمه توماس موريس فى كتاب له .

البقر والغنم وغيرها من الحيوانات المجترة التي لاتوجد قط فى مراعينا – تسوم آمنة لا كلب يحرسها ولا راعي يراقبها ، ولاحظت فى انتظام طرق الري في هـذه البلاد وحسن توزيع الماء بين جهاتها – على نمط يثير الاستحسان ويدعو الى الاعجاب – انه كان من مزاياه امتلاء جوّ ريفها بالنسيم البارد المنعش على ما فيه من حرارة النهار . وشاهـدت سلاسل من الهضاب مكللة بالاشجار كانها في تتابعها واتصال بعضها ببعض تخط للرياح والسحاب طريقهما . ضرب الغنى سرادقه حول قرى هذا الريف وظهرت على أهله آثار النعمة والاغتباط . نساؤه حسان وولدانه أسوياء أصحاء الابدان يبشرون حكومتهم بأنهم سيكونون نسلا قويا باسلا .

ثم رأيت حواضر هذا القطر ولم أكن لرؤيتها أقل مني دهشا لرؤية قراه ، ومما أرشدت اليه فى احداها بناآن كانا أقيما فى عصر يسميه أهلها الآن عصر الهمجية . أحدهما سجن والآخر مأوى للمساكين ، وقد أصبحا من أهلها خلاء لعدم اللصوص والبائسين ومع انهما لم تبق لوجودهما فائدة حفظهما القائمون على شؤون المدينـة ليكون فيهما ذكر لتاريخهم .

حدد فى هذه البلاد ما للناس وما عليهم من الحقوق والفروض وماللحكومة وما عليها من ذلك ، وامتاز بعضه عن بعض امتيازا بينا ، ولهذا تجد الرعايا لا يولون حكامهم من شؤونهم الاما ليس من مصلحتهم أن يتولوه بأنفسهم ، وحقيقة الامر ان القوانين فيها على قلتها جـداً وصدورها عن رأي من اختارتهم الامة نواباً عنها لا سبيل لها الا على

ما كان من الاعمال متعلقا بالحكومة ، ولما كان الناس جميعاً هم الذين قد سنوا لانفسهم هذه القوانين لحماية كل منهم كانت مخالفتها وعدم الامتثال لاحكامها حمقا وسخفاً . على انهم يؤملون تعديلها والتقليل من سلطانها بترقية العلوم وبث أضواء العرفان .

رأيهم هو حاكمهم المطاع أمره ، النافذ قوله ، ولم يعهد أن ملكا من الملوك المتنعين فى صياصيهم ، المعتزين بحصونهم ، كان له من المعاقل والمتاريس مايعادل ما حيط به ذلك الحاكم من ضروب الكفالة، وأنواع الضمان المؤيدة له ، القائمة على أعزازه ، فالقوم أحرار يتفكرون فى كل ما يكتبون ويكتبون كل ما يتفكرون ، وقد يدهشهم كثيراً — على ماارى — أن يعلموا أن فوق الارض أمماً فى قدرتها أن تستسلم لحاكم ، وتلقى بنفسها فى قبضة ظالم .

لاقيت فى هذه المدينة شيخاً — لا أذكر أين ولا كيف لاقيته — وقع التعارف بينى وبينه فأخذ على نفسه ان يشرح لي نظام حكومتهم ويطوف بى على المعاهد المعدة للمنافع العامة لاني لم أر فى المدينة قصورا بنيت لبعض الافراد توفية لاسباب لذاته ولا مسالح ولا دوراً للجيش ولا مواخير للفحش .

لما راقنى ما شاهدته قلت للشيخ هل لك ان تخبرني باسم ذلك الواضع الكبير الذي سن لكم هذه القوانين ؟ فتبسم ضاحكا من قولي وقال : أراك آتياً من عالم آخر ، فاعلم ان قوانيننا ليست من وضع البشر وانى أراني الآن مضطراً الى أن أقص عليك تاريخنا فى كلمات قلائل فاستمع لما أقول : اننا قبل اليوم بنحو قرنين لم نكن أحسن حالا من

غيرنا من الامم ، وآخر ملك تولى علينا ولم نذكر منه شيئاً حتى اسمه (لان النسيان أحسن عقاب للمسيئين الاشرار) خلع من عرشه بعد حكم أسخط عليه جميع رعاياه وألبهم على نبذ طاعته والخروج عليه ، ثم عرض الثائرون بعد خلعه صورا مختلفة وأشكالا متنوعة للحكومة ، وكادوا يقتتلون على اختيار حاكم لولا ان اباءنا بما كان لهم من الحكمة والدراية تراجعوا وقال بعضهم لبعض : ان الاولى لنا أن نرجيء الفصل فيما شجر بيننا ، وان نترك لاعقابنا النظر لانفسهم فيما هو خير لهم ؛ فانه لا خير في أحسن الاوضاع ولا في أعدل القوانين ان لم تجد في أخلاق الناشئين وسيلة لاستبقائها . وحينئذ اتفق القوم على أن يبقوا من قوانينهم القديمة اكثرها مطابقة لحكم العقل حيناً من الدهر ، وأن ينشئوا الجيل الجديد في هذه الفترة على حب الحرية والاخذ بها ثم لعلك لم تر مدرستنا انها أصل نظامنا السياسي فهيا بنا اليها .

أخذني الى مكان على مقربة من المدينة فما هو الا أن تجلى لنظري في أشعة الشمس المشرقة قصر أو هيكل فوق ربوة شجراء قد عادل اتساعه وانفساح ارجائه ماله من الفخامة والجلال لو أردت أن أصف لك جملته لعييت بذلك . بني كل قسم من أقسامه الداخلية على طريقة حديثة في فن العمارة وبلغ من الازديان بما وضع فيه من التماثيل والصور وآثار الفنون الى حيث ان جدرانه كانت تكاد تكفي أن تكون وحدها طريقة من طرق التعليم لكون ما حوته ينقش على أذهان التلاميذ ومشاعرهم ، وينقسم هؤلاء الى عدة أمم يمثل كل منها جيلاً من أجيال الانسان ، وقد وقع ذلك البناء في وسط مشاهد تأسر القلب

وتأخذ باللب بما فيها من ضروب التباين ووجوه التخالف فتجد حوله الآجام والصخور ومساقط الماء وتحته البحر

وقفت على احدى حلقات الدروس فاذا بغلمان يمارسون أنواعاً مختلفة من الرياضات البدنية كالمصارعة والعدو والرماية بالقوس ، وأكثر ما دهشت له في هذه الحلقة أن معلميها كانوا من هنود أمريكة الحمر الاصليين كما تبينت ذلك من لونهم ونحافة أعضائهم وما كان على شعورهم من مواد الزينة الوهمية .

قال لي الدليل : إن هذه القبيلة المتوحشة لم تأت الى بلادنا الا من عهد قريب ، وانما جذبها الى حدودنا حسن أخلاق قومنا ورقة طباعهم ، فاننا لم نعتبرهم أعداء لنا كما يفعل غيرنا ، بل دعوناهم الى مشاركتنا في نعم الحضارة وأرشدناهم الى ما تحصله لنا من الفوائد والمزايا مبينين لهم مقدار رجحانها على البداوة . ولما كنا لا نجهل ما لهم من المواهب الفطرية التي نحن محرومون منها عرضنا عليهم معاوضة المنافع ومبادلة المرافق ، فقبل فريق منهم ذلك منا ، وها هم أولاء الآن يروضون أبنائنا على احتمال الآلام الجسدية غير مغضنين من جباههم ، وعلى استعمال أبصارهم وأسماعهم في اجتناب ما ينصب لهم من الحبائل ، وابطال أثر ما يُكاد لختلهم من المكايد ، ويعودونهم البسالة في ثني أعضائهم وليها موافقة لسلطان الارادة وتعرف أخلاق الحيوانات وعوائدها في حالتها الوحشية .

وفيما نحن نجول داخل هذا المكان الذي هو منقسم -- كما قلت -- الى دارات مختلفة للتربية والتعليم شهدت أحد الاعياد التي تقام في

هذه الدارات التاريخية أو العلمية من حين الى حين تخيل لي اننا في أثينة (عاصمة بلاد اليونان) ان لم أكن واهما ، وأبصرت قلعتها المسماة بالاقروبول شاخصة أمامي على صخرة يعلوها معبد وتماثيل وآلهة صنعت من النحاس الاحمر والمرمر ، ورأيت في الجانب الغربيّ لهذه القلعة دهاليزها التي أقامها بريكليس [١] وكنت أشاهد طوائف من الفتيان في ازياء يونانية يشخصون اليونان في أطوارهم وأحوالهم تشخيصاً يقرب من الفطرة ويتكلمون بلغتهم ويمثلونهم في تنزههم في المدينة أو غدوّهم في مرافئ بيرية [٢] ومو نيخي [٣] وفالير [٤] فاستغربت ما رأيت مع قلة استغراب الحالم ، وأقسمت بأثينيه بروماخوس لا كتنهن هذا السر .

فلما رأى صاحبي شدة ولعي بمعرفة حقيقة ما رأيته قال لي : ان الامر في غاية السهولة : ذلك أننا لما تبين لنا بالاختبار أن التاريخ في تعليمه للاحداث يمر بأذهانهم مرور الظل غير تارك لها آثارا ابينة اجتهدنا في أن نجعل له جسما تخلد فيه صورته فترى تلاميذنا لا يقتصرون في تعلمه على مطالعة ما كان في العصور الخالية ، بل هم يعيشون في تلك العصور . فقلت له . لا بد أن تكون جمهوريتكم قد بلغت من الثروة غايتها حتى تقوم بنفقات هذه المعاهد . فكان جوابه انها غنية لمهارتها في طرق الكسب ولأنها هي التي تدبر نفقاتها بنفسها . على اني أرجو أن لا تخدع بما تراه ، فان ما تظنه بذلا للمال واسرافا فيه هو في الحقيقة تدبير

---

(١) بريكليس أحد رجال حكومة أثينة الاقدمين (٢) و (٣) و (٤) بيرية ومو نيخي وفالير كلها مدن يونانية فيها مرافئ

له وتوفير ، ولو صح ما نسمعه عن أوربة القديمة لكان ما تنفقه أممها على حكوماتها في جانب التبذير ، وما تنفقه على التعليم العام في طرف التقتير ؛ وأما نحن فأمورنا تجرى على خلاف ذلك ، فحكومتنا لا تكلفنا أو لا تكاد تكلفنا شيئاً وننفق كل أرزاقنا على مدارسنا ، فكان لنا بالسير على هذا السنن ما يسمي في عرف التجارة صفقة رابحة ولله طريقتنا في التربية ! فاننا ببركتها استغنينا عن اتخاذ جيش دائم . وكهنوت وغيرهما من الاثقال التي توقع الحكومات في مهواة الفاقة وتؤديها الى الخراب .

هذه الامة التي ضل عنى الآن اسمها لا تقصد في تربية عقول أبنائها وتقويم طباعهم الى اعدادهم لان يتبعوا في مستقبلهم نظاماً مقرراً كائناً ما كان ، بل قد عقدت النية على ان تقبل ما ينتج من التربية الحرة المؤسسة على نواميس الكون وأصول العلم من الثمرات ، فبعثها إقدامها على أن تعهد بمستقبل بلادها الى معارف الاجيال الجديدة وعلومهم ، فهي تعتبر المدرسة أمة في سبيل نشأتها لها قوانينها كما ان للحكومة قوانينها ، وترى تلك القوانين كأنها مقدمة لهذه ، وتبكر بتعليم التلاميذ ممارسة ما يتحلى به الرجال من الفضائل القومية .

ليس لمعلمي المدرسة على التلاميذ أدنى سبيل الى التأديب ، ولكنهم لا يسلمون عليها بما يقترفونه ، فالمخالفون يحاكمون الى محكمة ينتخب أعضاؤها من اخوانهم لمدة معلومة ؛ ومن مصلحة هؤلاء الاعضاء أن يعدلوا في أحكامهم وأن لا يطيعوا فيها دواعي الهوى والغرض لعلمهم أن الاعتداء على حقوق الناس قد يعود عليهم ضرره في الحال أو في

المآل . ويقوم امام المحكمة محاميان أحدهما من جانب المدعي والثاني من جانب المدعى عليه فيبينان لها وقائع الدعوى بالرزانة والوقار ، ثم يصدر المحلفون المتطوعون أحكامهم وهي واجبة الاحترام على الدوام ، وما يحكم به من الجزاء يصير على كونه غاية في الخفة شديد الارهاب والزجر ، لانه يؤدى الى لوم المحكوم عليه وتأنيبه من المدرسة جميعها لا من معلميه فقط .

يقيم الصبايا التلميذات بهذه المدرسة في قسم آخر منها غير قسم الصبيان ، ولكنهن يحضرن معهم في غرف التعليم بعض الدروس العامة التي تلقى نهاراً

قال لي الشيخ : إننا نعول كثيراً في طريقة تربيتنا للناشئين على ما للنساء من التأثير المعنوي في النفوس ، فهن اللاتي نعهد اليهن بتوزيع الجوائز والمكافآت على التلاميذ ، فترى المهرة من هؤلاء في الرياضات البدنية يختبرون أنفسهم أمامهن في ساحتها ببعض الحركات التي هي مظاهر البأس والقوة ، والمستعدين منهم لان يكونوا خطباء المستقبل يمثلون بين أيديهن على منبر المدرسة ويثير بعضهم على بعض في ميدان الفصاحة والبلاغة حربا عوانا ، كل ذلك في سبيل ارضائهن وهيج اعجابهن ، ولما كان المعروف فيهن انهن صائبات الرأي سديدات الحكم في مواد الفنون كان معلمو المدرسة تطيب أنفسهم بالركون الى رأيهن في امتحان الشعر والموسيقي والتصوير ، فاذا صرن محكمات في الذوق أعلنّ حسان الاعمال ونوّهن بقدرها وتوجنها تاج الشرف والفخار كذلك يعتاد أحداثنا أن يستشيروا النساء ويسترشدوا بآرائهن

ويلتمسوا تصديق وجدانهم لحسن أعمالهم فيما تبديه لهم مَن ترقبهم منهن من دلائل استحسان هذه الاعمال بتلقيها بالابتسام والبشاشة وينشؤن على أن يعتبروا عيون ربات الجمال مرايا تتمثل لهم فيها الفروض التي كتب عليهم أداؤها .

لا يزال صدي الكلمات الاخيرة التي سمعتها من ذلك الشيخ يرن في أذني ، اذ قال لي في نهاية حديثه : « لو طال زمن مكثك بيننا لشاهدت من مستحدثاتنا ما لا أشك في أنه كان يبعث في نفسك دواعي الدهش والعجب فحسبك أن تعلم كيف اننا قطعنا ما كان يربطنا بماضينا من قيود الذل والبؤس والاستعباد التي كانت كالثلج جمودا وبرودة ونفياً لحرارة الحياة ، وأن تعرف أن الامم الحرة انما تنشأ برجالها الاحرار ، وان آباءنا لم يخطئوا أن التمسوا في وجدان كل انسان اقوى ناصر على الاستبداد ، لاعتقادهم أن أحسن الحكومات أقلها وجودا ، فتراهم قد فضلوا أن ينقشوا في نفوس الاحداث وجدان العدل والحق الذي لا تغيره الحوادث ولا تمحوه الكوارث على أن يدونوا لهم قانوناً نظامياً في كتاب ربما ان رياح الفتن وعواصف الثورات الداخلية كانت مزقته من زمن بعيد ، وجملة القول ان الحكومة عندنا ليست هي التي تدبر المدرسة بل المدرسة هي التي توجدها وتنشئها » .

الشذرة الثامنة

تجلى العلم فى العمل

زرت بالامس انا واميل و « لولا » مسبك قصدير فى بانزانس واقع على ضفاف خليج الجبـل ، ولست أقضى العجب من منعطف هذا الخليج الذى كأنه فى عظمه وجمـاله صدر تيتيس (١) أحاطت به السكة الحديدية فجعلت له من شريطها قلادة . يوجد المسـبك تجاه الخليج ويتألف بناؤه من أماكن قديمة تقوم على أعمـدة من الخشب يغطيها سقف من البـلاط الاسود لا يتردد الناظر اليها فى ان يحسبها سقائف لانخفاضها وانفراجها للرياح من كل ناحية .

رأينا فى احدى السقائف أكواما من تراب اسمر يسمي بمعـدن الحجر جمعت فيها ووزعت على غير نظام ، وتنحصر أعمال المسـبك فى احالة هذا التراب الادكن الى معدن يطلبه التجار كثيراً .

كانت زيارتنا للمسبك فى نحو الساعة التاسعة من المساء أي بعد غروب الشمس بزمن طويل فى ليلة ظلماء كان يتخلل ظلامها بصيص نار الافران التي بنيت بالآجرّ وجعل لـكل منها باب حديد فى وسطه ثقب مستدير كأنه حدقة من نار .

يصهر القصدير وبعد مكابدته محناً مختلفة يتجرد مما كان ممتزجا به من المواد المكدرة لصفائه . وهي الحصا والـكبريت والنحاس فاذا تم

---

(١) تيتيس جنية من جنيات أساطير اليونان

ذلك جاء وقت صبه وهي الساعة المشهودة : يخرج هذا المعدن الثقيل الصافي من ثقب في أسفل الفرن وقد بلغ من الحرارة درجة البياض ويسقط في خابية من الحديد المصبوب ، فيذكر الناظر ساعة باستدارة سطحه ولمعانه القمر في احدى ليالي الصيف أبيض ساطعاً

اذا صب القصدير في الخابية آخر مرة (ولا بد من اذابته أكثر من مرة) ألقيت عليه أغصان من الشجر الاخضر خصوصاً أغصان التفاح فتفوره وتهيجه وويل حينئذ للعمال والناظرين الذين لا يبادرون بالابتعاد عنه ليتقوا عوادي هذا المعدن الغضبان ، ذلك ن فقاقيع الهواء التي تنفصل منه ترتفع معها قطيرات محرقة تسمع لها نشنشة تنبجس من كل ناحية انبجاس الشرر من باقة نار الزينة .

لاجرم أن « اميل و « لولا » لم يدركا السر الكيماوي في جميع هذه الاستحالات التي تعاورت معدن الحجر قبل صيرورته قصديرا ، بل ربما لم يحصل في ذهنهما من مجموع ماحصل من الأعمال الا معنى في غاية الابهام ولكن قد شاقهما من هذا المنظر جدته فانهما رجواني ان أخذهما الى المسبك مرة أخرى

أرى ان القائمين على تربية الناشئين قد أفرطوا في التفريق بين العلم وبين مايربطه بالصناعة من الروابط ، ومع كوني لا أنكر أن مافي المدارس من المعامل الكيماوية والمجموعات التعليمية والدروس العامة هو من المساعدات العظمي على التعليم ، وأقصد قصداً أكيداً ان أستعين به على تعليم ولدى في مستقبله ، تراني أفضل أن أختلف به الى معهد آخر تتمثل فيه امامه الاعمال وتتراءي له الوقائع.

زرنا معاً متحفاً من متاحف الدفائن الاثرية فى بانزانس وهي ليست كثيرة فى بلاد كرنواي والكثير فيها انما هو المعادن المفيدة كالرصاص والقصدير والنحاس وغيرها من المعادن الحجرية الغريبة فلم يلفت ذهن « اميل » مافى خزائنه من قطع هذه الدفائن المرتبة الا قليلا ، وأما « دولوريس » فأخص ما استرعي نظرها مايوجد فيها من فلذ البلور وبعض الحجارة التى لو تناولتها يد الصناعة لصارت من مواد الزينة الجميلة .

ثم أخذنا طريقنا بعد ذلك الى منحت كبير يمتد مكشوفا على ضفاف المحيط بين جبال من الصوان بعجتها يد الانسان فكان مرآه فى نظر الغلامين أحسن من جميع متاحف الدنيا .

ففرق عند الطفل بين أن يرى من وراء الزجاج معادن حجرية رتبت فى رواق ترتيبا خاليا من دواعي التأثر وبين أن تتمثل أمامه الصخور فى وضعها الطبيعي ويشاهد الارضين وقد شاه وجهها وانقلبت ظهراً لبطن ، وكتل البلاط الاسود والرخام السماقى فى جسامتها المريعة وقد تناوبها المصدع وبارود المدفع فأوسعاها صدعا وأشبعاها كسراً وقد هاج شوق « اميل » منظر أعمال النحت هياجاً شديداً فطفق يخاطب النحاتين ولا بدع فالانسان فى سنه لا يستنكف أن يخاطب كل من يراه لان قلبه حينئذ لايكون أفسده الكبر . وقد استفاد من محاورته معهم ، فلم تذهب عليه عبثا . واذفتى ايقوسيا اسمه هوج ميلار « صار من أشهر العلماء فى بريطانية العظمي ببركة تكسيره الاحجار ونحتها من منحت حجر رملي قديم ، واستولى استيلاء المالك

على اقليم ذلك المنحت الحافل بالدفائن الأثرية وأصبح اسمه كأنه علم له .

ربما احتذى « اميل » مثال هذا العالم اذا زرنا معاً اقليم « ديفونشاير » فاعتضد المطرقة وحمل المنحات ، فاني أراه مدفوعاً على ذلك بسائق الطبع ، لانه يشتهي كغيره من أترابه أن يهجم على ما يلاقيه من العقبات فيدمره ويزيله ، ولان الدفائن الأثرية التى يستخلصها الانسان بنفسه من الصخرة أغلى فى نظره كثيراً مما يجده منها مرتباً فى المتاحف ذلك لان آثار الاجسام العضوية تكون غالباً من الاختباء فى باطن الحجر بحيث انه لابد قبل استخلاصها من تمييزها منه : بل ربما صح لى أن أقول : انه لابد من تخمين وجودها بما يبدو من تحت غطائها الجافى من سمة تدل عليها أو طرف من أطرافها ، ثم ان الصخرة تارة تكون صلبة فتقاوم منحات الناحت وتحتمله ، وطوراً تكون هشة فتتلاشى وتتفتت ، وفى كلتا الحالتين يهدم الخرق والخطأ بنقرة واحدة عمل الدهر فى قرون كاملة ، وما أكثر مايتعلم الطفل فى هذا الجهاد .

نعم ان « اميل » سيضل فى غير مرة وسيتفق له أن يخسر لقطاته او يعيبها على اعتقاده أنه حصل عليها سالمة من كل نقص ، ولكن لا شيء فى هذا فان مثله من اليافعين اذا غلبته العقبات المادية وجد عليها وبعثه ذلك على الانتقام لنفسه منها فلا يلبث ان يظفر بها .

كأن مشاهدة الناحت واسطة ينتقل بها الذهن من علم طبقات الارض الى فن العمارة فسيذكر « اميل » اذا عرض له فى طريقه ما فى المدن من الابنية العظيمة ان حجارتها نحتت من قاع البحار القديمة

واذا رأى المسابد والقصور أحضر نوع حجارتها فى ذهنه الصخرة التى نحتت منها والمخلوقات العضوية القديمة التى صارت هذه الصخرة رمساً لها .

العلم الذي يحصله الانسان بعرق جبينه ربما لا يكون واسعاً ولكنه يكون متيناً راسخاً . خذ لذلك مثلا الزهرة التى تجنى من غور بعد اقتحام ما كان دونها من العقبات يكون لها فى ذاكرة جانيها آثار أقوى مما يكون لزهرة رآها بلا عناء مجهزة محفوظة فى احدي صحف المجموعات النباتية ، وما يجمعه المرء بنفسه من المحار والصدف على شاطيء البحر يدرب بصره على ادراك ما يميزه من صفاته الظاهرة أكثر مما يدربه على ذلك ما يوجد منه مرتباً ومعنوناً فى رواق معدله ، فالبحث يكسب البصر واليد دربة ومرانة

أنا لا أشك فى أن التجارب الكماوية والطبيعية مفيدة لمن منحوا الميل الى التعلم ، ولكنى أرى ان عامة الاطفال قد يبدون من الارتياح الى العلم معمولا به فى الصناعة ومن الانفعال بما يرونه من آياته فيها أكثر مما يبدونه لمثل هذه التجارب ، وقلما يوجد معمل من المعامل الكبيرة إلا وهو أيضاً مدرسة كبرى للعقل ، فما أبهر ما يرى فيه من قوى الطبيعة مقيدة ومطاقة « وكل » مؤلف من عجلات وأسنان تسحق الحجر سحقاً ، وتمضغ الحديد مضغا ، وتقطع الخشب قطعا ، وآلاف مؤلفة من أنباض البخار الذى يحرك جسم هذا الكل ، وانسان استبدل بأعضائه هذه الاعضاء الصلبية فى كده وكدحه ، فحلت محله وجرت على مقتضى ارادته ، وقام هو عليها يلاحظ مجاهداتها

العجيبة بعين قريرة ساكنة نعم ان هذا المشهد لا يأخذ أول الامر الا ببصر اليافع ولكنه متى كان فيه شيء من الشوق الى العلم لا يلبث أن يسأل عن سبب هذه الحركات الاستقلالية، وعما للمواد بعضها فى بعض من التأثير المتناوب، وبالجملة عن سر الطرق التى تحيل المادة الفطرية الى محاصيل صناعية.

ليس أحقر الاشياء أقلها إثارة للشوق فى صنعه دائما، ولا ملاحظته أقل جدوى فى التعليم، فعلبة الكبريت والدبوس والشمعة — كما بينه فارادای (١) حق البيان — لها بعلمي الطبيعة والكيمياء تعلق يدركه كل واحد من الناس ويعرفه لاول نظرة.

أنا أعلم أن تحصيل علم عدة من الصناعات والاختصاص به يقتضى أن يعيش الانسان أضعاف عمره، ولذلك لا أرجو من «اميل» اذا رأى غيره يشتغل بحرفة ان يحيط خبراً بأسرار العمل فيها، على أن الشبان أقل حاجة الى الوقت منهم الى غيره، فلو أن القائمين على التعليم أحسنوا فى توجيهه الى غايته ما شككت قط فى أن الطفل الذى بين الثانية عشرة والثالثة عشرة من عمره يتعلم فى المعامل شيئا كثيرا.

وجملة القول أن لدينا فى جميع المدن الكبرى بل وفى القرى كثيراً من معاهد العمل التى لو اختلف الطفل اليها لادرك بالعيان والحس بعض قوانين المادة وتعلم حب العامل وتعظيمه. ولكان أقل

(١) فارادای عالم انجليزى من أشهر علماء الطبيعة اشتهر بتأليفه فى الكهربائية ولد سنة ١٧٩٤ ومات سنة ١٨٦٧ مسيحية

فائدة له من ذلك ملاحظة طرق الصناعة أو الزراعة ان لم يباشر شيئاً من أعمالهـا بيديه وتلك مزية أخرى له ، فليت شـعرى هل يصح فى نظر العقـل أن تغفـل هذه الينابيع المتدفقـة للعرفان وتبخس حقوقها من العناية ، وتـكون دراسة الالفاظ هي موضوع الاهتمام والرعاية .

الشذرة التاسعة

(انتقاد تعليم الاطفال اليونانية واللاتينية واقرائهم كتبهما)

تناظرت مع هيـلانة غير مرة فى ضرورة تعليم « اميل » تينك اللغتين واقرائه ما ألف فيهما من الـكتب ، ولست ذاكراً لك من هذه المناظرات الا ملخصها فأقول : الواجب أن يربى كل طفل تربيـة من ينبغي أن يـكون من كبار الرجال فتلك هي الوسـيلة التى يفضل بها عامة الناس ويمتاز عنهم فى مستقبله ، ولهـذا كان حقاً على المربى أن يعرف طبعه ويبحث فى ضروب ميله ويَخبُرَ أنواع اسـتعداده العقلىّ ولـما كان الفضل والامتياز يحصلان فى هذه الدنيا بكيفيات مختلفة وينالان بطرق شتى كان أول فرض عليه أن يبحث فى هذه الطرق عما يلائم طبعه ويناسب استعداده .

فالذى أعيبه فى طريقة المربين عندنا هو اغفال ما للناشئين من

القوى وضروب الاستعداد الذاتية وعدم اعتبارها فى شيء من التربية . ذلك أنك ترى بعض الناشئين مثلا قد ولد رحالة ليضرب فى الارض ويجوب آفاقها ، وأخص حاجة له فيما خلق لاجله هي معرفة اللغات الحية ليتفاهم بها مع الاجانب فى بلادهم ، فيبدأ المربون بتعليمه لغتين مهملتين انقطع التخاطب بهما من على وجه الارض وترى آخر خلق ميالا الى معرفة علم القوى المحركة وقوانين التوازن (الميخانيقا) يلقون به فى بحر من الكتب ماله من قرار ، ونجد ثالثاً أعد للتجارة ورابعا سخر للزراعة لايراعي ما لكل منهما من الميل الى ما أعد له بل يتبع فى حقهما ماقضت به العادة وجرى عليه العرف ، وهو انه لابد لمن يريد الاشتهار بالعلم فى هذه الدنيا من سجنه فى المدرسة ثمان سنين . كم رأينا من متعلمي اللاتينية واليونانية من يقضي عليهم بأن لا يتعلموها فى حياتهم لانهم متى خرجوا من المدارس واشتغلوا بمصالحهم قلّ وأيم الحق أن يخطر ببالهم تصفح كتاب فرجيل [1] أو ديوان عمير [2] والنظر فى صحفهما البالية التى قضوا فى مطالعتها كثيراً من ساعات النصب والسآمة . ولست أقصد بقولى هذا تجريد أية معرفة من معارف العقل كائنة ما كانت من الفائدة مطلقاً ولكن لاحرج عليّ

(١) فرجيل هو شاعر لاتينيّ شهير ولد سنة ٧٠ ومات سنة ١٩ قبل المسيح

(٢) عمير هو أشعر شعراء اليونان الاقدمين لا يعلم مكان ولادته ولا تاريخها

(المنار : كذا كتب المترجم والمعربون السوريون يعربونه « هومير » يكتب بالقلم الافرنجى هكذا « Homere »)

ان ارتبت فى أن مايخسره كثير من التلاميذ من زمنهم فى تعلم تينك اللغتين لايساويه مايعود عليهم من الفوائد بتعلمهما .

أنا أعلم كل ما للمنتصر لهما من وجوه الاحتجاج على ضرورة تعليمهما . فله أن يقول . ان معرفتهما حاسة سادسة لنا ندرك بواسطتها دقائق آداب لغتنا ، وإنه لايسع أحداً من الناس انكار ما كان لمطالعة الكتب القديمة المؤلفة بهما من التأثير المبارك فى عقول الناشئين الذين تغذوا بلبان معارف الاقدمين حق التغذية ، وان مطالعة هذه الكتب تخلصنا من شواغل وقتنا المادية ، وتعارض عصرنا الذى تساوت فيه الناس وانمحت درجات التفاضل بينهم واشتغل أهله بالحقائق الثابتة دون غيرها بعصور الابطال وما سما وأفاد من مخترعات الخيال . وتستر مواضع الضعف فينا بحجاب الجمال الطاهر بدون أن تغير من طبيعتنا شيئاً ، ثم ان بُعد أهل تلك العصور عنا ومباينتهم لنا فى الاخلاق والعوائد مما يساعدنا أيضاً على أن نبصر من خلال كتبهم الشعرية ضياء منتهى الكمال المطلوب .

وفوق ذلك فان هذه الكتب حافلة بالاناشيد الوطنية التى كان من آثارها مانراه فى عهد الجمهورية الجميل من احتقار الملوك وجر ذيل الخيلاء عليهم ، فلقد كفت نفحة هبت من رومية أو من أثينة فى اثارة بغض السلطان المطلق بقلوبنا فى القرن الثامن عشر ، فان حكماء هذا القرن وزعماء الفتنة الفرنسية فيه قد استمدوا مما وعوه من الكتب المدرسية أصلح الصور لايقاظ العقول ، وبث روح الحياة السياسية في النفوس ، وكان لخيالات الغابرين فى ذلك الجهاد الذى قام فى سبيل

الحق من البلاء ما كان للاحياء أنفسهم فلا تقل لبني غراقوس (١) وبروتوس (٢) وقاتون اوتيقا (٣) انهم قد ماتوا . بل هم أحياء يعينوننا على كفاحنا ، ويعاضدوننا في جهادنا ، ويسمعوننا من أصواتهم ويشهدوننا من أسائهم مايقوى عزيمتنا على السعي وراء الحرية ، التي هي غاية النفوس الابية .

أنا لا أنازع في أن معرفة اليونانية واللاتينية قد تكون من الرياضات النفسية المفيدة ، ولكني أقول : ان لرياضة النفس وتربية العقل طرقاً شتى ، وان من الظلم الفاحش قصر معنى التعليم على فرع واحد من العلوم ، فقد يكون الانسان عالماً يشار اليه بالبنان ، وخطيباً باهر البيان ، وسياسياً حصيف الجنان – وفي أمريكة ما يشهد لصحة ذلك – وهو لم يقرأ في حياته كتب «أرسطو» (٤) ولا ديموستين (٥) ولا شيشيرون (٦) باللغة التي الفت بها . ذلك ان مراقبته بنفسه للامور ومعاملته للناس واختلاطه بهم ودراسته لآداب لغته واستعداده الفطري كثيراً ماتغنيه عن الزخارف المدرسية ، فرأيي هو ان الاحوال التي تحتف بالطفل ومايكون فيه من القوى والملكات الذاتية هي الواجب

---

(١) غراقوس حاكم روماني اشتهر في اسبانية ورزق ولدين سميا بالغراقيين وكانا من قضاة الشعب (٢) بروتوس أحد قتلة القيصر الروماني (٣) وأما قاتون اوتيقا فهو حفيد قاتون القديم وهو ضابط روماني كان من حزب بومباي وبعد ان شهد معه واقعة فرسالا انطلق الى افريقية وقتل نفسه (٤) ارسطو حكيم يوناني مشهور (٥) ديموستين أشهر خطيب يوناني أثار مقدونية على فلوبس وألب أثينة على الاسكندر

التعويل عليها في تحديد الطريقة التي ينبغي سلوكها في تربيته ، فان طرق التعليم انما أوجدت للاحداث ولم توجد الاحداث لها

لما أعلم حق العلم ضروب استعداد « اميل » ولاحالة عقله حتى احكم على أليق أنواع التعليم به وأشدها ملاءمة لطبعه ، والذي أرجوه له هو ان لايكون بعيداً عن العلوم ولاعن آداب اللغة ، ولست أرى من وجوه الاعتراض على الجمع بين هذين النوعين من المعارف سوي مايقتضيه تعلم اليونانية واللاتينية من الزمن ، فان انفاق سبع سنين أو ثمان من العمر في تحصيل لغتين مهملتين تحصيلا في غاية النقص غالباً هو اسراف كبير في عصر لايحصل الانسان فيه متوسط المعارف الضرورية الا بانفاق معظم حياته ، واني باحث الآن فيما اذا كانت اضاعة ذلك الزمن الطويل في تحصيلهما لازمة لطبيعة الصعوبات التي يصادفها المتعلم فيه أو انها ليست من لوازمها وان من الميسور التغيير فيها والتقليل منها .

أول سبب — فيما أري — لطول مدة تعلم هاتين اللغتين هو افراط المعلمين في تعجيل تعليمهما للاطفال ، لانهم يبدأونهم به قبل ان يكونوا تعلموا أو راقبوا شيئاً بأنفسهم ، فتراهم لجهلهم كيفية صوغ الالفاظ وتركيب الاساليب التي هي قوالب المعاني لايكادون يتمتمون بلغتهم نفسها مضبوطة ، ولحبسهم بين جدران المدرسة من نعومة أظفارهم اعتادوا اعتبارها سجنا تتعاقب عليه الاجيال الناشئة تكفيراً لسيئة جهل آبائهم الاولين ، فهم لايعرفون شيئا من الكون وقد حالت المدرسة بينهم وبين المحابّ البيتية والجواذب الاهلية وهي التي كانت

تحبب العمل اليهم وتشعر قلوبهم قدره ، فأصبحوا لا تصل اليهم حرارتها الا من بعيد جداً . ففي أول عمل لهم يمرنون به قواهم الناشئة تفاجئهم ألفاظ وحشية ، وصيغ نحوية ، وتراكيب مجهولة ؛ فيتصيدون اتفاقاً بأيديهم العسراء . من محابرهم الكدراء ، ضروبا من مخالفة القياس ، وأنواعاً من ضعف التأليف ، تجرى بها أقلامهم ، ولا تدركها أفهامهم . فرحمى لهم من حيارى ذاهلين : لا ينفعهم تعاقب التمارين ، ولا تتابع الامثال ، فليس تكرار الاغلاط والخطآت الواحدة فى تعلم لغة مجهولة هو الوسيلة الى اصلاحها .

أنا أحب ان يرى ولدي قبل تعلم اللاتينية شيئاً من العالم وان ينفتق ذهنه باحتكاكه بالصناعة ودراسته تاريخ الموجودات ، فان كل وقعة روقبت تولد فى نفس مراقبها لذة وتنمي فيه شعور الحاجة الى المعرفة ، فاذا حصل له بكسبه بعض معان بينة صار بهذه الواسطة أحسن استعداداً لفهم مايتلقاه عن غيره من المعانى ولو ظهرت فى صيغ مبهمة من الالفاظ .

ثم ان من أسباب طول المدة التى تقضى فى تعلم اليونانية واللاتينية — على ما أرى — ان المربين يعلمونهما الاطفال قبل ان يطلعوهم على شيء من أحوال الرومان واليونان والانسان لا يحسن تعلم لغة قوم الا فى بلادهم . ومن أجل ذلك سأهتم عند تعليمهما « اميل » بأن اجعل له من آثار أهلهما بلاداً يتعلمهما فيها . وفى هذا المقام تظهر فائدة انشاء معاهد التعليم التى من قبيل القصر البلوري . نعم اني على يقين من أن مشاهدة مايكون فى مثل هذه المعاهد من التماثيل والصور ومُثُل

المعابد والمباني الأثرية العامة لا تعين التلميذ على فهم شعر عمير وفرجيل ولكن اليونانية واللاتينيــة اذا اقترن تعليمهما بتعليم تاريخ قوميهما وما يشهد لهــم من دلائل التقــدم القديم لا تبقيان لغتين منـدثرتين اندثاراً تاماً كما لو علمتا مجردتين .

ذلك أن لفنون الرسم من التأثير في نفوس الناشئين ما هو فوق المظنون بها كثيراً بسبب اجالتها العقل في آثار الغابرين ، وسياحتها بالنفس في أعمال الماضين ، ولان سن الايفاع هي السن التي يسهل فيها اندماج اليافع في شخص غيره لسبب سهل الادراك وهو أن معنى الاستقلال الذاتي لا يظهر الا قليلا في هذا الطور من الحياة . فبكثرة هذا النوع من المعيشة مع اليونان والرومان فيما بقي من آثارهم ينتهي التلميذ بأن يهتم بأخلاقهم وعاداتهم وشؤونهم قبل أن يعرف لغتهم فتراه يتابع بعقله الاسطول اللاتيني في سلامين [1] ويشهد خلف بومباي [2] واقعة فرسالا [3] ولا يسبقن الى خاطرك أن هذا الوجود الفكري فيما غبر من الزمن ليس هو الا وهما محضا فانه لا شيء مما كان في الماضي قد مات موتا تاما .

لم تجد طريقتنا في تعليم اللغتين اللتين نحن بصدد الكلام عنهما نفعا لانها لا تزال عليها مسحة من تعليم القرون الوسطى وهي التي

---

(١) سلامين وتسمى الآن كولوري هي جزيرة في خليج أثينة (٢) بومباي قائد روماني شهير له غزوات كثيرة كان فيها ظافرا (٣) فرسالا مدينة باقليم تساليا القديمة من بلاد اليونان هزم فيها قيصر الروم القائد بومباي .

طبعها عليها القسيسون والرهبان اذ لاتزال العقبات تقوم في سبيل دراسة آثار الاقدمين دراسة صادقة، وأولها ما للدين المسيحي من الاوهام والوساوس في آلهتهم التي تراه على قهره اياها لايزال يعتقد انها مضرة حتي في انهزامها امامه ؛ فان رجال هذا الدين مع استئثارهم على توالي القرون باللغات القديمة واحتكارهم معرفتها كانوا يعنون في تعليمهم بازهاق ذلك الروح الذي ألهم الصناع ماظهر على أيديهم من تحف الصنائع وطرفها ، وكانت فنون الوثنيين وآداب لغاتهم من الغنائم التي اهتم اولئك الرجال بحفظها ، غير انهم كانوا يحترسون كل الاحتراس من اظهار آخر ما اكتشفوه من أسرارها للاحداث ، وكان من مصلحتهم أن لايزيلوا عن تلك الاسرار الا طرفا من حجابها لانه كان لابد لما يعيه الخلف من آثار السلف أن يردهم يوما الى عبادة الطبيعة وجمالها . ومن أجل ذلك كان رؤساء الدين لايفتأون يذكرون الناشئين بأن آلهة الوثنيين آلهة باطلة لا أصل لها الا الكبرياء والكذب . وانه لا ينبغي النظر اليها الا من بعيد مع الاسترشاد في ذلك بهدي الدين المسيحي .

أنا لا أحترس كل هذا الاحتراس في تعليم « اميل » تينك اللغتين واقرائه كتبهما ، فانه لابد لمن يزاول دراسة أمر من الامور أن يكون له فيه شيء من الاعتقاد ، فما ضره لوأنه أخلص في الاشتغال بهرقل[1] وأعماله ! ومن ذا الذي ينقم منه ان قدم قربانا للالهات

(١) هرقل بطل خرافي مشهور بأعماله العجيبة

العفيفة(١) ولمنروة(٢) الحكيمة الأبية. فان في كشف حقيقة الاشخاص الخرافيين الذين وجدوا في خيال الاقدمين ، وكانت حياتهم ملاءمة كل الملاءمة لخيال اليافعين ، وفي ازالة الوهم من عقول هؤلاء في شأنهم ، تعجيلا بزعزعة عقيدتهم في النوع الانساني . ولا يظن ظان اني أقصد بما أقول أن أوقف « اميل » عند الوثنية فاني انما أريد بهذا القول أنه لابد لمن يريد النفوذ الى أسرار لغة قوم من اختلاس آلهتهم .

الشذرة العاشرة

التقليد والذاكرة

مثل هاتين القوتين في فتنة العقل والتغرير به كمثل الفتانات الخرافية التي كانت تظهر في بحر صقلية وتستهوى الملاحين بشجي صوتها فتوردهم في شعابه موارد الهلكة ، فانهما بعلو مكانتهما وجلال خطرهما في دراسة اللغات ، وبخداعهما العقل أحياناً في آدابها بما يأخذانه عن الغير من محاسن القول وطرائفه يأكلان الاستعداد الحقيقي أكلا ، وقد يكون الذنب في ذلك على المربين دونهما لما ينهجونه من طريقة التربية ، فان أحداً لا يرتاب في كون تينك القوتين

(١) الالهات العفيفة في أساطير اليونان هي الالهات الفنون التسعة بنات المشترى (٢) منروة – او منرفا – هي في الاساطير المذكورة الالهة الحكمة والفنون والحرب

من المواهب الخلقية الميمونة ، بيد أن هذا لا ينبغي أن يكون سبباً للافراط في تنميتهما فانك ترى التلميذ الذي تربى على طريقتنا يصف لك بما قرأه في الكتب أشياء لم يرها في حياته ، ويفوه أمامك بجمل من القول المنثور أو المنظوم تدل على ضروب من الوجدان لم يشعر هو بشيء منها قط ، ويبدي من الهييج والانفعال في بعض أحوال لا علاقة له بها من حياة غيره مالا أثر له في نفسه ، ولو أنك سألته أن يتغنى بذكر الاشجار وظلالها ، والانعام ورعاتها ، والربيع وأزهاره لوجد فيما يذكره من محفوظاته جميع ماقاله فيها فرجيل (١) وهوراس (٢) من النعوت والاوصاف ، ومع انه قد يكون خيراً له أن يذهب الى المزارع ويرى بنفسه ما يحصل فيها وكيف يحصل تراه شديد الاحتراس من موافاتها خشية أن يخسر فيها اللاتينية وما تواضع عليه الاقدمون من الصور اللفظية لتأدية ما كان يعرض لاذهانهم من المعاني والافكار ، واذا استوصفته قتالا انبرى يصف لك ما استعمل فيه من الآلات ، وكيف كان اصطدام الجيشين ، بالفاظ مطنطنة ، وعبارات مجلجلة : وهو لم يشهد شيئاً من ذلك البتة . فاذا كان مرادك اختباره في محاصرة العدو وجدته قد انتهى من حصاره كما انتهى فرتوت ، (٣)

---

(١) راجع الهامش عدد ١ من تعليقات الشذرة التاسعة (٢) هوراس هو شاعر لاتيني مشهور ولد في سنة ٦٧ ومات سنة ٨ قبل المسيح (٣) فرتوت هو كاهن مؤرخ من الفرنجة ولد سنة ١٦٥٥ ومات سنة ١٧٣٥ ق . م . وهو مؤلف كتاب الفتنة السويدية والفتنة الرومانية وتاريخ الاشراف الكرام

عرفت فيما سبق تلميذاً كان يبدو عليه كثير من مخايل النجابة نال اكليلا مكافأة له على قرضه شعراً وصف فيه زج سفينة فى البحر وهو لم ير فى عمره سفينة ولا بحرا .

نعم ان الشبان فى هذه الايام لا يكادون ينفلتون من المدارس الا وهم رافضون لآثار السلف نابذون لها ظهريا ، غير انه لامعنى لهذا الا انهم يعتاضون عن مُثُل الغابرون مُثُل الحاضرين ، لأن محوَ طيّات التقليد وغضونه من النفس وارجاعها الى صقالتها الفطرية ليس من السهولة بالمقدار المتوهم ، فاننا كل يوم نقرأ فى وصف الكتاب والشعراء المبتدئين قول واصفيهم فى الواحد منهم انه نابغة يفتش على نفسه ، فليقل لى ربه هذا الفتاش أين أضل نفسه حتى أصبح ينشدها .

ان تربية تكون بدايتها اضلال وجدان الاستقلال الى حد انه ينبغي لاجل الاهتداء اليه تلمسه سنين طويلة لمن الغرابة بمكان .

أنا لا أشتهي ولا أرجو أن يكون « اميل » ميالا الى وقف نفسه على دراسة آداب اللغة ولو أني وهيلانة دأبنا فى تحبيبها اليه وأفاحنا فى حجب حالة عقله بزخارف الذاكرة لاخفقنا فى مسعانا الى غايتنا المطلوبة فاتقاء لهذا الخطر تراني مصمماً على ارجاء تعليمه اللغات القديمة واقرائه كتب مؤلفيها . وقد جعلت له مشاهدة الاشياء مقدمة على علم الالفاظ فأصبحت علومه على ما فيها من النقص لها أصول فى الخارج

والمؤلف يلمح الى واقعة لهذا المؤرخ وهى أنه كان يكتب تاريخا لحصار رودس وانتظر طويلا ورود أنباء صحيحة له عنه فلم تحضر فأتم تاريخه قبل ورودها ثم قال انى متكدر من ذلك ولكن قد انتهيت من حصارى

ترجع اليها ، ودعائم في الواقع تستقر عليها . وسعيت في ايتائه ما هو لازم للانسان في بحثه عن الحسن والحق من آلات الضبط والدقة العقلية أكثر جداً من سعيي في الافضاء اليه بمالى أو بما لغيرى من المعانى .

وقبل أن أجعل البحث في مُثُل الاقدمين في مكنته سأعنى كل العناية بتنبيهه الى أن هذه المثل لا تقلد ، فانه من السخف المحقق أن نبارى الغابرين مباراة نحن على يقين من غلبنا فيها من قبل أن ندخلها ، وكيف لا نكون مغلوبين لهم ونحن نرضى لانفسنا طريقتهم في الكلام والكتابة ؟ والذى لا غضاضة علينا في أخذه عن كتاب اليونان والرومان انما هو روح آداب لغتهم وما يناسب كل زمان وكل قوم من أساليب الانشاء وترتيب المعانى والدقة في التعبير عنها ، وانتقاء الالفاظ اللائقة بها . فكما أن من يعاشر بعض خواص الاجانب يقتبس شيئاً من خصائصهم بغير أن يكون ذلك موجباً لمشابهته لهم بحال من الاحوال ، كذلك معاشرة الاقدمين بواسطة ما تركوه من آثارهم توحي الينا شيئاً من عوائد العقل واللسان المناسبة لسائر الاقوام المستضيئين بضياء العرفان .

التقليد الخسيس — سواء قلد فيه الغابرون أو الحاضرون — لا يقتصر سوء أثره على اضعاف الذوق والميل الى الفنون بل يسلب الناشئين أيضاً شرف النفس وكرامتها . فلشد ما ينخدعون بما تؤديه لهم الالفاظ عند قبولهم اياها من المعانى صحيحة أو فاسدة لان أساليب الانشاء والالفاظ والجمل تفعل في نفوسهم ما يفعله السحر الحقيقي فتراهم

يتوهمون انهم يتفكرون فيما يقولون ويكتبون والحق انهم يرددون مافكر فيه المفكرون ولعمري ان هذا هو أصل بعض الاباطيل التي تحاول من قرون عديدة اطفاء نور العقل . ذلك ان ضروب الاستعباد متلازمة فمن قبل واحداً منها فقد أخذ على نفسه الانقياد الى جميعها ألا ترى الشاب المتعلم الذى اعتاد تقليد مايصفه المقلدون بالمُثل الحسنة يصاحبه فى سيرته وأطواره روح اللين والانقياد الذى ألفه من التقليد فتجده يجبن ويفزع عند كل عزيمة ذاتية .

نعم انه قد يخاطر بحياته فى براز أو يعرضها للهلكة فى ساحة قتال لانه يرى ذلك مستحسناً فى نظر الناس ، ولكنه اذا دعي الى مقاومة عادة بربرية ، أو تأييد حق قل ناصروه ، ورأى ان من وراء ذلك الاستهداف للسخرية والزراية عليه ، نكص على عقبيه نكص الجبان ، وفر فرار الرعديد .

مثل هؤلاء المخلوقين المجردين عن ذواتهم يجدون طريق عيشهم ذلولا ويأتيهم رزقهم بلا نصب ، ولكن ما اكثر مايسومون أنفسهم من الخسف ؟ وما أحط مايسفلون بها اليه من دركات الذل ؟ عرفت امرأة بَرْزة [1] محبوبة حسنة المحاضرة وكانت أرملة ولها ولد كان قبلة آمالها فبدا لها يوماً من الايام ان تنشئه على أحسن آداب المواضعة المعروفة فرأت أن الاستشهاد بأقوال الكتاب اللاتينيين فى المقامات المناسبة من المحاورة والتمثل بأشعارهم وايراد أمثالهم من الامور التى لا بأس بها ، بل رأته يكسو المحاور اذا كان حسناً بردا من الخطر ،

(١) البرزة المرأة الجليلة التى تظهر للناس ويختلف اليها القوم

ويلقي عليه مسحة من جلال القدر ، فأرسلت ولدها الى المدرسة فغادرها كيوم دخلها خفيف العقل لم يستفد من العلم الا قشوراً محبوباً عند الناس ، ولكونه أوتي ذا كرة مباركة كان يتكلم فى كل موضوع ويناقش كل شيء ولا يبدي رأياً الا قوبل بالاستحسان لانه يسهل على كل انسان أن يرضى الناس عنه اذا سلم لهم مايقولون ولم يعارضهم فى شيء من آرائهم ، فكان ثرثاراً فاقد الخلق حسن الصورة عقيم الفكر . أرادت والدته أن تصيره رجلا من الاكياس ، أو نائباً لاحد الحكام ، أو معتمداً سياسياً لحكومته فى بعض البلدان ، وان أحببت أن تعرف ماذا صيرته قلت انها صيرته طفيلياً .

طريقتنا فى التربية تظهر بادى الرأى سخيفة مضحكة ، وان جاز ان تكون مما يتعاصى على الافهام ادراكه وربما لا تطابق أية طريقة غيرها مطابقتها لمقاصد حكامنا و نظامنا السياسي .

التلاميذ فى مدارسنا مقترعون مدنيون تبكر الحكومة بتأهيلهم لعملهم على نظام معنوي يشف عن حذق واضعه ، فأنت ترى القائمين على تربيتهم يوزعون عليهم متاعاً من الآراء والعلوم التي يجب عليهم تقلدها فى مستقبلهم ، مراعين فى ذلك الدقة العسكرية التى تراعي فى توزيع متاع الجند وينادونهم « الهوينا . أيها الاحداث اياكم ان تحيدوا عن الخطة المضروبة لكم . نعم ان منهم من يولونهم أدبارهم ولا يصغون الى ندائهم ، وان كثيراً من هؤلاء يتحيزون الى فئة الآخذين بحرية النظر ويتضاعف عددهم كل يوم ، ولكن لشد مايلاقون على ذلك من العقاب فانهم يحرمون من تقلد الاعمال العلمية فى المدارس الجامعة ،

ومن القيام بالاعمال الادارية فى الحكومة ، فلا يولى أحدهم شيئاً منها وفوق ذلك تراهم ان لم يسيروا سيرة مرضية أخذت الحكومة على نفسها تعليمهم كيف يسيرون بما تتابعه لهم من ضروب الايذاء ، وما تبلوهم به من العقوبات والنكبات السياسية ، ولا غرو فانهم فى قبضة حاكم ماهر والذنب عليهم فى أنهم لم يعرفوا من قبل ان لهم واليا يقوم عليهم وأستاذاً يرشدهم .

ولما لم يكن هذا هو الفلاح الذى أرجوه « لاميل » وكان الذي يعنيني من أمره قبل كل شيء انما هو حفظ كرامته وشرفه من حيث هو انسان ، كان نصيب هذه الطريقة مني محض الاعجاب بها دون أن أرضاها لتربيته . اه

الشذرة الحادية عشرة

﴿ فى المؤلفات المفيدة للناشئين واختيارها ﴾

أجد فى نفسى انبعاثاً كثيراً الى اعتقاد أنه لاشيء أضر على كتاب الاقدمين وأدعى الى هجر مؤلفاتهم من اطراء المعلمين اياها واعتيادهم الاعجاب بما كتبوا .

ذلك ان هؤلاء بالزامهم الطفل حفظ مايختارونه له من هذه المؤلفات وارشادهم اياه الى مايجب عليه أن يراه فيهامن ضروب المحاسن خشية أن يقصر فى احترام آثار سلفه ، واكراههم له على ملاحظة جميع ما فيها حتى علامات الفصل والوصل — بذلك كله لا يفلحون

غالباً الا فى أن يكرّهوها اليه وهي أحسن أعمال عقل الانسان

فالافراط فى الوقاية من جانب المعلم يصير سبباً للضعف من جانب المتعلم ، وافراط ذلك فى اعجابه بما يعلمه يذهب بالحمية من نفس هذا فيما يتعلمه .

والمقصود من التعليم على أى حال انما هو انشاء القوة الحاكمة فى نفس الطفل ، وانا فى شك من بلوغ هذه الغاية بالجري على تلك الطريقة فانه على فرض وجود التلاميذ الذين يكون فيهم من الامتثال مايكفي لان يروا الحسن فيما يمدح لهم والقبيح فيما يذم (وفى التلاميذ من هم كذلك) لاتكون أذواقهم من أجل ذلك أسمى من أذواق غيرهم ولا اكثر منها دربة بل هذا مما يدعو الى سلبهم قوة تمييزهم الامور بأنفسهم فتكون همتهم فى مستقبلهم مصروفة الى تلقي آراء من تعتبر آراؤهم حجة من الناس لا الى النظر فى الامور والحكم عليها حكماً مستقلاً .

سأدع ابني وشأنه فى انتقاء كتبه فلا أجنبه الا ما يكون منها ضارًّا بالاخلاق لاني أود أن يكون هو صاحب الخيار فيما يفضل فى نظره من كتب الآداب ، فاذا ضل ذوقه فى الاختيار عوات فى رده الى الصراط السوي على ضروب نمو عقله لا على مايدعو اليه كدرى من أنواع التوبيخ والتأنيب ، ومع كوني لا أضن عليه بالارشاد متى سألني إياه تجدني أقصد أن يلتمس فيما يطالعه تنمية أفكاره وتربية ضروب وجدانه الذاتي .

نعم اني قد أشتهي أن أقدم له بعض كتب مخصوصة وأغتبط لو

أنه اتفق معي فى التأثر بما فيها ، غير أني لا أجدني محقاً في اقتضاء ذلك منه لان الاعجاب بالشيء من أجل أن يكون مفيداً لابد أن يصدر عن نفس المعجب ، ولان الانسان فى كل طور من أطوار حياته منفرداً كان أو مجتمعاً يتصور للحسن كما لا يطابق — بالضرورة — بعض أحوال تتعلق بنفسه أو بمنافع أعضائه يدلك على ذلك اننا لا نكاد نعرف الآن ماقرأناه في عهد شبيبتنا من الكتب ولا مؤلفيها ، ولا نحس بشيء من الميل الى كتب الادب التى طالعناها فى ذلك الزمن ، ولم يبق من الشعراء أو الكتاب الذين كانوا أساتذتنا فيه بكتبهم من يصحبنا فى شيخوختنا الا النزر اليسير . اه

الشذرة الثانية عشرة

لا يسلم وجه الشمس من كلف

قضية لا محيص من تسليمها فاننا فى طور الانتقاد الذى لا ينفلت من تحليله وتفتيشه شيء ، فقد تناول الاديان وآداب اللغات والتاريخ والاوضاع القومية ، فلا تجد عبادة من العبادات الا وقد وجه اليها العلم ضروباً من البحث لا قبل لها بمقاومتها ، وأصبح ما كان يخاله الناس من اللغات والنقوش البربائية والحروف معميات لاسبيل الى الاهتداء الى معانيها ، وقد نبذت مغاليقها وألقت بين يدي العلم مقاليدها وأسلمت اليه أسرارها ، ولم يغن عن الاغاليط التى شيبها مر الدهور أنها قبعت

رءوسها فى ظلماتها وسترت نواجها فى حنادسها ، فانه لم يبق فى مكنتها أن تفلح فى التغرير بالعقل بما لها من القدم ؛ فقد عرف سبب حدوثها وكشف الستار عما كانت ترتعد له فرائص الاقدمين من المجردات الخيالية فعرف الانسان نفسه وكله دهش واستغراب لخوفه وفزعه ، لانه قد عرف اليوم كيف نشأت الآلهة [(١)] ورأى مذاهب كان لها ما للبديهيات من القوة والرسوخ تضاءلت وتلاشت أمام العلم بالنواميس الكونية التى كان يتوهم أن هذه المذاهب فوقها ، وأبصر أسراراً مستغلقة كانت تعاصت على العقل أذعنت اليه الآن فمضى يحكم فيها بكشف أصلها وبيان منشأها .

من الظلم والاجحاف عدم اعتبار هذه الحركة العلمية فى تربية الناشئين ، فكيف يصح أن لا يدخل المدارس ماوصل اليه العلم من نتائج بحثه الا بعد قرن من ظهوره لو دخلها .

﴿ انتقاد آداب اللغتين اليونانية واللاتينية ﴾

أنا لا أريد الآن أن أشتغل من وجوه الانتقاد الا بما يتعلق

(١) يشبه كلام المؤلف هاهنا أن يكون تقريراً لمذهب الماديين ويدل بفحواه على أنه لايعتقد بالله ولا بملائكته ولا بصحة المذاهب الدينية فى هذين المعنيين وينسب الى النواميس الكونية كل ما كان ومايكون ويزعم ان العلم قد هداه الى أصل معنى الالوهية وهذا كله من غرور العقل نعوذ بالله منه ومن الغلو فى النظر ومايؤدى اليه من الاشر والبطر . كيف يصل العقل الى معرفة كنه الاله وهو لم يصل الى معرفة نفسه ! تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا والعذر له ولامثاله انهم نشأوا على دين مناقض للعقل

بآداب اللغتين اليونانية واللاتينية فأقول: قد اعتاد المعلمون أن يفردوا هذه الآداب بالدرس دون بقية آثار الاقدمين كما لو كانت آداب كل لغة فرعا مستقلا عن تلك الآثار ، ولا أراهم يستندون في ذلك الا الى وهم — عنيت من قبل بدحضه — ولهذا تراني ذكرت « لاميل » أسماء آلهة عمير (هوميروس) وما ورد من صفاتهم في أساطير الهنود وقصصت عليه أشهر وقائعهم وسيكونون من معارفة القدماء ، ولم يبق عليه الا ان يعرف كيف كانوا يواصلون الاسفار ويجوبون الاقطار وكيف كان الواحد منهم يبدو في هيآت متباينة وهو أمر لما يجيء وقته .

ذكرت من شعراء الاقدمين عمير ولهذه المناسبة أود لو أدري ما الذي يعود على التلاميذ من تفهيم المعلمين اياهم : ان ديوانيه الموسوم أحدهما بالعلياد (الالياذه) والثاني بالعديسى هما من ابتكار رجل من الغابرين اذا كان جميع الناس اليوم يعلمون كيف تولدت القصص الشعرية الحماسية في الامم القديمة والحديثة .

لا ريب أن في هذه القصص محاسن كبرى وعبراً جليلة ، غير اني سأتحامى كل التحامى أن أجعل سيرة أخيل [1] مثلا نموذجا « لاميل » يحتذيه في سيرته ، فان هذا البطل — الذي عبث ولهاً عن مصلحة أمته وقعد عن منازلة أعدائها في حومة الوغى أن أبى عليه قومه جارية رقيقة كانت محلا لاطماعه وكان بهذا سبباً في طول مدة رزايا الحرب

(١) اخيل في اساطير اليونان هو بطل يوناني ابواه تيتيس وبسيلي قتله باريس في حصار طرواده

وشدائدها — لم يكن حقيقاً برضا الآلهة عنه وميلهم اليه ، فهم باشتغالهم به واعانتهم اياه على خصمه لشجاعته غير مراعين اغفاله لواجبه قد جعلوا عاقبة الحرب عبرة سيئة وهي ظفره بهكتور [1] أي ظفر الطيش الحربي بالوطنية الصحيحة .

لم يقتصر الاقدمون فيما جهلوا من الامور على تنكرهم بعض الاصول التي هي الآن أساس وجدان الانسان بل تركوا لنا ميراثاً من الاباطيل والمذاهب الفاسدة التي تدعو دراسة كتبهم الى بقائها ان لم يقارنها الاحتراس والحذر ، فان سحر ما يحفظ الناس من آثارهم قد حمى كثيرا من المظالم القومية قروناً عديدة من وثبات العقل ولا يزال يذودها عنها ، وان المغرم منا بالمطالعة المفرط في المعيشة بين كتبه المفرّط فيها بين أبناء وقته يُرى اكثر أوقاته قليل التأثر جدا بما شاع في الناس من العادات السيئة الكثيرة التي يرجع أصلها الى أخلاق الاقدمين وعوائدهم .

الحضارة اليونانية كان لها من وجوه الحسن مايثير الاعجاب بها ، ولو أن « اميل » كلف بدراستها كلفاً صادقاً لما كنت إلا في غاية الرضا عن ذلك ، ولكني لا أحب ان يكون خدعة التشدد في ميله اليها لما فيها من وجوه القبح أيضا . فلشد ما احتقر فيها الرقيق وبخست قيمته ونسيت حقوق البائسين والمغلوبين فلم يحض عليها أحد : اللهم الا صيحتين او ثلاثا انبعثت من أعماق وجدان الانسان ووصلت الينا

---

(١) هكتور في هذه الاساطير هو ابن بريام وعقيبه وزوج اندروماك ووالد استنيا كس قتله اخيل اخذا بثار باتروقل

بعـد اختراق حجب مامر من الازمان ، ولـكم هلك في سبيـل تلك الحضارة من أجيال وباد من أنسال ، ولم يكن فيها أحد يعنى بتخفيف مضض البؤس الذى كانت تقاسيه الدهماء ، ولم يكن العمل يستوجب للعامل أدنى حق من الحقوق لانه لم يكن يصلح الا لايدى الطغام . نعم ان ظاهر هذه الحضارة ومنظرها كان مونقا فان ما ازدانت به من الفنون والشعر والدين السمح والآلهة الباسمين في وجوه الابطال كان يكسو تلك الامـة المغتبطة بروداً جمعت كل ما للـكمال المنشود من ضروب العظم والبهاء ولـكن العبرة بالمخبر لا بالمنظر .

التاريخ الروماني هو دون التاريخ اليوناني بكثير لالأن رومية لم تنتج رجالا كباراً بل لانها كانت تفرط في عبادة القوة وقـد لاقت جزاء هذا الافراط ، فانها بعد ان استعبدت غيرها من الامم آل أمرها الى استعباد نفسها . فلتقل لى هذه الامة الفاتحة ـ وقد أظهرت للعالم ما للفتح من النتائج اللازمة - ماهي الامم التى علمتها والشعوب التى أصلحت شؤونها ؟ أرى الناس تملهم أخبار غزواتها وتهـزهم أحاديث نصراتها ولا أرى أحداً منهم يستقصى أسباب مصائبها ليشفى من جنون الحرب ويبرأ من هوس القتال .

اني اذا أقرأت « اميل » اليونانية واللاتينيـة وفجرت له بذلك ينبوع الآداب القديمة والتاريخ كان قصدي منه ولاشك توسيع عقله وتنمية ادراكه ، بيد أني أرمى الى غاية أخرى أمكن في نفسى من هذا وهي أن انشئ في نفسه الاستعداد للسلوك فى هذا الكون ذلك لان ماتتضمنه تلك الآداب من أسمى الاقدام النفسيّ والاخلاص في العمل

وحب الوطن أشد في قلب اليافع تأثيراً وأبلغ في نفسه موعظة من جميع مايقوله الخطباء ويوصي به الحكماء، بل في نفس التحمس الذي يبدو منه في استحسانها بذل لنفسه لانه يخرجها من معقل امتناعها ويخلعها عن عرش صلفها ليسويها بمن استحق الحياة استحقاقا صحيحا واني لاقنط من فلاح الطفل الذي لايروقه شيء، وأما من آنس من نفسه التأثر بما لغيره من بهاء العظمة وروتقها فذلك الذي أوتيت نفسه سراً من أسرار الله. ان فضائل الغابرين أبلغ من فضائل الحاضرين في خلب الخيال بما عليها من مسحة القوة والبسالة، وأعمال اليونان والرومان لبعدها عنا بحسب ترتيب الازمان يحليها البعد و لغرابة ببعض السمات التي قد تغالى بها فتجعل لها من القيمة فوق ماتستحقه، ولكن ذلك لايزيدها الا لجاجة في دعوة الناشئين الى اجلالها واعظام قدرها واذا علمت ذلك رأيتني غير مخطئ في التعويل على تأثير الاقدمين في ترقية أفكار ولدي وتهذيب خلقه.

على اني أعلم حق العلم ان جميع ماخلفوه لنا لايدعو الى الاعجاب على السواء، فاسيبيون (١) الذي جندل انيبال ودمر قرطاجه (٢) مثلا

(١) سيبيون واسمه ايمليان الملقب بالافريقي الثاني كان رابع أولاد بولص اميل ولد في سنة ١٨٥ ومات في سنة ١٢٩ ق م تبناه عمه الذي هو ابن الافريقي الاول من أسرة سيبيون وكان على يده انتهاء الحرب الثالثة بين رومية وقرطاجة فكانت هي خاتمة هذه الحروب فانه أخذ قرطاجة في سنة ١٤٦ ق م

(٢) انيبال هو قائد قرطاجة تولى قيادة الجيش في الحرب الثانية التي حصلت بين قرطاجة ورومية وبعد انتصاره في مواطن كثيرة هزمه سيبيون فانتحر

بالبطل الذي سأسترعي الى سيرته ذهن « اميل » كلا ! بل سأوجه كل همتي الى تفهيمه ان مايلاقى من الهـزائم اجلالا لوجـدان الحق أعلى منزلة وأعظم خطرا من الانتصار ببيض الصفاح وسمر الرماح ، وأن المجد الصحيح انما هو فى علو النفس وشرفها ، وسأقول له : أرأيت اليوم الذي انتصرت فيه روميـة على قرطاجة ؟ فذلك هو اليوم الذى وفى فيـه ريجولوص [١] بعهده فانطلق الى افريقية وحـده لايثنيه عنـه لجاجة زوجته واولاده ولادعاء اخوانه وأصدقائه مع علمه بأنه ملاق حتفه وساع الى هلاكه . في ذلك اليوم ظهر ان رومية قد برّزت على قرطاجة في صدقها ووفائها ولم يكن تبريزها عليها في غير هاتين الفضيلتين الا أمراً مرتهناً بوقته اذ كان لابد لقرطاجة من الغلب والقهر .

لامراء في أن الجمهورية الرومانية أيام مجدها وعلوها كانت تسفر عن أخلاق شريفة وطباع كريمـة ، وليس كذلك حالها في عصر تدليها واضمحلالها ، ولو أني أردت تبصير « اميل » علة هذا التدلي لحصرتها في إعواز الفضائل الجمهورية اعوازا كان سببا لنجاح الحكم المطلق في روميـة وطول مدته . فلست اخشى على الحرية ما قـد ينتابها من الاخطـار المادية ولا أخاف على رومية ان يقف بأبوابها التركينيون [٢]

---

(١) ريجولوص قائد رومانيّ قتله القرطاجيون لانه أرسـل من قبلهم الى رومية للمفاوضـة فى المبادلة بالاسرى فتـكلم فى مجلس الشيوخ بما ينافى هذا الطلب وعاد الى قرطاجة فمات صبراً بالسم تخلصاً من انتقام الرومانيين . واما قرطاجة فهى مدينة أفريقية قديمة (٢) التركينيون هم بعض ملوك روميه الاولين

أو بورشينة [1] يبتغون الاستيلاء عليها مادام فيها أمثال موشيوس سيفولا [2] انما الذى أخافه على أمة من الامم هو خسة الضمائر ولؤم السرائر .

نفوسنا هي مواطن الظلم ومكامن البغي فالذى علينا هو أن نحاربه فيها ونجليه عنها قبل محاربة الملوك الظالمين وأجلاء الجبابرة الغاشمين ، من أجل هذا لم يك ينفع بروتوس [3] وأنصاره أن بقروا بطن القيصر فان قلب رومية كان مقروحا بالداء القيصرى .

كان أولى بذلك الرجل وقد أراد أن ينزع تاج الملك ممن كان مستعدا له ان يرجع أولا الى قلبه فينزع منه كبر الاشراف ثم ينزع ان استطاع من نفوس قرنائه ماعلق بها من الرذائل والنقائص التى تقتضى وازعاً يرد من جماحها ويكف من نزعاتها ، ولولا تقصيره فى ذلك لاستحق ما أتاه من الاعمال الدالة على الشهامة والبسالة أن تبيض به صحف التاريخ ، بل كان من شأن هذه الاعمال أن تؤخر استقرار حكم الاستبداد ولكنها لم تستطع أن تقوم بالامة من وهدة انحطاطها .

---

(١) بورشينة هو ملك اتروريه حاول اعادة التركينيين الى ملك رومية فهدده موشيوس سيفولا فولى مذعوراً (٢) موشيوس سيفولا هو رجل رومانى اراد ان يقتل بورشينة ملك اتروريه فأخطأه وقتل كاتب اسراره واراد ان يثبت لهذا الملك ثبات الرومانيين فوضع يده اليمنى فى جذوة نار مستعرة (٣) بروتوس واسمه مرقص جوليوس احد قتلة قيصر الروم

حدثت فى أخريات أيام الجمهورية الرومانية أحداث كثيرة شوهت محاسنها كالنظام العسكرى الوحشى واهدار الدماء وضروب التعذيب والاطماع الخسيسة وبيع الضمائر وتناوب أرسال (١) الضعفاء الاوغاد التعلق بعجلة الظافر . على أنه كان لايزال يظهر فى جهات مختلفة من قرارة الدهماء المنهوكين المنحطين بعض الاخلاق الفاضلة ظهور الصخور التى تشرف على ماحولها من المياه المنخفضة . ولا قنوط من ارتفاع شأن الحرية مابقي فى الناس أباة للضيم موقنون بظفرهم فى الذود عنها ، فان هؤلاء يشهدون الجهاد فى سبيلها وقد يلاقون الهزيمة فيه ، ولكنهم لايشهدون اندثارها اندثاراً لاقيام منه . وانما تزهق روح الامل من حياتها متى انحازت العقول بعد كلالها وهي صامتة الى حكومة مطلقة ، لكنها ساكنة مطمئنة ، تلين للمحكومين كلما شعرت بازدياد أمنها وزوال مخاوفها ، فأضر نظام سياسى على أمة من الامم انما هو الحكم الاستبدادى المجرد من الصرامة والقسوة . وكذلك كان حكم أغسطس للرومان .

كان عجب الامة فى ذلك الحكم لايزال يتغذى ببعض ضروب من الغرور غريبة ، ككونها لاتزال خير أمة بل أميرة الامم ، وكون أعلامها وألويتها لاتزال مبجلة فى الخارج ، وكونها تنتصر على المتوحشين من حين الى حين ، وكونها صاحبة الآلهة وصحف الكاهنات ، والفنون الجميلة والآثار العظيمة التى تروق الاجانب ، وكونها جددت بناء رومية وهي المدينة الابدية من قواعدها الى سقوفها — كل هذا

(١) الارسال جمع رسل بالفتح وهو القطيع من كل شيء

صحيح ولكن واحسرتاه ! فليست تعبئة الجيوش ولا انشاء القلاع والحصون ولا بناء المعابد مما يغني عن الامة من سقوطها شيئاً ، فقد بقي معبد المشتري المسمي بالقابيتول فى رومية بعد فناء الرومان .

ليس لى الا كلمة أقولها فى شعراء عصر اغسطس وهي أن أحسن هؤلاء الشعراء قطعاً فى نظر المعلمين هما (فرجيل) و (هوراس) فهما اللذان يحب هؤلاء ان تجعل كتبهما فى ايدى الناشئين أكثر من غيرها وان كان كلاهما قد تجرد فى معظم ما كتب من شرف النفس وكرامتها ألم يلاحظ من قرأ عنينية [1] فرجيل ان نفس مغزاها ملكي وهو مغزى ما كان يرد – على ما أرى – فى ذهن شاعر زاهر الخيال فى أيام الجمهورية الجميلة ، فقد وصف فرجيل ممدوحه المسمى (عُنَىْ) بالانسان الذى تجات فيه العناية الالهية ، وتوحدت في شخصه الامة وبأنه المنجي لامته ، المؤسس لجيله ، ومثل هذه المعاني يرى عليها انها موسومة بميسم الملك الذى برزت في عهده ، ومطبوعة بطابع القرن الذى ظهرت فيه ، وسواء أكانت حسنة ام قبيحة من حيث الفن ، فهي تشف عن حالة العقول في هذا العصر ، وتسفر عن الخطة التي رسمتها لنفسها الحكومة الذاتية حتى في نفوس الخيار من الامة .

ان أجود الاشعار وأحسنها ليس فى استطاعته ان يحجب دناءة النفس ، ولا أن يستر خسة الطبع . ولقد كان شعر اللاتين قدوة

(١) عنئية فرجيل قصيدة قالها فى مدح عنى وهو أمير طروادى ابن انشيز والزهرة وصفه فيها بأنه مؤسس النسل الرومانى

سيئة لخلفهم بما كان يصدر عنهم من ضروب التمليق الخسيسة وانواع المدائح التي كانوا يطرون بها اغسطس تحقيقا لاغراضهم ونيلا لامانيهم فأسسوا به في الدنيا من حيث لا يشعرون وظيفة الكتاب والشعراء المتزلفين . على أن فرجيل و « هوراس » كانا أميري هذه الصناعة . ولم يكن غيرهما فيها الا عيالا عليهما

ألخص لك ماتقدم فاقول : ان دراسة آثار الاقدمين تختلف ثمراتها باختلاف الطريقة التي تباشر بها فاجلال هؤلاء بلا قيد ولا تمييز ولا نقد يؤدي الى ماتؤدى اليه جميع ضروب الوثنية وهو صغار النفس وضعتها ، ذلك بأن مايؤثر عنهم من المحفوظات والخرافات والكتب والاشعار الحسنة له من الظلم والتحكم في النفوس ما لا تقل الخشية منه على الناشئين ، عن خشية ظلم الحكام الغاشمين ، وتحكم الطغاة المستبدين . وبهذا يبطل العجب من أنه يوجد اليوم من تلاميذ اليونان والرومان من يلتمسون في علوم البيان وسائل للذود عن مصالح الغابرين ومغالطاتهم . ومنهم من يرومون منها دروعا حصينة للحرية تكف عنها عوادي الباغين .

نحن على مافينا من النقائص كلها أحسن من الاقدمين حالا وأرفع شأنا ، وان جاز علينا التدلي والانحطاط كما جاز عليهم ، لان فينا قوة النهوض والارتفاع الى ما انحططنا منه . وان لنا عليهم لفضلا كبيراً بسمو وجداننا ، فكاننا بتأخرنا عنهم في الوجود قد أخذنا على أنفسنا ان نكون خيراً منهم ، لان وجدان الواجب كوجدان الحق ينمو ويرتقي بمرور الزمان ، ولعمري انه لا ينكر ما للحضارة الحاضرة

من ضروب التأثير فى النفوس والعقول الا مكابر خبيث الطوية ، ولست أريد بما قلته أننا أصبحنا بهذه الحضارة أكثر من الاقدمين أخلاقاً فاضلة ، وطباعاً باسلة ، ومعارف واسعة ، وتحمساً فى الميل الى الحسن . لا ! ألبتة ، بل أريد أن معانى العدل واحترام حق الغير قد شاعت فينا ورسخت فى نفوسنا فصرنا أكثر منهم اهتماماً بمن يخالفوننا فى العناصر والاحوال القومية والاقاليم وألوان الجلود ، فنحن الآن من حيث كوننا من بنى الانسان أقل من اليونان والرومان بعدا عن كل ماله مساس بالانسانية.

الشذرة الثالثة عشرة

السفر من أركان التربية

ان لما تتأثر به النفس وتحفظه الذاكرة فى الصغر من اللصوق والتمكن مالا يخفى على أحد . هذا شكسبير[1] يدعو حاله الى اعتقاد أن معظم الفضل فى بلوغه تلك المكانة العالية فى الشعر يرجع الى نشأته بالقرب من نهر الآون[2] الانيق الذى تفيض مياهه على مدينة استراتفورد[3] ومايحيط به من الاودية الخصبة الغنية بالشجر والنبات

(١) شكسبير هو أشعر شعراء الانجليز كما مر (٢) نهر الآون هو أحد انهار انكلترة المشهورة وهو قريب من مدينة استراتفورد (٣) استراتفورد أهم مدينة فى مركز استراتفورد

ومجاورته لغابة اردان[1] التى كانت متنزهاً له فى سنيه الاولى من حياته . يدلك على ذلك انه لما كتب فيما بعد القصة الهزلية التى عنوانها « كما تحب وترضى » اتخذ هذه الغابة نفسها محلا لاهم منظر من مناظرها ، ومثّل أماكنها للنفوس ، وجلى مواقعها للاذهان ، بأوجز العبارات ، وأوضح الاشارات . لم يكن هذا الا لكونه مع نزوحه عن مركز استراتفورد الذى هو مسقط رأسه لم ينس منظر هذا الريف بل حفظه فى مطوى من مطاوى نفسه . وهذا أوليفا رجولد سمث[2] ذو العقل الثاقب والذكاء المتوقد ، لم يذهله حين أقام فى لوندرة ما شاهده فيها من الاختلاط والتشوش عن ذكر قرية (لشوى) التى نشأ فيها ، ولم ينسه ما كان يراه هناك من جدول الماء والطاحون والكنيسة وفندق الحمائم الثلاث وسياج العضاة وغير ذلك من خصوصياتها ، بل مدحها فى القصة التى كتبها بعد وسماها الكميت (الابَرن) . وكان واشنجطون ارفنج[3] الكاتب المجونىّ الرحالة الذى استهوى النفوس ببدائع ظرفه ، وخلب الالباب بدقائق وصفه ، يحمد الله تعالى) ان أنشأه على ضفاف بحر أوتسون[4] ويقول : ان ما كسبه طبعي المختلف

(١) غابة اردان هى فى هذا المركز أيضاً

(٢) أولفيار جولد سميث هو شاعر وقصصىٌ انجليزى شهير ولد سنة ١٧٢٨ ومات ١٧٧٤ مسيحية

(٣) واشنجتون ارفنج هو أديب وقصصىٌ أمريكىّ ولد سنة ١٧٨٠ ومات سنة ١٨٥٩ (٤) بحر أوتسون هو خليج متسع على السواحل الشمالية للقسم الانكليزىّ فى أمريكة

العناصر من الخير والتهذب يصح ان أرجعه الى محبتى لهـذا النهر فى صغري . فقد كنت فى حدة الحمية الصبيانية ، اكسوه بعض الخصائص النفسية . واعتقد ان له روحاً يقوم بها . وأعجب بما فى طبعه من الحرية والشجاعة والصدق والاستقامة ، ذلك لانه ليس من الانهار التى تبسم صفحاتها عن خـداع ، وتضمر السوء بما تحتها من الشـعاب المهلكة والصخور الغدارة ، بل هو طريق مائي بهيج جمع الى عظم عمقه كثرة اتساعه ، يحمل السفن التى توكل الى أمواجه بقلب سليم ونية شريفة وكنت أتخيل نوعا من المجد والعجب فى استقامة مجراه وسـكينته وسلامته الباهرة .

انما مثلت ببعض الشعراء لانهم هم الذين نعرف شيئاً من أحوالهم النفسية فى حياتهم . غير انى لا أرتاب أبداً فى أن ما يحتف بالناس من الاحوال والامور الخارجيـة لايحدث فى نفوس جميعهـم أثراً واحداً وانهم يختلفون أيضاً فى درجة التأثر بها ، وان ما شاهـده الانسان فى صغره يلازمه فى كبره ويصير جزأ من نفسه ، وماصحبه من الاشياء وهو يافع لايجانبـه فى كبره ، بل يظهر أثره فى صورة خلقتـه وفى مجرى أفكاره .

ليس كل مايحيط بالانسان مما تتناوله مشاعره يصلح على السواء لحفظ صحة عقله ، فقد روى أن (ملتون) [١] كان يتألم ويشـكو مر الشـكوى وهو يتلقى دروسه فى مدرسة (كمبردج) الـكلية من ضواحي هذه المدينة معللا شكواه بأنها خلو من الظلال الوارفة التى

(١) ملتون شاعر انجليزى شهير ولد سنة ١٦٠٨ومات سنة ١٦٧٤

تجذب الاهات الشعر وتؤويها وكان (روبرت هول) الكاتب الانجليزى الذائع الصيت الذى كان يتعلم فى تلك المدرسة بعد (ملتون) بقرن ونصف ينسب اول نوبة أصابته من نوبات الجنون الى استواء الارض بمركز (كمبردج) وخلوها من الربى والهضاب الشجراء.

الناس وان اختلفوا فى درجات تأثرهم بفقد ما هم محتاجون اليه لاأظن أنه لايوجد منهم من يتأثر البتة بما يكون من العيوب والمناقص فى المناظر الريفية التى يراها على الدوام، اللهم الا قليلا لا يعتد بهم واذا صح ذلك فلشدّ مايبلغ هذا التأثر السيء من أذهان الاطفال، فان الرجل البالغ قد حصل له من قوة النفس والخيال ما يكفي لمفاعلة مايحتف به من الاشياء، فحسبه فى معظم الاحيان أن يخترق قلبه شعاع من أشعة الحب، أو يكون فى نفسه وجدان قوىّ، أو تجتمع فى ذهنه بعض المعاني حتى يرتقى بالريف المبتذل الذى لاقيمة له فى ذاته من شيوع الابتذال، الى الاختصاص بشرف الخيال، وليس هكذا حال الحدث الذى بين الثانية عشرة والثالثة عشرة من عمره، فانه في هذه السن لا عمل له في فطرة ما حوله من المخلوقات، لانه ليس في استعداده اذ ذاك ما يكسوها بهاء، ويزيدها رونقاً ورواءً، بل هو يتأثر بها كما هي، فمن الفوائد الكبرى له أن يولد أو يتربى بالقرب من بعض المناظر الكونية العظمى كمنظر نهر جميل أو بحيرة أو جبل أو غابة.

منظر الريف في (كورنواى) منظر مهيب غير انه واحد لاتغير فيه، وليت هذه البلاد كانت أكثر أشجاراً مما هي الآن، فان مثل

اليافع الذي لا يرى الا ناحية من نواحي الكون كالصخور أو البحر كمثل من لم يقرأ الا كتاباً واحداً .

لا بد في تربية الانسان خصوصاً في صغره من تنوع الفواعل لتتنوع آثار انفعاله بها ، ذلك لان كل فرد من أفراده يميل الى بعض المناظر دون بعض ، حتى يكون هذا البعض الذي يميل اليه كطبعه في الاختصاص به ، ومعنى هذا ان ضروب الحسن في الطبيعة تقابلها في نفوس الناس مناسبات ذاتية ، وليس المنظر الذي يتخيره الانسان ويرتاح اليه يأتيه على الدوام عفواً بل لابد من السعي وراء تحصيله فمن الناس من ينشأ اتفاقاً في سهل من السهول ويكون ميله للمناظر الجبلية . ويوافق هذا قول أحد الكتاب في وصف رجل لا أذكر الآن من هو : انه عربي ولد في ظل شجرة تفاح بنورمندية[١]

بلغ « اميل » السن التي تبدو فيها حاجة الناشىء الى الاختلاط بما حوله ، والمربون يخدعون هذه الحاجة في معظم المراهقين بايتائهم قصصاً في الاسفار ولا ريب أدعى الكتب الى التفاتهم اليها واشتغالهم بها . غير انه مما لانزاع فيه ان وصف البلاد بالغاً ما بلغ من قوة البيان وضبط التحرير لا يرتقي في تأدية العلم بها الى درجة المعاينة ، بل هو أدنى منها كثيراً فلا يمكن أن يستغنى به عنها . من أجل ذلك كانت سن الثالثة أو الرابعة عشرة هي السن التي يظهر فيها هوس الملاحة في رؤوس الصغار من سكان البلاد المجاورة للبحر كانكلترة ، فكم من هؤلاء الصغار البسلاء يصيبهم من ولوعهم بالتجوال في الاقطار السحيقة

(١) نورمندية اقليم من الاقاليم الفرنسية القديمة التي دخلها العرب الفاتحون

مرض لايحـد ولا يوصف ؛ كما يصيب العصفور الخطاف فى الفصل الذى يهاجر فيه رفاقه ، فيتسللون من بيوت أهليهم فلا يعودون اليها فى حياتهم . واما سكان البلاد الاخرى فان حب السفر لا يكون فى الكثير منهم الا حاجة وقتية لأنهم بعد ان يقضوا سبع سنين على سفر يركبون فيه متن المهالك يرجعون الى أوطانهم فيعيشون معيشة الاستقرار .

الذى يدهشنى من المربين هو قعودهم حتى الآن عن البحث فى الانتفاع بالاسفار فى التربية وجعلها ركناً من أركانها إن قيل إنما يمنعهم من ذلك حاجتهم الى الزمن ، قلت ان السفر الى أمريكة مثلا لايقتضى الآن من الزمن أكثر مما يلزم لتعليم التلميذ شكل الكرة الارضية تعلما فيه شىء من الحق ، على مافى السفر ومعاينة الاشياء من الفوائد الكثيرة التى لا يستفيدها المتعلم من أىّ درس من دروس تقويم البلدان كتابية كانت أو قولية . وإن قيل ان ما يقتضيه السفر من النفقات هو الذى يخيف المربين منه ويصدهم عنه ، قلت قد فهمت هذا الاعتراض الا أنه يوجد من الطرق غير واحدة للسفر بدون كبير نفقة وانما اكبر العوائق فى هذه السبيل هو حذر الآباء والامهات وخوفهم على أولادهم . فان فكرة غياب الغلام الغرّ عن نظر امه ، ووكله لامواج البحار ، ومخاوف الاسفار ، وتخليته ونفسه مما يهيج نفوس الامهات وتثور له قلوبهن . لا جرم ان اهتمامهن بأولادهن حقيق بالاحترام والاجلال ، ولكن ينبغى أن يفهمن القائمون على التربية ان ليس فى الغياب شىء يقطع أو أصر الرحم وان عرى المحبة

والوداد تجمع بين القلوب الشريفة والنفوس الكريمة مهما اتسعت مسافة البعد بينها وأنه لاخوف من الحرية الا على الابناء الذين لم يبكر بتعليمهم الاستقلال بالسير في هذه الحياة . على أنه لايصح أن تكون محبة الوالدين لاولادهما الاعزاء مقصوداً بها لذتهما ، بل لابد أن تكون غايتها الحرص على مصلحتهم فان رحمتهما بهم تدب اليها شبهة الاثرة اذا انحصرت في ابقائهم في كنفهما وان أخل ذلك بتلك المصلحة .

وفوق ذلك فانه لم يكن من العبث أن استعملت في ايامنا هذه قوة البخار في طي المسافات الشاسعة وتقريب الاقطار المتنائية ، وأبعدت الملاحة في فتوحاتها ، ورخصت للناس اسعارها ، فاصبح السفر الى البلاد المسامتة لنا من اسفل معتبرا عند شبان الانكليز من قبيل التنزه وتمضية وقت الفراغ في البحر ، وقد شعر النوع الانساني بنمو أجنحته للرقي فلا محيص من التسليم ، وأنا اخشى أن لاتغنى حكمة الشيوخ الزاجرة عن السفر ولا الجدول الاطلانطيقي شيئا مما يجده خلفنا في نفوسهم من الحمية والحاجة الى رؤية العالم

جميع الامم الحرة أمم رحالة لايعوقها بعد المسافات ، ولا اختلاف الاقاليم ولا العقبات المادية ، بل ولا تعلقها المتين الاعمى بالزاوية التي تعيش فيها من الارض

القوانين التي جرى عليها توزيع اجيال النوع الانساني على البلدان قد تحدد بعضها بالفطرة وبعضها بالتاريخ وكثير منها بسياسة الحكومات وما زال الحاكمون في كل عصر يعنون أشد العناية بان يعيش المحكومون

ويموتون فى الارض التي ينبسط عليها سلطانهم سواء فى ذلك الاغنياء منهم والفقراء ، وقد استنتجوا من كون هـذا الامر مفيداً لمصالح ملـكهم انه من الفروض التي لهم على رعاياهم ونجحوا فى اقناعهم بذلك وكان من أوهام المربين وخيالات الشعراء وأفـكار رجال الدين ما تضافر في قرون طويلة على أن يغرس فى القلوب غريزة يشترك فيها الانسان والعجماوات وهى حبه للمكان الذي ولد فيه نعم انها من الغرائز الحسنة ولا تنس انهـا هي السبب فى تألف الجماعات ، ولـكن لا يعزب عن ذكرك أيضا انه يسهل أن يساء استعمالها ليبقي المستضعفون من الناس عبيدا للاقوياء الغاشمين .

لما كانت جماعات الانسان فى بداية نشأته قد انحصرت كل واحدة منها فى بقعة من بقاع الارض كانوا معتادين من صغرهم المعيشة فى الاماكن التي يجدون فيها مايقتاتون به ، ووصلت بهم هذه الحالة الى حد انهم قد عدوا هـذه العادات الانحصارية من الفضائل ، وأما أنا فلا أعدها الا معيبة ولا أقدرها بما لا تستحق فما زال الفلاح اللاصق بأرضه يقلبها ويزرعها أدنى منزلة فى الجملة من المدني والمدني نفسه يستفيد ويرتقي كثيراً اذا اتسع نطاق معاملاته مع العالم .

الامم التي تـكون عالة على أرضها أجنبية عن لغات غيرها فى وسعها ـ ولا شك ـ أن تقوم بعظائم الامور وجلائل الاعمال لـكنها تـكون أكثر من غيرها استهدافا لقوارع البغي السياسي ، فانها لا تتأثر من تعطيل القوانين ولا من ابطال كفالات الحرية ولا من دوس حقوق الافراد واهتضامها . ذلك لان ابناءها يلتصقون وهم كالمستميتين

بقطعة الارض التي تؤويهم وقد دنسها الدم الذى سفكه عدوها الظافر وجعل منه قرابا لسيفه فالاغتراب أشد رهبة فى صدورهم من جميع المصائب ولو أحاطت بهم فوادح الخطوب القومية من كل ناحية ،فاذا نفي بعض ذوي الوجاهة والنفوذ من الاحزاب المستضعفة اما بحكم الضرورة أو بما يتخذ من طرق القهر فى زمن الفتنة كان النفي أبلغ المحن فى نفوسهم ألما ، فتراهم حيارى لايدرون أين يذهبون ولا ماذا يصنعون ، وقد صارت الدنيا فى أعينهم وهم خارجون من ديارهم صحراء يعوزهم فيها الدليل قفراً موحشا لايجدون فيه الانيس

وأما الامة التي يعتاد أفرادها من نعومة أظفارهم قطع أجواز البحار ولا يكونون بمعزل عن لغات الامم الاخرى وعوائدها ويدرسون أبعد ضروب الحضارة عنهم وأشدها اختلافا ، فانها لايكون لصروف الدهر عليها سبيل ولا يخشى بنوها بطش القوانين الخاصة ولا التغريب بل يكونون أصدق من فليبس الثاني [1] اذا قالوا متشبهين به « ما كانت الشمس لتغرب عن حكومتنا »

ولقائل أن يقول ان عادة السفر قد تضعف فى الاحداث العاطفة الوطنية فأجيبه اني لا أميل قطعاً الى عموم معنى الوطنية واتساعه فما أتعس من تكون الدنيا كلها وطناً له اذ لا يكون الانسان انساناً الا بشرط أن ينتسب الى طائفة معينة من البيت الانساني وأن يكون له لغة وأمة خاصتان به ، غير انه لاينبغى أن يتوهم ان حب الوطن الحقيقي

(١) فليبس هو ابن امنتاس احد ملوك مقدونية الخمسة الذين تسموا بهذا الاسم حكم من سنة ٣٥٩ الى سنة ٣٣٦ ق . م وفتح بلاداً كثيرة

يضيع كثير من معناه اذا تجرد عن روابط الوثنية المادية التي كثيرا ما تشوهه وتبخس قيمته فليس الوطن مطلقا عبارة عن الجبل أو السهل أو الغدير الذي يولد الانسان بجواره اتفاقا وليس هو من القرميد أو الحجر ولاهو بالمكان الذي يحصره سطح يقدر بالفراسخ المربعة ، كلا! ليس الوطن شيئا من ذلك ، ولكنه معنى يقوم بالذهن بل تاريخ الامة بل آثار سلفها ، وان شئت فقل انه وجود كلي تشعر جزئياته بالمعيشة فيه ولا شيء من ذلك كله يضيع في ركوب متن البحار ولا في اجتياز المفاوز والقفار . اذا نقش على لوح القلب وتحققت به النفس

***

جاءتنا أخبار من بلاد البيرو بواسطة بعض معارفنا تحمل على الاعتقاد بأن دولوريس قد سلبت أموالها بتواطؤ حصل بين أقاربها وقد استفتينا العارفين بالقانون فكادوا يجمعون على أن هذه القضية الغامضة لاينجلي غموضها ولا ينكشف سرها الا في البيرو ، وانها تقتضي أن نوسط فيها صديقا يعهد اليه بمصلحة الفتاة المهضومة فنقبنا عن هذا الصديق فلم نقع عليه .

صنائع البر يستلزم بعضها بعضاً ، فاننا وان لم نتبن هذه الفتاة الاجنبية قد التقطناها ، وآويناها الى بيتنا ، وصار من الحق علينا انصافها في بلدها .

فكرت في أن أسافر بنفسي للقيام بهذه المصلحة فرأيت غير واحدة من العقبات تدافعني عن تنفيذ هذا القصد . من ذلك مايقتضيه قطع تلك الشقة البعيدة من النفقات ، وعدم احتمال الفوز بالحق في

الدعوى ، والروابط التي تربطني بالبقاء في أوربة ، وبالجملة فان سبعين اعتراضاً قويا قد وقفت بي موقف المتردد بين الاقدام والاحجام . فقد تماهدت أنا وهيلانة بعد الذي ذقناه من ألم الفراق ان لا نفترق ، ولا أدري ان كان في مكنتها احتمال سفر شاق كهذا . ولو انه اقتضى أن تحتمل مضض الفرقة مرة ثانية لما تريثت في اطراح خاطره .

على أن هذا الخاطر لا يزال يساورني والحالة التي أصبحنا فيها بسبب كفالتنا لتلك الفتاة العزيزة علينا وما يلحقنا من تبعات التقصير في شؤونها لم تكد تترك لي حرية الاختيار في السفر ، بل قد شعرت بوارد يأمرني به أمرا .

وأقول على أي حال : أفلا يجوز أن يكون الانسان منافقاً يتخذ المقدور من حيث لا يشعر ستاراً لاخفاء نفاقه؟ أفلا يصح اننا مع اعتقاد امتثالنا في العمل لحكم الضرورات نتبع في أغلب أعمالنا ما توحيه الينا شهواتنا أو نمزج المصلحة التي نتخيل اننا نقوم بها لغيرنا بشيء من الأثرة أو يكون ميلي الغريزي الى التجوال هو الذي قد تنبه في نفسي واجتهدت في مواراته بحجاب صنيعة المعروف أو ان تكون لي غاية خاصة أو سبب خفيّ يدفعني الى تغيير الهواء الذي أنا فيه ؟! .

لست أقطع بشيء من ذلك ؛ ولكنني كلما تساءلت خيل لي ان قصدي الاول انما هو نفع الولدين اللذين أخذت على نفسي تربيتهما .

لو كان في وسعي أن لا أستفتي الاميلي وذوقي لجاز أن لا تكون البيرو هي المكان الذي اتخذه من الارض موضوعاً للدرس والتعليم وذلك لفرط بعدها ، ولكن . ما أوسع السفر اليها من ملعب يتجلى فيه كثير

من الوقائع والمرائي . اذ يرى المسافر سموات مجهولة له يعمرها من الكواكب مالا ينير أقطارنا الكامدة ليلا ، وبحاراً مشحونة بالغرائب وسواحل قاصية أبرزها للعيان فعل الجبال النارية . وخليطا من الاجيال الآدمية التي لم يتم امتزاجها وتسفر اخلاقها عن تاريخ تام .

سن المراهقة هي السن التي يكون فيها التأثر قويا ، فهي التي تنتقش فيها على المخ صورة العالم الخارجي أتم انتقاش وأدقه وعند « اميل » الآن من العلوم الصحيحة — ان لم اكن واهماً — ما يكفي لاشتغاله بالكون وسيؤهله درس الوقائع الكونية المحسوسة لدرس المعقولات فان تعليم فن الالفاظ ومحسنات اللغة لحدث لم يشاهد شيئا بنفسه ويراقبه ويحس به كنثر الزهر في كهف اهـ

الشذرة الرابعة عشرة

﴿ التربية بركوب البحر ﴾

عن ميناء لوندرة في ٣ مارس سنة ـ ١٨٦

في البحر : — تقرر أن يقلع أصحاب السفينة التي تقلنا في يومين وها نحن أولاء ننام فيها من الآن .

ذلك اني كنت قرأت في الصحف الانكليزية منذ ستة أسابيع اعلاناً بأن سفينة تسمى المونيتور تسافر عما قليل الى بلاد البيرو فلم ألبث عند وصولي الى لوندرة ان سألت عنها ولاقيت ربانها في أحواض الميناء

وهو رجل فى نحو الثانية والاربعين من عمره أسمر قصير بادن تؤذن بداته بأن تنتهي بسمن مفرط مع ماهو فيه من عيشة الجد والنشاط ويطرى الناس خبرته ومتانة سفينته ، وانى قلما صادفت وجهاً أطلق من وجهه ولا أدل منه على الذكاء والاستقامة وقد تبين لى انه عرف فى استراليه ربانا جسورا انقطع للملاحة لايعرف غيرها كنت سافرت معه فيماسبق واتخذته صديقافلما علم ان صديق صديقه أقبل عليّ بصدر رحب وقلب سليم وكان من نتيجة هذا التعارف أن اتفقنا على أن اكون طبيباً للسفينة كما كنت لهذا الصديق ، وان يكون « اميل » تلميذا بحرياً فى مدة السفر .

لما سمعت والدته بهذا ارتاعت في أول الامر لما توقعته له من سوء الطالع في ذلك العمل ، فاجتهدت في تسكين روعها مبيناً لها مقاصدى منه .

بلغ « اميل » الآن من السن أكثر من ثلاث عشرة سنة . وأصبح طويل القامة قويّ الجسم يتمتع بصحة تامة من أسبابها فيما أرى نظام المعيشة الذى جرى عليه ، وقد بدا لى أن اشتغاله بتعلم الملاحة فرصة مفيدة لتربية قوته البدنية ، وشد أعضائه وتذليل عضلاته بأعمال تقتضى من المهارة مثل ماتقتضيه من الشجاعة الحقيقية ، فاني وهيلانة ماقصدنا قطعاً ان نجعله واحداً من أجنة العلم الفاسد الذين لا حياة لهم الا في رؤوسهم ، فليعجب من شاء بأولئك المراهقين السقام المخدجين [1] الذين أعجزهم الدرس عن العمل ، فليس هذا هو الكمال

(١) المخدج هو الذى يولد ناقصا بعد تمام مدة الحمل

الذي نطلبه : لاميل »

رأيت الناس في مكان لا يحضرني اسمه الآن يجرحون باطن الصدفة في بعض الحيوانات الرخوة بطرف خنجر ليحملوا هذه الحيوانات على توليد اللؤلؤ بالصناعة فذلك يشبه أن يكون شأن المربين مع أحسن التلاميذ ، فهم يتلفون بناهم ، وينهكون أجسامهم ، ولا أدرى أيّ قصد لهم في ذلك سوى الحصول على مجموع من المعاني تتحجر في أذهانهم تواضعوا على أن يسموها علما !! غير انى فى شك من أن مايحصله المتعلمون من تلك المعانى يعوضهم شيئاً مما خسروه فى سبيل تحصيله من قواهم وما أتلفوه من صحتهم .

ولست أقصد بقولى هذا تثبيط المتعلمين عن العلم فان الانسان خلق ليعلم ، وانما أريد ان يفهموا ان العمل البدنيّ والعمل العقليّ متكافئان فى لزومهما لتقوية العقل واحصافه ، فعلينا ان نربى كل ما وهبه الله لنا ولا نستخف بشيء منه

استشرت « اميل » قبل اعتزامى على هذا الفكر فألفيته مملوء النفس به لانه كجميع أترابه يحب الجديد ويأنس من نفسه فخراً بتعلمه حرفة . ويجب فى هذا المقام أن أبين مرادى ، وهو انى لا أعتقد بحال انَّ من حق أن أختار لولدى عملا تقوم به معيشته ، كما أنى لا أدعى لنفسى حق إلزامه الايمان بعقيدة دينية أو سياسية ، على أنه لم يأت وقت التفكير فى الحرفة التى ينبغى أن يشتغل بها ، ولا أدرى هل يعرف بنفسه مايلائمه من الحرف أم لا ! فان تربيته فى غاية البعد عن نهايتها بل هى فى بدايتها ، ولكنى أرى أنه مهما حذق المربى فى التبكير بانشاء

الطفل على الميل الى النفع والطمع فيه لم يكن ذلك منه عجلة مذمومة ولقد عرف « اميل » مما تلقاه على والدته من الدروس شرف العمل وكرامته فتراه يتخيل الآن انه سيكسب أجرة سفره بتسلقه شُرُع السفينة وهو تخيل غير صحيح الا فى جزئه غير اني تحاميت كل التحامى ازالة هذا الوهم من نفسه وتركت له أن يفخر بأنه يطعم خبزه الجاف بكده و نصبه فان أقل مافى هذا انه مفخرة كنت أكون جديرا باللوم لو اني حرمته منها .

ثم ان التعليم فى سفينة تجارية مفيد ومقو للعقل ، خصوصاً اذا كانت مدته لاتتعدي بضعة شهور ، فحرية الانسان على ظهر البحار هى أن لا يخضع الا الى الواجب فطاعة البحار فى الحقيقة فيها شيء من الاختيار وهذه هي الخاصة الفارقة بينه و بين الجندي ، فالرجل الذي يرى من نفسه الجهل ببعض نواميس الكون فيبدى من قوتها مايكفى لامتثال أمر الربان وهو يعلمه بقول موجز ماجهله من تلك النواميس يكون قد جمع فى عمله هذا بين الاستقلال والحكمة ،

لست أبالغ لنفسى البتة فيما لهذا التعلم من الآثار الحسنة والنتائج المفيدة ، فأنا اعلم أن « اميل » لن يكون بحارا لمجرد مايمارسه من ضروب التمرن فى حبال السفينة ، بيدان بلاءه فى ذلك لايمكن أن يتخلف عنه استفادته منه . فانه بواسطته يتعلم شيئا من أحوال البحر ، وبه يعرف أجزاء السفينة الاساسية وما يطلق عليها من الاسماء ، فكثير من أترابه لايعرفون شيئاً من أمر هذه الدنيا السابحة ،

أخص ما أعنى به في هذا الامر أن يحصل في ذهنه بالاختبار

والمشاهدة معنى من القوى الكونية العظمى وما يلزم للانسان في مقاومتها أو قهرها من ثبات الجأش وحضور الفكر ، وسيكون أعظم درس له في سفره ، ومما لا يسعني إلا أن أضحك منه انني أسمع بعض المعلمين يقولون لغلمانهم المتبطلين الذين ورموا من صغرهم كبراً وغروراً انهم ملوك الخلق ، فهلا وصفوهم أيضاً بأن أيديهم البيضاء الرقيقة لم تخلق الا لتقود عجلة الشمس في أرجاء السماء ؟ رويداً أيها المعلمون قفوا بهؤلاء الملوك امام البحر فانظروا مايعتريهم من الرعب خشية أن تبصق أمواجه الكثيفة في رجوههم .

واما (اميل) فانه لابد أن يتعلم من الآن مايجب أن يبذله الانسان في سبيل سيادته على الفواعل الكونية ، وكيف ينبغي أن يكون معها في كفاح مستمر ليحفظ سلطانه على عرش الماء .

حادثت الربان وهو رجل شهم في شأن ولدي وكاشفته بفكري في تربيته ففهم حق الفهم الدرس الذي أردت تعليمه اياه وهو أن من المفروض على الشبان أن يعتبروا العمل العقلي جزاء العمل البدني ومكافأة عليه .

الشذرة الخامسة عشرة

ما يتعلم في السفينة

في اليوم الخامس من شهر مارس بلغنا مينا جرافسند [١] حيث

(١) جرافسند هي أحدى موانى انكلترة وموقعها في الجنوب الشرقي للوندرة

سلم معرّف التاميز[١] زمام سفينتنا الى معرف الزقاق (البوغاز) الذى أخذ الآن على نفسه ابلاغنا ماوراء النهر .

فى نحو الساعة السادسة من المساء برز الربان على ظهر السفينة وتعهد بنفسه ماشحن فيها من المؤن كالماء والبقسماط وبراميل اللحم المملح واستوثق من سلامتها ثم قضينا ليلتنا على المرساة .

وقرب حد الظهيرة من الغد سارت بنا السفينة تجرها باخرة صغيرة الحجم شديدة القوة تسمى « نلسن » وفى وقت مرورنا حيال منارة « نور » هبت علينا ريح طيبة فأمكنتنا من مد بعض الشُرُع ثم تغير لون الماء فصار ذا خضرة كدراء .

كانت تلك الساعة هي المعينة لنزولى الى حجرات المسافرين لعيادتهم فيها ، وليس القيام بشؤون الصحة فى سفينة انكليزية كبرى من الاعمال (الوظائف) التى يؤجر صاحبها بلا كسب ولا كد ؛ فان « المونيتور » تحمل خمسة وثلاثين راكباً من الدرجة الاولى وقل منهم من يقوى على أول صدمة للبحر عدو الانسان ويكون آمناً من العثار ، فلم ينج من مرضه الا هيلانة وامرأتان أخريان أو ثلاث .

وفى اليوم الثامن من الشهر بلغنا حوالى الكثبان فألقى معرف البوغاز مقاليد السفينة الى ربانها . ونزل بالساحل ثم رجعت الباخرة الجارة بعد ابلاغنا هذا المكان من حيث أتت ووكلتنا الى قوانا أي الى شُرُع سفينتنا ، ولما رأى المسافرون والملاحون ان هذه البقعة هي

(١) التأميز نهر من انهار انكلترة يمر باكسفورد ولوندرة ويصب فى بحر الشمال

آخر موقف يؤذن لهم فيه بالاقتراب من البر حمل كثير منهم المعرّف رسائل لاصدقائهم تتضمن بالبداهة آخر وداع لهم .

جاء دور البحارة الآن في العمل فمدوا أيديهم اليه بهمة واقدام ، واشتغل الضابط الاول والثاني للسفينة بترتيب الحرس ، فعينا لكل حارس عمله ثم تدلى من جميع السوارى وهي في نصف ارتفاعها انسجة طويلة نفختها الريح وصفقتها ، فانشأت السفينة تميد وكأنها شعرت باستقلالها من وقت ان ثابت اليها أجنحتها ، وكانت قبيل هذا تبدو عليها علائم الكآبة والخجل ان ترى مقودة بغيرها .

أديرت على الملاحين كأس من خمر عسل السكر استحقوها كل الاستحقاق بكدهم ونصبهم .

مما عرفته من الاماكن في مسيرنا (بيشى هد) وهو رأس في أميربة (فونتيه) صاسقس وجزيرة وايت وستارت بوينت . وقد صار الماء الآن ذا نضرة بهيجة تطفو على سطحه أعشاب بحرية تشبه التين الطويل . صادفتنا سفينة راجعة الى انكلترة فخاطبناها بأعلامنا الملونة وسألناها بهذه اللغة السرية أن تبلغ سفر سفينتنا مكتب الملاحة لشركة ليود .

انتهينا من اجتياز الزقاق (البوغاز) فخرجنا منه وكان الجو صحواً فصعد المسافرون على ظهر السفينة لاستنشاق النسيم البارد

فلما رأيت اللج مرة لم يكن مرآه فيها مثاراً للعجب في نفسي ، ولكن أخص ماشغل ذهني منه الآن هو جملة العلوم التي استفادها الانسان من ممارسة البحر : انظر الى النظام الكوني تجد علم الهيأة

الذي يبحث فيه عنه انما تولد من الملاحة ، فانه لولا ان حاجة الانسان الى الاهتداء فى سيره على ظهر البحار دفعته الى درس الفلك لكان من المحتمل أن لا يخطر بباله أصلا أن يتقصى سراً من أسراره ، فاحتياجه الى السعي فى طلب الغنى هو الذى اضطره الى قياس الزمان والابعاد قياساً مضبوطاً ، فترى الملاح الساذج مع أنه لا يعرف القراءة حائزاً بالتحقيق لكثير من العلوم العملية سله ان شئت وليكن ذلك عن بعض الامور الطبيعية تجد كلامه فيما يرجع الى ما قرره العالم الذى قضى سنين كاملة فى دار من دور الكتب . واذا كنا الآن قد أنشأنا نظن أن للرياح والزوابع قانونا فانما كان ذلك بسبب ما جمع من ملاحظات البحارة المختلفين فى السفن الموزعة على جميع البحار فأصبح أشد الفواعل الكونية استعصاء على الضبط منقادا الى قانون .ودخل أبعد الحوادث عن النظام فى نظام العلم العام وكشفت المسابير اغوار قعر المحيط وقفاره المفروشة بأسلاب فرائسه وأضحي الآن من الميسور رسم خريتة لتيارات البحر السفلية ثم ان الفضل فيما عرفناه من العلوم الصحيحة عن شكل العالم راجع الى الملاحين .

خلق البحر مثالا للازل لانه مثال للحركة فشهد تولد اليابسات المتعاقبة وانعدامها وارتفاع الجبال وما وقع على مر الدهور من ضروب فعل الارض وانفعالها مما لا يزال يرتجف منه فؤاده ، وهو اليوم كما كان فى مبدإ العالم لا يعتوره نصب فى جهاده وجلاده ، فتراه يعض بعض سواحله ويقرض مايقاومه من الصخور الصوانية ، ويقتلع بعض أجزاء الارض من أماكن مختلفة فينقلها من أحد نصفيها الى النصف

الآخر ليبنى بها سواحل جديدة وجزرا ورءوسا لا بد أن يهدمها بعد وبدأ به على العمل يتحول من مكان الى مكان على تعاقب العصور بالقوة الساكنة التى توجد فيما لا يموت من الاشياء ، وكما انه رحم للخلائق العضوية الاولى هو أيضا أكبر مستودع للحياة .

من المحقق الذى لامرية فيه أن ممارسة البحر قد وسعت دائرة علومنا ، ولكنا قد استفدنا منه ما هو أجل من العلم نفسه ، الا وهو ما يتحلى به الرجال من الفضائل التى ينميها فى النفس الجهاد مع المحيط المخوف فلو لا هذا الجهاد لما عرف الانسان شيئا يستحق المعرفة ، فما أمثل الملاحة طريقة للتربية ؛ فذلك المربى القاسى العبوس وأعنى به البحر يبث كل يوم فى أذهان غلمانه الذين يتغذون بلبان معارفه أن النفوس متساوية ، وان الفلاح انما هو فى الاعتماد عليها ، ويعلمهم من البسالة ما لا تزعزعه الخطوب ، ومن الصبر ما يقوون به على احتمال كل ضروب الحرمان واقتحام جميع المخاطر ، ومن ذا الذى فى وسعه أن يصف ما آتي الجنان من الثبات ، وما ألبس النفس من درع القوة وهو وان غلبه الملاحون بمثابرتهم على قهره وثباتهم فى طلب الظفر به ، يحق له فى نفس هذا الغلب أن يفخر بغالبيه فانه هو الذى أنشأهم وهم تلاميذه .

الشذرة السادسة عشرة

﴿ التربية بسفر البحر ﴾

يوم ١٤ مارس سنة ١٨٦

اضطرتنا الريح الى أن نجتاز خليج بسكاى [1] وقد أكد لي الربان أنه وأمثاله يتحامون ما استطاعوا التورط فى هذا المجاز الذى يهاب اسمه الملاحون أنفسهم، وهو على شدة تلاطم الامواج فيه لم يعق السفينة عن المسير . وربما حدا بي ذلك الى اعتقاد أن من البحار ما هو كبعض الناس فى كونها أمثل مما اشتهرت به .

منذ بضعة أيام أتيح لى فراغ من عملى فشغلته بدرس سفينتنا فاذا هي دنيا صغرى تطفو على الماء جعلتها جميع العلوم والصناعات ميقاتاً لاجتماعها . ترى الملاح فيها يلجئه عوزه الى استئناف التمدن كل يوم فكأنه روبنسن [2] فى جزيرته يخترع معظم الفنون النافعة ليستفيد منها ، ذلك أنه لخلوه من الصاحبة يتولى بنفسه غسل ثيابه وفراشه واصلاحها . وتدلك نظافة حجرته دلالة كافية على ماسيكون عليه بيته الخلوىّ فى مستقبله فقد أوتي هذا الليث البحرى من غرائز العناية بالبيت ما أوتيته النملة .

---

(١) خليج بسكاى ويسمى ايضاً خليج قشقونى هو خليج فى المحيط الاطلنطيقى واقع غربى فرنسة وشمالى اسبانية (٢) يومىء الى روبنسن كروزو صاحب القصة المشهورة الذى كان فى جزيرة مقفرة يخترع كل مايحتاج اليه من امر المعيشة

من مزايا السفينة أيضاً أنها تؤدى الى كل من تتاح نفسه للعمل من ركابها عملا يشغله، فقد عاود قوبيدون الاشتغال بالطهاية التى سبق له أن شرف باجادتها فى أسفار سالفة وجعلت زوجته قهرمانة[1] واختصت هيلانة بمساعدتي فى التمريض وبالعزف على البيانو تسرية للسآمة عن المسافرين وتقوية لقلوبهم وقلوب الملاحين أنفسهم الذين يجتمعون كل ليلة على السطح لاستماعه.

جاز «اميل» التمرينات الاولى وصارت قدمه قدم بحار وأنشأ يتسلق سلالم الحبال التى على جانبي السفينة وهو يؤدى الاعمال التي يعلمه الملاحون تأديتها بما يكفى من الحذق المنتظر من غر مثله. ومعيشة المتعلمين البحريين أمثاله فى سفينة تجارية على ما فيها من النصب والعناء معيشة صحية، فان تعرضه لنسيم البحر يشهي اليه الطعام حتى انه ليكاد يلتهم حوتاً من الحيتان المسماة بالكلاب البحرية لو قدم اليه، ولله خفته ونضارته فى قميصه الازرق ذى الطوق المنكسر الذى يبين نحره: جاءني غدوة اليوم إثر عمل شاق بالنسبة لطفل مثله وألقى برأسه بين ركبتى وهو يتصبب عرقاً فأحببت ان أشجعه لا أن أطربه لان الاطراء هو سم النفوس يفرط فيه الآباء لابنائهم بما يبعثهم عليه من الرحمة العمياء فهم بذلك يعودونهم ارضاء غيرهم، وكان حقاً عليهم فى رأيى ان يعلموهم ارضاء وجدانهم. من أجل هذا اقتصرت على ضم ولدى الى صدرى وتقبيله غير انى أحسست حينئذ بالعبرة فى عينى وهو على كل حال قد اعتبر هذه الملاطفة منى مدحاً له لانه انصرف من عندى للمضى على عمله مملوء

(١) القهرمانة الوكيلة

القلب بالفرح ولا إخال أحدا ينكر استحقاقه لهذا المدح أيـــ
لتلك الملاطفة .

ليس فى السفينة أحد الا وهو يهتم بأن يكون نافعاً من جهته حتى « لولا » فقد فاجأتها بالامس و بيدها كتاب كانت تطلع عليه طفلة فى الخامسة من عمرها اتخذتها صديقة وتعلمها فيه الهجاء . اه

الشذرة السابعة عشرة

طريقة صيد خنازير البحر

يوم ٩ مارس سنة ١٨٦

نحن الآن تجاه جزيرة (ماديرا) تجرى بنا السفينة بريح طيبة كانت من بداية سفرنا تهب من الشمال الشرقي وقد أحدقت بنا فى هذا المكان قطعان عديدة من الخنازير البحرية وأنشأت تمرح فى الماء وتلهو بالزبد المتخلف على غوارب الامواج من انشقاقها بحيزوم السفينة فى مسيرها فبادر جميع الركاب الى السطح لمشاهدتها وكان من « لولا » لما رأتها ان قالت : ويكأن هذه الحيوانات مغتبطة بعيشتها وكأنها لم تصب بمرض البحر فى حياتها .

استعد ضباط السفينة لصيدها فوقف أحدهم عند السارى المقدم ورمى خطافاً كان معه على واحد منها ظن ان أصابته أيسر وحينئذ جر الملاحون الحبل المعلق به الخطاف وهم فى هذه الحالة يجب ان يكونوا

خفاف الايدي أشداء السواعد والاوجد الخنزير المصاب وسيلة للرجوع الى الماء والانفلات من أيديهم وقد نجحوا في الرمية الثانية فاصطادوا أحدها ومما شاهدته فيه ان كبده يشبه كبد الخنزير البري ولحمه أقل جودة من لحم الثور على انه يحضره في الذهن ان لم يكن بطعمه فبلونه لانه أحمر ضارب الى السواد ويستخرج من لحمه زيت جيد للاستصباح يستعمل في السفينة اه

الشذرة الثامنة عشرة

﴿وصف مايرى في البحر من المشاهد الطبيعية﴾

يوم ٢ مارس سنة - ١٨٦

نحن الآن مارّون أمام الجزائر الخالدات وان كنا لم نرها — وهي مرتسمة على سطح الماء المتسع — الا كرؤيا الحالم ، وقد اضطرتنا الرياح المتناوحة الى التوغل في المحيط .

اننا منذ سفرنا نشعر بارتفاع الحرارة ارتفاعا عظيما غير أن هذا اليوم هو أخص يوم أحسسنا فيه بدخولنا اقليما غير اقليمنا حتى ان « لولا » نفسها على مابها من شدة التأثر بالبرد خلعت ثياب الشتاء وارتدت ثوبا ورديا .

كان غروب الشمس بالامس من أجل المناظر وأبهاها ، وكان الليل مهيباً والقبة السماوية المظلمة تزهو بلآلىء النجوم التي هي كالرمل عدا

ومالى وذكر أسمائها فلا فائدة فى ذلك ويكفينى أن أسميها بالنور .
ومما ميزناه منها الزهرة التى مع كفها عن دعوى الالوهية واقتناعها بأن تكون فى مصف الكواكب لم يضل عنها ميلها الى التغنج النسوي فلا تزال تحب أن ترى نفسها فى مرآة البحر .

فى نحو الساعة الرابعة أو الخامسة من الغداة انشق النطاق الاسود الذى كان مشدوداً حول الافق يلأم السماء بالماء رويداً رويدا ، ثم بدا من بين حافتيه ضوء مخضر يحاكى ماء البحر فى لونه فانتشر على الامواج وهو ضوء الفجر ، وساعة طلوع الفجر فى العروض التى نحن فيها الآن من الساعات المشهودة على قصرها وقصر مدة الشفق أيضاً فانه يخيل للرائي فيها ان العالم بأسره مضاء بالكهرباء وربما كان قصر مدة الشفقين سبباً فى ذلك .

مما حملناه معنا فى السفينة ديك صغير وضعناه مع دواجن أخرى في أحد أقفاصها أسمعنا صياح التنبيه والايقاظ ثلاث مرات فكان لصوته الشبيه بصوت البوق تأثير محزن قابض على نفوسنا بسبب أحوال الغربة التى نحن فيها ، وكان يسري الى القلوب بلا عائق لانه كان يذكر المسافرين بأوربتهم القديمة وأرضها ، ومعيشة المزارع وما يعالجه المزارعون من الاعمال الشاقة

ثم تتابع امحاء الكواكب من السماء فأخذت تنطوي فى أعاليها وتصطبغ باللون الازدرختى

ثم أشرقت الشمس فاذا الامواج أنفسها وقد ملكها الاجلال وتولاها الاعظام ، يخيل للناظر انها خشعت لهذا الينبوع الذى هو

مصدر الضياء والحياة، وصارت السماء كلها جذوة نار ، وترقرقت سبحات من النور الذهبيّ على صدر المحيط الذى نهدت منه الارض بالتدريج تتلألأ بهاء ونضرة .

لم يقع بصرى على « اميل و « لولا » معاً الا فى هذه الساعة وحدها من النهار . رأيتهما جاثيين جثية عبادة واستغراق فى المشاهدة فليت شعري هل اقترب كلاهما فى تلك الساعة من ادراك معنى الالوهية بمراقبة جمال الكون وبهائه ؟ . اه

الشذرة التاسعة عشرة

« وصف الاسماك الطيارة وكلاب البحر »

« وطريقة صيدها وضوء الماء ليلا »

نحن الآن سائرون تحت خط السرطان . ويرى على « لولا » انها لغرارتها تقلب وجهها فى السماء تفتيشاً عن ذلك الحيوان البشع الشبيه بالسرطان البحريّ فى شكل أرجله كما هو مرسوم في التقاويم التى جعل فيها من علامات منطقة فلك البروج وهي بذلك تستهدف لسخرية « اميل » وزرايته .

تجرى بنا السفينة بأقصى سرعة لها تزجيها رياح شديدة وقد مدت جميع شُرُعها فجعلت حبالها تصر صريرا . ذلك انا أردنا اغتنام هذه الرياح الانقلابية [1] التى يسميها الانكليز رياح الشمال

---

(١) الرياح الانقلابية هى التى تهب بين دائرتى الانقلابين من منطقة

الشرقيّ التجارية .

يتدرج النهار في النقص ويكاد الآن يساوي الليل

تنقذف من باطن المياه أسراب كالغيوم من السمك الطيار وتسف سفيف الخطاف فبينما كان أحد الملاحين البسلاء يوقد مدخنته (عود دخان التبغ) البارحة اذ لطمه جناح بارد مندى على خده فتولاه من ذلك دهش عظيم ، ثم التفت حوله فاذا هو بسمكة من هذا الصنف تحت قدميه على ظهر السفينة ويندر أن تصل أمثالها في انقذافها الى هذا الارتفاع وانما جذبها اليه ضوء المدخنة .

أخوف سكان البحر الاخري التي لم يرها « اميل » حتى الآن وأهيبها بلا نزاع كلاب البحر ، وللملاحين في صيدها نوع من الحماسة والنخوة ، وقد اصطادوا غدوة اليوم واحداً من هذه العفاريت - كما يقولون لانهم أطلقوا عليها أبشع الاسماء كلها - وذلك بواسطة هبرة من لحم الخنزير زنتها نحو خمسة أرطال ألقوها اليه ، وكان منظر صيدها مؤثراً فاسترعى أبصار جميع المسافرين وبعثهم على الصعود الى ظهر السفينة لمشاهدته ، وكان أول عمل لهم بعد صيده أن بتروا ذنبه بفأس وهو احتياط أراه ضرورياً على مافيه من القسوة ، لانه شوهد غير مرة أن اغفاله كان سبباً في أن يكسر بذلك الطرف المرن ساق بعض القريبين منه أثناء معالجته التفلت من أيدي صائديه . ويأكل الملاحون أحياناً صغار كلاب البحر غير انهم يقرون بألسنتهم أن لحمها غير جيد وهم اذا قتلوا هذه الحيوانات فانما يبعثهم على قتلها مجرد بغضهم لها .

فلك البروج

ولشد ما يؤذونها بسبب هذا البغض ، وحجتهم فيه أن ما يصطادونه ويقتلونه منها التقم فلاناً أو فلاناً من أصحابهم ، فان لم يكن هو الذى التقمه كان أخوه أو أحد أقاربه . ولقد حاولت صدهم عن ممارسة هذه الالاعيب الوحشية مبيناً لهم ان الانسان لا ينبغي له أن يعذب عدوه بعد غلبه ، فذهب نصحي أدراج الرياح ولكني آمل ان لا تفوت « اميل » هذه العبرة .

تبقى لكلاب البحر بعد موتها فى السفينة رائحة خبيثة لا تزول الا بعد بضعة أيام وهكذا الاشرار يؤذون حتى بعد موتهم من يسعون لخلاص الناس من شرهم .

قلما يفهم الاطفال من القوانين شيئاً الا قانون القصاص . ذلك أن الملاحين اصطادوا دلفينا [1] عشية اليوم الذى اصطادوا فيه كلب البحر فما كان من « لولا » الا أن قالت وهي تنظر اليه نظراً يشف عن الرحمة « لقد استحق هذا فانى رأيته التهم كثيراً من الاسماك الطيارة الجميلة » .

لقد صدقت فان ما التهمه منها لم يكن الا لقمة واحدة من لقمه وان سنة الله فى خلقه أن من أكل أُكل ، وقد أثبتها الملاحون لما بجعله عشاء لهم ، ولحم هذا الحيوان اذا غلي فى الماء كان فيه شيء من الجودة الا أنه يكون ناشفاً .

فى نحو الدرجة السادسة عشرة والدقيقة الثلاثين من العرض الشمالي أنشأنا نرى فى السماء برجاً جديداً يسميه الملاحون صليب

(١) الدلفين صنف من خنازير البحر

الجنوب وهو مؤلف من خمسة نجوم .

وعجيبة أخرى أبصرناها فى ذلك المكان وهي أن المياه تضيء ليلا وقد راع منظرها « أميل » و « لولا » فلم يستطيعا أن يفيقا من التلذذ بجماله وان كان قد بعث فيهما شيئا من الخوف فان كليهما سألنى من ذا الذي أوقد النار فى البحر ففسرت لهما بما فى وسعي ما أعلمه من أسباب هذه الحادثة التى لم تعلم تمام العلم وقد علل العلماء وجود هذا الضوء فى الماء بوجود حيوانات مضيئة تشبه النباتات فيه .

كان ذلك النور من شدة سطوعه بحيث ان « اميل » تناول كتابا من جيبه وقرأ فيه على انعكاسه عن الامواج الملتهبة هذا البيت من قصيدة لشكسبير وتعريبه :

خير حزء فىّ روحي وهي بالتحقيق روحك

نعم ان الله (سبحانه) لم يفض علينا جميع روحه وما أقل ما أفيض علينا منه غير أن هذا القليل الذى يهبه لنا يتصل بروحنا اتصالا حقيقيا (١)

والذى يدهشنى من حادثة ظهور الضوء فى البحار انها تقع عادة فى أحلك الليالى . اهـ

---

(١) يعنى بالروح الالهىّ مابه حياة الخير والفضيلة والحق وهذا شيء من الله ليس لغيره صنع فيه فأضيف إليه

الشذرة العشرون

(طريقة صيد السلاحف البحريه)

يوم ٣ ابريل سنة — ١٨٦

صرنا تجاه الرأس الاخضر ولما رأى الملاحون سكون الريح في هذا المكان أدلوا قواربهم وسبحوا لصيد السلاحف البحرية ، وهذه السلاحف من عادتها أن تظهر قريبا من سطح الماء فتكون كانها نائمة فوقه ، فتصطاد بنوع من السهام له أربعة اسنان يسميها ملاحو الانكليز بالحبوب وكل ما يصاب منها بتلك السهام يجذب بعد صيده الى القوارب بواسطة حبال تكون في أيدي الرماة ، وقد رأيتهم اصطادوا منها في ساعتين ثمانى ، زنة كل منها من خمسة عشر الى خمسة وأربعين رطلا انكليزيا .

الشذرة الحادية والعشرون

(فخامة منظرى الشروق والغروب فى بعض الجهات)

يوم ٤ ابريل سنة - ١٨٦

أعوزتنا الرياح الانقلابية التى كانت مواتية لنا أحسن المواتاة على جرينا فى فضاء المحيط وعوضنا عنها الآن رياحا خفيفة متناوحة تهب على التعاقب من جهات مختلفة للافق ، وانتقبت السماء في مواضع

متفرقات منها بسحب بيضاء وسفرت فى مواضع أخرى بزرقة شاحبة جميلة . وللشمس فى هذا المكان شروق يخطف الابصار ضياؤه فلا تقوى على احتماله وأما غروبها ففخم جليل . اهـ

الشذرة الثانية والعشرون

« أفاعيل الملاحين عند الاقتراب من خط الاستواء »

يوم ٩ ابريل سنة — ١٨٦

تمطرنا السماء شآبيب ووابلا حاراً وكل مانراه يؤذن باقترابنا من خط الاستواء فترى الملاحين على ظهر مقدم السفينة مشتغلين بوضع لحى كاذبة لهم وتغطية رءوسهم بعوار من الشعر، وارتداء ثياب بشعة ، حتى انه ليخيل للرائى أنهم فى أمس عيد المرافع ، ويشهد « أميل » هذه الضروب من الاستعداد شهادة الخائف لعلمه حق العلم بماسيلاقيه ، فأن كل تلميذ بحريّ لم يجتز خط الاستواء لابد أن يقتحم صنوف بلائه ومحنه كما هي العادة ، فلاتزال شعائر الملاحين القديمة متبعة وان كانت قد فقدت كثيرا من مظاهرها الصبيانية الوحشية التى كانت تجعلها مخوفة جداً فى قلب المبتدىء فى الملاحة . وعلى كل حال فالملاح طفل ولولا ذلك لما لاعب المخاطر ملاعبة الباسل المقدام .

الشذرة الثالثة والعشرون

« سرعة تغير الاقليم فى بعض الاماكن ، الاعاصير المائية »

يوم ١٣ ابريل سنة — ١٨٦

اصطبغ « أميل » بالعمودية البحرية فصار الآن من أولاد آله البحر . حالة الجو فى اختلاف وتغير فمن رياح شديدة الى سكون عام ومن مطر هتان الى شمس محرقة ترمى رءوسنا بسهام اشعتها العمودية

لفتنا الربان الى اعصار من الاعاصير المائية التي يخشاها الملاحون بحق فرأيناه من مسافة بعيدة ، وأكثر ماتثور هذه الاعاصير في جهة خط الاستواء . اهـ

الشذرة الرابعة والعشرون

« تبادل السفن صنائع المعروف »

يوم ١٥ ابريل سنة ١٨٦

صادفتنا سفينة قافلة من الهند أو من الصين الى بريطانية العظمي وآذنتنا باشاراتها أنها مستعدة لحمل ماتحملها من الكتب ، ولما كان تبادل صنائع المعروف مما تحفظ به المودة فى البحر أرسلنا لها بعض صحف انكليزية مضى على نشرها ستة أسابيع ، ولكن أخبارها يكون لها من الجدة عند ركابها مالصحف الصباح عند سكان لوندرة ، وكتبت وكتب

« أميل » كلمتين لصديقنا الدكتور وارنجتون

الشذرة الخامسة والعشرون

« موت أحد الملاحين والاحتفال بجنازته فى السفينة »

« وبيان الحقيقة فى سبب تأثر الاطفال بفاجعة الموت »

يوم ٣٠ ابريل سنة — ١٨٦

تتناقص الحرارة ويتدرج الهواء فى البرودة لاتناصرنا فى خط الجدى منذ يومين آلم نفوسنا فقد واحد من رجالنا

ذلك أن قطعة من قطع الاخشاب المنحرفة الوضع المستعملة فى السفينة لشد حبالها لم يكن ربطها وثيقاً فأتت عليها نفحة من الريح فهوت بها على السطح فصادمت فى هويها رأس ذلك الملاح وهو قائم على الحراسة فلم آل جهداً فى تجريب جميع الوسائل الفنية لايقاظه وتنبيهه ولكنى لم أفلح لانه لم يبق فيه أدنى علامة على الادراك ، فسرى الوجوم فى السفينة لان هذا الملاح الباسل كان محبوباً عند رفقائه ، وصاح الربان بصوت أجش وقد بدت على وجهه آثار الحزن مع انتقابه بالتجلد بأن تنقل الجثة الى غرفته .

استولى سكون الحداد على السفينة فما كنت ترى على ظهرها الا أنظاراً تشفت عن الاسى ووجوها نكرتها الاشجان وأسدل الليل على البحر بالتدريج حجب ظلماته كلها وأرخى عليه سدول أحزانه

فما رأيته قبل تلك الليلة بهذا المقدار من العظم والكآبة وكانت الامواج باصطخابها تشكو شكوى الاحياء من مضض المصيبة حتى خيل لى أنها نفوس تناجى نفوسنا .

وآرباه ! ما كان أشأم هذا الصخب المتقطع الناشئ من ملاطمة الامواج لالواح سفينة تقل ميتاً .

أقبل النهار وأدبر الليل بيد أن أضواء الشمس فى اشراقها لم تقو على قشع ماغشى النفوس من سحب الاكدار الليلية فبقيت جميع القلوب متلوجة متبلدة بضرب من الهول ، ذلك أن وجود الميت فى بيت يبث فيه على الدوام لحزن مشوبا بالاجلال والرعب ، والسفينة بيت مضطرب فما يسهل انفصامه من عرى المودة بين من تطاوحت بهم النوى من العائشين فى البر يتأكد بين العائشين فى السفينة بسبب اشتراكهم فى الحاجات والمخاطر .

تخلف يعقوب فى ذلك الصباح عن اجابة داعي الشمس المشرقة وعهدنا به أنه كان على الدوام أول من يسمع دويّ صوته الشديد على ظهر السفينة فاصبح وقد قضى عليه أن لايكون هو الصائح بكلمة « تمام » .

كان من أسباب اشتغال قلوب المسافرين والملاحين بالحزن أيضا ارتقابهم لما كان قريب الوقوع من دفن الميت ومع كون أعمال التجهيز كانت تؤدى فى سكون كأنها من وراء حجاب كنا نختلس الملاحين فى بعض الاماكن روحات وجيآت خفية وقد أحدث السفينة بتنكيس الاعلام التى تزهو ذروتها عادة بارتفاعها فوقها فخراً بالامة المنتسبة اليها

وفي نحو الساعة العاشرة برز الربان على ظهرها ثم أقبل على ملاحيه وقال بصوت منخفض قد حلت ساعة النحس فعلىّ بالربان الثانى وأخبروه بأننا مستعدون ويعلم الله مقدار مايشق عليّ من تأدية هذا الفرض ولـكن من الواجب القيام بالواجب .

رتب الملاحون أكوام الحبال التى كانت تعوق السير بتبعثرها على سطح السفينة ورفعوا أحد الاجزاء التى تتألف منها جدران السفينة فكان من ذلك نافذة شبيهة بالكوة كنا نرى منها البحر يتراوح بين الصعود والهبوط .

كان ناقوس السفينة يطن فيحدث عن طنينه المؤلم اذا انتشر على وجه الامواج أثر محزن يغادر جميع القلوب واجفة .

لما كانت السفينة خلواً من القسيسين كان من العادات المضطردة فى مثل هذه الحالة بانكلترة أن يعهد بصلاة الجنازة الى ربانها . من أجل ذلك أخذ الربان مجلسه وهو مكشوف الرأس وبين يديه كتاب مفتوح والتفت عليه حلقة من المسافرين والملاحين يحفهم الوقار والخشية على تشوش هيأتهم وأوضاعهم ينتظرون البدء في الشعائر الدينية .

أشار الربان الى رجلين من الملاحين بأن يهبطا من أحد سلالم السفينة الضيقة فلم يلبثا أن صعدا يحملان الميت على نعش كبير متقب وقد لف في قطعة من نسيج الشراع خيطت عليه وكان من الميسور تقدير ثقله بما كانا يعانيانه من الجهد في حمله . ذلك ان العادة تقتضى في مثل هذا المقام أن يوضع في الكفن مع الجثة قذيفتا مدفع (القذيفة الكرة التى تقذف من المدفع) احداهما عند رجليها والاخرى

عند رأسها .

مابرزت هذه الصورة المشؤمة من سدفة السلالم (السدفة الظلمة المختلطة بالضوء) حيث كانت تبدو منها ببطء حتى اقشعرت لمرآها أبدان الحاضرين وقد بسط على صدر المتوفى علم من أعلام السفينة عليه شارات السفن الانكليزية .

أنشأ الربان يتلو صلاة الجنازة بصوت شديد معتاد الامر والنهي، غير أنه كان يعتوره اللين حيناً بعد حين فتتخلله نغمات ضعيفة مهتزة كأنها تنبعث من القلب ، وكان مايحصل في نفسه من التنازع بين التمالك والسكينة التي يراها لازمة لكرامته من حيث هو رجل وبين عاطفة الرحمة التي كان يكاد يبدي بها — يكسو وجهه هيأة غريبة جمعت بين القسوة والرحمة .

وكان كاتب السفينة يتلو في ذلك الكتاب عينه الحكم الانجيلية وما كان يسع أحداً من السامعين أن لا يعترف بشيء من الجلال لهذا الضرب من التحاور في معنى الموت بين رجلين مستهدفين في كل يوم لآلاف من المعاطب قد شهد كلاهما كثيرا من اخوانهما يتخرمون من حولهما ويثوون في ظلمات البحر السرمدية .

هذا الذي كانا يتناوبان تلاوته لم يك يشبه الصلوات بحال (فالكنيسة الانجليزية لا يصلى فيها قط على المتوفين) بل كان عبارة عن فكر مأخوذة من التوراة في معنى قصر الاجل ومصوغة في قوالب تشبيهات شعرية كتشبيه الحياة بعشب البوادي يخضر في الصباح ويذبل في المساء أو بالظل يسرى على الماء ، وتشبيه جمال الرجل والمرأة

شوهته السنون بثوب أكلته الارضة . وكان جميع الحاضرين يفهمون نص هذه العبارات المعبرة لانه كان مترجماً الى الانكليزية .

على ان الساعة الاخيرة قد اقتربت فكف الربان عن التلاوة وأخذ يرقب عظم اتساع السماء والماء ثم صوب بصره آخر مرة الى ذلك الشيء وهو مدرج فى نسيج يعرف الناظر اليه من خلاله شكل آدميّ معرفة مبهمة وقد وضع على شفا الفوهة التى صنعت فى جدار السفينة ليلقى منها فى البحر .

ولم تكن الا اشارة من الربان ان سمع صوت غليظ رخو لسقوط رجل ميت فى البحر فشوهد للامواج فوران شديد فترجرج خفيف فدوائر من الماء متداخل بعضها فى بعض فلا شيء .

التأم الآذيّ (الموج) على الجثة كما يلتئم بلاط اللحد ، وقال الربان بصوت خنقته العبرة والانفعال : أنت فى وديعة البحر

كنت فى كل المدة التى استغرقها أداء هذه الشعائر أرقب « اميل » حيناً فأجده شديد التأثر وأما « لولا » فكنت أراها باكية .

يرجع تأثر هذين الغلامين الى سببين أولهما ان تجهيز الميت كان مقروناً بما يهز القلوب من الوقار والهيبة ، ثانيهما انهما لم يكونا شهدا الدفن قبل هذه المرة لجهلهما الموت حتى هذه الساعة . نعم انهما كانا يعرفان بالتحقيق ان كل شيء صائر الى الفناء ، فقد شهدا حيوانات تزول واخواناً يتخطفون من حولهم غير انى فى شك قويّ من كثرة اشتغالهما بهذه الطوارئ الطبيعية ووقوفهما بالفكر عندها ، والانسان لا يعرف الامور معرفة صحيحة الا اذا فكر فيها بنفسه ، ولا أعدم

واىما يلقى عليّ تبعة هذا الجهل لانى أعلم أنه كان ينبغي من أجل انشاء «اميل» على الاصول القديمة التى يحبها ذلك الواهم أن أربيه على الخوف وأن أحيط له الحياة في مواعظي بوعيد القبر ومخاوف الخلود ، ولكن ماحيلتى اذا كنت لم أجد من نفسى اقداما على ذلك فانى رأيته كثير الاغتباط بالحياة فصرفت جل عنايتي في تحبيب الواجبات الى نفسه لا في دناءة التخويف من عقاب الآخرة أو التأميل في مثوباتها الغيبية .

المواعظ المحزنة لاتربى الوجدان بل تكدر صفاءه وتزعجه ، فواشوقاه الى الساعة التى يتأثر فيها اليافع بمشهد الموت فيأنس من نفسه الحاجة الى سبر غور ما قدر له فى أخراه (١)

الشذرة السادسة والعشرون

أقاليم البلاد فصول ثابتة كما ان فصول السنة أقاليم مرتحلة

(يوم ٦ مايو سنة ١٨٦)

الرياح باردة والسماء كدراء وتزعم «لولا» أن سفرنا استغرق الربيع والصيف والخريف رأتنا داخلون فى الشتاء وحقيقة الامر هي ان أقاليم البلاد فصول ثابتة كما أن فصول السنة أقاليم مرتحلة .

---

(١) ما كرهه المربى لولده من انشائه على الخوف من العقاب والرجاء في الثواب غير مكروه ووصفه هذين الامرين بالدناءة غير صحيح وأمله في ان ولده يسبر غور ماقدر له فى أخراه وهم ظاهر وخدعة زينها له شكه في اليوم الآخر

صارت الامواج من الثقل والضخامة بحيث أصبح مسير السفينة شاقا وقد هبت علينا ريح خبيثة فهي ترفعنا الى الشرق نحو جزائر فوقلند[١]

الشذرة السابعة والعشرون

وصف بعض انواع الطيور التى فى بوغاز ماجلان وطريقة صيد نوع منها

يوم ٧ مايو سنة ١٨٠

اقتحمنا مدخل زقاق (بوغاز)ماجلان[٢] وهو مجاز خطر ورأينا هناك طيورا يسميها الملاحون حمام الرأس الواحدة منها فى حجم البطة البرية أحد نصفيها أبيض والثانى أسود وكانت تحوم حولنا أسرابا وتصطاد بشباك تمد على كوثل السفينة (مؤخرها) فتنشب فيها أجنحتها فى غدوها ورواحها عليها وتتورط فلا تستطيع انفكاكا .

وشاهدنا طائرا آخر أثار التعجب فى نفس « أميل » بعلو قامته وارتفاع طيرانه وهو المسمى بالبطروش[٣]

(١) جزائر فوقلند هى أرخبيل فى المحيط الاطلانطيق شرقى بوغاز ماجلان مملوك للانكليز (٢) زقاق ماجلان واقع بين بتاغونيه وتيردوفو « أرض النار » اكتشفه رحالة برتغالى اسمه ماجلان وهو أول من بدأ بالطواف حول الارض .

(٣) البطروش طائر من فصيلة الطيور الراحية الارجل يعيش فى بحار استرالية .

الشذرة الثامنة والعشرون

كثرة الزوابع فى رأس القرن

يوم ١٠ مايو سنة — ١٨٦

رأس القرن حقيق بأن يسمي رأس الزوابع فقد هاجت علينا فيه هيجة خلنا فيها أن المحيط بأجمعه ينيخ بكلكله على سفينتنا الضئيلة على أنها تقاوم وتجرى مع مايلاطمها من الامواج ويتقاذفها من المهاوي لا يقعدها عن ذلك زمجرة البحر فهو بهيمة كبرى وجدت من يروضها .

الشذرة التاسعة والعشرون

« شجاعة الملاحين وتفضيلها على شجاعة الجنود »

« وبيان انها تكتسب بالتعلم »

يوم ١٤ مايو سنة - ١٨٦

انتهينا من الطواف بالرأس ولكن ما أعظم مابذلنا فى سبيل ذلك من الجهد وما أشد ماعانينا من المشاق فقد كانت الريح تزفزف ثلاثة أيام وثلاث ليال زفزفة بلغت من الشدة الى حد أن سارى سفينتنا الاكبر كان فيها يتنود تنود القصدة من يبس الحشيش

لم يكن يؤلمنا على ظهر السفينة سوى أيدى البحارين فى ممارسة أعمالهم وما كان أشدنى اعجاباً فى نفسى بسيرتهم فى تلك الساعات التى قضيناها فى مكافحة البحر ومغالبة الخطر فليست بسالة الملاح من قبيل بسالة الجندي ولكنها تفضلها فى رأيي لان الملاح بماله من الجرأة على الموجودات والفواعل الكونية يكافح الموت مواجهة فلا يحول بينهما الا سمك لوح من الخشب وليس غرضه من الكفاح ابادة نظرائه بل هو فى مدافعته عن حياته يعمل لتنجيتهم من الهلاك وناهيك بالبحر عدواً أوتي من العدد ماهو أشدها رهبة فى العالم بأسره فانك ترى السفينة ـ على وهنها وكونها ليست الا دولاباً من الخشب ـ تطاردها الريح والبرد والبرق وجبال من الموج فهي فى الحقيقة تقاوم قوي كون من الاكوان برمتها .

ولا مشابهة أيضاً بين قدر الملاح وبين ما يفاخر به السفسطي من اجترائه على معاندة القدر باستدلالاته الدقيقة اجتراء بارداً خالياً من العمل هيهات فان قدر الملاح مايتجلى فى عمله من قوة نفسه وهمتها فتراه مع استعانته بربه لاستمساكه بدينه لا يعتمد بعد ذلك الا على نفسه أعنى على صحة بصره وضبط حركاته وقوة أعصابه فان قهره عدوه سلم اليه ولكن هذا لايكون الا بعد أن يرى آخر سلاح له قد تحطم .

تلك البسالة تكتسب بالتعلم وهذه الثقة بالنفس تسري بالمعاشرة يدلك على ذلك ان « اميل » كان فى أول عهده بالملاحة شديد الروع فما لبث أن ذهب عنه روعه بالتأسي برفقائه لانه كان يرى من العار ان

ير تجف فؤاده وتتزلزل قدماه امام هؤلاء الابطال وهم ثابتون في مواطنهم . كانوا يشغلونه حينا بعد حين بادارة المنصات (الطلمبات) ومعالجة الحبال فلا شيء يعمل كالعمل البدني في تقوية القلب . فبطالة المسافرين هي التي عند أدني هيعة (١) تملأ قلوبهم بالمخاوف وأدمغتهم بالخيالات ، وأما الملاح فليس للخوف متسع في وقته .

من مزايا الملاحة أيضا ان ما فيها من مكافحة الخطر ينمي في قلوب الملاحين حب الحياة ، فمن ذا الذي كان يحسب ان الانتحار لا يكاد يكون معروفا بينهم ؟

الضجر من الحياة من مميزات العصور الحديثه وهو أخوفها عندي على الشبان وأشدها ايلاما لنفسي . فاني أرى الاطفال يولدون غير مبالين بشيء ، سائمين من كل شيء ، خامدي الاحساس ميتي القلوب ، فكم من فتاة اذا انكشف لها وهمها لاول مرة فيما كانت تعتقده واقعا تمنت لو أنها ماتت قبل انكشافه : وكم من فتى كسول لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره ولم يعامله الجد الا معاملة الغلام العارم يصيح قائلا « مافائدة الحياة » ؟ وليس من غرضي هنا أن أبحث عن أسباب هذه المصيبة الملمة بالنفوس والاخلاق ، وانما غرضي أن أقول لكل هؤلاء المتبرمين : « انظروا الى الملاح تجدوا أنه هو الذي عرف قيمة الحياة لانه في كل يوم يذود عنها أخطاراً حقيقية لغاية نافعة وبذلك صار أهلا لان يقدرها حق قدرها » .

من أجل هذه الاسباب كلها أري ان « اميل » الآن في ولاية

(١) الهيعة صوت الفزع

معلمين حاذقين ، وأما « لولا » فانها والحق يقال لم تبد من البسالة شيئاً يذكر لانها لبثت مختبئة فى إحدى زوايا حجرتها . فكانت كالنعامة التى يؤكد العارفون بأخلاقها أنها تتوهم أن غمر رأسها فى الظلام منجاة لها من الخطر الملم بها . وذلك ما اضطر هيلانة الى أن تكون قدوة لها فى الاقدام تسكينا لروعها ، وكان هذا موجبا للاعجاب بها بحق .

« شجاعة النساء المحمودة »

من الخطأ أن يتوهم متوهم ان لا فائدة فى الشجاعة للنساء ، فانه ان كان يريد بها الشجاعة الحربية فانى قليل الاعتداد بها فى الرجال فاكون أقل اعتدادا بها فى المرأة المترجلة ولكن لا يعزب عن ذهنه انه يوجد من ضروب الاقدار غير واحد فان النساء مستهدفات للمخاطر التى نحن عرضة لها ، ومضطرات لمغالبة ما نغالبه من حوادث الكون الخارجي . وقد يوجد من الاحوال ما تتوقف حياتهن فيها بل وحياة أطفالهن على سكينتهن ورباطة جأشهن ، فقوة العزيمة وثبات الجنان هما من الاخلاق التى تحتاج اليها المرأة كما يحتاج اليها الرجل .

من المصائب ان تسوء تربية الفتيات الى حد أن يتوهمن ان تكلف ضروب الفزع القاتل عند كل مناسبة خصوصا بحضرة الشبان مما يلفت الانظار اليهن ، فيقول من يراهن في هذه الحالة انهن يقصدن ان يظهرن في شكل الحمائم المروعة . ويجمل ان يوعظن بأن الخوف لا حسن فيه مطلقا ، وانه يجب عليهن لانفسهن اذا أحدق بهن الخطر ان يجتهدن في استشعار الاطمئنان والسكينة ان كن يردن ان يصرن

مثارا للاعجاب والاستحسان ولا صحة لما يعتقدونه على ما يظهر من ان ثبات جنان المرأه يسيء خلقها ، بل أجد جمالا وشرفا فائقين في تلك الذات اذا كانت مع تجردها من القدرة على المهاجمة بل ومن قوة المدافعة تقتحم الخطر بقوة جأش تكافئ قوة الرجل .

أنا أعلم ان من الاوهام السخيفة اعتقاد ان جفاء الطبع من لوازم الشجاعة ، ولكني أود لو أدري متى شوهد ان الشجاعة الحقيقية غيرت من رقة المرأة ورحمتها وغير ذلك من فضائلها . حاشاها من هذا وان الجبن والاثرة لهما اللذان يوجبان قسوة القلب وغلظه .

سل أما جبانا ان تشهد عملا جراحيا يعمل في جسم ولدها لتسليه وتسرّي من ألمه تجبك بأنها شديدة الاحساس كثيرة التأثر ، وبئس العذر عذرها ، فما مرادها الا الاحتماء من كلفة التسخير . ثم لا يتخيلنّ احد ان قوة العزيمة والسلطان على النفس أو الشجاعة الحقيقية هي من الاخلاق التي لا ينتفع بها الا في طائفتين من الاعمال هما الحرب والملاحة فاني أرى ان منفعتها تتعدى الى كثير من الامور الاخرى لان الرجل والمرأة مهددان كل يوم في القوم الذين يعيشان بينهم بآلاف من الاعداء والمعاطب . ولان البحر لا يقصد الا ازهاق أرواحنا وما أكثر ما يعرض لنا من الاحوال الخطرة التي يقصد فيها تقض أعراضنا والذهاب بحرماتنا . اهـ

الشذرة الثلاثون

مرح « لولا » فى السفينة بعد زوال الخطر

يوم ٣٠ مايو سنة — ١٨٦

تشق سفينتنا « المونيتور » بجلالة خطرها عباب أمواج المحيط الهادئ وتتخذ لها فيه سبيلا ، وقد عادت « لولا » بعد زوال الخطر الى ما كانت عليه من الابتهاج والسرور فهي تمرح وتعدو على ظهر السفينة مع مالها من الحركات حافظة لتوازنها ، وتبدو قدماها الصغيرتان فى خببها من تحت حلتها كأنهما فأرتان . اه

الشذرة الحادية والثلاثون

(وصف جزر جوان فرناندز)

وبيان أن احداها هى التى كتب عنها قصة

« روبنسن كروزو المشهورة »

يوم ٢٥ مايو سنة — ١٨٦

رسونا غداة اليوم في جوان فرناندز لضبط مقياس الزمن (الكرونومتر) وهذه البقعة مركبة فى الحقيقة من ثلاث جزر يتألف

منها مجموع متلاصق الاجزاء ، وتسمى الاولى ماساتيرة والثانية ما سافويرة والثالثة اسلاد ولوبوس وهى صخرة تكاد تكون جرداء أكثر الثلاثة تطوحا نحو الجنوب ويلقبها الملاحون بجزيرة القيطس (عجل البحر) لان القياطس تأوى اليها طلبا للراحة والدفء

الجزيرتان الاوليان ماساتيرة وماسافويرة معشوشبتان شجراوان ومع اجتهاد الحكومة التابعتين لها فى تعميرهما لاتزالان قفرا لايعمرها الا المعز لوحشية وهي كثيرة فيهما ، ويقال انها كانت تزيد عن ذلك لولم تسلط عليها كلاب وحشية مثلها تقاتلها وتفترسها . وليت شعري الى أى حالة تصير هذه الكلاب اذا أبادت جميع ما هنالك من المعز ؟ لا بد أن يأكل بعضها بعضا . وجزيرة جوان فرناندز تذكر بواقعة عظيمة جرت فيها وهي :

انه فى سنة ١٧٠٤ رسا الملاح الانجليزي دامبير على ماساتيرة فألقى فيها وكيله على القوارب المدعو اسكندر شالكرك أثر مشاجرة احتدمت بينهما ترك هذا التعيس فى هذه الجزيرة القفر غير مزود اياه الا بشيء يسير من الغذاء والعدد فعاش هناك أربع سنين وأربعة أشهر من صيده وصناعته ، وفى سنة ١٧٠٩ اتفق لاثنين من صيادي الثيران الوحشية ان نزلا بالجزيرة فعثرا على ذلك الرجل فرقا لحاله وحملاه معهما الى أوروبة

وكان شالكيرك قدقيد بعض مذكرات فى طريقة عيشته على تلك الجزيرة البلقع فاستعان بها دانيال دوفويه فيما بعد على تأليف كتابه العجيب الذي عرفه الناس جميعا ، ولشد ما يبديه الآن « اميل » و « لولا » من

الاهتمام بمطالعة وقائع روبنسن كروزويه . اه

الشذرة الثانية والثلاثون

« الوصول الى خليج قلاو ووصفه »

« وذكر نوع من الطير فى تلك الجهة »

يوم ٥ يونيه سنة — ١٨٦

يابشرى ! هذه أرض ! هذه أرض !

بعد أن سافرنا تسعين يوما دخلنا خليج قلاو وهو من أبهي مناظر الدنيا وأبصرنا جزيرة لورنزو ترتفع حيالنا ، أقول ترتفع وأقل ما فى هذا اللفظ أنه حقيقة فى استعماله هنا فقد نتج من حساب أحد العلماء أن سواحل سان لورنزو كسواحل الشاطئ المجاور لها ارتفعت عن سطح البحر خمسا وثمانين قدما انكليزية من عهد العصور التى يعرفها التاريخ .

صخور هذه الجزيرة يعمرها آلاف مؤلفة من الطيور أخص بالذكر منها طائرا رأسه أسمر الى السنجابية وبطنه أبيض ناصع وذنبه أسود يقال انه هو الذى يحصل منه أهل الجزيرة على السماد المعروف بالغوانو وهو ثروتهم الكبرى لان الذهب والفضة كادا ينضبان من معادن بلاد البيرو فهي تتسلى عن الحرمان منهما ببيع القذر ولاغرو فالذهب مذهب ومفسد ، والقذر موجد ومخصب . اه

الشذرة الثالثة والثلاثون

« بيان فوائد العقبان »

يوم ٦ يونيه سنة — ١٨٦

رسونا فى ميناسيودال دولوس ريس

أخص ما أدهش « أميل » و « لولا » عندهبوطهما على البر كثرة العقبان التى تسكن سواحل هذه الجهة ، فانها ترى عند كل خطوة فى الشوارع وعلى سطوح المساكن ، وقد رأينا منها طائفة تبلغ الستين أو الثمانين نائمة وهي جاثمة على جدار ورؤسها مختبئة تحت أجنحتها . ذلك أنها ليس من خلقها الجفلان ولا تخشى من السكان شيئاً لانهم يجلونها. هذه الطيور فى غاية الشره ، وشرهها نفسه نعمة من نعم الله على أهل تلك البلاد لانه يساعد على حفظ الصحة فى المدن ،وكان « لاميل » فيما أرى اخطاء غريبةَ فى شأنها فانه لما سمع الزراية عليها ممن درسوا أخلاقها فى الكتب كان يتخيلها سلابة تسكن الهواء أكالة دنيئة للرمم ، فلم يمض الا ساعات قلائل حتى زال الوهم وتبين له خلاف ما كان يتوهمه فعلم أنها محتسبة سخرها الخالق (سبحانه) فى البلاد الحارة للقيام على تنظيف الطرق العامة ، فهى تنقيها مما يلقى على الابواب من القمام واللحوم الفاسدة ومما يطرح فيها من الجيف ، ويدل ماتبديه هذه الطيور من الاطمئنان الى الانسان والثقة به حق الدلالة على شعورها بنفعها له .

المسافة بين قلاو ولمية فرسخان أسبانيوليان وسنبلغها غدا . اه

الشذرة الرابعة والثلاثون

التربية بالمعاينة

يوم ١٢ يونيه سنة — ١٨٦

مدينة ليمة فى نظرى كثيرة الشبه جدا باحدى مدن أوروبة ، وان الاوروبيّ الذى يسافر من بلده الى الجانب الآخر من الدنيا فيقطع فى ذلك خمسة آلاف وخمسمائة وتسعة وثمانين ميلا انكليزيا ليستحق ان يلاقى بعد هذا السفر من تركهم هناك من اليسوعيين والمحتالين والبغايا والراهبات ومعاهد الفجور .

فى تلك المدينة شوارع لها من الرونق ما يناسبها وفيها ميدان أنيق يدعى « بالبلازامايو » فى وسطه بركة فخمة من البرنز ينبثق منها الماء فى ثلاثة أحواض على أن هناك جدولا يخترق المدينة أفضله كثيرا على ذلك العمل الفنيّ . وهذا الجدول المسمي بالريماق يأخذ مياهه من منالج جبال القوردير ، وبعد أن يجرى ثلاثين فرسخا يصل الى ليمة فيقسمها الى قسمين متساويين تقريبا ولست أدرى أضلال أم حق انا أحس ببرودة مياهه اذا غمست أصبعي فيها كأن ماء الثلوج لم يمهله اندفاعه أن يسخن بحرارة الشمس .

ليست الحرارة فى تلك الجهة من الشدة بالمقدار الذى قد يتوهم مع كونها لا تبعد عن خط الاستواء الا عشر درجات . وتعلل هذه الحالة بعلل مختلفة غير ان أخصها وضع المدينة فان المحيط الهادى يكنفها من أحد

جانبيها ويكنفها من الجانب الآخر جبال القوردير القائمة شرقيها مكللة بالثلوج الدائمة . وفي ذلك مايساعد بلاريب على ترطيب الجو وبينها وبين البحر فرسخان اسبانيوليان ولاتبعد الجبال عنها الا ثمانية وعشرين فرسخا فكأن البحر والجبال منطقة مزدوجة تمنطق بها الساحل لتقيه شدة الحرارة .

الذي يدهش (أميل) و(لولا) كثيراهو أننا بحسب منزلة الشمس الآن في فصل الشتاء مع اننا في شهر يونيه على ان الحق ان لاشتاء في بلاد البيرو . فان السنة فيها تنقسم الى فصلين فصل الرطوبة وفصل الجفاف ففصل الرطوبة يبتدئ من شهر ابريل ويستمر الى اكتوبر وفيه يغشي المدينة ضباب ثقيل فاتر يسميه أهل البلاد بالغروى ؛ وقد يبلغ أحيانا من الكثافة والاسفاف الدنو من الارض) خصوصا في الغداة حدالانكاد نرى فيه ماهو شديد القرب منا من الاشياء ، ويقال ان هذا الحجاب يتمزق في شهر اكتوبر أو نوفمبر فترتفع قبة السماء سنجابية اللون ولا يلبث الطل أن يتلاشى بحرارة أشعة الشمس النفاذة وحينئذ يبتدئ فصل الجفاف أي الصيف .

لا ينبغي ان يفهم من قولنا فصل الرطوبة الفصل الممطر فانه قد يمضي قرن ولا تسقط على طول هذا الساحل كله قطرة من مطر . عرفت ذلك لاني منذ بضعة أيام كنت أسأل شيخا من هذه البلاد : هل تذكر انك شهدت مطراً في حياتك ؟ فكان جوابه لى « قط » فسألته عن عمره فقال انه ثمانون سنة .

الضباب ندى يحيل التراب الى وحل ويكفي لاخصاب الارض

هنا اخصاباً متوسطاً . على أنه يوجد فى أماكن أخري من بلاد البيرو وديان وربى قريبة من الجبال ينزل فيها من السماء سيول حقيقية اذا أصابت الرمال القحلة أصبحت عماقليل حافلة بالنبات ، فالارض لا تسأل السماء ، الا أن تتصدق عليها بالماء .

فصل الجفاف بالضرورة أشد الفصلين حرارة على أن الناس هنا يؤكدون لى أنهم يجدونه مبردا بمايهب من نسيمى البر والبحر ، فكأن هذين النسيمين يقتسمان اليوم بينهما . فيهب نسيم البحر فى الجملة حوالى الساعة العاشرة من الغداة ويستمر على هبوبه متراوحا بين الشدة واللين الى غروب الشمس ثم يركد يستتب السكون ، فاذا كانت الساعة الثامنة أو التاسعة من العشي جاء دور نسيم البر الذى يهب من الجبال فيبقى على هبوبه الى الغداة .

فى رأيى أن سكان ليمة أشد مافيها غرابة وأدعاه الى المراقبة فلا أظن أنه يوجد فى سكان بقعة أخرى من بقاع الارض ما يوجد فى ملامح وجوههم من الاختلاف العظيم ، وفى ألوان جلودهم من الفروق الدقيقة الواضحة . ذلك بأنهم أخلاط من سلالة المستعمرين (وأعنى بهم الاشخاص الموجودين فى أمريكة ممن هاجروا اليها من الدنيا القديمة خصوصا أعقاب البيوت الاسبانية العتيقة) ومن الهنود والزنوج والخلاسيين[1] وغيرهم من الاصناف ، فترى من ألوان وجوههم كلما تفقتهم الابيض الشاحب والاصفر النحاسى والاسود الكهربى ومايتخللها من ضروب الاختلاف الصغيرة المتولدة من اشتباك الارحام واختلاط الانساب ، وانى اذا اعتبرت

(١) الخلاسي هو الذي يولد بين أبوين أحدهما أبيض والثانى أسود

فى الحكم عليهم ماقام بنفسى من آثار الانفعال برؤيتهم لاول مرة حكمت بانهم متشابكون بالارواح كما تشابكوا بالاشباح .

تمتاز النساء البيض والخلاسيات عن غيرهن بعينين نجلاوين سوداوين تتوقدان ذكاء، وبشعور طويلة غدائرها الثقيلة مرسلة، ولون تقاوم وضاحته الفطرية حدة الشمس، وأنف مع خلوه من شبه الانوف اليونانية لا يعوزه شئ من القنا [1] وفم مزدان بالثنايا الجميلة على ماقد يكون فيه من السعة أحيانا، وقامة وسيطة معتدلة، وقدمان بلغتا من الصغر حداً يدعو الى العجب، ويدين صيغتا صياغة دقيقة، وجملة القول فى وصفهن ان صورتهن هي صورة « لولا » اذا كبرت

أنا لا أعلم الى الآن شيئا من أخلاقهن اللهم الا مايظهر لى من أنهن (أعنى الغنيات منهن) يقضين أوقاتهن بين الزهور والعطور والاقراص العطرية والمربيات والحلاوى، ولئن اعتمدت فى الحكم عليهن على ما أسمعه عنهن ممن يحتفون بي لقلت انهن يقسمن وقتهن بين دسائس العشق وشعائر العبادة، ولا اخال أحداً لا يدهش اذا علم أن الاديار والكنائس تشغل من المدينة ربعها . ومما أكده لى أهل ليمة أن الرجال منهم شديدو الغيرة على نسائهم ولكنى لا أعتقد شيئا مما يقولون فانهم لو كانوا كذلك حقيقة لما أباحوا لهن الذهاب للاعتراف فى أغلب الاوقات . اه

---

(١) القنا مصدر قنى الانف اى ارتفع اعلاه واحدودب وسطه وسبغ اى طال طرفه

الشذرة الخامسة والثلاثون

« ذكر شيء من أخلاق أهل ليمة وأحوالهم »

وأهل بيت « لولا » ووالديها

يوم ٣٠ يونيه سنة - ١٨٦

ما لبثت منذ وصلنا الى ليمة ان التزمت الاشتغال بمصالح دولوريس وأول شيء رأيت من الواجب البداءة به فى هذه السبيل أن أجمع تفاصيل مايعلمه الناس من الاخبار الموثوق بها فى شأن مولدها ووالديها ودونك بالايجاز نتيجة ماهدتني اليه ابحاثي :

أما والدها فهو من بيت اسبانيولي كان رحل الى بلاد البيرو واستوطنها بعد الفتح بزمن يسير . وأما والدتها فكانت من النساء ذوات اللون ويعني بهن الخلاسيات بحسب اصطلاح الناس هنا وكانت مع احتواء عروقها على شيء من الدم الهندي لا يتأتى لعين غير عين المستعمر الخالص الغيور ان تكتشف فيها بقايا سمات صنفها التى انمحى أكثر من ثلاثة أرباعها ، فانه لاقدرة لغير المستعمرين على ان يميزوا فى الذات الجميلة لاول نظرة ما يسميه الانكليز بأثر ظلف الشيطان المشقوق ، فهم يلتمسون هذا الأثر حتى فى شكل الاظافر

ويحق ان تعلم أنه مع خضوع هذه البلاد للحكومة الجمهورية ومع تشابك الاجيال فيها لا يزال بعض البيوتات الاسبانيولية يرون من

الامتياز ان يثبتوا صراحة أنسابهم و نقاوتها من الاختلاط وان يحرصوا على بقائها كذلك ؛ فان هذا فى رأيهم شارة من شارات الشرف ، و فى رأى غيرهم والحق يقال نعمة يحسدونهم عليها . يدلك عليه ان الخلاسيين فى الطبقة الخامسة بل وفى الطبقة السادسة يدعوهم عجبهم الى التألم من ان يعرفهم الناس بهذه الصفة حتى انهم ليبذلون كل مايملكون لو ضمن لهم الانفكاك من اماراتها التى تراها مع نهايتها فى الخفاء وقرب تلاشيها تنم على خسة أصلهم كما تقرر فى الآراء والافكار .

ذلك ما حدا بى الى ان احدث نفسى غالبا بان معيشة الناس مجتمعين ربما كانت فى بدايتها مؤسسة على حاجتهم الى احتقار بعضهم بعضا .

ومهما يكن من ذلك الامر فقد كان زواج ذلك الاسبانيولى الحر بتلك الخلاسية معتبرا عند كل أهل بيته من سوء الحظ لانه كان قد علق بأذهانهم خزعبلات متعلقة بالجيل الاحمر ، ورسخت فيها شديد الرسوخ . وكانوا يرفعون عقيرتهم افتخارا بأنهم لاينفكون عن تخير الامهات . ولا أدرى أكان هذا من أسباب الفرقة بين الزوجين فيما بعد أم لا ، غير انه قد عرف ان اقترانهما لم يقرن بالهناء والغبطة فقد ماتت هذه الفتاه الخلاسية في السابعة عشرة من عمرها بعد ان وضعت بنتا .

لم يطوح والد « لولا » بنفسه في الاعمال البحرية تطويحا تاما الا من بعد تأيمه . وكانت السفينة التى غرقت به حيال سواحل بنزانس ملكا له . وقد أجمع الناس على أنه كان كثير الفخر بينته وانه لعزمه على

تربيتها تربية أعلى من التربية التى ينشأ عليها أغلب النساء في ليمة حملها معه ليضعها فى احدى مدارس لوندرة الداخلية .

كان يحب هذه الطفلة وفى هـذا أقوى موجب للظن بأنه هو الذي علقها بمزيد الاحتراس والعناية في أدوات السفينة قبل أن تغتاله الامواج .

بلغ خبر الغرق ماوراء البحار غير أنه شاع أيضا في ليمة أن هـذه المصيبة شملت الرجل وبنته فلا شك أن ما أرسلته أنا وهيلانة من الرسائل اعلاما بنجاة « لولا » ومطالبة بحقوقها قد حجزها من لهم مصلحة في اعدامها .

ما نجا من الغرق الا ملاح واحد لم يرجع بعده الى ليمة قط لسبب لا أعلمه ، فلم يتيسر له أن يكذب ما أذيع هناك عمدا من الروايات الموضوعة .

لما وصلنا الى ليمة عرفت «لولا » بلادهان لم أكن واهما من خلال ماحفظته ذاكرتها من آثارها فى الصغر ، غير أن هذه البلاد لم تعرفها قط ، فقد كان من عرفتهم بها من آل بيتها يتظاهرون بالريبة فيها فيقولون نعم إنهم كانوا سمعوا بسفان غرق فى البحر وبأنه عمهم أو ابن عمهم ولكن ماالدليل على أن تلك الفتاة التى عرفتهم بها بنته فانهم كانوا محقين كل الحق أن يعتقدوا موتها ، وأما ماقدمته لهم من الاوراق الدالة على ثبوت نسبها له فكانوا يتعللون عليها بأنها مكتوبة بالانكليزية وهم لا يفهمونها بل هم ما كانوا يريدون أن يتكلفوا قراءتها .

ذلك ما اضطرني الى أن أقصد العارفين بالقانون فكان رأيهم

في القضية انها من القضايا المعضلة المرتبكة وأنها تقتضي فراغاً واسلاف نقود وعبثاً كثيراً من عبث المحاماة ، وانت تعلم حالة القضاء في بلادنا وهو في بلاد البيرو أدنى منه أيضا الى الطفولية .

عمال الحكومة الذين سألتهم في هذا الموضوع وان كان اغلبهم ينتمي الى بيت والد الفتاة متفقون على انه ترك بعض المال ، غير انهم يقولون وفي قولهم أمارات الريبة ان جل هذا المال ضاع في سداد ديون المتوفى ، والذي ظهر لي أشد الظهور هو أن المضيّ في هذه القضية يجر الى تشويش كثير من المصالح الخاصة التي لا شك في أنها اتسمت بعصبية السفان . تلك هي حالة الامور .

الشذرة السادسة والثلاثون

« فوائد الشدائد ـ بذل النفس للمحبوب اول الحب »

يوم ١٥ يوليه سنة — ١٨٦

كان منا خرق وطيش كادت عواقبه تكون علينا خسارا مبيناً . ذلك أني و« اميل » و« لولا » خرجنا عشية امس نتنزه والساحل ممتطين أفراسا فأوغلنا في سيرنا معتسفين ولا يلبث الانسان بأدنى بحث في شكل هذه السواحل الظاهري أن يدرك ان البلاد نشأت من الزلازل الارضية .

من اسمي الافهام التي انتهت اليها حكمة العلوم الحديثة على

ما أدري [١] ادراك ان للناس فوائد فيما يبتلون به من المصائب فان لها دخلا عظيما فى تكوين العالم المادى.

وما أدراك ما هذه المصائب ؟ اذا رجت الارض رجا ونولاها الاضطراب عم الفزع كل من على ظهرها ممن يشهدون زلزالها. ورأيت الحيوانات جافلة حيرى لا تدرى ماذا يراد بها .

وان لمن شهد الزلازل من سكان هذه البلاد قصصا عنها يروونها للاجانب تحاكى قصص التوراة ، فكأين من قرية كانت بالامس عامرة سعيدة أصبحت خاوية على عروشها فلا يجد الباحث عنها فى عرصاتها الا أطلالا بالية ورسوما دارسة . واذا انقضت الزلازل لم يكن للناس حديث مدة الشهر التالى لوقوعها الا قصصها المحزنة ، فمن رجال ذهبت عقولهم من الفزع ، وأموال لعبت بها أيدي الضياع ، ونساء واطفال وشيوخ خرت عليهم بيوتهم تخنقهم ردمها .

(١) لقد طاش رأيه فان القرآن القديم نطق بهذه الحكمة التى رآها حديثة فى آيات كثيرة جدا كقوله تعالى : « ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الاموال والانفس والثمرات وبشر الصابرين الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون » وقوله تعالى « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله الا ان نصر الله قريب » وقوله تعالى « كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى ان تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وانتم لاتعلمون » وتداولها المسلمون فى منثورهم ومنظومهم ولكنه لايعلم . ذلك

لا يسلم تاريخ هــذه الرزايا من اختلاط القصص به فمما يحكيه الناس هنا انهم شاهدوا فى زلزلة ليلية على وميض البروق المشؤم ان الارض قد انشقت وبرزت هياكل قدماء الانقين (١) من قبورها ثم عادت فغيبت فى هذه المهاوى التى ما لبثت ان التأمت عليها

سكان شطوط المحيط فى هذه البلاد أشد تعرضا للمعاطب فان البحر فى بدء الزلزال يتقهقر عن الارض كأنه قد ملكه الذعر ، ثم يعاود الكرة وقد هاج غضبه . واشتد صخبه ولجبه ، وهنالك تتكسر أناجر السفن وتتقطع سلاسلها وتأخذها أعاصير الماء فتدور بها دوراناً وأما جسور المياه فانها تستسلم لضغط الامواج فتفتح ابوابها للخراب والهلاك .

وللبــيرويين من المعرفة الصحيحة بما لارضهم التى استودعوها حياتهم وعيالهم وآمالهم من ضروب الختل ما يجعلهم فى عامة اوقاتهم على حذر منها فتراهم لا يذوقون النوم الا غراراً مستعدين على الدوام للهبوب من بيوتهم لاقل لغط او أدنى رجة سائلين ما الخطب ؟ فاذا قيل زلزلة برزوا جميعا .

على أن لهم بهذا القطر الذي تميد بهم ارضه كلف العاشقين لجماله وخصبه ، فانك تجد فى البقــاع المزروعة منه حقول الذرة وقصب السكر والقطن والفواكه الاسبانيولية كالبرتقال والليمون والرمان والتين والزيتون قد ازدوجت بجميع فواكه المنطقة الحارة كالموز والأنأناس، فتلك الارض المزلزلة حبلى بالحياة فهى تنمو وتعلو وتتنفس

(١) الانقين جمع انقى وهو احد اشراف قدماء الهنود بأمريكة

ولا ينبغي ان ينقم منها أنها فى عملها هذا تشوش عمل الانسان احيانا بما لها من صنوف التدمير وضروب التخريب .

لم يسلم الشاطيء الذى كنا نتنزه عليه من فعل الزلازل الارضية التي لا شك فى انها تبتديء من سلسلة جبال الانذر [1] فان الانسان فيما يلاقيه هنالك من الشقوق والانجاد والاغوار التى لا تلبث بعد انخسافها ان ترتفع لا يزال يعرف ميدان تكافح الفواعل النارية

كانت « لولا » تسير على الساحل وكلها زهو وعجب باستقبالها « اميل » فى بلادها ومرحبتها اياه غير مفكرة فى شيء عسى أن يكون من الحبائل تحت هذا الساحل المتباين الذى دعثرته العواصف والاعاصير . فهمزت جوادها بحدة مفرطة وأخذت به شطار البحر وكنا نحن نتبعها ولكن من بعد لبلادة فرسينا ، على ان « اميل » لم يلبث ان خف اليها خفة المستيئس لما نبهته هيماتي الى الخطر الذي كانت ملاقية له ، فلما بلغ تلك الفارسة المرحة لم تكن الا على نحو مئة متر من هوة بين صخرتين كان لا محيص لها من التردى فيها بجوادها مرسلة الشعر فى الهواء مشرعة السوط . فأخذ بعنان فرسها وقسره على التحول يسرة فرفع يديه قائما على رجليه .

ثم ما لبث ان وقف كأنه ألهم الوقوف فجأة .

وأما « لولا » فقد امتقعت (تغير لون وجهها) وارتعدت فرائصها لانها كانت أبصرت الهوة وشكرت « لاميل » همته بان قبلته تقبيلاً يشف عن الوداعة وسلامة القلب كالذي يقع من

(١) سلسلة جبال الانذ هى سلسلة عظيمة من الجبال فى أمريكة الجنوبية

أخت لاخيها .

وفي يقيني ان هـذه الحادثة لم تزد شيئاً على ما يضمره كل منهما للآخر من المحبة والوداد ولكني أحسب اني لاحظت من عهد حصولها فرقاً دقيقاً في رعايات « اميل » لها بزيادة تحدبه (تعطفه) عليها فكأن بذل النفس للمحبوب أول الحب .

ذلك أمر لابد أن تكشفه لنا الايام لأني وهيلانة قد عودنا هذين الغلامين أن نصدقهما لمجرد قولهما فلا أخالهما يجسران على غشنا . اه

الشذرة السابعة والثلاثون

الآثار والمدن المجهولة في البيرو

والموازنة بين القوى والاعمال

يوم ٢٨ يوليه سنة — ١٨٦

كثيراً مانلاقي هنا هنودا أصليين يشتغل بعضهم بالتماس الثلج من رءوس الجبال ونقله على ظهور البغال الى (ليمة) حيث يعتبر من أوائل مشتهيات المائدة وبعضهم ينقل الملح اليها من سواحل البحر على قطعان اللامة [1]

ياله من بون بعيد بين ماعليه هؤلاء الهنود الآن من الذل والشقاء

(١) اللامة حيوان من حيوانات البيرو بأمريكة يشبه الجمل

وما كانوا فيه من العظمة والرخاء .

معابد الانقين التي يرشد أهلها السائح الى زيارتها وطريقهم الحربى المشهور الذى اختطوه لمقاتلتهم ونظام ريهم العجيب الذى كانوا يبلغون به مياه الجداول الصغيرة الى الحقول بما كانوا يحتفرونه من الخنادق ليخصبوا به من الارضين ماصار بعدهم محلا — كل ذلك مما يحمل على الاعتقاد بأن الاجيال الاصلية التي كانت متوطنة وسط أمريكة وقفت فى سبيل تقدمها بحلول الجيل الابيض الذى انقض عليها فى بلادها انقضاض العقاب فعاقها عن رقيها فانها كانت تسعى اليه . ومن ذا الذى في استطاعته أن يخبرنا بما كان يحصل لو أنهم أمهلوا حتى بلغوا امثال تمدنهم الصحيح ؟ ربما كان انعكس الامر فذهب مثل خريستوف كلومب من حمر الجلود فاكتشف الدنيا القديمة .

قبائل الهنود التي لم تخضع الى اليوم للحكومة الامريكية تحذر ما يقدم لها من الهدايا وما توعد به من المزايا على حد قول القائل :

« الروم أخشى »[1]

ولم تفلح الحكومة فى ارسال الدعاة اليهم لدعوتهم الى النصرانية فانهم يعلمون أن لفظ الجيل في فم الابيض معناه الاستعباد لجيلهم ومصادرتهم فى أرضهم .

يعتقد بعض أهل لمية أن من المدن البيروية أو المكسيكية القديمة

(١) الروم اخشى جزء من بيت شعر لشاعر لاتيني اذكر منه شطره الاول وترجمته : « الروم اخشى وان هم قدموا تحفا »

مالا تزال موجودة لم يبلغها الفاتحون من أسبانية واذا سألتهم أين هذه المدن لا تجد منهم أحدا يستطيع أن يجيبك عن هذا السؤال ، ثم اذا قلت كيف أن أحدا من سائحي اليوم لم يعثر عليها أجابوك إن هؤلاء الاقوام القدماء سكان تلك المدن مكنوفون من كل ناحية بالصحارى والآجام والمستنقعات وسلاسل الجبال وغيرها من العقبات الكثيرة وبذلك حفظوا استقلالهم على أن الوصول اليهم يقتضى وطء قبائل متوحشة تمنع الاجانب من دخول أرضها وتجزى عليه بالقتل مثل الهنود البسلاء (انديوس براڤوس) وهم جيل حربيّ يسكن الهضاب الواقعة شرقي البيرو و (القونشوس) ويقال انهم من أكلة لحوم البشر .

ولقد ذهب فريق آخر من البيرويين فى دعاويهم الى ماهو أبعد من ذلك فلم يقتصروا على القول بوجود المدن المذكورة بل قالوا ان بعض ركاب التعاسيف الخاملى الذكر والمترفقين من التجار وطلاب المهن زاروها المرة بعد المرة ومن هؤلاء الزوار من انقطع ذكرهم فلم يسمع عنهم شيء ومنهم من حكوا ماعاينوه منها فهم مصدر ماعرف عنها غير انهم لبعدهم عن الحضارة بل وعن العلم لم يخبروا بما اكتشفوه الا بعض التجار الرحل أو الصيادين ولم يستطع هؤلاء عند حكايتهم لما وعوه ان يؤدوا لمن سمعوا منهم الا أخبارا مبهمة جدا . والذى ينبغى أن يعتقد فى مثل هذه الاحاديث هو أنه يحسن قبل نبذها واعتبارها من الاساطير أن يفكر فيها مرتين لانها على كل حال ليست بعيدة عن الحقيقة بعدأن

اكتشف استفنس [1] وغيره من السائحين الذين جابوا وسط أمريكة ما اكتشفوا من الآثار الحقيقية وبعد الابحاث التى حصلت وسط الغابات الكثيفة ولم يشهدها الا الببغاآت والقردة، وخصوصاً بعد ان ثبتت للعالم صحة بعض الآثار المروية عن الهنود ثبوتاً واضحاً من أطلال المدن المكتشفة مثل قوبان وقيشى واوقوزينجو وبالانقا وغيرها من المدن الكثيرة المدفونة تحت جذور الاشجار من قرون طويلة

نعم إن موضوع البحث والنظر هاهنا ليس مدناً بائدة بل هو مدن حية قد يعثر فيها ان وجدت على تاريخ جيل من أجيال البشر برمته ومعابدهم وآلهتهم وقسيسيهم وشرائعهم وعوائدهم.

ربما مال «أميل» و«لولا» اذا سمعا مثل هذه الحكايات فاتقدت بها مخيلتهما الى أن يباشر البحث عن تلك المدن المجهولة فان من هو مثلهما فى سن المراهقة لا يفكر فى العقبات ولا يحسب لها حسابا فهما من هذه الجهة شبيهان بعامة الناس، ولو أني ثبطت عزم هذين القرنين الصغيرين وأخمدت توقد ذهنهما للمت نفسى على ذلك، ولكنى انتهزت هذه الفرصة فقلت لهما انه لا يزال فى بلاد البيرو كما فى غيرها كثير من الاشياء التى يلزم اكتشافها غير انه يجب على الانسان قبل كل شيء أن يعرف كيف يزن قواه بطبيعة ما يريد مباشرته من الاعمال. اه

---

(١) استفنس هو سائح أمريكى شهير

الشذرة الثامنة والثلاثون

« التربية بالتأثيرات الطبيعية »

يوم ١٤ أغسطس سنة — ١٨٦

صادفنا غداة اليوم على مقربة من ليمة زنجياً آتياً اليهـا يلتمس رزقه من عرض حيوان يسمى البومة وهو الممثل للاسد فى أمريكة كانت قبيلة من المتوحشين اصطادته حياً وكان ربه وهو شبه مشعوذ يؤمل أن ينال بعض النقود من عرضه على النظارة (أى المتفرجين)

كان هـذا الرجل على شدة فاقتة وعجزه عن القيام بنفقة نفسه مصحوبا بصبية زنجية عليها طمر[1] أزرق رأيت فى مشيتها قزلا[2] فسألتها بالاسبانيولية التى لا أحسنها عما أصابها فجعلها تعرج كما رأيت فـكان جوابها أن أرتنى احدى ساقيها فاذا فيها جرح دامٍ ورأيت قدميها قد ورمتا ورماً مفرطا ولما أمعنت النظر فى ساقها المجروحة عثرت على طرف شوكة غليظة فى لحمها وهي التى تسبب عنها الجرح قطعا ثم خبث بما اعتوره من المشى والوصب ولدغ الحشرات فان هذين المسافرين كانا آتيين من مسافة بعيدة جدا .

ما زلت بهـذه الشوكة حتى نجحت فى سلها ثم ضممت اجزاء الجرح بعضها الى بعض ولما لم أجد خرقة أعصبه بها ناولتنى « لولا » منديلها ولم تقتصر على ذلك بل دعتها رحمتها بهذه الفتاة الى خلع نعليها

(١) الطمر الثوب البالى (٢) القزل العرج

ووضع قدميها الرضوضتين فيهما فلاءمتاها أشد الملاءمة كأنما صنعتا لهـذه المسكينة فأعربت « للولا » عن شكرها ثم غادرناهما ومضينا فى سبيلنا .

انبعثت « لولا » الى عملها هذا بباعث من بواعث الخير القلبية الا أنها ما لبثت أن أدركت صعوبة الاحتفاء فى أرض صلبة خشنة كأرض البيرو فان طرقها لا مشابهة بينها وبين مخارف[1] البساتين الكبرى فى انكلترة .

انشأ « اميل » أولا يسخر من حيرة صديقته فى مسيرها حافية ولكنه لتأثره من صنيعها دبت فيه النخوة فاحتملها على ظهره فقبلت ذلك مبتسمة.

لم يكن الباقى من طريقنا طويلا جداً ومع ذلك وقف « اميل » فى اثنائه للاستراحة مرتين أو ثلاثا متبعا فى ذلك نصيحتى وفى آخر وقفة منها بصرنا من بعيد بالمشعوذ يقود البومة وعرفت « لولا » الصبية الزنجيـة وقد خلعت النعلين وحملتهما فى يدها فما كان اشد غمها لهـذا المرأى . انظر كيف بخستها عطيتها وكيف استعملتها .

فسريت عنها ما خامر قلبها من الكدر بأن قلت لها إن العادة طبع ثان وان هـذه الصبية لا بد أن تكون تعبت من الانتعال لاعتيادها الاحتفاء على أن نية اسداء المعروف للناس محمودة على كل حال ولو أخطأ صاحبها فيما يتخذه من الوسائل لايصال النفع اليهم .

والذى رأيته خيرا من هذه العظة كلها هو أن ماوجده قلبها الطاهر

(١) المخارف جمع مخرف وهو الطريق بين الاشجار

من السرور باحتمال « اميل » اياها قد دلها فيما أري على أن الانسان لا يخسر شيئا مما يسديه من المعروف . اه

الشذرة التاسعة والثلاثون

« بيان فخامة مشاهد الجبال »

يوم ٢٨ اغسطس سنة — ١٨٦

زرنا بعض اجزاء من جبال القورديير ولم يكن سبق (لاميل) ان شاهد مثل هذه الجبال التي يصح أن تسمى بالالب [1] الامريكية فراعه كل الروع ما لهذا الخلق الهائل من مظاهر الفخامة والعظم مع أننا لم نبلغ منها الا أدنى شمافها .

لا بد ان ألاحظ هنا أن القدماء كانوا قليلي التأثر بما للجبال الشامخة من المحاسن الرائعة فانا لم نر لشعراء اللاتين من الكلام فيها الا النذر اليسير ومعظم ما قالوه استهجان واستقباح وقد يحدو بي ذلك الى القول بأنه كان يلزم أن يدهمهم من الكوارث المحزنة ماتهتز لهم نفوسهم وان تستضيء بصائرهم بنور العلم ويتمكن منها الاستعداد للبحث والتنقيب الذي هو من مزايا العصور الحديثة ولو تم لهم هذا لادركوا أن في سيارنا الذي نعيش على ظهره (الارض) من المظاهر الهائلة البديعة ما يدعو الى الاعجاب الحقيقي . اه

(١) جبال الالب هي سلسلة جبال عظيمه في اوربة

الشذرة الاربعون

«انتهاء قضية لولا بالصلح وعزم الدكتور اراسم على العودة الى اوربة»
«وتركه قوبيدون وزوجته هناك»

يوم ٧ سبتمبر سنة — ١٨٦

كسبت (لولا) دعواها وان شئت قلت خسرتها فكلا القولين صحيح باعتبار جهة النظر .

اضطررنا الى المصالحة فى هذه القضية الكثيرة الارتباك لما يقتضيه الفصل فيها من الانتظار أشهراً بل سنين فعرض عليّ الخصم أن يعطوا بنت السقان مقداراً زهيداً من النقود وبعض ما كان لوالدها من الارضين والارض ها هنا لا قيمة لها اليوم أصلا ما لم يستغلها صاحبها بنفسه أو بواسطة وكيل له يقيم في هذه البلاد .

فأما أنا وهيلانة فما جئنا لنقيم في (ليمة) بل قد انتهت مهمتنا ولم يبق الا السفر لا سيما وقد تلقيت مكتوبا من الدكتور وارنجتون يدعونى الى لوندرة لامور نافعة لى بينها فيه .

وأما قوبيدون وجورجية فانهما خبيران بفن الزراعة خصوصا زراعة الاقطار الحارة وليسا من ذوى العقول الضعيفة وامانتهما تقوّم بكل ما فى بلاد البيرو من الذهب ولا أرى ما يمنع من العهد اليهما بزراعة اطيان (لولا) .

وانه ليشق عليّ مفارقة هذين الشهمين غير أني أرى أن اقليم انكلترة لم يخلق لمثلهما من الزنوج وأما اقليم جنوب أمريكة فانه يؤذن بأن سيكون لهما فيه بتوالى الايام مناخ جميل ووطن سعيد . اهـ

الشذرة الحادية والاربعون

بيان ما عاد على « اميلى » من الفوائد فى هذا السفر

يوم ١٠ سبتمبر سنة — ١٨٦

رجعت السفينة التى كانت حملتنا من لوندرة إلي قلاو منذ ثلاثة أسابيع ويعلم الله متى يكون مجيئها ولهذا رأينا بدلا من اجتياز رأس القرن أن نركب هذه المرة في سفينة تجاريه على نهر الامازون[1] تسير بنا والشاطيء حتى نبلغ سواحل البرازيل حيث نجد سفينة تكون مسافرة الي انكلترة فان هذه الطريق أقصر من الاولى بعسيرة عشرين يوما .

تنوي (لولا) ان تعود معنا لان بلادها لقلة ما عرفته منها لم تبعث في نفسها شيئا من الرغبة في توطنها ولانها تعلم فوق ذلك اننا نحبها

ماندمت على هذا السفر بحال « فاميل » قد مضى وقته هنا فى الالتفات الى العلم والامعان فى مسائله فهو يعود الى بلاده الآن ناقلا اليها مجاميع فى علم التاريخ الطبيعي بل حاملا ما هو خير له منها : ضروب الانفعال الكثيرة بما رأى ، وصنوف الذكر لما وعى ، وقد تربى طبعه فى مدرسة الاختبار ، والحياة التى لا يربى

---

(١) المعروف ان الامازون اكبر انهار الدنيا ولعل المؤلف يريد بقوله نهير أحد فروعه القريبة من ليما

الرجال غيرها .

نعم انى لا أعنى بهذا القول أن ألزم جميع من هم فى سنه من المراهقين أن يبتعدوا عن أوطانهم بقدر ابتعاده ، ولكن رائي الذى لا أحول عنه هو انهم لو خرجوا قليلا من أصدافهم ورأوا الكون فى الكون قبل أن يروه فى الكتب لغنموا من ذلك أكثر مما يخطر فى الوهم . اهـ



الكتاب الرابع

فى تربية الشاب

الرسالة الاولى

(من « اميل » الى والده)

عن مدينة بن فى ٨ ينابر سنة — ١٨٦

وصف معيشته — نادى الطلبة الالمانيين ومحاوراتهم — تهافتهم على خدمة الحكومة — تفكر « اميل » فى أمره — تألمه من عدم فهمه اللغة الالمانية — ذكره « لولا » — استيحاشه من غربته

انتظمت فى سلك المدرسة الجامعة بعد امتحان كان لابد من تأديته وصرت أدعي منذ أسبوع بالسيد الطالب

من المفروض علىّ أن أكاشفك بشيء من تفاصيل معيشتى وأنا طالب : أما نهارى فأصرفه فى تلقى دروس الحكمة والتاريخ والقوانين وعلم تركيب الحيوان والنبات ومنافع أعضائهما ، والمقارنة بين اللغات وغير ذلك . وأما ليلى فأقضيه فى مسكن استأجرته ستة أشهر بنحو مائة وخمسين فرنكا ، وأما طعامى فأتناوله فى مطعم على مائدة جامعة فى مقابل أربعة وعشرين صولديا [1] وبعد العشاء تارة آوى الى حجرتى

---

(١) الصولدى جزء من عشرين جزءاً من الفرنك فقيمة طعامه هى فرنك وربع

وطوراً أتنزه في المدينة ، ولما أطلع على أسرار طائفة الشبان كلها لكوني أجنبيا . على ان أحدهم قد أخذني معه ذات ليلة الى مدخن (مكان لتدخين التبغ) يجتمع فيه بعض الطلبة الالمانيين ، فما فتح بابه حتى رأيتني تائها مغمورا بسحاب مركوم من الدخان حال بيني وبين رؤية جدران المكان وسقفه بل رؤية المكان برمته ، وكان يخيل اليّ انه يمتد الى غير نهاية وكنت أسمع أصواتا وأغاني وقهقهات ولا أبصر شيئا من الصور الحية ، وأرى أضواء حمراء تبدو في بعض جهات هذا المكان يغشاها ذلك السحاب كأنما تسبح منه في بحر لجي ، وكنت أمشي كخابط ليل وراء الدليل وعلى مقربة منه بين صفين من الموائد خيل اليّ انها تعوم في الضباب ، ورأيت عليها رؤية غير مستبينة آنية من القصدير كان لمعانها المعدني يجهد في صدع حجاب الظلام الدخاني المنسدل على القاعة كلها . ثم لمحت من خلال هذه الآنية وجوها آدمية لان بصري كان يتدرج في اعتياد هذا الجو الغريب والانس به ولم ينكشف عني الحجاب كشفا تاما الا عند ما بلغت نهاية القاعة حيث أقيم مصطلى عظيم ، فرأيتني في جمع حافل من الشبان على رؤسهم القلنسوات وفي أيديهم أكواب الجعة وفي أفواههم المداخن وبين هذا التشويش واللغط عثرت على حلاق (جمع حلقة) من الطلبة قامت بينهم مناظرات في مسائل مهمة ولم تعقهم عن المداومة على الشرب والتدخين .

لم تعتد أذني سماع الاصوات الالمانية اعتيادا يكفي لمتابعة مجرى الحديث وفهمه على اني فهمت من فحوى ما سمعته انهم يتناظرون في مقاصد ووسائل بعضها أسمى من بعض تتعلق باصلاح أحوال البشر ،

وكانت البراهين والنكت والمعاني تنبعث من أفواههم كأنها سهام نارية تنقذف بين أنفاس الدخان . ولما أنصف الليل غادر القاعة جميع الطلبة ورأيت بعض من لاحظت فيهم الحمية والغيرة على مصالح الانسان منصرفين الى بيوتهم وقد جعلوا يغنون جهارا في وسط الشارع أغاني مبتذلة ولم يبد عليهم حينئذ مايدل على انهم ذاكرون لما تعاهدوا عليه من اصلاح شؤون الكون .

أخص غاية للطلبة من اختلافهم الى المدارس الجامعة هنا بحسب ما سمعت هي أن يلوا عملا من أعمال الحكومة ، فكلهم يؤمل أن يكون خادما لها على تفاوت بينهم في ذلك ، فاذا حصل أحدهم على لقب دكتور مثلا رأيته يتقدم اليها حاملا شهادته راجيا أن توليه أحد الاعمال الخالية في ادارتها ، ومعظم هذه الاعمال لايولى الا بالامتحان ولاينالها الا من يظهر أنهم أعلم من غيرهم وحينئذ يعول الذين يخيبون فيه على الاشتغال بالاعمال المستقلة ، ولا أدرى أهذه الحالة وهي فرط الرغبة فى تقلد المناصب العامة هي التي ينبغي أن ينسب اليها التغير الذى يحصل فى عقول شبان الدكاترة عند خروجهم من الجامعة أم له سبب آخر .

فالواقع هو أنه ليس بين أخلاق الطلبة وأخلاق غيرهم من الالمانيين أدنى مشابهة :

الطلبة يتظاهرون بالتنفج (١) والشذوذ والعربدة ، ويخيل الى من يرى غيرهم من الالمانيين أنهم ممتلئون سكينة بل جمودا وبلادة والاولون مشهورون بالميل الى الثورة وبحب الحكومة الجمهورية وبعدم

(١) التنفج افتخار الانسان بأكثر مما عنده

المبالاة بالخوض فى أىّ بحث نظرىّ وبالهجوم على جميع المسائل سياسة كانت أو دينية أو قومية بما يدهش من جرأة الجنان . وبقيـة الامة يظهر عليهم التشدد فى الاستمساك بالعوائد القديمة وبالحكومة الملكية وترى الطلبـة يتباهون باحتقارهم جميع المميزات التى لا منشأ لها الا اتفاق النسب على حين ان أواسط الناس يحلون ألقاب الشرف اجلالا لاحد له . فترى الفريقين كأمتين متمايزتين . وليس للطلبة فى الحقيقة ارتباط بباقى الامة الا رغبتها العظمى فى أن يلوا لهم بعد مبارحة الجامعة أعمالا رسمية على أن هذا الارتباط كاف فى عدم اكتراث الحكومة كثيرا بما يبدونه من حدة افكارهم الحرة

دعتنى سيرة هؤلاء الشبان الى التفكر في سيرتى ، فاني قد بلغت التاسعة عشر من عمرى ولا مقام لى بين الناس بل لم يقف بي الاختيار حتي الآن على صناعة نافعة أشتغل بها ، واذا اردتنى على الاقرار لك بما أجده قلت انى أحيانا آنس من نفسى فتوراً في الهمة وضعفاً في العزيمة وأسائلها عما أصلح له من الاعمال وأناضائق بذلك صدرا . نعم انك قد رأيت منى تقدما سريعا مناسبا لحالي في العلوم ودرس كتب المتقدمين فى أربع سنين او خمس مضت وما ذلك ولا شك الا من الطريقة التى أهلتنى بها أنت ووالدتى للعمل العقلى وهي مراقبة الامور والاسفار وما تلقيته منكما من الدروس النافعة ولا أشك أن لى طمعاً فى العلم ولكننى أجهد فكرى فى استقصاء ما يعوزنى من الخصائص فآونة أتوهم أنى أحس فى نفسى بروح الهي يقدرنى على كل شيء . وساعات يخيل الىّ أنى قد فنيت فى عجزى وتجردت من حولى وقوتي ، وتارة تملكنى الافكار . وطورا

يستحوذ على وجدان الحاجة الى العمل والذى أراه يقينا أني لم أجد الى الآن استقامة واستقراراً فيما لنفسى من القوى ان صح أن يطلق ذلك على مالشاب مثلى من الشهوات القوية التى تدعوه الى السعي لادراك مقام له فى هذه الدنيا .

لما بلغت لمة منذ شهرين كنت أعتقد أني على علم باللغة الالمانية لما قرأته منها فى الكتب فما لبثت أن تبين لى خطئي فى ذلك ومنشأ هذا الخطأ أني كنت أحسن قراءة الصحف وعناوين الحوانيت واسماء الشوارع وما على الجدر من الاعلانات فان الجدر هنا كما تعلم تتكلم بالالمانية . فاذا جرت حولى المحاورات أصغيت اليها وما كنت اسمع الا أصواتا لا افقه شيئا من معانيها وكنت مطلق البصر أسير السمع لان من الاسر المعنوىّ الحقيقي ان يعيش الانسان بين قوم لا يفهم لغتهم . كان الغلام الذى فى الثالثة من عمره ـ وهو فى هذه السن لا يعرف من تلك اللغة الا التعلم ببعض الفاظها ـ يعرف منها اكثر مما أعرف حتى اني لما كنت احاول مخاطبته كان ينغض الىّ رأسه استهزاء كأنه يقول : «اليك عنى فلست أفقه لك قولا»

كنت بين اولئك القوم كالاصم الابكم الذى فقد كل وسيلة للتفاهم حتى لغة الاشارات فهل يمكن ان ينشأ عن الامواج الصوتية اذا اختلف انتقالها الى الاذن اختلافا يسيراً باختلاف كيفية تحريك الشفتين مثل هذه الحوائل والحجب التى تبعد الناس بعضهم عن بعض .

استأت جداً من هذه العزلة فجاهدت جهادا عظيما فى التجرد من الانكماش الذى أجده من حيائي الطبيعيّ وأنشأت اليوم أنطق بالالمانية

نطقا مفهوما وانى لا أعلم انه لا يزال يعوزني تحصيل الكثير منها ولكن من هو في مثل سني قد يبعد أن لا يحصل في قليل من الزمن لغة هو لا ينفك يسمع أصواتها من أفواه جميع الناس في هذه البلاد . وليس أصعب ما في هذه اللغة التكلم بها فيما أرى بل هو فهم ما يسمع من التحاور بها بين اثنين من أهلها فقد كنت ذات مرة في الملعب وكان اثنان من الممثلين يتحاوران فما استطعت في سرعة تحاورهما أن افهم كلمة منه اللهم الا ما كان من تحية المساء وهي ليلتك سعيدة .

مثل اللغات الاجنبية ان لم أكن واهما كمثل دخان التبغ بالنادى الذى حدثتك عنه في كونه كان يحجب عنى بادئ بدء رؤية ما كان فيه من الاشياء والاشخاص فهى حجاب سيزول على التعاقب وآمل أن سيظهر لي النور عما قليل .

أرجوك ان تنوب عنى في تقبيل «لولا» وأود لو أدرى هل هي مواظبة على سقي الازهار وتمام العناية بالطيور وتنسيق مجاميع الاعشاب والدفائن ؛ وآمل منك ايصاءها بأن تذكرني كما أذكرها . اه

اذا أنا كتبت اليك فقد كتبت الى والدتي فأنتما في قلبي لا تفترقان ولهذا لا أزيدها شيئا الا أسفى على حرماني من حجرتي الصغيرة التي كنت اسمع منها حركة غدوكما وروا حكما في البيت وعلى أنسى بقربكما عند اصطلاء النار ليلا فاني ههنا في وحشة أيّ وحشة اختم لك هذا المكتوب في الساعة الحادية عشرة من الليل على ضوء مصباح يعلوه عاكس ضوئي يسقط منه نور ضارب الى الخضرة ، وفي احدى زوايا حجرتي ساعة دقاقة من الصنف الذى يصوت تصويت الطائر المعروف بالكوكو عند

انقضاء كل ساعة تكرر تكتكتها التي لا تتغير، واسمع حسيس احتراق الحطب في التنور وصرير الباب من صفق الريح اياه، وأرى البدر خارج الحجرة شاحب الوجه يرنو الي من خلال ستارتين كبيرتين موشاتين بصور الاشجار والازهار مابين بيضاء وحمراء، وقد أحسست باغريراق عيني مع أن هذه الاشياء في ذاتها لا تدعو الي الحزن ولكن لا تلمني فاني مازلت طفلا ولست آسى على بلادي وانما آسى على مفارقة مهدى فاني أحبكما وأرجو من هذه الجهة على الاقل أن أعيش طول عمرى طفلا اهـ

الرسالة الثانية

من اراسم الي أميل

عن لوندرة في ١٣ فبراير سنة ـ ١٨٦

فراق الولد لوالديه سنة فطرية ـ العلم فى ألمانية ـ نقد الطالب مايقرؤه من أفكار غيره ـ القصد فى علوم المعقولات ـ نفع الامة بالقيام بالواجب على قدر الطاقة ـ اختيار الشاب العمل الذى يشتغل به بعد ـ بيان أنه لا حرية لامة يتكالب شبانها على تولى اعمال الحكومة ـ التحذير من الملحدين ـ بيان ان الرأى العام لاقيمة له الا اذا كانت الحكومة شورى ـ خدمة الامة لذاتها لا للجزاء

اذا كنت ياعزيزى اميل، تألم من استيحاشك فنحن نألم من فراقك ولكن يجب علينا التسليم والرضا بما لا بد منه، وأعلم انه لو كان في

وسعى ان أبرح لو ندرة واخلف من أقوم عليهم من المرضى لمرافقتك الى حيث أنت الآن لكنت فيه مترددا ، فقد آن لك ان تتعلم كيف تسير سيرة الرجال الطيور تحب أفراخها ولكنها متى آنست فيها من القوة ما يكفي لاستقلالها بنفسها فى الطيران شجعتها على تجريب أجنحتها فيه ، سنة الله الذى أراد أن يهب الحرية لجميع البرايا .

أنت تعلم حق العلم أنى لم أرسلك الى « بن » الا لاسهل عليك ادرس لغة الالمانيين وأخلاقهم وأفكارهم ، وأنا أعلم أنك الى الآن قد استقللت فى تعلمك فكنت فى باطن الامر وحقيقته استاذا لنفسك ومرشدا . وليس ماأخذته عنى من الدروس شيئا يذكر،ولكن قد اقتضت أحوال هذا العالم أن توجد مذاهب وطرق لابد فى تعلمها أن تلتمس من ينابيعها ، والمانيسة فى يومنا هذا هي مقتبس نور العرفان وهي البلاد التى يجب أن يعرف لها الفضل فى الحكمة والعلم والنقد وآداب اللغة ، ومدارسها الجامعة محط رحال الكثيرين من أفاضل الاساتذة وجهابذة العلماء ، ولست مع ذلك أدعوك الى قبول تعليمهم على غير بصيرة وتلقى أقوالهم وآرائهم قضايا مسلمة ، أذن أكون قد تخليت عن جميع الاصول التى أسير عليها فللانسان شيء لاينبغي أن يسمح به لاحد الا وهو حرية الفكر ، فالعلوم التى تتلقاها فى الجامعة لايمكن أن يتسع بها نطاق عقلك ويقوى بها ادراكك مالم تراقب مافيها من أفكار غيرك مراقبة ذاتية . واياك ثم اياك أن تنهك قواك التى أنت محتاج اليها فى العمل بفرط الانكباب على دراسة المعقولات بالغة مابلغت من الطلاوة وبعد الغور ، فان البحث فى المعقولات لاقيمة له

الا اذا أدى الباحث الى وسيلة ينفع بها نظراءه ، والمحب لنفسه من يقصر ثمرة فكره ودرسه عليها . لامراء في ان الاتصاف بالعلم من الامور الحسنة ، ولكن أجل منه وأحسن ان يكون الانسان محباً لوطنه نافعاً لاهله ، ولا يعرب عن ذهنك ان المانية ليست بلادك وان آثار سلفك هي حكمة القرن الثامن عشر وان أمك هي الثورة الفرنسية .

آلمتني عبارة من مكتوبك وهي قولك « انى أحياناً آنس من نفسي فتوراً في الهمة وضعفاً في العزيمة ، وأسائلها عما أصلح له من الاعمال وأنا ضائق بذلك صدراً » فاعلم أنه ليس من الضروري لتحقق النفع في الانسان ان يكون من كبار الرجال ، فأيما رجل صدقت نيته في فعل الخير وصح قصده للنفع فأنه يغير من حالة القوم الذين يعيش فيهم بقدر ما من التغيير ، وعلى كل حال ليست الحياة الا نتيجة القيام بفروض صغيرة ، فمن أداها كلها بما في وسعه من الوسائل كان في الغالب أفضل ممن يسعي في الاشتهار بعمل خطير . وليس شيء من أفكارنا ولا من أعمالنا بضائع علينا ، فان آثارها تظهر فيمن حولنا من الناس أو فيمن يخلفوننا ، ومن ذا الذى يستطيع ان يقول ان الحركات الكبرى التي غيرت أحوال العالم من جهة السياسة والعمران لم يكن فيها للمستضعفين الخاملين من الخدمة والعمل ما للرؤساء المسيطرين ؟ كلا ! بل ربما لم يكن ظهور هؤلاء واشتهارهم الا صورة منعكسة لفضائل اولئك ومساعيهم المحمودة .

اقنع بأن تكون كما أنت مع مواصلة السعي في تنمية غرائزك وتوسيع نطاق مواهبك بالدأب في العمل والمدارسة ، واذا احتجت في بعض

أوقاتك الى تكبير دائرة وجودك ، فتصفح دواوين الشعراء الحقيقيين وكتب أئمة النظار المشهورين، وتمتع بما تجده في نفسك عند مطالعتها من عظم القدر وسمو المكانة الذي يسري اليك منهم ، فان في ذلك غبطة لايحيط بها الوصف ، فاذا هبطت من هذه المقامات العلى لم تعدم حولك من النفوس الصغيرة المحتاجة للاستضاءة بنور العلم من يغنيك الاشتغال بهم عن الاهتمام بغيرهم ومن صنائع البر مافيه تسلية لك عما يعوزك من الخصائص . واعلم انه لايتألم مما في عقله من مواضع الضعف والقصور الا محب لنفسه أوخبيث ، وأما من يستسلم ويرضى بقسمته ويتعلم ليعمل فانه لايطلب فوق ماقسم له من العقل شيئاً بل يكون مغتبطا به غير حاسد لغيره

أراك أيضا تغلو في الاهتمام باختيار ماتمارسه من الاعمال ، فانه وان كان مما لامرية فيه ان كل فرد من الناس يجب عليه ان يعيش من كسبه وكده واني اغتم لو رأيتك مفرطاً في هذا الامر الذي هو اول فرض على الانسان - ينبغي ان تعلم ان جملة الدروس التي تتلقاها الآن مع كونها تؤدي الي جميع الحرف لاتفتح لك باب واحدة ، منها ولااري في ذلك مايدعو الي كدرك لان كل علم تحصله هو ذخيرة لعقلك فان لم يفدك في نفسك لقد تجد فيه وسيلة لنفع غيرك . على ان ما في الكون من طوائف الامور المختلفة وطبقات الحوادث المتباينة مرتبط بعضه ببعض فلابد في معرفة امر منها معرفة صحيحة من معرفة امور كثيرة لها بهذا الامر تعلق بعيد . ولست بهذا القول الزمك السعي في تحصيل مايسمى بالعلم العام ، الذي هو ضرب من الخيالات والاوهام ، وانما أريد به تفهيمك ان للعلوم قضايا

عامة لا بد لك من تصور حدودها الاصلية قبل تفرغك لتحصيل علم منها على حياله .

أنت ولى أمرك فى الحكم على مايلائمك من الاعمال وليس على الا أن أسألك عدم التأسي فى ذلك باخوانك من الطلبة فكن كما يرشدك اليه خلقك وميلك ، اما طبيبا أو محاميا أو مهندسا أو صانعا أو آليا أو غير ذلك ولكنى أسألك بالله أن لا تكون عاملا للحكومة .

أىّ حرية ترجي لقوم يتطلع المتعلمون من شبانهم الى الانتظام فى سلك عمال حكومتهم ؟ قد كان فن ظلم الحكام للناس فى الايام الخالية من الفنون الصعبة الكثيرة المشكلات التى يلزم لتعاطيها استعداد خاص ونفس كنفس مكيافيل (١) وأما الآن فيظهر من أحوال الرعية أنهم يعنون أشد العناية بكفاية حاكمهم مؤنة استعبادهم بالحيلة أو القهر لانهم يتهافتون على احتمال نير عبوديته . فأىّ ملك أو عاهل يجد حول أريكته رؤسا خاضعة واطماعا سافلة نهمة كاطماع الكلاب التى لا هم لها الا قضم العظام ، مادام بين يديه من الاموال الوافرة ماينفقه كيف يشاء ، ومن المناصب وألقاب الشرف والرتب الكثيرة مايوزعه على من يريد .

ليس الالحاد والوقاحة مقصورين على احداث ألمانية ، فانك حيثما حللت تجد من الشبان من لا يعتقدون بشيء ولا يوقرون شيئا فكن منهم على حذر ، لان هذا الفسوق العقلىّ يساعد قطعا على تثبيت الاوضاع القديمة . ذلك ان هؤلاء الذين يدعون لانفسهم حرية الفكر لم يخلصوا من

(١) مكيافيل هو أحد رجال الحكومة الايطالية ومن كتابها المشهورين ومن كتبه كتاب الامير وهو مختصر فى السياسة المفسدة للاخلاق

قيد الأثرة. ومن هذه الجهة تأخذ الحكومة منهم بالنواصى والاقدام، أعنى أن عبادتهم لنجح مساعيهم وطمعهم فى الوصول الى مايبتغون ، وظمأهم الى المناصب والتمتع بمرتباتها الجسيمة لاتلبث أن تدعوهم الى توقير النظام الذى سنته الحكومة وأجلاله، وإنى لا أعتد بجراءة العقل مالم تصحبها بسالة النفس وتنزهها عن الاغراض ثم انه مهما كان بلوغ كل أمنية فى الدنيا ممكنا بمحض هوى الغير ورضاه لم يعدم المستبدون عبيدا متحمسين فى خدمتهم يعملون لهم مايشاؤون ، وتجد من كانوا من الشبان بالامس منطقيين متحذلقين يصبحون وهم أكثر الناس سجودا للاموة واستكانة للسلطان .

ولاية أعمال الحكومة هي بلاء الامم فى هذه الايام فالبلاد التى رئيس حكومتها هو الذى يوزع مناصبها لايمكن أن تكون آراء الناس فيها الا نتيجة عمل حسابي لما يربح منها ، فاذا وقع خطأ سياسى أو دينى من الحاكم وكان ينتج للموافقين عليه بعد الحساب عشرة آلاف فرنك مثلا فانه يصير حينئذ صوابا ، واذا أتى أمرا خسيسا ودفع ضعف هذا المقدار قيل إنه قام هذه المرة بما تدعو اليه الهمة والبسالة فيجب الاخلاص له

يلهج الناس كثيرا بذكر الرأى العام ويقولون انه أقوى كفالة للحق والحرية ، وهو صحيح اذا كان أمر الامة بيدها وكانت هى التى تلى شؤون ادارتها ، وأما اذا كان حالها غير هذا فالرأى العام نفسه قد يكون فيها آلة للاستبداد ، فان أكفل وسيلة لظلم الامة هى اعدام شرف النفس من أفرادها وازهاق روح الاستقلال بينهم بتحبيب الحكومة القائمة اليهم ،

وحملهم على رجاء بقائها . ورب قائل يقول ان عدد العمال فى الحكومة لايذكر فى جانب السواد الاعظم من الامة ، فأجيبه ان هذا الاعتراض عبث لانه قد نسي ان بازاء كل عامل نال منصباً ألفاً من الناس يطلبونه ويرجون رجاء قوياً ان ينالوه يوما من الايام ، فعالم العمال يكاتفه عالم آخر من السائلين ومن ورائهم جميع طلاب الاموال واذا كان تحرير الناس من الاستعباد لايتأتي الا متى اعانوا عليه بارادتهم ، فأيّ وسيلة تبعثهم على ارادة التفصي من ربقته اذا كان فريق منهم وهم الذين تقوم لهم الحكومة بنفقات مطعمهم وملبسهم ومسكنهم قد بلغت بهم الحال الى ان يكون استعبادهم قوام معيشتهم ، والفريق الآخر يغبطونهم على هذه النعمة ولا يأسفون الا على عجزهم عن مشاركتهم فيها .

لست أقصد بهذا القول ان من لوازم للمناصب العامة تصغير نفوس القائمين بها او الساعين فى تقلدها . حاش لله فانها فى الحكومات الحرة كحكومة امريكا مثلا من شأنها ان تنمى فيهم قوة العزة ومكارم الاخلاق . لان الحكم فى اختيارهم راجع الى انتخاب الامة ولانهم انما يمرون بالاعمال مرورا ، ولان جميع الولايات لاتلبث ان يعود امرها الى الامة فتقلدهامن تشاء . ومن هنا يعلم اني لا أتكلم عن الامم التى حكوماتها مؤسسة على الشورى . وانما اتكلم عن الحكومة التى تولى الاعمال فيها بالمحاباة والهوى فشبانها يتدلون ويصغرون بسعيهم فى تقلد تلك الاعمال ، لان حكوماتها لاتبغي فى الحقيقة الا نفوسا سلسة القياد تلصق بما جرى عليه العمل من التقاليد الادراية ، وطباعا لينة عطفت على كل ناحية فلم تبق لها وجهة ذاتية ، وعقولا

مثقفة ـ ولو لم تسم عن عقول العامة ـ تستعمل زخرف القول فى تصوير ماوضع من النظام بصورة معقولة . واني لتمر بي ساعات أحدث فيها نفسي بان من ظلم الشعوب ان يلوموا حكامهم على استعبادهم، فاي معنى للومهم اذا كانوا قد جعلوا ان مقادتهم بايديهم ، وكان الاباء لا يتمنون لابنائهم الا تقلد المناصب ذات الرواتب العظيمة التى لاعمل فيها بدلا من صرفهم الى وجوه الكسب الاخرى بل اذا كان كل الناس يؤملون ان يكونوا عالة على المصلحة العامة ، ويودون لو ان للحكومة من العقل والوداعة مايكفي لمنعها من الانتفاع بما يقدمونه لها من الفوائد ، فما أسخف عقولهم اذ جعلوا أنفسهم ترابا ثم هم يدهشون من وطء الحكام اياهم .

أنا لا أنكر ان نيل الشاب منصباً من المناصب الكثيرة المقررة فى الحكومة أسهل عليه كثيرا من ان يفتح لنفسه باباً للكسب فى قومه بجدارته وأهليته الذاتية، ولهذا لا يلبث الانسان ان يعرف الامم التى اعتادت الارتزاق من حكوماتها لما يكون فيها من فقد الاستعداد لانشاء الاعمال وابتكارها، فترى فيها الصناعة والزراعة والتجارة تنساق فى مجرى العادة بتكلف وجهد ، والاموال تحذر الخروج من جيوب المتمولين ، والتقاويم التجارية التى تأبى الحكومة حمايتها ، يشق عليها ـ كما يقال ـ أن تطير بأجنحتها ، والصناعات الحرة تحوم حول السلطان لنيل الاعمال والمحاباة وترقب فرصة التطفل على مائدة المصلحة العامة ، وآداب اللغة والفنون تتأثر بقوة السلطان وتتدلى بتدلي الحياة العامة التى يحطها سلطان رجل واحد ، وحاجة التغذي من يد الحكومة تزيد على الدوام عدد طائفة الندمان والمتملقين .

كانى بك تقول لى : ان ذلك الذى وصفت عيب فى شكل من أشكال الحكومة وذنب لمجموع الامة التى ترتضى هذا الشكل ، وانه ليس مما يعتد به كثيرا ان يزيد عدد عمال الحكومة واحداً أو ينقص واحدا لانهم جيش لا يعد ؛ فأجيبك على هذا بأنى لست أجهل أن واحدا من الناس ليس فى قدرته ان يغير أحوال أمة بأسرها ، ولكن اذا ارتكن كل فرد من افرادها على هذه المغالطة فاستسلم للتيار المحتوم الذى يسوق غيره فلا ينبغى ان يرجى شرف للاوضاع القومية ولا حرية للناس . ان الامم اذا تدلت وفشت فيها عدوى التأسى وجب على كل انسان حقيق بأن يسمى انسانا ان يرفع لها من نفسه لواء المجد ويدعوها الى النهوض ، فانها لا تنهض من انحطاطها الا بالمجاهدة وبذل القوة الذاتية. وكم من رجل يشكو من خسة السرائر فى قومه ، ويتألم من دناءة نفوسهم ، وهو شريك لهم بالواسطة فى فعل ما أداهم الى هذه الحالة بكثرة خشيته وتحرجه فى سيرته ! فانه اذا تعفف هو عن تولى المناصب الرسمية قد يريدها لابن أخ له أو لاحد اللائذين ببيته ، وبهذا يصير شريكا فى الضرر الذى يندب سوء مغبانه .

هذه يا بنى أفكارى قد أفضيت بها اليك صراحية ، فان كنت راغبا فى بلوغ منصب رسمي فوسيلتك اليه ميسرة جداً وهي أن تذل وتستكين ، وأما اذا فضلت كرامة نفسك واستقلالك وشرفك على المزية التى تجدها فى سهولة فتح باب الكسب وسرعته، فانى أهنئك عليه من صميم فؤادى ، ولكن لا بد لك حينئذ ان تعرف ما أنت داخل فيه فانك بتنازلك عن رعاية الحكومة تضطر الى كسب قوتك بالعمل

والجهاد . ولا تجد من أحد حمداً على كدك ونصبك ، وترى كثيرا من الناس يسخرون من بسالتك واقدامك ، فعلام يحبونك اذا كنت تسفههم وتزرى عليهم بالنهج الذى تسير عليه فى عملك وفكرك ا .

اخدم الامة ولا ترج منها جزاء ولا شكورا ، فانها لا تملك ما تجزيك به ؛ لانه ليس بيدها شيء من أموال البلاد ولا من ألقاب الشرف ولا من وسائل التنويه واعلاء الذكر . على أنها قد تنكر مالك من حسن النية فى خدمتها ، فليس عليك حينئذ الا الاعتماد على قواك الجسدية والعقلية . . . وانه ليس فى هذا الانكار المتوقع ما ينبغي أن يريعك فليست أهم مسألة للانسان فى حياته أن يبلغ مقاماً سامياً ، بل المسألة الكبرى هي أن يكون قدره أعلى من المقام الذى يشغله .

وأما أخبار البيت فمنها أن «لولا» عهدت الي اعلامك بأن طيورك وزهورك فى حالة راضية ، وان دفائنك بعد أن حفظت فى بطن الارض مليونين او ثلاثة من السنين سالمة من التغير تغيرت قليلا من غبار لندرة ودخانها ، وبأنها قد رتبت مجموع حشائشك وانها أشد لك ذكرا منكَ لها .

وفى الختام أقبلك أنا وامك قبلة الوداع ونرجو ان نكون دائما على علم بدروسك ومقاصدك وحالة معيشتك فكل ما يتعلق بك يعنينا . اهـ



الرسالة الثالثة

من «أميل» الي أمه فى ١٢ مايو سنة - ١٨٦

افضاؤه اليها بحبه لقينة من الممثلات — كيف تعلق قلبه بها — استعلامه سيرتها ـ تمنيه انقاذها مما هي فيه ـ طلبه المغفرة من أمه بعد اعترافه لها بالحب.

انى منذ عرفت نفسى ابثك جميع ما يسوءني وما يسرني وما أكره وما أحب ، وأكاشفك بالخير . الشر ولا أكتم عنك شيئاً ، حتى انى لما كنت بحضرتك ما كنت في حاجة الي البيان · لانك كنت تطالعين أفكاري فى عينىّ ، و تبصرينها تجول على جبيني ، وهذه أول مرة لي في حياتى أسررت فيها سراً . . وليت شعري أأبوح به الي قصب نهر الرين ؟ اذا لتضاحكت منى كما تضاحكت من اذني الملك ميداس (١) أو ابثه الي القمر ؛ لا ! فقد سمع كثيراً من امثاله ، ام اكنه فى قلبي ؟

---

(١) ميداس بحسب ماجاء فى أساطير اليونان هو ملك فريجية وهو قطر من أقطار آسية الصغرى اشتهر بواقعتين نذكر احداهما فقط لاختصاصها بهذا الموضوع وهى اذ أبولون بن المشترى حكمه فى المناظرة التى قامت بينه و بين بان اله الرعاة فى الموسيقى والشعر والفنون وكان بان صديقا للملك فحكم له فلم يكتف ابولون فى الانتقام من ميداس بسلخ جلده حيا بل جعل له بدلا من اذنيه اذنى حمار فغطاهما ميداس بتاج حتى لا تظهرا للناس ولما علم ان حلاقه لابد له من رؤيتهما عاهده على كتمان امرهما ولكن الحلاق لم يلبث ان ثقل عليه الكتمان فاحتفر حفرة فى الارض بمعزل عن الناس واسر فيها قوله « ان للملك ميداس اذنى حمار » فاتفق بعد حين ان نبتت فى هذا المكان قصبات كانت كلما هزتها الريح كررت هذا القول

اذاً لا نبتني عليه سريرتي ، ما أنا بفاعل شيئا من ذلك بل أريد أن أودعه صدر أمي .

على ان الافضاء به ليس من السهولة بالمقدار الذي كنت اتوهمه فاني ما أنشأت اخط هذه السطور الاولي من مكتوبي حتى ارتعشت يدي وخفق قلبي ولست اخالك الا ساخرة مني، ولكن اقل ما انا واثق به منك انك لن تجدي على ان صدقتك الخبر ، واذا كان الامر كذلك فلا بد من افشائه وهو : اني احب .

الآن اراك تسأليني من هي التي تحبها واين رايتها واين عرفتها؟ وفي هذه الاسئلة ما يزيدني حيرة وارتباكا

في مدينة بن ملعب من الطبقة الثانية غير انه مشهور بحسن اختيار القصص التمثيلية فمما يمثل فيه قصة مريم استورات [١] وقصص شيلار [٢] وقصة غويت عن فوست ومرغريته [٣] وغيرها من القصص الشهيرة وللموسيقى والاغاني الموقعة عليه في هذا الملعب يومان او ثلاثة

(١) مريم استوارت هي بنت يعقوب الخامس ملك ايقوسية ومريم لورين — ولدت سنة ١٥٤٢م وماتت سنة ١٥٨٧م تزوجت بولي عهد فرنسة (من اول حكم فرنسيس الثاني) وبعد موت زوجها رجعت الى ايقوسية وتزوجت بهنري درنلي ثم بالكونت بوثويل ثم ثار عليها رعاياها فلاذت باليصابات ملكة انجلترة التي حبستها ١٩ سنة ثم امرت باعدامها (٢) شيلار شاعر الماني ولد سنة ١٧٥٩م ومات سنة ١٨٠٥ ومن اشهر قصصه المحزنة والنهبة والانشتين وغليوم تل (٣) غويت واسمه جان ولف جانج هو اكبر كاتب الماني ولد في فرنك فورسيرلين سنة ١٧٤٩م ومات سنة ١٨٣٢ م وفوست اسم لشخص خرافي مشهور في حكايات الالمان بانه تعاهد مع الشيطان .

تحل فيهامحل الاديبات والوقائع التمثيلية واناذهب اليهفى بعض الاحيان لسببين أولهما ترويح نفسى من عناء الدرس وثانيهما ايلافها أصوات اللغة الالمانية . فمن نحو شهر ابتدأت قينة باڤييرية[١] فتية تغنى على الموسيقى هناك، وكان أول ماغنته قصة النبي من توقيع ماوبيرفبلغت من الاجادة فى تغنيتها الى حد أن جميع طلبة الجامعة كانوا يلهجون بذكرها كانها آية من الآيات فجريت معهم فى مساق الاعجاب بها ، ولما انطلقت الى الملعب ورأيتهاداخلةفى باحة التمثيل كان كلي عيوناتبصر وآذاناتسمع وليس صوتها هو الذى اشتد اعجابي به مع كونه من أندى الاصوات وأندرها بل الذى ملأنى اعجابا هو ماقى تغنيتها من الروح بل ماقى خلقها من الحسن والاتقان ، فبت ليلي كله أحلم بها ولا يفارقنى طيفها وكنت أراها بين الافلاك السماوية واسمع أنغام الكواكب الموسيقية فكأن فيثاغورس[٢] كان يحب قينة مثلى عند ما كان يحدث تلاميذه عن حسن ألحان النجوم .

ولخوفى من انقضاء اعجابي بها فيما يلى من التمثيل عاهدت نفسى على أن لا أختلف الى الملعب ليالى تغنيتها ، ولكنى ما استطعت أن أوفى بعهدي وقد أنتنى عنى كثيرا خوف اقلالى من التحمس فى حبها بما اكتشفته فيها على توالى الايام من الخصائص الجمة التى لم اكن لاحظتها

(١) نسبة الى بافييرا احدى ولايات المانية

(٢) فيثاغورس فيلسوف يونانيّ ولد فى ساموس سنة ٥٦٩ ومات سنة ٤٧٠ م أقام بمصر وبابل مدة طويلة ثم رجع الى بلاد اليونان وأسس مدرسة فى كروتون وهو أول من قال بالتناسخ وعرف نظام العالم الحقيقيّ .

من قبل ، ولابد من الاعتراف لك بأني كنت أجلس فى الصف المواجه لباحة التمثيل بحيث أكون مرئيا لها وقد حسب لحظي مرة أو مرتين انه لاقى لحظها . . . ولكن ربما كان هذا ضلالا ، ومع ان التمثيل كان يمكث اكثر من أربع ساعات كنت دائما أجده فى غاية القصر وأغادر مقعدى فى ختامه وقلبي مفعم بما لايوصف من الاضطراب .

خطر فى ذهني أن أخاطبها بأبيات من الشعر أنظمها وأرسلها اليها غير ممضاة مني على يد بواب الملعب الهرم ففعلت وكنت أقول فى نفسي وقت نظمها : أقل فائدة لى منها أن تعلم ان واحدا من الناس يحبها ، ولكنها كانت أبياتا رديئة ، وأقر بأنها ما كانت تؤدى نصف ما كنت أضمره لها من عواطف الميل وهذا مادعاني الى عدم اعتقاد صحة ماقيل من أن الشعر من لوازم الحب كما قرأته ذات مرة فى بعض الكتب ، وليس فى قدرة أحد ـ حاشا المصطفين من الخلق ـ أن يعبر عن كل مايجده فى نفسه ، ويا ليتني كنت واحدا من هؤلاء النوابغ المتازين.

كنت من مساعيّ فى القرب من هذه الفتاة واقفا عند الحد الذي بينته لك ، فبينما أنا فى يوم من أيام الآحاد أجوب المتنزه الذى تجتمع فيه نساء المدينة فى نحو الساعة الثانية بعد الظهر اذا بها أقبلت آخذة نحوى فى مخرف ، فخطر ببالى أولا أن أتنكب هذا المخرف بسلوك احدى السبل المقاطعة له لانه كان يخيل لى أنى سأصعق مما قام بنفسى من ضروب الانفعال والاضطراب ، غير أنى تثبت ومشيت مشية الجنديّ الباسل الذاهب الى حومة الوغى فرأيتها فى بزة بالغة من الرونق غايته على

بساطتها . وآرباه ! كم وددت لو كنت فى تلك الساعة قفازها أو زهرة قلنسوتها أو مظلتها التى تقيها حر الشمس ؛ أقول ذلك وأنا أعلم انه كان مني قبيحا ولكن لا ينبغي ان أكتم عنك شيئا من مواضع ضعفي .

في اللحظ خاصة الجذب فانى كنت أشعر من لحظي اذا رنوت اليها أن كله اقرار وتصريح بالحب ، ولما مر كل منا حذاء صاحبه جرى على وجهي لألاء حسنها كما يجرى لمعان البرق ، ولم أجسر على الالتفات خلفي الا بعد ان جاوزتها بثلاثين خطوة فرأيتها قد بعدت عنى مهرولة غير أنى بصرت في المسافة التى بيني وبينها بشيء أبيض يخفق خفوق جناح الحمامة من صفق الريح اياه فما تريثت في التقاطه فاذا هو منديلها قد سقط منها . . . أو تعمدت اسقاطه . فعدوت خلفها ودفعته اليها فأظهرت الدهش من ضياعه وتلطفت في اسدائى الشكر على رده وراقني أن سمعتها تحسن التكلم بالفرنسية فلاح في ذهني أن أعرفها أنى صاحب الشعر الذى أرسل اليها ولكنى كنت من شدة الاضطراب الذى استولى على نفسي بحيث لم أستطع تحريك شفتى بكلمة ولابد أن تكون حسبتني أبله .

يزعم العارفون بتركيب الحيوان ومنافع أعضائه ان الذاكرة لا تحفظ الروائح وعذرهم فى ذلك انهم لم يحبوا في حياتهم فان منديلها وهو قطعة من النسيج البانسىّ [1] الرقيق كان يتضوع عن عطر لطيف لن أنساه مادمت حيا وفي اليوم التالى لهذا اللقاء انطلقت الى ماحول المدينة من الربى الزاهرة فجنيت باقة من ألطف ماوجدته من الزهور البرية وأدلها على العفاف ، ولما حان وقت التمثيل خبأتها فى قلنسوتى المدرسية

وأخذت مجلسي في الملعب فغنت كعادتها بصوت يسمو بسامعيه الى السحاب ، ولكن كان يخيل الى ان هذه المرأة التي لاقيتها في الطريق أمس ذلك اليوم أكمل من قينة وان كان استعدادها للتغنية مثارا للاعجاب . وبعد ان انتهت من غنائها وانصرفت استعادها جميع السامعين فهطلت حولها باقات الزهر من غرف الملعب والكراسي المقابلة لباحته وآن لي أن ألقي اليها باقتي فاهتممت غاية الاهتمام بأن تبصرني عند القائها مع تظاهري بالاختفاء خلف جيراني ، وما أدراك مافعلته حينئذ ؟ لقد أهملت كل ما القاه غيري من الازهار النادرة مثل زهر الكاملية [٢] وزهر التين الهندي والورد ذي الاشنة وعمدت الى باقتي الحقيرة المؤلفة من أزهار برية فتناولتها وضمتها الى قلبها أفلا ترين في ذلك برهانا على حبها لي ؟

ستقولين لي : أنت لاتعرفها وقد تكون مخالفة تمام المخالفة لما تخيلته منها ، وانه كان ينبغي لك قبل ان تملأ نفسك بالاماني والاوهام ان تكون على بينة من أخلاقها وكيفية معيشتها فاجيبك أن هذا أيضا لم يفتني وأقر بأني لم أقف من تحري سيرتها الا على أخبار لايزال فيها شيء من الغموض ولم يجتمع لدي في هذا الصدد الا أقوال في غاية التعارض والتناقض ، فانت تعلمين مقدار ما للشبان فيما بينهم من القسوة على النساء ولا سيما الممثلات ، فقد بلغ الحسد من افساد خلق الانسان الى حد ان جعل من لذاته تمزيق أعراضهن مع ما لهن من الملكات التي هي مناط

(١) الباتستي نسبة الى باتست وهو أول صانع لهذا النسيج (٢) الكاملية زهرة يابانية جلبها الى أوربة مرسل ديني اسمه كاملي فنسبت اليه .

الاستحسان العام ، ولست بمخف عنك شيئاً مما يقولون فبعضهم ينسب لها من هنات الشباب مايغير دمي ويثير غضبي ، وبعضهم يقول انها تعيش مع أمها في حي منعزل عن المدينة ، وقد أراني الطلبة هذه الام تصحبها ليلا عند خروجها من الملعب فلم أجد بينهما مشابهة ما . وان أردت الوقوف على شيء من نعتها فتخيلي امرأة ضخمة من عامة النساء قد ذر شاربها ، واني لمتألم من تصور أن مثل تلك الزهرة قد نبتت من هذه المدرة ، ومهما يكن من وضاعة أصل تلك الجارية فمن الفضل أن تعامل بجميع مايجب لفتاة مخلصة مثلها من صنوف الرعاية والتكريم .

على اننا ان سلمنا حصول أسوإ مايتأتى حصوله منها وفرضنا أن سيرتها لم تكن دائماً مرضية ، أفلا يكون الذنب في ذلك على مهنتها وعلى من يعاشرونها من الناس ؟ اني أراها بالغة من الظرف والكياسة مبلغاً استبعد معه أن لاتكون لها نفس زكية ، وربما لم يتفق لها في حياتها أن تمثل لها الحب الصحيح المطهر للنفس بشراً فاضلا كريماً . وآرباه ! أي فخر أناله لو أتيح لي أن أمد يدي الى تلك الروح الملكية فأنتاشها من درك الانحطاط الذي هبطت فيه لتعود الى نور الهدى والفضيلة .

ها أنا ذا قد كشفت لك مكنون سري ، ونجوت بهذا الاعتراف من شديد زجر سريرتي ، والآن أقع بين يديك راجياً منك غفران خطيئتي .

الرسالة الرابعة

(من هيلانة الى ولدها)

عن لندرة فى ٢٣ مايو سنة — ١٨٦

فى بيان وجوب عدم تداخل الوالدين فى حب ولدهما

وتلطف الام فى نصحه وبيان انخداعه

لقد راقنى منك يابنيّ العزيز صراحتك وموافقة سرك لعلانيتك واني مجتنبة كل الاجتناب ممازحتك فى غايتك التى نطت بها أمانيك ومع اعترافى بأن ماقصصته عليّ فى شأنها لايخلو من أمور تدعوني الى التفكر وتبيح لى أن أنبهك فى أمرها الى تفاصيل اخالها مريبة ، أتحامى أن أجرد تلك الامانيّ من زهورها وأعريها من روائها ، فليس عليك الا أن تذكر انك شاب غرّ لم تختبر شيئاً من أمور الدنيا ، وانك واأسفى : لسرعان ماتتعلم أن لا تغتر بالظواهر ، وعسى الله أن لا يجعل فى ذلك خساراً عليك .

قد تعاهدت أنا وأبوك على عدم التداخل في محباتك بحال من الاحوال فأنت حينئذ آمن ضروب عذلى وتأنيبي ، ولكنك بما صرت ولي نفسك مسئول عن جميع مايقترفه قلبك في سبيل الحب من الآثام وأعلم أن من هو فى مثل سنك يكون شديد الارتياح الى الاغترار

والانخداع ، فكم شاب يحسب من الحب ماليس هو الا اضطرابا فى مشاعره وسرابا يبدو لحواسه لان الحب الصحيح هو الاستيلاء على نفس المحبوب ولا يبلغه الا من كان حقيقاً به وأهلا له

لم يعلق بنفسى أدنى أثر مما للناس في الممثلات من الاوهام ، وانهم لظالمون في حكمهم على كثير منهن ، وحاشا أن أحكم على تلك القينة التى فتنتك بمحاسنها وأنا لا أعرفها ، وانما أنبهك الى انك ليس لك حتى الآن أدنى وجه صحيح في أن تستنتج من بعض أحوالها معك انها تفضلك على غيرك من عبادها ، فمن غرور الشبان ان يعتقدوا انهم محبوبون لانهم محبون . على اني أسلم لك ان قلبها ملبّ لعواطفك فالذى تعرفه منها والذى تتلمسه من وراء حبها ليس من الخصائص المقومة للمرأة في شيء ، لانك انما تعشق منها تغنيها وحسنها ودعابتها وهي مزايا تستفيد العامة منها أكثر مما يستفيده الرجل الذى قد تصير صاحبة له ، فهل تدرى ما يبقى لتمثال حبك الذى تعبده من المحاسن اذا زال عنه زخرف الملعب وورنقه وغرور العشق وخدعه ؟

أنت نفسك فيما يظهر لى مرتاب من ماضى سيرتها لانك تتمنى لو اتيح لك انقاذها من الدرك الذى هي فيه ، وهي فكرة كريمة جعلها أدباء العصر بدعة من البدع ، ومعاذ الله صيانة لشرف المرأة نفسه ان اعتقد أن ذنوبها لاتكفر ، بل أسلم ماقلته من أن الحب قد يمحو بعض الادناس ، ولكننا لانعلم كثيراً من أمثال النساء اللاتي أبن الى الرشد بعد الغي . ثم أني لاأظنك فكرت فيما يعترض مقصدك الدال على

البسالة من الصعوبات والعوائق ، فان انقاذ الخاطئات الذى يحسن الطيش لبعض الشبان الا غرارا أن يدعوه لانفسهم يلابسه فى معظم الاحيان من الكبر والعجب أكثر مما يصاحبه من الاخلاص الحقيقىّ فكأنهم بهذا يعتقدون أن ملائكة العشق اللاتي اهبطن الى حضيض الرذيلة ليس لهن من الصاف والاباء مثل مالهم .

أن من يحاول ذلك العمل يجب أن يكون بالغاً من قوة النفس ولطف الذوق مبلغاً عظيما يسمو به عن الغض من المرأة الخاطئة واذلالها ثم هل أنت فى سنك هذه تأنس من نفسك قوة وإقداما على كتمان الغيرة فانها تبكيت ومؤاخذة للمرأة التى لم تكن طول حياتها عفيفة ؟ وهل لك من السلطان على نفسك مايكفى لاخفاء مايكون فى معظم الاحيان مثاراً للريبة منك وهو ندمك علي أجلالك لمثل تلك المرأة مع انه لايسمح به عادة الا للزكية الطاهرة ؛ فاذا كنت لم تستكمل هذه الصفات فخل الجهاد عنك لانه لا يكون من ورائه الا زيادة من تزعم انقاذها خبراً .

من الامهات من يكتبن لابنائهن فى هذا الموضوع علي أسلوب مغاير لهذا تمام المغايرة ، فقد يؤنبنهم ويجتهدون فى تخويفهم من عواقب طيشهم ، وغير الامهات ربما لايرين فى كل هذا الا مقدمة لواقعة من الوقائع الشائع حصولها بين الشبان وهفوة عادية من هفوات الطلبة ، وربما قلن فوق ذلك وهن مبتسمات : تهوينا تهوينا فمن الواجب اقالة عثرات الشبان . وأما انا فأعلم انك جادٌ فيما كتبت والا لما أفضيت اليّ بسرك ولهذا أجبتك بالجد ، ولست أخاف عليك الا أن تكون خدعة

لما فى خيالك من التوقد الذى هو من لوازم سنك ، ومن العبث القول بالتسامح فى أمر الحب فليس أحد يسلم عليه بالاستخفاف به لانه اذا لم يرفع النفس ويزكيها فانه يسفلها ويدسّيها ، وحسبي ما قلته فى هذا الموضوع فلا ازيدك عليه شيئاً .

جاءتنا أخبار من البيرو فقد كتب الينا فوبيدون وجورجية بأنهما يذكرانك انت و « لولا » ذكرا كثيرا .

ومما ينبغي ان تعلمه ايضاً ان « لولا » تفكر فى اختيار مهنة لها ، فقد قالت لى من أيام مضت « أريد أن أتعلم حرفة من اجل ان . . » وما عتمت ان فرت الى حجرتها قبل أن تتم كلامها وقد احمر وجهها خجلا .

وأراني أدركت مرادها وهو أن المرأة التى لا مال لها ولا حرفة ليست حرة ، فاذا تزوجت فانما تزوج فى الغالب مقام زوجها ومكانته ؛ و « لولا » لعزة نفسها وإبائها تتذمر من هذا الاحتياج ولا ترضى الاستكانة له ، فهي تريد ان تقول يوما ما لمن يروقها من الناس : ان فى استطاعتى أن أعيش بعملي واني اذا اخلصت فى تحصيل الاغتباط والسعادة لك فذلك لأني أحبك ،

استودعك الله يابنيّ العزيز وأوسع صدرى على الدوام لتلقى أسرارك ومشاركتك فى آلامك ، وابعث لك فى هذا قبلة الحب الذى لا يتغير ، الا وهو الحب الذى لك فى قلب أمك . اه

الرسالة الخامسة

من « اميل » الى أبيه

المدرسة الجامعة

فى ١٠ يوليه سنة — ١٨٦

كلفتنى أن أجعلك على علم بدروسى فموافقة لرغبتك أقول : الجامعة التى أختلف اليها بناء فى غايه الجدة وتفتح قاعاتها للتدريس فى فصل الصيف من الساعة السابعة صباحا الى الساعة الاولى بعد الظهر ومن الساعة الثالثة بعده الى الساعة السادسة وتنقسم دروس الاساتذة فيها الى عامة وخاصة ، فالاولى تلقى بالضرورة مجانا ويدفع الطلبة فى مقابل تلقى الثانية « فريدريكين » ذهبا (٥٠) فرنكا كل ستة أشهر ، وتنقسم جامعة « بن » مثل كل الجامعات فى ألمانية الى أربع مدارس اختيارية احداها للقوانين والثانية للحكمة والثالثة للطب والرابعة للالهيات ويتعلق بكل من هذه المدارس الاربع فروع مختلفة يدرسها فيها رجال مخصصون بها .

الجامعة تخلى بيننا وبين حرية التصرف فى وقتنا اما باضاعته أو بالانتفاع به لانى لا أرى لاحد منها ادنى تفتيش ولا أقل هيمنة علينا فى سيرتنا ، على انى اعتقد ماقلته لى كثيرا من أن النظام التأديبى الناجع هو مايفرضه الانسان على نفسه ويلتزم أتباعه .

لامراء فى أن أساتذة جامعتنا متضلعون من العلوم غير اني كثيراً ماشق علىّ أن أتتبع سلسلة أفكارهم فى الدروس لسببين ، اولهما أن هذه الافكار ليست فى ذاتها واضحة ، وثانيهما اني لقلة تعودى تصوير فكرى بالالمانية حتى الآن اجد من الصعوبة فى فهم تلك الافكار أكثر مما يجده غيرى من المتعودين . ويدهشنى من أمر هؤلاء العلماء أنهم على سمو مكانتهم فى العلم وبعد صيتهم مغبونون فى أجر عملهم اذا استدللت على هذا بما يبدو عليهم من رقة الحال وبقناعتهم باليسير من العيش ورثاثة ملبسهم الذى يكاد يكون وسخا . وفقرهم هذا يؤلمنى ويزيدهم فى نفسى إجلالا على اجلالهم الذى تدعوني اليه معارفهم ، فأولئك رجال يحبون العلم لا لكسب المال ولا للتمتع بالحطام وانما يحبونه لما يحصله للعقل من لذاته وضروب اغتباطه

ثم ان بعض المدرسين يرتجلون الدروس مطنبين فيها ، وبعضهم وهم الاكثرون يأتون بها مكتوبة فيلقونها على الطلبة ، وهؤلاء يصغون لما يلقى عليهم ويكتبون مايعلقونه منه ، وقد وضعت لنفسى نمطا فى اختزال الكتابة وهو وان كنت لاأشك فى قصوره لاوليته يمكننى من اثبات الحدود الاساسية لما أسمعه من الجمل .

ينقسم الطلبة باعتبار مذاهبهم الى كاثوليكيين وبروتستانتيين متشددين يعد بعضهم نفسه للاعمال الخطابية ، وحكماء يجتهدون في تأويل المذاهب تأويلا مطابقا للعقل ، وماديين وهم قليل يصرحون بأن زمن الديانات قد انقضى وانه لاينبغي اضاعة الوقت فى العكوف على مالا حقيقة له من هواجس القرون الوسطى وأحلامها .

رأيتك دائما تجتنب الخوض معي في المذاهب والاسرار الدينية واستنتجت من سكوتك عنها أنك قصدت منى الاستقلال بنفسى فى الاعتقاد ، ولقد حملتنى عظيما فاني حتى هذا اليوم فى غاية البعد عن معرفة ما يستقر عليه فكرى فى كثير من المسائل التى توجفنى محاولة سبر غورها على أنه لابد من الاقرار لك بأني لست مطرحا هذه الطائفة من الافكار ولا مغفلا لها ، فكم من مرة نظرت الى السماء فى سكون الليل وحاولت على حداثة سنى وجهلى أن أقرأ فى نجومها حلا للغز هذا العالم ، وإني منذ اليوم الذى شهدت فيه إلقاء جثة الملاح فى البحر — واخالك تذكره — لا ينفك عنى التفكير فى سر الموت حتى فى أحلامى ، وقد سألت القبور أن تكشفه لى فلم تحر جوابا فعمدت من عهد دخولى الجامعة الى مطالعة ترجمة الفيدا [١] الالمانية والزنداويستا [٢] والتوراة فأثرت قراءتها فى نفسى تأثيرا بليغا وكان يتراءى لى منها عالم جديد ولكن من خلال ظلمات لا يسعنى الا الاقرار بأنها لم تنقشع ، ولست أدري أأعكف على دراسة هذه الكتب أم أعدل عن إماطة هذه الظلمات عما لا يتناهى فلا أشتغل الا بما هو ثابت محقق من نتائج العلم .

أنا الآن أحوج الى ارشادك والاستضاءة بنور علمك منى فيما مضى ، ومن ذا الذي أسترشده وأستهديه سواك . ؟

---

(١) الفيدا كتاب الهنود المقدس وهو اسم عام تحته أربعة كتب خاصة وهى الريجفيدا والساميدا والباجورافيدا والاثارفيدا (٢) الزاندويستا مجموع ما لأتباع زردشت من الكتب المقدسة

جميع الطلبة يتعلمون المجالدة والمناضلة وأنا مقتد بهم في ذلك ، فلي كل يوم ساعة أو ساعتان أقضيهما في ممارستها لان في هذه الممارسة تمريناً مفيداً في تقوية الاعضاء وتنميتها ، ويؤكد العارفون من الطلبة أن أمهر المجالدين من يندر التحرش به . ومع اني لا أرجو مطلقا أن أبلغ في المجالدة والمناضلة مبلغ الفارس سان جورج [1] أود لو أثبت في قاعة الممارسة ثبوتا كافيا اني على علم باستعمال السلاح حتى يحسب الطلبة حسابي فلا يستخفون باغضابي فان للمبارزة كثيرة الوقوع بينهم وهم يجرحون فيها أحيانا ، ولكن يندر والحمد لله أن يقتلوا ومن يجرح منهم لا يبالي بخدش وجهه بل يعتبر ندب الجروح على مافيها من التشويه لخلقه من موجبات اجلال النساء له .

أختم مكتوبي راجيا أن تثق مني بدوام محبتي لك وتعلق قلبي بك اهـ

---

(١) سان جورج شخص يذكر في الاساطير انه أمهر المجالدين والمناضلين



الرسالة السادسة

من اراسم الى « اميل »

فى التربية الدينية والفلسفية

قد حزرت ياولدى مقاصدى في تربيتك الدينية فاني أردت أن أخلي بينك وبين عقائدك مع علمي بمخالفتى في هذا مخالفة تامة لما تجرى عليه الامور عادة. ذلك أن الطفل لا يكاد يولد حتى ينسب الى أحد المذاهب التى تتنازع حكومة الدنيا فيتكفل والداه بتقليده دينا محتجين فيه بعدم أهليته (وهو أمر بين البداهة) لان يحكم بنفسه ويسبق عرف بلاده وعوائد قومه وتقاليد بيته الى تحديد الدين الذى يجب انتسابه اليه وهو الاستيلاء على نفسه. فديقول قائل: ان الوالدين اذا فعلا ذلك فهو لانهما يعتبران أنفسهما نائبين عن الامة في القيام على المولود قبل أن يعرف نفسه بنفسه. فأجيبه أسلم لك ذلك ولكنى أقول: ان كان من حق الامة ان تؤدى الى المولود دينا كان حقا عليها أيضا أن تختار له حرفة أو عملا من أعمال الحكومة واذاً نصير في حكومة دينية اشتراكية.

لا ينبغي أن نجعل ولادة المولود سببا لسلب حريته فان انقسام الوالدين في ضروب الوجدان واختلافهما في الانظار حتى في أيامنا هذه يجعل ولا يتهما عليه مشكلة مرتبكة. ذلك أنه لا حرب الاحرب البيوت

فان شأن الوالدين في الدين غالبا أن يكون الاب كافراً والام مؤمنة[1] فكيف يكون الولد اذا تنازعه هذان المؤثران ؟ أقول انه يكون كأهل زمانه حيران عاجزا فانا كثيراً ما نلاقى فى الناس شبانا مشغولين بترقيع سرائرهم بخرق من مذاهب المتدينين ، يخيطونها مع آراء الاحرار من المفكرين ، ونصادف آخرين شاكين حائرين ، مع بقاء استمساكهم بأوهام الواهمين ، وقد فشا فى الناس التباين والتناقض وعم بينهم التشوش والاختلاط .

وأما أنت فأنك والحمد لله لم تبتل بشيء من هذه المحن لانى أنا وأمك ! نعتقد أن من حقنا أن نغتنم فرصة نوم عقلك فندعوك الى اتباع ما نحن عليه بدون أن يكون فيه رضاك ، واعلم أن لي ككل انسان غيري رأياً فى المذاهب الدينية والحكمية التى يختلف الناس فيها وهو لا يلزمك شيئا ولا ينبغى أن تحفل به

، أكرم أباك وأمك ، ولكن لا تطع الا قلبك ، فأنت حر ومن حقك أن تسعي وراء معرفة الحق مستعينا فى ذلك بالهمة والبسالة والنزاهة ، ولقد كان هذا السعي الى اليوم خارجا عن وسعك وبعيداً عن مقدورك فيجب الآن أن يكون هو عملك فى جميع حياتك

ومن المفروض عليك قبل أن تقتنع بشيء فى مثل هذه المسائل الخطيرة أن تبحث فيها وتدرسها ، فان مثل من يرفض المذاهب الدينية أو الحكمية على غير علم بها كمثل من يقبلها بدون بحث فيها ولا نظر ، كلاهما مناقض لنفسه ، غير مسدد فى رأيه ، ولا شيء في الحقيقة أدعي

(١) هذا شأن خاص بالافرنج ومن قلدهم بلا بصيرة من المسلمين

الى الضحك من وقاحة أحداث الدكاترة الذين يجهرون بأن المباحث النظرية التي ارتاض بها أمثال ديكارت (١) واسبينوزا (٢) وباسكال (٣) ولايبنتز (٤) وهيجل (٥) ليست خليقه بالتفاتهم وميلهم، فالجهلة الاغبياء منهم كلهم يطنطنون بها في هذه الايام وهي قول أحدهم وهو لم يفتح في حياته صحيفة من كتاب الكون «مالي ولاضاعة وقتي في حل مالا يسبر غوره من مسائل وجود الله، وخلود الروح، ووحدة الروح والجسم أو تغايرهما فحسبي الاشتغال بالعلم»

أنا لا أشك في أن العلم الآن مشتغل باستئناف عمل الديانات سالكا فيه طرقا أخرى مغايرة لطرقها كل المغايرة فانه يرجو من البحث في الحوادث بحثا تجريبيا ومراقبتها مراقبة قريبة أن يصل الي حق اليقين الذي كان أهل الدين يرجون بلوغه من طريق الهداية الالهية. واني لجازم بأنه قد سلك أقوم المناهج لبلوغ الحق وان كان من المتعسر معرفة النتائج التي يؤدي اليها بحثه. واذا فقهنا حالة المعارف على ما هي عليه الآن وجدنا شأنه المطرد أنه لم يفدنا في بعض ما قد يهمنا استقصاؤه من المسائل الا

(١) ديكارت هو عالم رياضي ومهندس طبيعي وأخص مايعرف به أنه فيلسوف فرنسي شهير يدعونه أبا الحكمة الحديثة لكلامه عن طريقة البحث عن الحق ولد سنة ١٥٩٦م ومات سنة ١٦٢٠م (٢) اسبينوزا فيلسوف ولد في امستردام سنة ١٦٣٢م ومات ١٦٧٧م باسكال هو مهندس كبير وكاتب شهير ولد في كليرمونت فراند سنة ١٦٢٣ ومات سنة ١٦٦٠م اثبت ثقل الهواء في سنة ١٦٤٨ وفي سنة ١٦٥٤ اعتزل في بور رويال دوسان حيث كتب أقليمياته وافكاره (٤) لايبنتز هو عالم شهير ولد في لايبزج وهو مخترع حساب الفروق الدقيقة (٥) هيجل فيلسوف ألماني ولد سنة ١٧٧٠ ومات سنة ١٨٥١م

شيئا من المعرفة قليلا جدا

فانا اذا استثنينا علم تركيب الحيوان لانه قد أمكنه أن يؤدي الينا معنى من معاني الانسان على ما فيه من المذاهب المتعارضة والآراء المتناقضة وعلم طبقات الارض لانه قد فتح لعقولنا منافذ نمج منها على بعد منشأ الحياة، رأينا ان العلوم الصحيحة لم تكشف لنا الستار حتى الساعة عن علة ما من العلل الاولى التي هي أهيج لشوق العقل من سواها ، ولكن قد يجيبني مجيب بأن هذه العلل لا ينبغي الاشتغال بها قطعاً لانها ليست من متناول العقل، فأقول له : ما هي غاية علمك في هذا ؟ أتظن أن ما حصل من تجارب الانسان في بضعة آلاف من السنين يسوغ تحديد قواه وملكاته المتزايدة ؟ أم تريد أنه يكفيه على كل حال أن يسدل الحجاب على ما يجهله لينيم طمع عقله ويخمد شوق ادراكه ؟ أنا لا أعتقد من هذا شيئاً بل أقول ان الانسان لا يسهل عليه الاستخذاء للجهل والاستكانة له اما لشرف في طبعه أو لخسة فيه.

ولو أنه كان يكفي للتخلص من المسائل المحيرة أن توصف بانها معضلة لا حل لها لكان التفصي منها في غاية السهولة . كل حي يطلب النمو لجسمه ما عدا الانسان فانه هو الذي يختص من بين سائر الكائنات العضوية بطلب الارتقاء بفكره الى ما وراء حاجاته المادية . فطلبه الارتقاء الفكري موجود فيه سواء سمي خيالا أو غريزة دينية ، ولست أدري مطلقا مما عسى أن يعود على العاملين على ازالته من العائدة بتكلف احتقاره والزراية عليه ومن ذا الذي في وسعه منهم أن ينتزعه من النفوس الشعرية ! فان تطلع الانسان الى ما وراء حدود عقله من مقتضيات خلقته ، وليس من حقنا أن نعتبر بعض الامور التي يتطلبها الفكر خادعة أو وهمية لمجرد

انها تحير عقولنا أو تنبو عن ادراكنا ، فاما ان كان قصدهم تجريد ما يتصوره العقل من منتهى غايات الكمال ، مما يقارن تصوره من مروعات الوساوس والاوهام ، والاعمال المنبعثة عن النفاق والرياء فيها ونممت ، وأما مدركات العقل التى شغلت من التاريخ مكاناً كبيرا فلا ينبغي التعرض لها بل لابد أن يكون لها أيضاً محل فى تربية الناشئين .

ومن هذا ترى أنه لايزال من حق الحكمة أن توجد مع العلم ، وانه ليبعد عليهما التنافر والتنافى ، لان من شأنهما التضافر والتوافى

ان كثيراً ممن يميلون الى محو دراسة المذاهب الدينية والحكمية منقادون فى هذا الى حاجة طبيعية للانتقام وهم لا يشعرون ، فانهم قد رأوا الحكماء ورؤساء الاديان المقررة فى أيامنا هذه بلغوا من تعاطيهم للمظالم ، ومتاجرتهم بالسرائر ، ومقارفتهم للفظائع ، مبلغا لجأ بالعقل فى اشمئزازه من سيرتهم الى الجحود المطلق ، فالقسيسون هم دعاة الالحاد لا الماديون .

ومن اللغو تجسيم أمر الالحاد فانه ذنب ضعيف فى ذاته يتزلزل مذعورا امام وجدان الانسان ، وانما الآثام المبينة والجرائم القوية الحقيقة بأن تدافع نور الهداية والعرفان هى التى يجرأ أصحابها عند اقترافها على التستر برداء الدين . نعم تلك الآثام هى التى تمتاز بذلك الامتياز الهائل وهو قلب شؤون الدنيا وتشويش أحوالها . فمن ذا الذى لايحار حين ارتكابها من الابهة الباطلة التى تسرى من عقائد مرتكبيها الى ما يغتصبونه من ضروب السلطة والقوة ؛ تسمع بعض

النظار اذا راعهم تغلب الشر على الخير يصيحون قائلين لان لا يكون لنا اله خير من وجود اله ظالم (١)

ويعيب آخرون على المذاهب الدينية والحكمية أنها لم تبين للناس بياناً مقنعاً شيئاً من المسائل المتعلقة بنظام العالم وتنازع الخير والشر والاضطرار والاختيار ، وانا أسلم لهم ذلك غير انى أقول : ان كلا منها قد سما بفكر الانسان الى العلى وغير أحوال الامم وهدى الناس الى طوائف الفنون وأحيي من الطرف والملح ما لولاه لظل محجوباً فى مجاهل العدم ، وكم نرى ممن يودون محو الدين المسيحي من تعليم الناشين من لم يحسن التفكر فيما كان لهذا الدين من التأثير فى آداب لغتنا وأخلاقنا وعوائدنا ! فهم يقولون انه رؤيا خبيثة رآها النوع الانساني فى منامه وانه بنشأته فى طور التدلى والهمجية حبس روح الشعوب فى ظلمات الجهل (٢) . وكل ذلك محل للنظر والبحث ، ولكن

---

(١) اجدر بامثال هؤلاء النظار ان يسموا عميا فانهم عموا عن سنن الله تعالى فى الكون وجهلوا ان الشر الذى يضجون منه انما ينتج من مخالفة الناس لتلك السنن فهم الذين جلبوه على انفسهم « وما ربك بظلام للعبيد » « وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » تعالى الله عن الظلم علوا كبيرا . اه

(٢) ما أشنع هذه من مقالة وأدلها على غباوة قايليها وايغالهم فى الجهالة فليست الاديان احلاماً للانسان بل هى حقائق انزلها الرحمن ليخرجه بها من ظلمات الهمجية الى نور الحضارة الحقيقية وقد اطلقت للارواح والعقول ـ على خلاف مايزعم الخراصون ـ عنان التفكير والبحث فى الاكوان وجعلت جميع المخلوقات مسخرة لها وفى ذمام تصريفها الم يسمعوا قول الله سبحانه فى القرآن الحكيم « قل انظروا ماذا فى السموات والارض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون »

هيهات أن يقنعوا واحدا من الناس بأن التيار الفكري الذى جاء به ذلك الدين فغير كل مافى الدنيا لم يكن ثم موجب لوجوده !

أنا أدعوك الى دراسة هذا الدين الذي أنشأ مدنيتنا الحاضرة انشاء حسناً أو سيئاً خلافا للقائلين بابطالها ، وأحثك على أن تأخذ فيها بالجد وترجع فيها الى أصوله لان ما يخلص اليك من مطالعة الاناجيل لاشبه بينه وبين ما يؤخذ عن رجال الدين بحال من الاحوال فانت تري فى الاناجيل مثلا أن المسيح كان يأبى دائما امتثال أيّ عمل من الاعمال الظاهرة ، وكان يستهدف لزراية اليهود عليه ولو مهم له بمخالفته لهم كل وقت فى السبت والصوم وغسل اليدين قبل تناول الطعام وغير ذلك من الاعمال المشروعة . واذا كان القلب يهتز لسماع بعض المواعظ الانجيلية فليس ذلك يبدع فان المسيح انما جاء ليعلن للناس شرف صغارهم وسمو المستضعفين منهم ووجوب تكريم

وقوله جل شأنه « ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولى الالباب » وقوله « الم تروا ان الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الارض وأسبغ عليكم نعمة ظاهرة وباطنة ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير » الى غير ذلك من الآيات الكريمة وكفى بها برهانا على فساد عقول أولئك الجاحدين يدحض اباطيلهم ويدفع أوهامهم وليست مقاصد الاديان الا عمارة الارض بالعدل ومنع العدوان بين الناس وتطهير النفوس من دنس الشرك ومن الرذائل لتسعد بالحياة الطيبة فى عاجلها ولتستعد للكرامة بجوار ربها فى آجلها وما ذكره المؤلف من آثار الاديان ليس من مقاصدها فى شيء بل ربما كان معارضاً لهذه المقاصد ان لم تصحب العمل فيه نية الخير والبر بالناس ويجانبه النفاق والرياء .

الطفل والحنو على المرأة الخاطئة ، وانك لا تجد فى غير كتابه اكثر مما تجده فيه من الميل العاطف الى كل مكروب والرحمة لكل مهان ومحتقر ولا أكثر من ضروب الحرمان للمتكبرين المستأثرين الذين يبتغون العلو على غيرهم من المخلوقين. وقد كان لحبه للفقراء ولكونه نفسه فقيرا يتتبع الاغنياء على الدوام دون غيرهم بنذره وأمثاله الرائعة. ولا شك أن تمكن النصرانية مع مثل هذا الادب الذى جاء به المسيح من تقوية امتياز الدرجات فى الامم الحالية وتأييد مزايا الانساب وفرط التغاير فى الغنى لم يحصل الا ببلوغ رجالها فى المكر حد الاعجاز ، فتلك الامم التى تسمي نفسها مسيحية وتعتقد انها على دين المسيح لم يدخل الايمان فى قلوبها قط.

أعلم أن معرفة الشيء في وقت ما من أوقات وجوده لا تعد معرفة وانما يعرف اذا عرف أصله وتاريخه ومصيره ، وقد نتج من اتباع البحث فى الحوادث الكونية على هذا الترتيب علوم كلها جديدة كعلم تكوّن الارض وعلم الاجنة، فطرق البحث هذه هي التى ينبغي عليك تطبيقها على دراسة المذاهب الدينية والحكمية ، وليس عليّ أن أتعرض بالتصويب أو التخطئة للنتائج التى يؤديك اليها بحثك اذا حسنت فيه نيتك وصحت عزيمتك ، وغاية ما أبتغيه منك ألا تقبل من الاصول على انه صحيح الا ما تكون قد عرفت الحق فيه بنفسك.

أقول ذلك وأنا أعلم أني أطلب اليك أمرا عظيما ، ولكن ما حيلتى ولا وسيلة غيره لتنوير عقلك وهدايتك. نعم ان فى الدنيا كثيرا من العلماء الثقات المشهود لهم قد عهد اليهم تحديد العقائد الصحيحة فى الدين والحكمة

والسياسة والاخلاق فهم يعرفون كل شيء ويعلمون الناس كل شيء وهذا هو السبب فى أن نصف المتعلمين من الناشئين يعتادون أن يفكروا بمخاخ بعض أفراد من الناس ـ ان صح لى التعبير على هذا النحو ـ على أن ثمة أمرا لن تتعلمه قطعا فى مدرستهم ، ألا وهو علم الحرية ،فاذا كنت تطلب الحرية فعليك أن تطلب الحق في نفسك مستعينا في طلبه بجميع مالديك من عُدد الاستدلال والنظر ؛ وانك سيحصل لك غير مرة مع احتراسك وتيقظك ان تعتقد أن آراء غيرك هي آراؤك وتخطيء في كثير من المسائل قبل أن تعرف أغاليطك ، ولكن لاتنس أن قوت العقل كقوت الجسم لايكسب الا بعرق الجبين وأن من أخلص فى البحث عن الهدى فقد أظهر بهذا البحث نفسه انه جدير بالاهتداء .

وفى ختام مكتوبى أقول لك من صميم قلبي : اني وليك الحميم اه

الرسالة السابعة

من « أميل » الى أمه

عن مدينة بن في ٢٨ سبتمبر سنة ـ ١٨٦

« فى ابتداء العشق وغرور الشاب الغر بالمعشوقة »

لقد كان قولك حقا أيتها الوالدة العزيزة فاني قد خدعت نفسى ولا حق لى في الشكوى على حال ما ممن كنت أحبها لانها لم تكن التزمت لي شيئا ولا وعدتني الصدق في حبي بل هي بما كانت مغمورة فيه من

ضروب التبجيل والتكريم تفضلت فقبلت مني اعتباطا صنوف اجلالي ودلائل اعظامي وقد كان هذا منها لي تشريفا كبيرا وأظن أن من كفران نعمتها أن أتهمها بخيانتي فانه لم يكن من ذنبها أن كنت جادا فيما لم يكن يأتيه غيري الا هازلا .

غير اني ان قلت لك اني كنت أفكر في أمرها دائما على هذا النحو كنت كاذبا فان الصدمة التي هدمت صرح غروري بها تلتها ساعة دهش وذهول خيل الي فيها أن السماء خرت على رأسي وصرت كأني في حيز الفناء. قد تقولين لي : انك لست أول من ابتلي بهذه الضروب من انكشاف الاباطيل وزوال الاوهام ، وهو قول لاريب عندي في صحته غير ان ماينتاب الانسان لاول مرة في حياته يخيل له أنه لم يحصل لاحد غيره في الدنيا ، فكنت أسائل نفسي هل يمكن أن يوجد في البرية من يبلغ مبلغها في الخيانة ؛ أو ليس الحسن الا نقابا للنفاق ؛ وأقول انها لشد ماسخرت مني لسلامة نيتي وسرعة تصديقي . . . وأحس بقشعريرة الغيرة تدب في جسمي حتى تبلغ نخاع عظامي .

وأول يوم قامت بنفسي فيه الريب من صدقها فررت من المدينة هائما على وجهي كالمجنون أخبط خبط عشواء ، وقد تعاقبت على بصري في مسيري مشاهد جمة من سنابل الحنطة المدركة ، والقنابر المغردة ، وما في الهواء من الروح الخافق وجدا وحبا ؛ والمزارع والطواحين التي تتكشف للرائي في أمكنة مختلفة من خلال حجب الاشجار وقد مزقتها يد الريح ، وخرير الماء المتدفق من ينابيعه المنتحبة تحت الخضرة ، والديكة للغتبطة المتغطرسة واقفة على الدمن

ورافعة عقيرتها بزقائها النفاذ في كبد السماء ، وأسراب العصافير ثائرة متعاقبة في الجو متناقرة ، وغير ذلك من المناظر التي لولا هذه الاحوال لهزت نفسي وشرحت صدري ، فلم تلفتني عن هذه الفكرة الثابتة في ذهني وهي أنها تغشني .

لما رجعت الى المدينة كان الليل قد جن فلمحت شبحا مبهما يسرى وجدران البيوت كأنه ظل ، فلما بلغ منعطف الشارع سقط عليه ساطع نور الغاز المنعكس فأراني أنه فتاة شاحبة اللون رثة الثياب تحمل طفلا على يديها ، ولست أدرى تمام الدراية لماذا خطر بفكرى لرؤيتها أنها خدعت ثم هجرت وسألت نفسي سؤال محنق هل تنقسم النساء في هذه الايام الى طائفتين طائفة خادعة وطائفة مخدوعة ؟ تأثرت هذه الفتاة بعضا من الزمن يجذبني اليها نوع من العطف لا أعرف سره حق المعرفة ، فلما كانت تمر على نور مصباح كنت أخالني أقرأ في وجهها خاطر الانتحار ، وقد كنت من تسخطي لحالتي بحيث اني كنت أود لو أجد السبيل الى عمل من أعمال البر . وما عتمت الفتاة أن دخلت في مأزق من حارات ضيقة مظلمة ينتهي الى فناء تكتنفه أطلال دارسة وفي ركن من هذا الفناء بئر سدت فوهتها بغطاء غليظ من خشب مسوس مشقق فرفعت الغطاء باحدى يديها العاريتين واتكأت بمرفقيها على فم البئر وأرسلت بصرها في غيابتها وعليها سمة القنوط ، وفي هذه الساعة انفلت القمر من قبضة السحاب فألقى نوره الاغر على بلاط الفناء المتوحل ، وكنت إذ ذاك مختفيا خلف جزء من جدار أتتبع جميع حركات الفتاة المسكينة بامعان لاني لم يكن ثمي عندي ريب في أنها قد صممت على الانتحار وكنت أقول في نفسي

أقل مافى الامر اني هاهنا لا أمنعها منه وما كنت أجسر حتى هـذه الساعة أن أظهر لها خشية أن تزيدها رؤيتهالمن شاهدهافى هذه الساعة غضاضة وذلة فبعد أن تروت هنيهـة كان جبينها الـكئيب فى أثنائها مسرح الانفعال والاضطراب نظرت الى ولدها وهمهمت بكلمات مبهمة وهي تهز رأسها ثم هرولت داخلة أحـد الاكواخ الحقيرة وأغلقت بابه عليها.

هذا كل ماعلمته ويحتمل أن يكون كل ماسأعلمه من أمر هـذه البائسة في حياتي، وقد كنت تلك الليلة غير أهل لفعل الخير اذا فرض أن من الخير تنجية نفس من الموت كانت تؤمن بالحب ثم اضطرت الى الكفر به ولعنه.

كأني بك تسأليني : كيف ظهر لك انك كنت العوبة لهوى امرأة طائشة أجيرة ؟ فأستأذنك فى تنزيهك عن سماع تفاصيل هـذا الامر لانها لاتليق بك، ويكفيني فى ذلك أن أخبرك بأنها كانت تحرض طالبين أو ثلاثة غيري على التقرب منها فى وقت واحد بقبول مساعيهم وهذا بقطع النظر عن أمير ورتمبورغى[1] يقال انها تحبـه لماله، فليت شعرى، هل أبصر أحد فى حياته نظيرة لتلك المرأة؟

لم يكن همليت[2] مثلى فى سوء الحظ لمـا كان يقول لمعشوقتـه

(١) ورتمبورغي نسبة الى ورتمبورغ احدى ولايات المانية (٢) هملت هو امير جوتلاند الذى تظاهر بالجنون ليأخذ بثار ابيه الذى قتله اخوه بالسم وهو الذى كتب عنه شكسبير قصته التمثيلية المشهورة وجوتلاند شبه جزيرة بالدنيمارك عدد سكانها ٩٤٢٣٦ نفساً وعاصمتها فيبورغ

« أوفيليا » « أيتها المرأة اسمك الخور » فان اسم صاحبتى هو الكذب والمكر والغش . هذا هو التمثال الذى بحرته بيخور أمانيّ وجمات له بين الالهات العفيفات مكانا ، وكنت أتمنى لو دنت مني الكواكب فانتزعتها من نظامها و نظمت له منها اكليلا . على ان لى امراً يسلينى وهو انى لم أدنس الحب فى حال جنونى به .

فاعلمي ياأماه أنه لا يزال من حقى أن أنظر اليك غير خجل لان خطيئتى انما كانت سوء حكم لا ارتكابا لشيء من الخنا، ولكن هذا لا يقلل من استماحتى لعفوك فاغفرى لولدك هفوته حتى يمكنه ان يغفرها لنفسه . اهـ

الرسالة الثامنة

من هيلانة الى « اميل »

عن لوندرة فى ١٠ اكتوبر سنة — ١٨٦

« غرور الشاب فى الحب وبيان حقيقته »

اعلم ياولدى العزيز ان مانقع فيه من ضروب الغي هو الذي يهدينا سبيل الرشد ، وان مانقترفه من الذنوب هو الذى ينبئنا اذا تأملت منه ضمائرنا بان لنا فى نفوسنا قانونا زاجراً وان الحكمة فى رأيى هي ان نستفيد من كليهما لنتعلم .

لم تدهشنى نهاية قصتك وسأتحامى كل التحامى أن أعيب سيرتك

فيها لانك قد عبتها بنفسك، ولم يكن كل ماكان فى وسعى تأديته اليك من النصائح قبل ختامها المحزن ليساوى ماوعظتك به تجربتك الذاتية ان فى أمور الكون لعدلا وان الدهر يضطرها الى أن تظهر للناس على حقيقتها ،وان كان يلذ لمخيلة الانسان ان تزينها بالالوان المموهة وتغشيها بالاستار الحاجبة ، وبهذا كان الدهر استاذنا جميعا .

على أنى ان لم أقر لك بأن مكتوبك الاول سبب لى أشد ضروب القلق والحيرة كنت قد كتمتك بعض الحق . نعم قد كان لى من الثقة بطيب عنصرك وبما أعرفه فيه من أصول الشرف ماكان يكفينى للاطمئنان بأنك لا تتسفل لارتكاب دنيئة ما ،ولكنى كنت أخاف عليك وانت فى هذه السن خدَع القلب وجمحات العُجْب المفتون وأمانيّ البسالة الخادعة ، فما يوجب الاسف ان أصدق الناس فى الحب وأخلصهم له هم كذلك أشدهم تعرضا لمخاطر دسائسه ، وأما الشبان الذين يتخذون ما عليه الناس قدوة لهم فى سيرتهم فان قلوبهم الجامدة لاتخدع بكذب الظواهر وهم الذين جعلت لهم المحبات المهيجة كما جعلت الخمور التبلة للسكيرين .

تراهم يبذلون من الهمة والنشاط فى تحصيل الغبطه أكثر مما يلزم وهم مع هذا فى أسوإ عيش وانكده هؤلاء الجوالون فى ميدان الغرام المتعاطون لدسائسه قد اعتاضوا عن الحب بظله (أعنى الظرف والكياسة فى معاشرة النساء) وان خسة عواطفهم لتدل على خلوهم من الادراك وهم شبيهون عندى بأشجار الصفصاف الجوفاء التى تصادف على حافة السواقى (الانهار الصغيرة) فى أنها لتعفن قلوبها لم يبق لها حياة الافى قشورها .

الامم التى لا تجل رجالها نساءها ولا نساؤها أنفسهن غير جديرة بالحرية يدلك على ذلك ان جميع عصور الاستعباد وانحطاط النفوس كانت هي عصور فساد الاخلاق والانهماك فى الرذائل فاذا زالت هيبة الدين من النفوس وانعدم احساس الناس بما عليهم من الفروض الكبرى رأيت الناشئين اذا أعوزهم ما يضيعون فيه أوقاتهم يتصيدون الملاذ السهلة فاربأ بنفسك عن هذه الردغة (١) فلا مقر لك فيها

انى ربما كنت أعرف منك بنفسك لانه يتفق كثيرا لمن هم فى سنك إن يضلوا فيشطوا فى طلب مثال من الواقع لما يتخيلونه من منتهى الكمال فيمن يريدون أن يجعلوها مناطا لحبهم وهو قريب المنال منهم حاضر بين أيديهم أرى أنك فوق حنقك على من غرتك نادم على ان كنت غير صادق فى محبتك فتأمل فى باطن ما تحفظه ذاكرتك تجدنى قد اصبت المرمى فيما أقول ، فأنك تعلم بوجود ذات من أترابك تفكر فيها ولا تتكلم فى شأنها وتذكر ملامح وجهها وابتسامها وجرس صوتها وكل ما يتعلق بها حتى ثنيات حلتهـا تمام الذكر ، وان مثالها الطاهر ليسرى سريان الشعاع فوق كتابك اذا فتحتـه لتقرأ فيه ما صنفه الشعراء ، وانت تود لو تشاهد معها كل ما فى الكون من الجمال وتسمع جميع ما للبرية من الاغاريد ، وهي التى ينطبق عليها ما تتخيله من معنى الفضيلة وتود من أجلها لو تكون أفضل الفضلاء فتلك الذات هي التى تحبها . فان لم تأنس من نفسك شيئاً من هذا لم تكن حتى الآن الا طفلا ولم يأن لك أن تعتقد فى نفسك أنك محب . فالحب الحقيقي هو الذى يرفع النفس

(١) الردغة الماء والطين والوحل الشديد .

ويبعث على طلب الخير وعلى ان يقتضى المحب من نفسه لمحبوبه كل مايقتضيه لنفسه منه لان الحب هو انصاف القلب .

فاذا تربصت حتى يحصل فى نفسك هذا الوجدان الطاهر فاياك أن تدنس اسمه باجرائه على لسانك قبل حصوله والا ندمت فيما بعد أن لوثت شفتيك بالكذب .

وللشبان خطأ آخر فى الحب وهو توهمهم أنه اذا حصل بدسائس ووقائع كالتى تروي فى القصص ازدادت لذته وكثر الابتهاج به . فليس الامر كما يتوهمون لان فى الحب من العظمة الذاتية مايغنيه عن زخارف الخيال . فالفلاح البار اذا راح الى بيته مساء بعد الفراغ من عمله وجلس لتناول مرقته وأخذ يلاحظ زوجته وهي تغزل أو تخيط بجانب المصطلى ثم يمسح رءوس أولاده غلاظ الوجنات مناديا كلا منهم باسمه ويذكر فى نفسه زمن ترقبه لزوجته « جنة » يوم الاحد فى ظل شجرة الدردار الكبرى فى المزرعة ، ويراها لاتزال غضة الحسن موفورة الشباب — كان أبهج خيالا أضعافا كثيرة من حَظِيّ إلاهة من إلاهات الحب الجديدة .

الشباب هو سن الاماني والاحلام ، وطور الخيالات والاوهام ثم ان كثرة المطالعة لاثمرة لها فى أغلب الاحيان الا إفساد حكم القلب . على أن الحب فى غاية الغنى عن القصص الخرافية لانه عبارة عن تاريخ لأصح ما فى فطرتنا من ضروب الوجدان وأشدها استقلالا . فويل لمن لا يعشق ويتوله الا فى الحلم لانه لا يلبث أن ينكشف وهمه اذا حان وقت انتباهه .

يجب عليك قبل اهتمامك باختيار امرأة تحبها أن توجد لنفسك بين الناس مقاماً ، فان كل عمل تعمله فى سبيل تحصيل العلم ورفع شأنك فى نظر نفسك ومغالبة ماللأثرة من أنواع الميل الاعمى وبلوغ ماللانسان من الشرف يفيد المرأة التى ستحبها كما يفيدك ، وكن واثقاً بأن هذا لا يعد منك فى حقها كثيراً اذا كان يهمك أن تكون أهلاً لاجلالها لك حفظاً لشرفك وصوناً لعرضك .

حاشية : فاتنى أن أخبرك بأن « لولا » تتعلم من أجل أن تقبلها جمعية الطبيبات بلوندرة فى عدادهن وكلنا نحبك * . اه

الرسالة التاسعة

من « أميل » الى أبيه

عن هيد لبرغ فى ١٨ ينابر سنة ـ ١٨٦

« الاستقلال فى العلم ـ فلسفة الخلق والتكوين والاجتماع والمدنية »

« الاعتماد على العقل دون الخطابة ـ حب الوطن »

غادرت مدينة « بن » ونقلت كتبى — وهى كل ما أملكه — تقريبا الى مدينة « هيدلبرغ » . ومن نظام المدارس الجامعة فى ألمانية أنه يجوز لطلبتها مطلقا أن ينتقلوا من احداها الى الاخرى من غير أن

---

* لقد أصابت هيلانة الحق ونطقت بالحكمة فى بيانها البليغ لمعنى الحب الطاهر وبلغت غاية التلطف فى دلالة ولدها على من هى جديرة بحبه وهى تربية « لولا » التى تغذت معه بلبان الفضيلة وتربت مثله فى كنف ذينك الزوجين الحكيمين تربية جمعتهما أواصرها فامتزجت روحها بروحه وتناسبا طبعا وشيماً فصار كل منهما خليقا بحب صاحبه

يكون فى ذلك ضياع لحقوقهم فيما نالوه من الدرجات . على أن هـذا التنقل يمكن الطلبة من الاختلاف الى دوس أنبغ الاساتذة وأشهرهم فى كل فرع من فروع العلوم البشرية .

أخالنى تعلمت كثيراً من دروس هؤلاء الاساتذة المفيدة ،ولكنى كل يوم أتبين أن تعليم المدارس بجملته لا يمكن ان يقوم لطالب الحق مقام عمله الذاتي الذى يجري فيه على ماترشده اليه سريرته .

اري مذهبين يتنازعان عقول البشر اعثر عليهما اينما وجهت فكرى فأجدهما فى العلم والحكمة والدين والسياسة ومقتضى المذهب الاول ان العالم خلق مقسورا اي ان كل مافيه خصص بارادة ازلية ، وان صور الحياة فى الكائنات الحية ثابتة لا تتغير فتندمج الاصول بعضها في بعض وتنتج الفروع ناقلة مخصصات كل نوع عن مثال ازليّ له . ومقتضى المذهب الثاني انه وجد مختارا بمعني ان الكائنات لم توجد من العدم بل استحالت من طور الى طور وان القوى لم تسبق فى الوجود بل نمت وان الانواع النباتية والمعدنية (هكذا في الاصل ولعل صوابه والحيوانية) مستمرة البقاء غير انها تتغير وترتقى على مقتضى نواميس طبيعية .

واذا انتقلت من العلم الى التاريخ وجدت هذا الاختلاف بعينه فى آراء الناس فيرى بعضهم ان التمدن قديم وجد مع الانسان ، يعنى أن الاجتماع أوجدته قدرة أعلى من قدرة البشر ، وان أية أمـة من الامم ليس لها ان تختار قوانينها وأوضاعها ، وأن للحكومة مثلا لا تحيد عنها الامم حتى تسقط فى مهاوي الفوضى . ويرى بعض آخر خلافا للاولين ان الانسان نشأ متوحشاً أى أنه كان فردا متقن الخلقة ففر من بين

الحيوانات وانشأ على التعاقب قوانينه ومعايشه ومكانته في البرية بعد أن خلق نفسه ــ ان صح التعبير على هذا النحو ــ وان الامم قد مرت في أطوار نموها بيدايا أوضاع لم تلبث ان ابتعدت منها بتأثر الترقي الذى لا راد له، فكما أن الارض كانت بنفسها يكون الانسان بنفسه ويؤلف مجتمعه بقواه الذاتية .

واذا رجعت الى الديانات وصدقت أقوال مؤوليها كانت كلها موحاة من الله فاذا سألت خصومهم عن رأيهم فيها قالوا انها أمور طبيعية تدخل في قوانين ادراك الانسان المألوفة .

وما أشد التباين وأوسع مسافة الخلف اذا سألت أهل وطني عن آرائهم في الامور السياسية ! وقد استخلصت من اختلاف طرق النظر هذه نتيجة هي انى مع بحثى في أفكار غيرى وآرائه لا ينبغي لى ان أعول الا على شهادة عقلى وسريرتى . هذه هي السبيل التى صممت على سلوكها وهي التى أوضحتها لى انت ايضاً ويبعد كل البعد ان تكون هذه الضرورة الملجئة لى الى الحكم بنفسى على الامور مدعاة الى الكبر والصلف، بل هي تبعث فى نفسى الذلة والاستكانة لانى اكون مضطراً في كل وقت الى الاعتراف لنفسى بأنى لا أعرف شيئا، وانه يجب علىّ ان أتدرج بالاقدام وان أوسع نطاق معارفي ؛ واختلس من النظر فى الحوادث مقدمات اقتناعي ، واما البراهين الخطابية التى كنت اعتقد في ساعة من الساعات اني ادرك بها مالا حد له من العوالم فقد تبين لى انها شبيهة بتلك الاصداف التي يتناقلها الاطفال في ايديهم ويضعونها على آذانهم متخيلين انهم يسمعون فيها اصطخاب البحر .

على اني لا ادرس وابحث من اجل ان اكون عالما فكل ماينتهي اليه طمعي ينحصر في فهم حاجات العصر الذى اعيش فيه والاخذ بناصر الحق ، وهيهات ان انسى بلادي او أعيش غير مبال بمجاهداتها ؛ فاني وان ولدت فى بلاد اجنبية اجد فرنسة حيثما نظرت فانها تبدو لى في انتصارها الكثير الذى انتشر فى ارجاء الدنيا ، واراها حتى فى مصائبها التى نزلت بها عقاباً لرجل من رجالها على تغطرسه وتجبره . هـذا الوطن الذى مارأيته فى حياتى هو فى نسبته الىّ أمى الثانية فلا يذكر الا ويقشعر جلدي لذكره ولا ينتقص الا ويتبيغ(١) دمى كله انتقاماً له . وليس الذى يثير اعجابى منه هو غزواته ووقائعه الحربية ، وإنما هو تاريخ مكافحاته وثباته الباسلة فى طريق الحرية ، وانى أحب مفكريه الذين يعملون فيه وهم يضحكون ، واعجب بكتابه الذين يهيجون القلوب وهم لنور العلم يبثون، فأنا من صميم قلبي ملك له وبما فى نفسى من الامل فى خدمته يوماً ماتجدنى مغتبطا ومعتزا بالانتساب اليك . اه

الرسالة العاشرة

(من اراسم الى ولده)

عن لوندرة فى ٥ فبراير سنة ـ ١٨٦٠

بيان وجوب ان يكون للشاب المتعلم رأى فى سياسة بلاده

لا حق لك ياعزيزى « أميل » فى أن تكون بلا رأى سياسىّ ، فأيما رجل يعيش فى قوم ويظهر معتزلا لما يتعارض بينهم من المصالح

---

(١) باغ الدم وتبيغ ثار وهاج

غافلا عما يتقاسم عقولهم من المذاهب فهو فى غاية الحقارة والخسة ، وكان حقه أن ينشأ بين المتوحشين بل المتوحشون يشتغلون بمصالح قبيلتهم بغيرة وحمية .

نعم قد كان رؤساء الحكومات أكدوا للناس فى الازمان الغابرة انهم مرسلون من عند الله لسياستهم وتدبير شؤونهم ، وكان عمل الرعايا على هذا الفرض قد قصر علي الطاعة المطلقة لاوامرهم فكانوا ملكا لولاتهم وخاصتهم كما تملك الارض ، ولاحق للارض فى أن تثور علي اليد العاملة فيها . وأما الآن فلم يبق فى البلاد المهتدية بهدى العلم من أنصار هذا الحق الالهي الذى يزعمه الملوك الا النزر اليسير ، وقد قضى العقل على بعض المذاهب السياسية المأخوذة من القوانين الالهية ، ثم دل التاريخ على أن السلاطين كانوا يسقطون من عروشهم ولم تكن عناية الله تأخذ سلاحها لنصرهم ، وانه كان من الميسور للامم كل اليسر أن يستغنوا عنهم"[1]

---

(١) ما ادعاه الكاتب من تأكيد بعض الملوك لرعاياهم انهم مرسلون من عند الله أمر ثابت فى التاريخ بل قد بلغ الغلو فى هذه الدعوى ببعضهم ان ادعى الالوهية والصحيح المعروف لذوى العقول المطهرة من رجس مذهب الماديين انهم عبيد استخلفهم الله فى الارض بمقتضى طبيعة أهلها لحفظ نظامهم فان أحسنوا الخلافة سعدوا وسعد بهم رعاياهم وان أساؤها شقوا وشقوا بهم «ياداود انا جعلناك خليفة فى الارض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب» وما يزعم من قضاء العقل على المذاهب السياسية المأخوذة من القوانين الالهية ليس صحيحاً على إطلاقه فان القوانين الالهية المحفوظة من التحريف هى أس العدل

هذا السلطان المعصوم الذى لم يكد يبق للانسان جراءة على ادعائه للاشخاص فى وجه عبر التجربة الزاجرة لايزال يدعى للاوضاع البشرية فلا تكاد أية حكومة من الحكومات تستقر حتى تدعي انها حلت محل المحكومين فى أفكارهم وعزائمهم .

ولايخفى أن البلاد التى وضعت حكومتها على هذا النمط يكون من عادة شيوخ بيوتها لفرط حرصهم وبلوغهم فيه حد الجبن ان يعظوا شبانها بأن لايشتغلوا بالسياسة .

تسمع الاب منهم يقول لابنه « يابنيَّ إن لك أن تغتنى وتتزوج وتجعل لنفسك فى الناس ذكرا وليس من حقك الاشتغال بما وراء ذلك لوجود رجال عهد اليهم الحاكم بمحض ارادته أن يفصلوا فى جميع المسائل ويوزعوا المثوبات والعقوبات على الناس ، فهم كما تقول التوراة أنفاس منخريه التى تحرق أموال المعاندين للنظام المقرر كما تحرق السموم نبات المزارع ، فالاحزم لك أن تخلى بين الحكومة وعملها واذا كان لابد لك من رأى فلا بأس فى أن تختار لنفسك مايلائمها من الآراء على شرط أن تقصره عليها لانه لافائدة للمرأ من الاشتغال بمصالح غيره » والعاقل من يتوقى ادخال أصبعه بين الشجرة ولحائها » (١)

وأما الامم الحرة فالامور فيها تجرى على مايخالف ذلك كل المخالفة

والحرية . واستشهاده بسقوط الملوك من عروشهم وعدم نصر الله لهم وسوء تعبيره عن ذلك لايدل الا على أنه جهل ان الله لاينصر الا من نصره باتباع أوامره وحسن السيرة فى خلقه وانه تنزه ان يحتاج فى النصرة الى الاستعانة بمدة او سلاح . اهـ (١) المثل العربيّ « لاتدخل بين العصا ولحائها »

فلا يكاد طالب العلم فيها يملك اليسير من فصاحة المنطق حتى يمارس المناظرة فى المصالح العامة وكل فرد من أفرادها اذا أراد أن يكون شريفا وجب عليه أن ينتمى الى حزب من الاحزاب وهم بعيدون كل البعد أن يعتقدوا أن فى مجاهدات المعيشة السياسية ضررا بالمعيشة البيتية بل هم يجلون الفضائل الخاصة على نسبة اتساعها وامتدادها فى ميدان الفروض العامة. ولو أن وجدان العدل كان قاصرا على المعاملات الخاصة لعد من الظلم فى حق عامة الناس.

اذا تقرر هذا قلت ان جميع الامم خلقت لتكون أحرارا ، ومن العبث أن يزعم زاعم ان منها من هي مفرطة فى الطيش ومنها من هي غالية فى التحمس ومنها من هى غاية فى الجهل ومنها من هي متنطعة فى التأنق ، فقد نسي أن الوسيلة الى ترقية أخلاق الامم انما هي ترقية أوضاعها وقوانينها ولامراء فى أن هذه الاوضاع المؤسسة على الحرية لن تنزل من السماء ، وانه من الحمق والجنون أن تنتظرها أمة من حكامها لان جميع الحكومات المستبدة مبنية على قاعدة أن الناس عاجزون عن سياسة أنفسهم فكيف يرضى الحكام حينئذ أن يكذبوا أنفسهم بالتخلى عنها . وقد يرخون زمامها أحيانا حذقا منهم فى تصريفها وحزما ولكنهم يعرفون عند الحاجة كيف يرجعون تصريف شكيمتها الى أيديهم. ليست الحرية بجميع أنواعها مما يعطي ويوهب بل هى مما يغنم بالجهاد والمكافحة ، فشدة كفاح العقول والعزائم وجملة اخلاص المخلصين الخاملين وتصلب من لا يستخذون للذل من أفراد الامة ، هي التى بضرورة الاحوال نفسها تكره غاصبي حق الحرية على ارجاعه الى نصابه ورده

الى اربابه . وما يحصل من التعذير فى اثناء الجهاد لايلبث أن يزول وما يعقبه من الرقّ دائم لافناء له فان القاطع يبلى بعمله في المقطوع .

ليس من قصدى مطلقا أن أبعث فى نفسك كراهة الامـة التى خلقت للمعيشة فيها فانت صاحب الحكم علي أهل زمانك ولكن حذار من الاحتقار لغيرك والاستخفاف به فان عصرنا سيشتهر فى التاريخ بخطوبه ومصائبه لاننا قد عملنا فى الحـكومات التى تعاقبت على البلاد وهي حكومة الاصلاح والحكومة المقيدة والجمهورية وحكومة نابليون وليست العصور التى تغمنى وتؤلمنى هى التى تسعى فيها أمة عظيمة للحصول على الحرية من خلال الحوادث وانما هي التى تخلد فيها الى الدعة من غير أن تنال حريتها .

ان لداتي من جيل بذل نفسه فى سبيل الحرية وانا اشتهي بمجامع قلبي أن يكون الناشئون أسعد منهم حظاً وأوفر غبطة ولـكن ينبغي لهم أن يستفيدوا من زلاتنا وتجاربنا .

نحن غلونا فيما رجوناه من تصاريف الزمان وكلما سألت نفسى عن سبب مصائبنا خلتنى أجده في عيوب تربيتنا السياسية فاشدنا بعداً عن الايمان يؤمن بالمعجزة ، ذلك انه يعتقد إمكان تغيير احوال الامة بامر من أوامر حاكم مطلق مؤقت الحـكومة او على الاقل بامر مجلس حاكم . شهدت فرنسة غير مرة تلاشى بيوت حاكمة كانت تعتقد متانة دعائمها وحبوط مقاصد لبعض الطامعين من رجالها الذين كانوا يدعون المستقبل لانفسهم ثم إنها لما انتصرت انتصارها العقيم القصير المدة كان اشتغالها بتحرير نفسها واستخلاص مصايرها أقل بكثير من اشتغالها باختيار

الرجال الذين ألقى اليهم الاتفاق زمام سياستها نعم إن شكل الحكومة واختيار الرجال الذين يصرفون زمامها ليس مما لايعبأ به ولكن ينبغي ان تكون الامة هي المنشئة لحريتها على اختلاف ضروبها مضى زمن السحاء فلن يرى بعد الآن لافي شكل حكومة منتخبة ولا في صورة حكومة تأتي الى الدنيا بالنور والهدى فعلينا ان نخلص أنفسنا من خداع الناس ونطهرها من وثنية الاوهام لان الامم لاتنال حريتها باتفاق ولا بسلطة غيبية فائقة للطبيعة [1] ولا بالبخت فاتنظر فرنسة في نفسها تجد ان بختها هو عزيمتها .

(١) انكار الكاتب تأثير السلطة الغيبية يعني الله جل شأنه في حرية الامم أثر من آثار المذهب المادي القائل بان لاوجود لهذه السلطة نزه الله عقولنا من لوثه وعيبه على الترك وغيرهم اعتقادهم بالقضاء والقدر جهل منه بحقيقة هذه العقيدة وما لها من الآثار الحسنة في أحوال من يفقهون حقيقتها فمقتضاها الايمان بأن كل مايقع في الوجود انما يكون في زمانه ومكانه بعلم الله وبمشيئته على سنن ثابتة قدرها بحكمته ولمقاصد سامية دبرها على وفق ارادته اقراراً له بالالوهية المبراءة من كل عيب وتنزيها لعلمه المحيط أن يعتوره النقص ولارادته الكاملة أن يلحقها العجز ولامنافاة البتة بين هذه العقيدة وبين أن يكون الانسان حرا في عمله وفكره في دائرة امكانه ولو تأملت فيما كان عليه سلفنا الصالح من شدة الاستمساك بها وما افادهم من الصبر في مواطن البأس وبذل المهج في اعلاء كلمة الحق وما اكسبهم ذلك من العزة والسلطان على الامم ونظرت الى ماهو حاضرين أيدينا الآن من جهاد أبطال مراكش وقائدهم العظيم عبد الكريم في سبيل تحرير بلادهم من الاسبانيين المغيرين عليها ومصابرتهم في الكفاح مع مابينهم وبين عدوهم من التفاوت في العدد والعدد وتمكنهم بذلك من طرده واجلائه عنها لتبينت

أنت حدث ومغترب عن بلادك فوسيلتك الى خدمتها هى أن تنفى عن عقلك الجهل والاوهام والاضاليل التى تبذر فى الدنيا بذور الطغاة الغاشمين. اذا فعلت ذلك كنت قد أديت فى سعيك الى الحرية شيئاً من العمل التعلم ائتمار بالشر لاستئصاله فلو لم يكن نظام تربيتنا برمته من شأنه تجريد ابناء الوطن من ملكة الاستقلال بالفكر والارادة لكانت فرنسة قد اهتدت الطريق الى الحرية من زمان بعيد. فاما ان يكون هذا هو ينبوع ما أصابنا من ضروب العجز واما ان أكون مخطئا خطأ فاحشا. لاحق لنا أن نعيب على الترك [1] اعتقادهم بالقضاء والقدر فنحن أثبت منهم فيه ألف مرة، ذلك اننا تابعون لبخت يومنا، خاضعون لمقدور سياستنا، مؤدون ميثاق الطاعة لحكومتنا، حتى لو انتقلت الى ايدي الكفار. وقد أصبح خمود الهمم وانحلال العزائم ملاذا يلوذ به أشدنا أنفة واباء. تراهم لما حل بهم من الكآبة وكسوف البال يحولون وجوههم عما يجرى بين أيديهم من الامور كما لو كان لاى واحد من الناس ان يقنط من أهل زمانه ومن بلاده. اذا ظهر الشر والفساد فى الامة كان حقا على الانسان ومن مقتضى عظمته ان يجاهد فى ازالة سببه وليس يكفى الرجل الصالح افتخاره أحيانا بأن يتخيل فى نفسه عالما آخر يطوى فيه معتقداته ويشرف من أعاليه على أمور دهره فيحتقرها بل عليه أيضا أن لا يدخر سلاحا فى مكافحته.

ان ذلك من آثار تلك العقيدة التى يزعم الجاهلون من الافرنج ومن تبعهم انها من أسباب انحطاط المسلمين وتأخرهم ولعمرى ان داء الانتحار الذى فشا فى اوربة وانتقلت عدواه الى الشرق لاعلة له الافقدانها وعدم تحقق النفوس بها

(١) يعنى بالترك المسلمين

ليست أمة من الامم من هذا العجز فى شيء فأنت تعرف كلمة جوفينال [1] اذ قال : « لكن لن يعدم المغلوبون سلاحاً » فالذى يبقى من السلاح فى أيدى الامم المغلوبة هو الخطابة وبث الافكار والمقاومة المعنوية ، ولن تخضع الحكومة رعيتها ماداموا لايستكينون للخذلان ، نعم إنها تستطيع فى ليلة واحدة ان تسلب حقوقهم واموالهم ، وتعدم من يسخطونها منهم وترهب أنذالهم وتخدع جهالهم ، ولكن هيهات ان يكون هذا هو ظفرها النهائي بهم عنوة . لاتظفر بهم الامتى ازهقت روح الكرامة الانسانية من نفوسهم . الامة الحرة وهي أمة المستقبل تزيد وتنمو فى ظل حكومة الاستبداد وستنتصر اذا تقوت بما تكتسبه من المعارف وبما يوجد فيها من عواطف الانصاف التى تخلص اليها من البحث فى حقائق الامور وبما تستفيده من القوى التى يختلسها العلم من الطبيعة .

لاريب فى أنه ليس كل واحد من الناس مخلوقا لان يؤدي عملا سياسياً فلا بد فيه من ملكات وميل خاص ولكن لكل انسان بل عليه أن يرتأى لنفسه رأياً فى مصالح عصره وبلاده ، ولست ملزماً ان تأخذ بشيء من ماضيّ ولا من آرائى فكل جيل مستعد لان يعمل عمله بنفسه وملزم بأن يسترشد فيه بما يستجد من حاجات أمته ، وانما عليك أن تعلم أنه لايكفيك أن تطعن فى الاوضاع القديمة لهدم بنيانها ، بل لابد أن يثبت لك العلم كذبها اوعدمها ، واذا أردت أن تظفر بخصمك

(١) جوفينال كاتب لاتيني هجائي شهير كان يعيش فى آخر القرن الاول من الميلاد ومات فى عهد الانتونيين وهم بيت من بيوت الملك فى رومة

فكن خيرا منهم وأنور فكرا .

ان ما يشكو منه جميع الناس فى أزمان التدلى من خمود النفوس وأثرة التواكل وبله الاستسلام لضرورة الاحوال منشؤه الناس كلهم أيضا فما منهم الا شريك فى الهلاك العام اما بسكوته واما بامتناعه اختيارا عن العمل . على أن تلك الازمان هى التى يأنى فيها للنفوس الابية أن تشتد وتثبت فى تيار الدمار . فعلينا ان لم تانس من نفوسنا كفاية فى القوة أن نستعين من سبقت لهم الشهادة فى سبيل الحق ومن ماتوا من الكتاب وهم يجاهدون الاستبداد ويعالجون عمى البصائر قبل أن يجنوا ثمار كدهم ، ومن خروا من منابرهم من الخطباء مخضبين بدمائهم ، ومن حكم عليهم من العقلاء بشاق الاعمال وشكلوا خلال القرون الماضية فى سلاسل العبودية المعنوية ، ولنتأمل فى ماضينا فانا نجد فيه من السجون والمنافى وأنواع العذاب والنكال مايشهد لنا بنزاهة مقصدنا نزاهة لاتدافع . ألا أن لواء الحرية يظل جميع المقاومين والمكروبين والمهيضين فى سبيل تأدية مافرض عليهم ، وبهذا اللواء سيكون لنا الفوز والظفر وعلى هذا الاعتقاد أقبلك قبلة الودع . اها



الرسالة الحادية عشرة

(وهي خاتمة الكتاب)

من الدكتور وارنجتون الى زوجته

« بيان ان من الواجب على كل انسان ان يسعى الى انشاء ولده حراً لتجتث »
« بذلك جراثيم الشرور المحزنة للامة »

عن لوندرة فى ١٥ مايو سنة ١٨٦

شهدت بالامس أيتها الحبيبة العزيزة عيداً أهليا أقامه الدكتور اراسم وزوجته احتفالا ببلوغ ولدهما الواحدة والعشرين من عمره وكان عددنا اثنى عشر صديقا .

كان العيد وليمة رجال زانتها المهابة والوقار ولم يمنع كونها كذلك من انتعاش جميع قلوب المدعوين ابتهاجاً وسروراً . وفى ختام المائدة ابتدأ رفع الاقداح لتعاطى الراح على محبة «اميل» جريا على العادة الانكليزية القديمة ، فقام اراسم واستأذن فى ان يشرب نخب ولده ، وما رأيته فى حياتي أفصح مقالا منه حينئذ ، فقد أفاض فى القول عن الفروض التى تجب على الشاب فى معيشته القومية وعن التربية ووجوب ان تكون عمل كل منا فى جميع حياته وعن الازمان الحاضرة واقتضائها من المفكر ان يستمسك بالاراء المؤسسة على البحث والاختبار وان يثبت عليها ، وبالجملة فليس فى وسعي أن أودى اليك أثر هذا الخطاب الابوى الذى كانت مزيته الكبرى أنه لم يكن كخطب الخطباء .

ومافرغ منه حتى اتجهت جميع الابصار نحو « اميل » — وأنت قد

استطعت من منذ عوده من انكلترة ان تمر في ماهو متحل به من ثبات الرأى وعلو الادب وسعة المعارف — فشكر لاصدقاء أبيه ان تفضلوا باجابة الدعوة الى هذا العيد البيتي الحقير بعبارات تشف عن لطف ذوقه ومزيد تواضعه ، ثم ارتقى الى الكلام عن بعض المسائل العامة فبين الخطة التي يؤمل أن يسير عليها في الناس بألفاظ جلية مؤدية تمام المعنى — وقد أحس كل من سمع قوله بأن جميع مافاه به صادر عن فكره المستقل.

ثم تعاقبت الكؤوس وتوالت الانخاب وبينما كنا على أهبة القيام من المائدة التفت الى والديه وآذنهما بأن لديه خبرا يريد أن يعلمهما اياه وقد لونت جبينه حينئذ حمرة الخجل مع أن ملامح وجهه كلها كانت تعرب عما فيه من ثبات الرجولية .

ما كان أشد دهشي ودهش الحاضرين اذ سمعناه يقول بصوت قوي على مافيه من الاحتشام انه من الامس متفق مع دولوريس على التزوج بها.

ثم أعقب هذا الاخبار ان انحنى امام والديه قائلا : « هل لى أن أرجو منكما استحسانكما لهذا الاختيار »

هنالك غشيت وجنتي الفتاة السمراوين سحابة من حمرة الخجل وأغضت عينيها فلألأت بين اهدابهما السوداء الطويلة عبرات الفرح والهناء .

لم تجد السيدة هيلانة جوابا لمسئلة ابنها الا كبابها على عنقه تقبله وقد كادت تختنق سرورا واغتباطا وأما اراسم فانه مع تأثره مثلها مما سمع من ولده كان أملك منها لعواطفه . اجاب ولده بصوت ينبيء عن سكينته ووداعته فقال : « اذا كنت تحبها فهي ابنتي » ثم قبل هذه الفتاة

الحسناء بصدر منشرح ونفس منبسطة .

في خلال هذا المنظر المؤثر طرق البريد باب الشارع طرقتين فاضطرب كل من في البيت وكان يحمل رسالة كان يرى من غلافها انها آتية من بلاد بعيدة .

كانت هذه الرسالة «لاميل» فاستأذن في فض ختامها لانه مالبث ان عرف في عنوانها خط قو بيدون وقرأها وكانت بالانكليزية الركيكة - انكليزية زنجي - فاذاهي تتضمن تهنئة من هذا الافريقي البار« لاميل» بعيد ميلاده ورجاءه - كما هي العادة - عود كثير من أمثاله عليه بالغبطة والهناء ، وتشتمل فوق ذلك على خبر سار وهو أن الزروع التى زرعت في أرض «لولا» قد نجحت بفضل حذقه وحذق زوجته وانها ربما كفلت لها صداقها عند الزواج .

اني على جذلي باغتباط أصدقائنا محزون لتفكري في مفارقتهم لنا لان هذه الوليمة العيدية كانت وليمة وداع أيضا فهم راجعون الى فرنسة يدعوهم اليها ماوقع فيها أخيراً من الحوادث السياسية وحب مسقط رءوسهم، واني مشيعهم بأحسن آمالي لهم،ولست أنسى كلمة من كلمات اراسم الاخيرة التى فاه بها عند مصافحتنا بصوت ملؤه الوقار والهيبة وهي قوله :على كل منا أن يسعى في جعل ولده رجلا حراً فانا بذلك نجتث جراثيم الشرور المحزنة للامة اهـ

المترجم: فرغت من ترجمة هذا الكتاب المفيد قبيل ظهر يوم الاثنين غرة جمادى الاخرة سنة ١٣٢٤ للهجرة النبوية الموافق للثالث والعشرين من شهر يوليه سنة ١٩٠٦ للميلاد المسيحي وتم طبعة الطبعة الاولى بمطبعة مجلة المنار بمصر القاهرة سلخ جمادى الآخرة سنة ١٣٢٦ هجرية ثم تم طبعه فى المطبعة المذكورة للمرة الثانية فى جمادى الآخرة سنة ١٣٣١ هجرية

(ثم تم طبعه فى مطبعة السعادة للمرة الثالثة فى رجب الفرد سنة ١٣٤٣)

فالحمد لله على نعمة التمام.

كلمة المترجم الختامية

للطبعه الثالثـة

الآن وقد فرغ من طبع هذا السفر الجليل الخطر العظيم الأثر بعد ما بذلته من عناية وجهد فى تصحيحه وتهذيبه وشرح ماغمض من الفاظه وفى التعليق على مالا يلائم أحوالنا الاجتماعية من أفكار مؤلفه بما خلته كافيا لدفع ماقد يعلق باذهان مطالعيه من الشبه والاوهام أقدمه مرة ثالثة لابناء وطنى الاعزاء مكررا لهم الشكر على سابق احتفائهم به وحسن تقبلهم اياه راجيا ممن سبقت له منهم قراءته أن يستأنفها فان الاستفادة من الكتب لاتحصل الا بمطالعتها مرارا لتتحقق النفوس بما وعت وتستظهر القلوب ماأودعت وحاثا حديث العهد منهم بمعرفته أن يصطفيه لنفسه جليسا يلتذ بحديثه فى أوقات فراغه وأنيسا يلهو به فى ساعات راحته

« فخير مكان فى الدنا سرج سائح
وخير جليس فى الزمان كتاب »

على أنى لست فى حاجة الى هذا التزويق والتشويق ففى حسن وضعه وجمال تنسيقه وبلاغة بيانه عنه غناء.

وارجو ان لايفوت قارئيه خصوصا المؤمنين منهم بالرجعي أن ما احتوى عليه من أصول التربية لم يقصد به الا تنمية الاجسام والعقول والملكات لتقوى بها على احتمال ماخلقت له من الكدح والنصب فى

سبيل هذه الحياة المادية كما هو الشأن فى معظم مايكتبه علماء الافرنج فى هذا الصدد فقد قصروا أكبر همهم وصرفوا جُل عنايتهم فى البحث فى القوى المادية وطرق الانتفاع بها وبذلوا ولايزالون يبذلون كل جهودهم الفكرية وجميع مواهبهم العقلية فى استكمال لذات الحياه وتخفيف أوصابها وآلامها وتحصيل أسباب السعادة فيها وقطعوا النظر جملة عما يؤهل النفوس للقاء بارئها فى الدار الآخرة والحظوة فيها بقربه ورضوانه وهو المقصود الاسمى من هذه الحياة الدنيا بل هم قد فتنوا كثيراً من الناس عن الدين الذى هو سبيل الفوز فى تلك الدار بتسريب الشبه الى عقائده والقاء جراثيم الشكوك فى أصوله ومذاهبه حتى أضلوهم عن سواء السبيل فرغبوا بعاجلتهم على تفاهتها وحقارة خطرها عن الآجلة التى هى مصير الانسان ومستقره على ما أعد المتقين فيها من النعيم والملك الكبير واللذه التى لايشوبها ألم والسرور الذى لايعكره حزن .

فليأخذ مطالعوا هذا الكتاب باحسن ما يقرأون منه لدنياهم ولاينسوا تربية أرواحهم وتزكيتها ومن أراد منهم تربية نفسه على أقوم الاخلاق وتنشئتها على أكمل الآداب لاعدادها للحياة الخالدة والنعيم المقيم فسبيله اليه استظهار كتاب رب العالمين واقتفاء آثار النبيين والتزام هدى سيد المرسلين واتباع سنن اصحابه الهادين المهتدين « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده » « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم » أسأل الله جل شأنه أن يوفقنى واياهم للاقتداء بهم والسير على منهاجهم وهو حسبنا وبه ثقتنا والحمد لله على التمام وله الشكر فى البدء والختام عبد العزيز محمد

فهرس التربية الاستقلالية

فهرس الخطأ والصواب

صحيفة	سطر	خطأ	صواب	صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٩	٤	سنتها	سنتها	٤٦	٢١	رومدسيس	دومدسيس
٢٠	١٥	بلغنها	بلغتها	٤٧	٧	نتيتها	بنيتها
٢١	٢	وارنجثون	وارنجتون	٤٧	١٥	بيتهم	بينهم
٢٢	٢٢	كونثية	كونتية	٤٨	٨	انكلترا	انكلترة
٢٤	١٨	قائم	قائم	٤٨	١٩	تربية	تربية
٣٣	١	الجبلى	الجبلى	٥٤	١٠	أحيا	أحيى
٣٤	١٤	سنة ١٦٧٩	سـنة ١٥٨٨	٥٨	٢٢	بسيب	بسبب
٣٤	١٥	سـنة ١٨٥٨	سنة ١٦٧٩	٦٢	٢٢	١٩٦١	١٦٧٤
٣٦	٥	الاختضاص	الاختصاص	٦٢	٢٢	١٧٧١	١٧٧٨
٣٨	١٦	جرجـية	جورجية	٦٥	٢٢	الاعتـدال	لاعتدال
٤٠	١٢	تقول	تقول	٧١	٥و٦	من من	من
٤١	١٧	ءمهاتهم	أمهاتهم	٧١	٧	ايفوسية	ايقوسية
٤١	١٩	أمريكا	أمريكة	٧٢	٦	واستراليا	استرالية
٤٢	١	أمريكا	أمريكة	٧٢	١٧	يتزهوا	يتنزهوا
٤٢	٢	أمريكا	أمريكة	٧٢	٢٠	سرااة	مراة
٤٢	١٦	أمريكا	أمريكة	٧٣	١٣	يتوقرن	يتوقون
٤٣	٢	هو	هي	٧٤	١٦	بارنورج	بانورج(١)
٤٣	٨	بعول	يعول	٧٤	٢١	دنديتولت	رنديتوت
٤٤	٢١	صحته	حفظ صحته	٧٥	٨	نقوية	تقوية
٤٥	٥	دلك	ذلك	٨٦	٣	تهافتث	تهافتت
٤٦	٥	المخزوقة	المخزوقة	٨٧	١٥	وانجرح	وانجرح

(١) وصحة قصة بانورج انه ممثل فى رواية من روايات الكاتب رابلى المسماة بانتا جرويل وجاء فى هذه الرواية أنه بينما كان بانتاجرويل مسافرا فى بلاد القوانيس تشاجر بانورج فى السفينه مع تاجر يدعى رنديتوت كان أساءه اساءة عظيمة فأراد الانتقام منه لنفسه فاشترى منه واحدا من خرافه والقاه فى اليم فجر هذا الفعل وثناء الخروف بقية الخراف الى أن ألقت بأنفسها بعده واحدا بعد واحد فهرع التاجر لمنع الاخير منها فوقع فى البحر هو أيضا وغرق

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٨٩	٢١	مستعمورتها	مستعمراتها
٩٠	١٨	ترفعا	ترفعا
٩٣	٤	صو	صور
٩٥	١	بطقلها	بطفلها
٩٨	٢١	استعاضة	استفاضة
١٠٠	١٨	تنموا	تنمو
١٠٠	٢١	ووجدأنه	ووجدانه
١٠٢	٧	الذين	الذى
١٠٣	١٤	تكون	نكون
١٠٦	١٠	( )	(١)
١٠٦	١٢	تحضر	تحضر
١٠٩	١٢	أمريكا	أمريكة
١١٠	١٦	فيكتى	فيكفى
١١٠	١٨	منقطلا	منفصلا
١١٥	١٣	ضررب	ضروب
١٣٣	٨	النوازان	التوازن
١٣٥	٧	إفوله	أقوله
١٣٦	٢٢	تجمع	يجمع
١٣٩	٥	تلبث	لاتلبث
١٤١	٢	انى	انى
١٥٨	٢٠	وإذ	واذا
١٦٢	٢٢	اجب	احب
١٧٠	٢٢	التنهوق	التنوق
١٧٣	٩	كتيت	كتبت
١٧٦	٨	ذعرة	ذعره
١٨٥	٢١	بيسا	ينبسا
١٩١	٨	او اصابوا	ام اصابوا
١٩٥	١٦	م	هما
١٩٧	١	الصبير	البصير
٢٢٤	١	ابت	ابث
٢٢٦	٢٣	ايهام	ابهام
٢٢٩	٩	المعارض	والمعارض
٢٣١	١٣	الحبية	الحيية
٢٣٦	٤	خيرة	خبرة
٢٣٩	٥	السييل	السبيل
٢٤١	٤	ميخائيل قديس	القديس ميخائيل
		انكلترا	بانكلترة
٢٥٧	١	با الرسم	بالرسم
٢٥٨	٢١	ترابط	تربط
٢٥٩	٧	لذى	الذى
٢٦٠	١٨	مدرسة	امام مدرسة
٢٦٣	١	المتمدين	المتمدنين
٢٧٠	١	لها	بها
٢٧٣	٦	يزيد	يزيد
٢٧٦	٣	حاضرها	حاضريها
٢٨٧	٨	نفه	نفسه
٢٨٩	١٥	وجـه	وجهه
٢٩١	١٠	يغير	تغير
٢٩٣	١	البروح	النزوح
٣٠٤	٢	اختلف	اختلفت
٣١٨	٢١	احكامهم	احكامهم
٣٢٢	٩	ن	ان
٣٢٥	٢	المسايد	المساند
٣٣٢	١٢	وقعه	واقعه

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٣٣٦	٦	الهييج	الهيج
٣٣٧	٧	الغابرون	الغابرين
٣٤٤	٢٢	ولامثال	ولامثاله
٣٤٨	١٠	ولفرابة	والغرابة
٣٥٦	١٦	حلقته	خلقه
٣٧٦	٥	ظملة	طلة
٣٧٧	١١	لاآن	الآن
٣٨٥	٥	العمودية	المعمودية
٣٨٦	١٨	تشفت	تقف
٣٨٧	١٠	لحزن	الحزن
٣٩٥	٤	الجبال	الجبال
٣٩٦	١٥	التميس	التعس
٤٠٢	١	والبلايا	والبغايا
٤٠٨	١٤	بلادهان	بلادها ان
٤١٧	١٤	خبت	خبث
٤١٨	١٤	بالمشموذ	بالمشعوذ
٤١٩	١	الصلح في قضيه «لولا» والمودة الى أوربة	فخامة مشاهد الجبال
٤١٩	١٤	الهم	له
٤٢٦	٨	رغبتها	رغبتهم
٤٢٦	١٢	التاسعة عشر	التاسعة عشرة
٤٢٧	٦	ليمة	مدينة بن
٤٣٠	٨	ادرس	درس
٤٣١	٥	يعرب	يعزب
٤٣٢	١٨	لقد	فقد
٤٣٣	١٧	حينًا	حينًا
٤٣٦	٥	ان مقادتهم	مقادتهم
٤٣٦	١٧	والتقاويم	والتقاويم
٤٣٦	١٨	تخوم	نجوم
٤٣٧	١	واو	ولو
٤٣٩	١٢	أو	ام
٤٤٠	٢٠	والنهبة	النهبه
٤٤١	١٦	اسشطعت	استطعت
٤٤٤	١١	اترين	ترين
٤٤٧	٢	الانخدع	الانخداع
٤٤٨	١٧	ويجتهدون	ويجتهدن
٤٤٨	١٢	تخويفم	تخويفهم
٤٥٢	٢٢	زردشت	زرووست
٤٦٤	٢٢	فقى	بقى
٤٨٢	٥	ليجثث	لتجتث
٤٨٧	١٩	لله	الله